النجوم الزاهرة
في
ملوك مصر والقاهرة

تأليف

جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي

٨١٣ - ٨٧٤

قدم له وعلق عليه

محمد حسين شمس الدين

دار الكتب العلمية
بيروت

Bibliotheca Alexandrina
0129057

النجوم الزاهرة

في

ملوك مصر والقاهرة

تأليف

جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي

٨١٣ - ٨٧٤

قدم له وعلق عليه

محمد حسين شمس الدين

الجزء الثالث عشر

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت . لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر سلطنة الملك المنصور عبد العزيز[1] على مصر

السلطان الملك المنصور عز الدين عبد العزيز ابن السلطان الملك الظاهر سيف الدين أبي سعيد بَرْقُوق ابن الأمير أَنَص العثمانيّ، سلطان الديار المصرية وهو السلطان السابع والعشرون من ملوك التُّرك بالديار المصرية، والثالث من الجراكسة تسلطن بعهدٍ من أبيه له بعد أخيه الملك الناصر فَرج، وباتفاق الأمراء مِن أعْيان مماليك أبيه، بعدَما اختفى أخوه الملك الناصر فرج ابن الملك الظَّاهر برقوق، بعد عشاء الآخرة من ليلة الإثنين سادس عشرين شَهر ربيع الأول سنة ثمان وثمانمائة، وقد ناهزَ الاحتلام، بعد أنْ حضر الخليفة والقضاة والأعيان من الأمراء وطُلب عبد العزيز مِن الدور السلطانية إلى الإسطبل السلطاني، وبويع بالسلطنة، وفُوّض عليه الخلعة الخليفتية، وركبَ فرسَ النوبة في الفوانيس والشموع، والأمراء مشاةٌ بين يديه حتى طلعَ إلى القصر وجلس على تختِ المُلك، وقبَّلت الأمراء الأرض بين يديه، ولُقِّب بالملك المنصور أبي العز عبد العزيز ودقت البشائر[2] على العادة.

وأصبحَ نوديَ مِن الغد بالأمان والدعاء للسلطان الملك المنصور عبد العزيز. وأمُّ الملك المنصور هذا أم ولد تترية، تُسمَّى قُنُق باي، صارت خَوند بسلطنة ولدها هذا، وعاشت إلى حدود سنة خمسٍ وثلاثين وثمانمائة.

---

(١) ترجمته وأخباره في: السلوك: ٤/١ـ٧؛ وبدائع الزهور: ٣/٣٠٤؛ ونزهة النفوس والأبدان: ٢/٢١٢؛ وإنباء الغمر: ٥/٢٨٧ وما بعدها؛ والضوء اللامع ٤/٢١٧.

(٢) في السلوك: «ولم تدقّ البشائر على العادة، ولا زيّنت القاهرة». ـ وفي بدائع الزهور: «ولم تدق له الكوسات».

ولما تسلطن الملك المنصور هذا في الليلة المذكورة، أصبحَ الناس في هدوء وأمان وتحيَّرت الناسُ في أمر السلطان الملك الناصر فَرَج، ولم يشُكَّ أحدٌ من أن الوالد[١] أخذَه ومَضى إلى البلادِ الشامية؛ لأنه كان عَقدَ على الأخت[٢] قبل تاريخه بمدةٍ يسيرة ولم يدخل بها، فاطمأنّ بذلك قلبُ منْ هو مِن أصحاب الملك الناصر.

وكان مِمَّنْ اختفى بعدَ خروج الوالد مِنْ مصر من أعيان الأمراء، دَمُرداش المحمّديّ نائب حلب، والأمير بَيغوتُ؛ وهمَّ كثير مِن حَواشي الملك الناصر فرج باللحاق بهما إلى البلاد الشامية، لولا أنْ أشاعَ آخرون قَتْلَ الملك الناصر المذكور ثمّ أُشيع بعد ذلك أنه اختفى بالقاهرة وأعرَض أكابرُ الأمراء عنِ الفحص في أخبار الملك الناصر، والتفتيش عليه.

وقامَ بتدْبير مَملكةِ الملك المنصور، القاضي سعدُ الدين إبراهيم بن غُراب، وهو يوم ذاك كاتب سِرٍّ مصر، وصارَ الملكُ المنصور تحت كنف أُمه، ليس له مِنَ السلطنة سِوى مجرد الاسم فقط، وهِيَ كثيرة التخوّف عليه من أخيه الملك الناصر فرج وكانت امتنعت عن سلطنته، وحجَبته عن الأمراء حين طلبوه للسلطنة، حتى أُخذ منها بحيلةٍ، دَبّرُوها عليها واستقرّ الأميرُ بِيبَرْس الصغير لالا[٣] السلطان الملك المنصور.

ثمّ في يوم الخميس تاسع عشرين ربيع الأوّل المذكور، عُمِلت الخدمةُ بالإيوان مِنْ قلعةِ الجبلِ عَلى العادة، وجَلَسَ الملك المنصورُ على تختِ الملك، وحضر الأمراء، والقضاةُ، وسائر أعيان الدّولة.

وخلع الملكُ المنصور على جماعَةٍ كبيرة من الأمراء باستمرارهم على وظَائفهم، وبتجديدِ وظائف أُخر فخلعَ على بيبرس [الكبير] باستقراره أتَابَك

(١) أي الأمير تغري بردي، والد المؤلف.
(٢) وهي فاطمة، كبرى أولاد الأمير تغري بردي.
(٣) اللالا: هو المربّي.

العسَاكر على عَادته، وعلى الأمير آقْباي باستقراره أميرَ سِلاح على عادته، وعلى سُودُون الطيّار باستقراره على عادته أمير مجلس، وعلى سوُدُون تلي المحمَّديّ الأمير آخور باستمراره على عادته، وعلى بَشْباي رأس نَوْبة النوب على عادته، وعلى الأمير أرِسْطاي حـاجبِ الحُجَّاب على عـادته، وعلى سـودون المارْدانيّ الدّوادار الكبير على عادته، وعلى سعد الدِّين بن غُراب على عَادته كاتب السرّ، وعلى أخيه فخر الدين ماجد وزيراً على عادته، وعلى فخر الدين ماجِد بن المزوِّق ناظر الجيش على عادته، وعلى جمال الدِّين يوسف البِيريّ الأستادار على عادته وأنعم بإقطاعات الأمراء المنهزمين، مثل الوالد وغيره، على الأمير إينال باي بن قَجْماس، ومن كان قَدِم من الحبوس.

وأخذ من هذا اليوم أَمرُ يَشْبُك الشَّعبانيّ الدّوَادَار ــ كان ــ ورُفقتُه يَضْعفُ، وأمرُ الأتابَك بِيبَرْس ورفقته يَقوى، حتى صار يَشْبُك والأمراء يطلعون إلى بِيبَرْس ويأكلون على سماطه، وإذا كان لهم حاجةٌ سألوا بِيبَرْس فيها، ولم يعهدوا قبل ذلك لبيبرس في الدولة كلاماً فعزّ ذلك على يَشْبُك وحاشيته إلى الغاية، وندموا على ما وقـع منهم في حقّ الملك الناصر فَرج، وتَساعوا في عوْدِه، ولم يعرفوا للناصر خبراً. كلّ ذلك وسعد الدين بن غراب لا يُعرِّف أحداً بأَمر الملك الناصر فرَج، لكنه يدبِّر في إخراجه، وعوده إلى مُلكه منْ حيْثُ لا يعلم بذلك أحد وأخَذ يدبِّر أيضاً على قَبض إينال بَاي بن قَجْماس في الباطن، فلم يتمّ له ذلك، لكثرة حاشيته وعصبته، واضطراب الدولة، وعَدم اجتماع الكلمة في واحد بعينه.

ثمّ في يوم الأربعاء ثامن عشر شهر ربيـع الآخر، أُفرج عن فتـح الدين فتـح الله كاتب السرّ ــ كان ــ على أنه يَحملُ خمسمائة ألف درهم، ثمنُها يوم ذاك ثلاثة الآف وثلاثة وثلاثون مثقالاً ذهباً وثلث مثقال. كلّ ذلك والدولة غير مستقيمة، وأحوال الناس متوقفة، لترقُّبهم وقوع فتنة غير أنَّ أخبار الناصر لا تظهـر، مـع علمهم أنه مختفٍ بالقاهرة، لما يظهر مِنْ أمر بِيبَرس ورفقته مِنَ الاحتـراز مِنَ الناصر، وإصلاح أمر الملك المنصور عبد العزيز فيما يُثَبِّت به مُلكه.

ثم في حادي عشر جمادى الأولى، توجه الطواشي شاهين الحسنيّ، رأس

نوبة الجمدارِيَّة[١]، ولالا السلطان الملك المنصور، ومعه نحو عشرة أَنفس، إلى البلاد الشامية لإحضار الأمير شيخ المحموديّ الساقي نائب الشام ــ كان ــ إلى الديار المصرية ــ وكانَ يَوم ذاكَ الأمير نَوْرُوز الحافظيُّ وَلّي نِيابة الشام عِوَضاً عن شيخ المذكور، وخرج لقتال شيخ وكسرهَ، وحصرهُ بقلعة الصُّبَيبة[٢] ــ ولإحضار الأمير جَكَم مِنْ[٣] عَوَض نائب حلب. ثمّ ورد كتابُ الأمير شيخ المذكور، وكتابُ جَكم أيضاً إلى الديار المصرية بعد ذلك بعشرة أيام، يخبران بأنهما حاربا الأمير نَوْرُوزاً الحافظيّ وهزماه، وأنه لحقَ بطرابُلُس، وأنهما دخلا دمشق وأقاما بها أياماً. ثم إن جَكَم خرج من دمشق لِقتال نَوْرُوز الحافظي بطرابلس، وتبعه شيخٌ فلما بلغ نوْرُوزاً ذلك خَرَج من طرابلس إلى حَماة ونَزَل جَكمَ وشيخٌ على حمص ثم سارا إلى طرابلس، ففر منها نائبها الأمير بكتمر جلق، فوصل جكم وشيخ إلى طرابلس، وبلغ الأمير عَلّان جِلق نائب حلب نزول نوْرُوز وبكْتَمُر جِلّق إلى حماة، فخرج بعساكره من حلب، وقدم عليهما ووافقهما على قتال جكم وشيخ.

ولما وصل هذا الخبر إلى الديار المصرية، عظم على الأتابك بِيبَرس وحاشيته انهزام نَوْرُوز من جَكم وشَيخ إلى الغاية، وسر بذلك يَشْبُك وحاشيته في الباطن وكثُر قلقُ يشبك وأصحابِهِ منَ الأمراء على الملك الناصر فَرَج، لا سيما

(١) الجمدار هو الذي يتصدّى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه. ورأس نوبة هو الذي يحكم على المماليك السلطانية. وبذلك يكون رأس نوبة الجمدارية هو كبير الجمدارية. وقد تضاف عبارة «رأس نوبة» إلى جهة اختصاص أخرى كأن يقال: رأس نوبة السقاة، أو رأس نوبة الأمراء. وكبير رؤوس النوب كان يقال له: «رأس نوبة النوب»، والأفضل أن يقال رأس رؤوس النوب، على حد تعبير القلقشندي. ــ وانظر فهرس المصطلحات: جمدار ــ رأس نوبة ــ رأس نوبة النوب.

(٢) هي قلعة بانياس ــ راجع فهرس الأماكن.

(٣) كثيراً ما يرد هذا الحرف مقترناً بأسماء المماليك للدلالة على تبعيّة المملوك. فهو يأتي بمعنى «أبن» مثل: جكم من عوض (أعلاه)، أو سودون من عبد الرحمن الظاهري برقوق. وهذا الأخير يعني أن سودون هو أبن عبد الرحمن، وأن عبد الرحمن والده ينتسب إلى الظاهر. ولما كان هنالك أكثر من «ظاهر» فقد أضيف لفظ «برقوق» لتعيين المراد وهو الظاهر برقوق. ويأتي لفظ «من» أيضاً للدلالة على تبعيّة الشخص لسيّده أو أستاذه، مثل: طوخ من تمراز الناصري فرج. كما يدل لفظ «من» أحياناً على تبعيّة الشخص للتاجر الذي جلبه أو باعه أول مرة، مثل: خشقدم من ناصر الدين، نسبة للتاجر ناصر الدين.

لما مرض الملك المنصور عبد العزيز في يوم الثلاثاء أول جمادى الآخرة. فلما رأى سعد الدين إبراهيم بن غُراب أمر يَشْبُك الشعبانيّ في إدبار عزَّ عليه ذلك، لأن يشبك المذكور كان هو الذي أقامه بعد موتِ الملك الظاهر بَرْقوق، وقام بمساعدته أعظم قيام، حتى كان مِنْ أمر ابن غراب ما كان. فعند ذلك أعلمه ابن غراب بأمر الملك الناصر مفصَّلاً، وأنه عنده مقيم من يوم تسحَّب من قلعة الجبل، وقال له: «أيَّ وقت تشتهي الاجتماع به فعلتُ لك ذلك». فسُرَّ يشبك بذلك غاية السرور، وأعلم إخوته وحواشيه بما وقع، وأخذَ منْ يومه في تدبير أمر الملك الناصر فرج، وظهوره وعودِه إلى مُلكه في الباطن، حتى استحكم أمرهم. ووافق ذلك مرض الملك المنصور عبد العزيز، فقَويت حركتهم، وكُثرت القالةُ بين الناس في أمر الملك الناصر وعوده إلى الملك، وتحقَّقَ كلُّ أحد أنه مقيمٌ بالديار المصرية، وصارت أخباره تأتي يَشْبُك وأصحابه مياومة ومساعاةً، هذا بعد أن اجتمع عليه يشبك وغيره من الأمراء في الّليل غير مرة، وواعدوه، وتَرَدَّدوا إليه في أماكن عديدة كلّ ذلك وبيبرس ورفقته لا يعرفون ما الخبر، بل يتحقّقون أنه مقيمٌ بالقاهرة لا غير، وأنّ له عصبية كبيرة من الأمراء، ومع ذلك قلوبهم مطمئنةٌ أنَّ القلعةَ بيدهم والسلطانَ عندهم، وأن الناصر أمرهُ تلاشي واضْمحل.

فلما كان يومُ الجمعةِ رابع جمادى الآخرة من سنة ثمان وثمانمائة المذكورة، سعى المماليك بعضهم إلى بعض، وكثُر هَرجهم، وعادت خيول كثيرة من الربيع، وصاروا يركبون جمعاً كبيراً ويتسارّون بالكلام. وبلغ ذَلك بِيبَرس ورفقته، فأمرهم بِيبَرس وإينال باي بن قَجْماس بالفحص عن أخبارهم فخرَج جماعةٌ كبيرة منهم وداخلوا المماليك المذكورة في كلاِم الناصر، فلم يقفوا له على خَبر، وعُمِّي عليهم جميعُ أحوال الملك الناصر غير أنهم علموا أنّ الملك الناصر يريدُ الظهور والعود إلى المُلْك، فاضطربَ أمرُهم، وحرّضوا بَعضهم بَعضاً على قتاله إن خرج وتهيأوا لذلك، وحصنوا القلعة، وطلبوا جماعةً كبيرة من المماليك السلطانية، ووعدوهم بالأمريّات والإقطاعات والوظائف، وحذروهم مِنْ عود الملك الناصر إلى المُلك، أنه لا يُبقي على أحد منهم، وتواصوا على القيام مع الملك المنصور عبد العزيز وإتمام أمره، كلّ ذلك وأحوالهم مفلولة، لعدم أهلية بيبرس

بتنفيذ الأمور، ومعرفة الحروب، والقيام بأعباء الملك، لانهماكه في اللذات، ولانعكافه على اللهو والطرب عمرَه كلَّه، لا يميل لغير ذلك ومنذ مات خاله الملكُ الظاهر برقُوق لم يدخل بنفسه في أمر غير هذا المعنى المذكور، ولسان حاله ينشد ويقول: [موشَّح].

خلِّي الملوك تسطو بالمُلك والسلاح إني قنعت منهم بالراح والملاح

قلت: وليته دامَ على ما كان عليه مِنْ لهوه وَطربه، ولم يدخل بنفسه في هذه المضايق التي ذهبت فيها روحه، وأما رفيقه إينَال باي فإنه كانَ فيه طَيْشٌ وخفةٌ مع عدم تدبير ومعرفة وأيضاً لو علم ذلك كله، لم يكن أهلاً إلى القيام بمثل هذا الأمر، مع وجودِ مَن هو أعظم منه في النفوس، وأكبر منه قدراً، وهم جماعة كبيرة فلهذا كله لم ينتج أمرهم، وزال ملكُ الملِكِ المنصور عبد العزيز بعد ما كان تمّ أمره، وقطعَ الناصر آماله من المُلْك.

واستمر الأمرُ على ذلك، وباتوا ليلة السبت المذكورة، والحالُ على ما هو عليه، إلى أنْ كانَ نصفُ الليل، فخرج الملك الناصرُ فرج بن بَرقوق مِن بيتِ القاضي سعد الدين إبراهيم بن غراب، كاتب السرّ، في جماعةٍ كبيرة، من غير تسترّ، بَلْ في مَوكب عظيم سلطانيّ، ومضى بعساكِره إلى بَيت الأمير سودُون الحمزاويّ ونزلَ بهِ، وأرسل استدعى الأمراءَ والمماليك السلطانية وتسامعت به الناس، فأتوه مِنْ كلّ فج بالسلاح وآلة الحرب ثُم لبس الملك الناصر سلاَحهُ وركبَ في أمرائه وعساكره، وقصدَ قلعة الجبل، وقد استعدّ بيبرْس وإينال وغيرهما مِنَ الأمراء الذين بالقلعة لِقتاله، وحصَّنوا القلعةَ. فلما حضر إليها الملكُ الناصِر فَرَج بعساكره ناوَشوه بالقتال، ورموا عليه، وتقاتل الفريقان قتالاً ليس بذاك(١). فلما رأَى الملكُ الناصر أمر أهل القلعة مفلولاً، توجّهَ إلى نحو باب القلعة، وكانَ به الأمير صوماي الحسنيّ الظاهريّ ــ رأس نوبة ــ قد وُكِّل بباب المدرّج(٢).

(١) مراده أنهم تقاتلوا قتالاً غير شديد. وعبارته المعتادة بهذا الصدد أن يقول: «وتقاتلوا قتالاً هيّناً».
(٢) باب المدرج: هو باب القلعة المواجه للقاهرة، وهو بابها الأعظم. ويقع في الحائط الغربي للقسم =

فعندما رأى صوماي الملكَ الناصر فتحَ له باب القلعة، فطلع منه الملكُ الناصر بأُمرائه، وملكَ القلعةَ، وجلس بالقصر السلطاني. هذا وبِيبَرس وإينال باي يقاتلان أمراء السلطان منْ باب[1] السلسلة منَ الإسطبل السلطاني.

فبينما هم في ذلك، وإذا بالرمي عليهم مِن القصْر، فالتفتوا وإذا بالناصر جالسٌ بالقصر السلطاني، فلم يثبت بِيبَرس عند ذلك ساعة واحدة، وانهزم منْ وقته، ونَزل بمنْ معه فارًّا إلى خارج القاهرة. فأرسل السلطانُ في أثره الأمير سودون الطيَّار ــ أمير مجلس ــ في جماعة، فأدركه خارج القاهرة، فلم يدفع عن نفسه، فقبضَ عليه سودون الطيَّار، وأتى به إلى الملك الناصر، فَقُيِّد في الحال، وأُرسل إلى الإسكندرية، فسُجن بها واختفى إينال باي، وسودون المارْدانيّ.

وطلبَ السلطانُ الملكُ الناصرُ فَرج أخاه السلطان الملكَ المنصور عبد العزيز، وطيَّب خاطره، وأرسله إلى أُمه بالدُّور السلطانيَّة.

وتم أمر الملك الناصر، وأعيد إلى مُلكه بعد أن خُلعَ مِن الملكِ هذه المدة وزال مُلك الملكِ المنصور كأنه لم يكن فكانت مدَّةُ سلطنةِ الملكِ المنصور عبد العزيز المذكور عَلى مصر شهرين وعشرة أيام، ليس له فيها إلا مجرد الاسم لا غير، وأقام [المنصور] عند أمه بالدور السلطانية مِنْ قلعة الجبل إلى أن أخرجه أخوه الملك الناصر فرج إلى ثغر الإسكندرية، ومعه أخوه إبراهيم ابن الملك الظاهر بَرْقوق، صُحْبة الأمير قُطْلوبُغا الحسنيّ الكركيّ، والأمير إينال حطب العلائي، في حادي عشرين صفر من سنة تسع وثمانمائة المذكورة فأقام الملكُ المنصورُ عبدُ العزيز المذكور وأخوه إبراهيم بالإسكندرية مدةً يسيرةً، ومرضا معاً،

= البحري من قلعة القاهرة. وكان يوصل مباشرة إلى الدركاه ــ أي الحوش ــ التي ينتظر فيها الأمراء الإذن بالدخول على السلطان، كما يوصل إلى دار النيابة التي يقيم فيها نائب الغيبة. وبداخل هذا الباب كان يجلس والي القلعة (انظر صبح الأعشى: ٣/٣٧٤، وخطط المقريزي: ٢/٢٠٤).

(١) باب السلسلة: هو باب القلعة ا‍ اا حالياً. بميدان صلاح الدين. وعرف قديماً بباب الإسطبل وباب الإنكشارية ثم باب العرب. (راجع فهرس الأماكن).

فمات الملكُ المنصور هذا في ليلة الاثنين سابع شهر ربيع الآخر من سنة تسع وثمانمائة المذكورة بعد أن لزم الفراش واحداً وعشرين يوماً، ومات أخوه إبراهيم بعده في ليلته، فاتهم الملك الناصرُ أنه أمرَ باغتيالهما بالسُّم قبل سفره إلى الشام ـ حسبما يأتي ذكره.

قُلتُ: لا يبعد ذلك مِنْ وجوهٍ عديدةٍ ليس لإبدائها محل ـ والله أعلم.

ذكر سلطنة الملك الناصر فرج الثانية على مصر

ولما كانَ صبيحة يوم السبت خامس جُمادى الآخرة، طلـع الملكُ الناصرُ فرَج إلى قلعة الجبل وملكها، وقبَض على الأتابَك بيبَرْس ، ثم على من يأتي ذكره ثم طلب الخليفة والقضاة فحضروا وجُدِّدتْ له بيعةُ السَّلطنة ثانياً، وثبَّتَ خَلـع الملك المنصور عبد العزيز، وتسلطن وعـاد إلى مُلك مصر وَخلـعَ على الخليفةِ والقضاة، وتَمَّ أَمرُه، وانفضّ الموكبُ، ونزَل الجميـعُ إلى دورهـم، وسَكن أمرُ الناس.

فلما كانَ يوم الاثنين سابـع جمادى الآخرة المذكورة، خَلـع السلطان على الأمير يَشْبُك الشَّعبانيّ الظاهريّ الدَّوادار ــ كانَ ــ باستقراره أتابك العساكر بالديار المصرية، عوضاً عن بِيبَرْس ابن أُختِ السُّلطان الملك الظاهر بَرْقوق، وخلـعَ على الأمير سودون الحمزاويّ الظاهريّ باستقراره دواداراً كبيراً، عوضاً عن سودون المارداني وعلى الأمير جركس القاسمي المصارع باستقراره أميرَ آخور كبيراً، عوضاً عن سودُون تَلي المحمديّ ثم أَمسكَ السلطانُ الأمير جَارقُطْلو ــ رأس نوبة ــ وقاني بَاي ــ أمير آخور ــ وآقبغا ــ رأس نوبة ــ والثلاثةُ أمراء عشروات، وأَمسك بُرْدبَك وصَمْغار ــ رأس نوبة ــ أحد أمراء الطبلخانات ثم خلـع على القاضي سعد الدين إبراهيم ابن غراب، واستقر رأس[1] مشورة، وأنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف بالدّيار

(١) رأس المشورة: هو كبير أمراء المشورة، وهم الأمراء الكبار السن وكانوا يجلسون في الاحتفالات الرسمية على بعد خمسة عشر ذراعاً على اليمين وعلى اليسار من مجلس السلطان، ويؤخذ رأيهم فيما يتطلب المشورة (صبح الأعشى: ٤٠ : ٤٤، ٥ : ٤٥٥).

المصريّة، وصار أميراً بعدما كان مُباشراً[١]، ولبس الكَلْفَتّاه[٢]، وتقلّد بالسيف ـ وكان في أمسه قد ركب مع السلطان الملك الناصر بقَرْقَل[٣] وعليه آلة الحرب كاملًا، وصار بعدُ مِنْ جملة المقاتلين، وتزيّا بزيّ الأتراك ـ وطلَع إلى الخدمة مِن جُملة الأمراء، ثمَّ نزل إلى داره بقماشِ الموكب ـ على عادة الأمراء ـ فلم يركب بعدها، وَلزِمَ الفراشَ حتى مات، حسبما يأتي ذكره في محله.

وخَلع السلطانُ على فخر الدين ماجد بن المزوّق ـ ناظر الجيش ـ باستقراره في كِتابة السرّ، عوضاً عن سعد الدين بن غُراب المذكور، بحكم انتقاله إلى إمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصريَّة ثم أَمر السلطان فكُتِب بتقْلِيدِ الأمير شيخ المحموديّ باستقرارِهِ في نيابة دِمَشْق على عادته، عوضاً عن الأمير نَوْرُوز الحافظيّ، وأن يتوجّه نوْرُوز المذكور إلى القُدْس بطّالًا، وحَمل التقليد والتّشريف إلى الأمير شيخٍ الأميرُ إينال المنْقَار شادّ الشّراب خاناه وكُتب بتقليد الأمير جَكَم بنيابة حَلب عوضاً عن علّان، وحمل إليه التقليد والتشريف سودُونُ الساقي وكتب الأمير دمرداش المحمدي نائب حلب ـ كانَ ـ بالحضور إلى مصر ثم قَبَضَ السلْطانُ الملك الناصر على سُودُون المحمّدي المعروف بتلي الأمير آخور الكبير، وأُخرج إلى دمشق على إقطاع الأمير سُودُون اليوسفيّ ثمّ خلع السلطانُ على الأمير سُودُون من زادة باستِقْرَارِهِ في نيابة غزّة عِوضاً عن سَلامُش.

ثمّ في حادي عشرين جُمادَى الآخرة المذكورة، خَلَع السّلطانُ على الأمير

---

(١) المباشر: والجمع مباشرون، وهم موظفون في الدواوين كديوان الخاص، وفي الأعمال كعمل الجيزة والبحيرة، وغير ذلك كالإقطاع. ومنهم الناظر والمستوفي والشادّ، ويعيّنهم ناظر الخاص. (صبح الأعشى: ٣/٤٥١ ـ ٤٦٠، ٤/٢٩).

(٢) الكلفتّاه، والكلفتّة، والكلفة: هي الكلونة، غطاء للرأس يلبس بعمامة أو بغير عمامة ـ راجع فهرس المصطلحات.

(٣) القَرْقَل: الدرع تصنع من صفائح الحديد المغشاة بالديباج الأصفر والأحمر. (صبح الأعشى: ٢/١٤٣، ٤/١١). ويجمع على قرقلات.

والقرقل في الأصل قميص بلا كمّين، مرادف «العِلْقة»، وهو القرقر باللهجة العراقية. (معجم متن اللغة: ١/٩٥، جدول بما عرّبه المؤلف الشيخ أحمد رضا).

تِمراز الناصريّ باستِقْرَارِهِ نائب السَّلْطنة الشّريفة بالدِّيار المصرية، وكانت شاغِرةً سنين عديدة، من يوم تركها سودُون الفخريّ الشيخونيّ، في دولة الملك الظاهر برقوق، وخَلع على الأمير آقْبَاي أمير سلاح، واستقر رأس نوبة الأمراء، واستقر سُودُون الطَّيَّار أمير سلاح عِوَضاً عن آقْباي المذكور، واستقرّ يَلْبُغا الناصريّ أمير مجلس عوضاً عن سودُون الطّيّار.

وأما البلاد الشّاميّة، فإنه لمّا بلغ أعيان الأمراء بها عودُ الملك الناصر فرَج إلى مُلكه، وتَوْلِية شَيْخ ثانياً نيابة دِمَشْق عِوَضاً عن نَوْرُوز، فرحوا بذلك فرحاً عظيماً، ودُقّت البشائر لذلك أياماً وخرج نَوْرُوز الحَافظِيّ، وعلّان جِلّق من حَماة، وتوجّها إلى حَلَب بِمَنْ معهما. وكان الأمير دَمُرْداش المحمّديّ قد فَرّ منها، وتوجّه إلى بلاد التّركمان، فمضَيَا إليه، ثم فارَقَاه وعادا إلى جهةٍ أُخرى حسبما يأتي ذكره وأقام بحلب الأمير دُقْمَاقُ المحمّديّ فلما قدمَ جَكم إلى حَلَب امتنع دُقْماق بحلب، وقاتلهُ وانكسر، وأُخذ دُقْماقُ وقُتل بين يَدَيْ جَكم صَبْراً ـ على ما يأتي ذكرُه في محلّه.

وأما السّلطانُ الملكُ الناصر فَرَجُ، فإنه لمّا كانَ يوم الخميس رابع شَهْر رَجَب، قَبَضَ على الأمير أُزْبك الرَّمضانيّ، وقيّده وبَعَثَهُ إلى الإسكندرية فسُجنَ بها ثم ورَدَ عليهِ الخبرُ بأنَّ الأميرَ جَكَم سَارَ إلى حَلَبَ ومعهُ الأميرُ شيخٌ نائب الشام، ونَوْرُوز بحَلَب، فلمّا وَصَلاَ إلى المَعَرَّة كَتَبَ إليهما نَوْرُوز يعتذر بأنّه لم يعلم بولاية الأمير جَكم لحلَب، وخَرج بمنْ معه منها إلى البرِّيّة، فدخَل جَكَم حَلَبَ من غيرِ قتال، وعاد شيخُ إلى الشّام فلما بلغَ السلطانَ ذلك كتبَ إلى الأمير جَكَم بنيابة طرابُلس مُضَافاً على ما بيده من نيابة حلَب بمثالٍ سُلطانيّ مِنْ غير تقليد، وتوجّه بالمثال الأمير مُغلباي وكتب إلى نَوْرُوز بالحضور إلى القُدس ـ بطّالاً ـ كما كتب له أولاً وكتبَ إلى الأمير بَكْتَمُر[1] جِلّق نائب طَرابُلس بأن يكون أميراً كبيراً بدمشق.

وأمّا جَكَم فإنّه لمّا استقرّ بِحَلَب ما زالَ يكاتبُ نَوْرُوزاً وعَلّان [جِلّق] حتى

---

(١) في السلوك: «شِلّق». وكلاهما صحيح، إذ أن الجيم في «جلّق» تلفظ مشربة بالشين.

قَدِما عليه، فأكرمهما وصارا مِنْ جُملة أَصْحَابه ثُمّ وَقَعَ له مع شيخ وغيره أمور نذكرها في محلّها.

وفي يوم الاثنين أول شعبان، استَدْعَى السّلطانُ الملكُ الناصرُ أبا الفضل العبّاس وَلد الخليفةِ المتوكل على الله أبي عبد الله محمد، وَبايعهُ بالخلافة بعد مَوْت أَبيه المذكور ولَبس [العبّاس] التّشريفَ، ولُقّب بالمستعين بالله، ونَزلَ إلى داره. وكانت وفاةُ المتوكل على الله في سابع عشرين شهر رجب.

ثمّ كَتَبَ السّلطانُ باستقرار الأمير طولُو مِنْ(١) عليّ باشاه في نِيابَة صفَد عِوضاً عن بَكْتَمُر الرُّكْنِيّ، المعروف بَكْتَمُر باطيا(٢)، وَجَهّزَ تشريفَ طُولُو على يد الأمير آقبردِي رأس نوبة.

وكتب بإْستقرار الأمير دَمُرْداش المحمّديّ في نيابة حماَة.

ثم وَرَدَ الخبرُ بوصول الأمير عَلاّن جِلّق إلى دِمشق مُفارِقاً لحَكَم نائب حَلَب.

ومات سَعدُ الدين إبراهيم بن غراب في يوم الخميس تاسع عشر شهر رمضان ــ كما سيأتي ذكْرُه في الوفيات.

ثم أَمسك السلطانُ الأميرَ إينالَ الأشْقر وأرسلَه إلى سجن الإسكندرية لأمرٍ بَلَغه عنه.

ثمّ في أواخر شهر رمضان قُبضَ على الأمير سودُون المَارْدَانيّ مِنْ بَيتٍ بالقاهرة، فقيّد وحُملَ إلى سِجن الإسكندرية.

ثمّ كتبَ السلطانُ أَماناً لكلٍّ من جُمَق، وأسَنْبَاي، وأَرْغز، وسودُون اليُوسُفيّ، وبَرْسبَاي الدُّقْماقيّ، أعني الملكَ الأشرف، وجهّزه إليهم بالشام.

---

(١) في بعض الأصول: «بن».

(٢) في بعض الأصول: «باطية».

ثمّ قبضَ السلطانُ على الوزير فخر الدين ماجد بن غُراب في سابع ذي القعدة، وسَلّمه إلى جمال الدين يوسف البيريّ الأسْتَادار.

ثم كتبَ السلطانُ إلى الأمير نَوْرُوز الحافِظيّ ــ وهو عند جَكم بحلَب ــ أنه قد قدمت مُكاتبةُ السلطان له أنّه يتوجّه إلى القُدْس بطّالا، وأنه أيضاً ساعةَ وصولِ هذا المرْسُوم إليه يَحْضُر إلى الدّيار المصريّة، فلم يلْتفت جَكم إلى مَرْسوم السلطان، ونهَر القاصدَ، وخشّن له في الكلام.

ثمّ في سابع من ذي الحجّة، خَلَعَ السلطانُ على القاضي فتح الدين فتح الله بإعادته إلى وظيفة كتابة السّر، بعد عزل فخر الدين بن المزوِّق عنها ثم أفْرجَ السّلطان عَنْ فخر الدين بن غُراب، وخَلَعَ عليه، واستَقرّ وزيراً ومُشيراً ونَاظِرَ الخاص ــ وعلى عادته أوّلاً ــ بعد أن حمل عشرين ألف دينار.

وكان في هذه السّنة ــ أعني سنة ثمان [وثمانمائة] ــ الطاعون العظيم بصعيد مِصر، حَتى شملَ الخرابُ غالبَ بلاد الصعيد.

ثمّ بَلغَ السّلطان أنّ جَكم مِنْ عَوَض نائب حَلَب قد عظُم أمرُه، وأنه قد بَدَا منه أمورٌ تدلّ على المخالفة، فكتَبَ السّلطانُ بعزْلِهِ عن نيابة حَلَب وطَرابُلس، وولاية الأمير دَمُرْدَاش نيابة حلَب عِوضَه، وتَوْلِيَةِ الأمير علاّن اليحيَاويّ [جِلّق] نيابةَ طرَابلس عِوضه، وتولية الأمير عمر الهيْذُبانيّ نيابة حمَاة، وتوجَّه بتقاليدهم ألْطُنْبُغا شَقَل مملوكُ الأمير شيخ المحموديّ نائب الشام، ولم يُرسل السلطانُ إليهم أحداً من أمراء مِصر لضعف حالهم وعدم موْجودِهم(١) وقَبْل أن يَصل إليهم الخبرُ بذلك اقْتتلَ الأميرُ شيخٌ مع الأمير جَكَم بأرض الرَّستَن ــ فيما بين حمَاة وحمص ــ في

(١) هذه إشارة إلى خلل في رسوم التشريف والتقليد. وهذا الخلل نابع عن مزاج السلطان الذي يتحكّم فيه الوضع المادي لصاحب الولاية أو الوظيفة. وقد بات كثير من الولايات والوظائف الكبرى يولىَّ بالبذل (البرطيل)، كما أن السلطان نفسه لم يعد يتورّع عن قبض الأموال مقابل تولية كبار الموظفين مثل الوزير والمشير وناظر الخاص، كما رأينا قبل قليل في ولاية فخر الدين بن غراب، وكما حصل مع سعد الدين بن غراب (انظر أخبار سنة ٨١٥هـ من هذا الجزء). ولسوف يزداد الفساد وتعمّ الرشوة جميع مراتب الدولة حتى تصل إلى ولاية القضاء. ويكفي أن نشير بهذا الصدد إلى ما أورده المؤلف على لسان السلطان قايتباي.

خامس من ذي الحجة قتالاً عظيماً، قُتل فيه الأميرُ علّان اليحيَاويّ جِلَّق، والأمير طولُو مِنْ عليّ باشاه نائِب صفَدَ، وجماعةٌ كبيرة في الواقعة. وأما عَلّان وطولُو فإنه قُبض عليهما فقُدّما بين يدي الأمير جَكَم، فأَمرَ بضرب رقابهما، فضربت أعناقُهما بين يديه، وضُرب عُنقُ طواشيّ كان في خِدمةِ الأمير شيْخ معهما.

قلتُ: وهذا ثالثُ أمِير قَتَله الأمير جَكَم مِنْ أعيان الملوك مِن خُشْدَاشِيّته في هذه السنة ــ أعني: دُقْماَق المحمّدي نائبَ حَلَب، وعلّان هذا نائب حلَب أيضاً، وطولو نائب صَفَد ــ انتهى.

وانهزم الأميرُ شيخ المحموديّ نائِبُ الشام ومعه الأميرُ دَمُرْداش نائب حلَبَ إلى دمشق، فلم يقدِر شيخٌ على الإقامة بدِمشق خوفاً من نَوْرُوز الحافظيّ، وخَرَجَ مِنْ دِمَشْق ومضَى إلى الرَّمْلة يُريدُ القُدُوم إلى القاهرة ودخل نورُوز إلى دمشق، وملكَ المدينة من جهة جَكَمَ بعساكرِه في يوم الاثنين سابع عشرين ذي الحجة المذكورة ثمَّ دخَل جَكَم دمشْق بعده في يوم الخميس سلخ ذي الحجة ونادى جَكَم في دمشْق بالأمان، وَأنه لا يشوِّشُ أحدٌ على أحد وكان جَكَم قد شَنق رُجلاً من عسكَره بحلَب، كونه رَعى فرَسه زَرْعاً، وشنق آخرَ على شيء وقع منه في حقِّ بعض الرعيّة؛ ثم لما قدم دمشق شنق بها أيضاً جندياً بعد المنَادَاة على شيء مِنْ ذلك، فخافته عساكرِه وانكَفّوا عن مظالم الناس، وعَنْ شُرْب الخمر، حتى لهجت النّاس بقولهم: «جَكَم حكَم وما ظلم». وعظم أمر جَكم بالبلاد الشامية إلى الغاية.

= (٨٧٢ ــ ٩٠١هـ) عندما عزل قاضي قضاة الشافعية بدر الدين أبي السعادات البلقيني في أول سنة من سلطنته، ورفضه لجميع المرشحين لهذه الوظيفة بقوله: «أريد قاضياً أوليه من غير رشوة». (حوادث الدهور: ٥٣٣). كما يشير أبو المحاسن إلى فساد القضاء في أثناء ترجمته للأمير الكبير جارقطلو المتوفى سنة ٨٣٧هـ، وينقل عن جارقطلو قوله لقاضي القضاة بدر الدين العيني المؤرخ المشهور: «يا قاضي، ما تذكر إلّا شربة الخمر وتبالغ في حقّهم بأنواع العذاب! ليش ما تذكر القضاة وأخذهم الرشوة والبراطيل وأموال الأيتام! يقول ذلك بحدّة وانحراف. فلما يسمع الملك الأشرف برسباي كلامه يضحك وينبسط هو وجميع أمرائه» (النجوم الزاهرة: ٦/٨٣١ ــ ٨٣٢ طبعة كاليفورنيا).

ولما بَلغَ خبرُ هذه الواقعة المصريين[١] خَارت قُوَاهم وتخوّفُوا مِنْ جَكَم وخرَجَ البريدُ من يومه يطلبُ الأمير تغْرِي بَرْدِي ــ أعني الوالد ــ مِنْ برِّيّة القُدْس، فحضر إلى القاهرة، وجلسَ رأس الميْسَرَةِ، بعد أن بَنى السلطانُ على ابنته ــ كريمةِ مؤلف هذا الكتاب.

ثم جهّز السلطانُ تشريفاً للأمير شَيْخ في حادي عشَر المحرم مِنْ سنة تِسْعٍ وثمانمائة بنيابة الشام على عادته، وأمدَّه بمالٍ وسلاحٍ؛ وقَبْلَ خُروج القاصد إليه قَدمَ الخبرُ بوصول شيْخ المذكور إلى مدينة بُلْبَيس، فخَرجَ إليهِ المطبخُ السّلطانيّ وتلقّته الأمراء.

ثم قبضَ السلطانُ على الأمير كُزُل العَجَميّ حاجب الحجاب ــ وكان أمير حاجّ المحمل ــ لما فعلهُ مَع الحُجّاج في هذه السّنة؛ فإنه أخذَ مِن الحاج على كلّ جمل دِيناراً، وباعهم الماء الذي يردونه، فصادرهُ السلطانُ وأخذ منه نحو المائتي ألف درهم، ففر في سلخه[٢]، فأخذ له حاصل كبير أيضاً.

وأما جَكَم، فإنّه أقام بدمشق مُدةً وقرَّرَ أمُورَها، وجَعَلَ على نيابتهَا الأمير نوْرُوزاً الحافظي، وكانَ الأميرُ سودُون تلّي المحمّدي الأمير آخور ــ كان ــ في سجن الأمير شيْخ، ففرَّ منه ولحقَ بالأمير نَوْرُوز الحافظيّ.

ثم وَردَ الخَبُر مِنْ قُضاة حَمَاة أنه سُمِع طائرٌ يقول: «اللهمّ انصر جَكَم» وهذا مِنْ غريب الاتّفاق. هذا والناس في جهد وبلاء من غُلوّ الأسعار بالديار المصرية، لا سيّما لحم الضأن والبقر وغيره، فإنه عَزّ وجودُه البتة.

ثم خرج الأمير الكبير يَشْبُك الشَّعْبَانيّ وغالب الأمراء إلى ملاقاة شيخ ودَمُرْدَاش، ومعهما خيربك نائب غزّة، وألُطُنْبُغَا العثماني حاجب حجّاب دمشق، ويونس الحافظيّ نائب حماة ــ كان ــ وسودُون الظريف نائب الكرك ــ كانَ ــ

(١) المراد بذلك: الأمراء بالديار المصرية.

(٢) أي سلخ المحرّم.

وتنكِزْبغا الحَطِطِيّ في آخرين وطلع الجميع إلى القلعة، وقبّلوا الأرضَ بين يدي السلطان، فأكرمهم السلطان غايةَ الإكرام، ثم نزلوا إلى القاهرة وعقيب ذلك وردَ الخبر بأخذ عسكر جَكَم مدينة صفد، والكَرَك، والصُّبيْبَة وغيرها.

ثمَّ في سادس صفر من سنة تسع وثمانمائة المذكورة، خلعَ السّلطانُ على الأمير شيخ المحموديّ بنيابة الشام على عادته، وعلى الأمير دَمُرْدَاش بنيابة حلب على عادته وأخذ السّلطانُ في تجهيزِ أَمْرِ السَّفر إلى البلاد الشّامِية.

ثم في حادي عشرين صفر من سنةِ تسع المذكورة، حمّل السلطانُ الملكُ الناصرُ أخاهُ الملك المنصورَ عبد العزيز، وأخاه إبراهيم ــ ابني الملكِ الظاهر برْقوق ــ إلى سجن الإسكندرية صُحبة الأمير قُطْلُوبُغا الكَركيّ، والأمير إينال حطب العلائيّ، ورسم لهما أن يُقيما باسكندريّة عندهما؛ وقدْ تقدَّم ذكر ذلك في أواخر ترجمة الملك المنْصُور عبد العزيز.

ثمَّ أَنْعَمَ السّلطانُ على الأمير شيخ بأشياء كثيرة، فتجهّز شيخُ المذكور وخرجَ من الديار المصرية في يوم الإثنين أول شهر ربيع الأول وخَلَع السلطانُ على الأمير دَمُرْدَاش المحمّديّ نائب حَلَب أيضاً خِلْعَة السَّفر، وخَرَجَ صُحبة الأمير شَيْخ، وتوجّها بجماعتهما ونـزلا بالـرَّيْدانيّـة[1]. ثم لحقَ بهما الأميـرُ سودُون الحمزاويّ، الدوادار الكبير، والأمير سُودُون الطَّيَّار أميرُ سلاح بطُلْبهما[2] ومماليكهما وهؤلاء كالجاليش[3]. وأقام الجميعُ بالرّيدانيّة إلى أنْ رَحَلُوا منها وبعد رحيلهم نزل السّلطانُ بعساكره وأمرائه منْ قلعة الجبل، ونزل بمخيَّمه من الـرّيْدَانيّـة خارج القاهرة، في ثامن شهر ربيع الأول المذكور من سنة تسع وثمانمائة. وهـذه تجريدةُ الملك النَّاصر الثالثة إلى البلاد الشّامية، فإنَّ الأولى كانتْ في سَنة اثنتين لِقِتالِ تَنَم، والثانية في سَنة ثلاث لقتال تيمُور لنك، وهذه الثالثة.

(١) راجع فهرس الأماكن.

(٢) الطُّلْب: يجمع على أطلاب. وهو عبارة عن فرقة من المماليك خاصة بكل أمير. وكان للسلطان أيضاً طلبه الخاص. ــ راجع فهرس المصطلحات.

(٣) الجاليش هنا بمعنى مقدمة الجيش أو الطليعة التي تتقدّمه. ــ راجع فهرس المصطلحات.

وأقام السلطانُ بالرّيدانيّة إلى يوم ثاني عشر شهر ربيع الأول، فرحلَ مِنها بعساكره إلى جهة الشّام، بعد أن خَلَع على الأمير تِمْرَاز الناصريّ نائب السلطنة الشّريفة بالديار المصرية باستقراره أيضاً في نيابة الغَيْبَة[١] بالقاهرة، وأَنْزَلَ السلطانُ بقلعة الجبلِ جماعةً أُخْرى مِنَ الأمراء ممن يَثِقُ بهم، وكذلك بالقاهرة.

قالَ المقْريزيّ ـ رحمه الله: ولم يُحْمَدْ رَحِيلُ السّلطان الملكِ النّاصر مِن الرّيدانيَّة في يوم الجمعة، فقد نُقل عن الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ أنه قال: «ما سافر أحدٌ يوم الجمعة إلاّ رأى ما يكره».

وسار السلطان بعساكره حتى دخل دِمشق في يوم الإثنين سابع شهر ربيع الآخر من السنة بتَجَمُّل عظيم، ونزل بدار السّعادة[٢] بعد أن زُيّنتْ له دمشق فأقام بدمشق إلى يوم سابع عشرِهِ، فرَحل مِنْ دمشق بعساكره يُريد حلب، وسار حتى دخل حَلَب في يوم سادس عِشْرينِه، وقدْ فرَّ منها جَكَم وعدَّى الفُرَات خوفاً مِنَ الملكِ النّاصر فَرَج، ومعه الأمير نوْرُوز الحافظيّ وتَمُرْبُغَا المشْطُوب، في جماعة أُخر. فنزل السلطان بالقلعة من حَلب، وبَعَث بجماعةٍ في طلب جَكَم ورُفقته، فتوجّهوا في أثَرِه، ثمَّ عَادوا بعد أيام بغير طائل.

وخَرج السّلطان من حلب عائداً إلى الدّيار المصريّة يُريد الشّام في أوّل جمادى الآخرة، بعد ما ولّى الأميرَ جَرْكَس القاسميّ المصارع الأمير آخور الكبير نيابَةَ حَلَب عِوَضاً عن جَكَم مِنْ عَوَض، وَوَلّى الأمير سودُون بُقْجَة نيابة طَرابُلس. وجدّ السلطانُ في سيره بعد خروجه مِنْ حَلَب حتى قَدِمَ دمشق في خامس جُمادى الآخرة. وبعد خُروج السلطان مِنْ حَلَب بيوم ثارت طائفةٌ من المماليك ومعهم عامَّة حلَب على جَرْكَس المُصَارع ثمّ قَدِم الأميرُ نوْرُوز الحافظيّ إلى نحو حلب،

---

(١) نائب الغيبة: هو الذي ينوب عن السلطان وقت غيبته عن القاهرة، وله حرية التصرف في الحكم. وترتيبه بعد النائب الكافل. (صبح الأعشى: ٤/١٧) ـ وكان لنائب الشام أيضاً من ينوب عنه وقت غيبته، ويسمى أيضاً نائب الغيبة.

(٢) دار السعادة: هي دار الحكومة ومقر نائب الشام.

ففر منها جَرْكس المصارع يُريدُ دمشق، ونوْرُوز في أثره، فعثر نورُوزٌ بخام(١) الملكِ النَّاصر ـ وكان تخلّف عن السّلطان لسرعة سَيرِ السّلطان ـ فقطعهُ نوروز ووقـع النهب فيه ولحق الأمير جَرْكسُ السلطان ودَخل معه دِمشق، فنزل السّلطان في دار السعادة، ونادى بالإقامة في دِمشْق شهرين. وكان الأتَابَك يَشْبُك الشّعبانيّ قدم دمشق، وهومُتمرّضٌ في أمْسِه، ومعه الأميرُ دَمُرْداش المحّمديّ، وَبشباي رأس نوبة النُوب وَوَرَد الخبر على السّلطان بنزول نَوْروز على حَمَاة، وبقُدُوم جَكَم إلى حَلَب.

فلمَّا بلـغ السُّلطان ذلك خَرَج منْ دمشْق في يوم الأحد سادس عشر جمادى الآخرة، بعد ما أمرَ العسكر أنّ منْ كان فرسه عاجزاً فليتوجّه إلى القاهرة، وألاّ يَتْبَـع السلطان إلاّ من كان قوياً. فتسَارَعَ أكثر العسكر إلى العوْدِ لجهة الـديار المصريّة، ولـم يتبـع السّلطانَ منْ عسكره إلا القليل. وسارَ الملِكُ النَّاصرُ حتى وصل إلى منْزِلة قَارَا ثمَّ عَادَ مُجدًّا فدخل دمشق، وقدْ تمزّق عسكره. وتأخّر جماعةٌ كبيرةٌ من الأمراء مـع شيْـخ نائب الشّام، ثم قَدِمُوا دِمشْق.

ثم خرج الأميرُ شيْـخٌ في ثالث عشرينه من دِمشْق ومعه دَمُرْداش المحمّديّ، وألْطُنْبُغَا العثمانيّ في عدّة من الأمَراء إلى جهة صفَدَ وسار السّلطان ويَشْبُك، ومعهما جميعُ الأمراء إلى جهة مصر، فدخَل السلطانُ إلى القُدْس، وقد تَخَلَّف عنه الأميرُ سودُون الحمزاويُّ الـدّوادار الكبير بـدِمشْق، ومعه عِـدَّةٌ من الأمَراءِ مُغَاضِبين للسّلطان لأمرٍ اقتضى ذلك. ثُمَّ خرج الحمزاويُّ من دمشْق يريد صَفَد، وأخذ كثيراً من الأثقال السّلطانيّة واستولى على صَفَد.

وأما نَوْرُوز فإنه جهَّزَ عسكراً عليهم الأمير سودُون تِلّي المحمّديّ، وَأُزْبك الدّوَادار في آخرين، فساروا إلى جهة الرَّمْلَة. ثمّ قَدِم على الأمير نَوْرُوز الحافظيّ الأميرُ إينال بَاي بن قَجْماس والأمير يَشْبُك بن أزْدَمُر ـ وكانا مُختفِيين بالقاهرة من يوم خروج الملك النّاصر فَرَج وعَوْدِه إلى مُلكه، واختفيا حتى خـرجا صُحبـة السلطان إلى البلاد الشّامية، فلما عاد السّلطان إلى نحو الدّيار المصريّة توجَّهاَ إلى

(١) هو خيام السلطان وأمتعته.

نَوْرُوز بدمشق، وتوجّه معهما الأمير سودُون المحمّديّ لِضَعْفٍ أصابه ــ فأكرمهما الأميرُ نَوْرُوز غايةَ الإكرام، وأنعم عَليهما بأشياءَ كثيرة، وكتب للأميرِ جَكم بقُدومِهما.

وأمّا السْلطانُ الملكُ النّاصر، فإنه سَار من القُدس حتى دخَل إلى القاهرة في حادي عشر شهر رجب بغَير طائل، وقدْ تَلِف له ولعساكِرِه مَالٌ كبير وزُيِّنت القاهرةُ لِقُدُومِه، وخَرجَ أعيانُ المصريِّين لِتلقّيه. ثمَّ بَعْد قدُومِهِ بسبعة أيام وَصلَ دَمُرْداش نائب حَلَب، وسُودُون مِنْ زَادة نائب غَزَّة إلى القاهرة، واستمرَّ سودُون الحمزاويُّ وشيخٌ نائب الشّام بصفد وأخذ [سُودُون] الحمزاويّ يسعى في الصّلح بَيْنَ شيْخٍ ونَورُوز، ولا زالَ في ذلك حتى أجابَ نَوْرُوز، وكتبَ في هذا المعنى إلى جَكَم. فَبينما هُم في ذلك خرجَ سودُون الحمزاويُّ يوماً من صَفَد ليسير [في برّها][1] فقَام شيخٌ وركِبَ واستوْلى على قلْعة صَفَد، وأخذ جَميعَ مَا للحمزاويّ وبَلغَ ذلك الحمزاويَّ فهرَب ونجَا بِنفسه في قَليلٍ من أصحابه، وتَوجه إلى دمشق فَرَحّبَ بِهِ نورُوز، غيْرَ أنَّ نورُوزاً كانَ مَشغولاً بِعمارَة قلْعةِ دمشق، فَلم يَنهض بالخُروجِ مَعهُ لِقتال شَيْخ.

وأمّا الملكُ النّاصرُ، فإنّه في يوم الجمعة رابع شعبان، مسَكَ الوزير فخر الدين ماجد بن غُراب وسلّمه لجمال[2] الدين الأستادار، ليصادرَه وُيعاقِبَه و[في سابعه][3] استقرّ جمال الدين في وظيفتي الوزير وناظر الخاصّ مُضَافاً إلى الأستاداريّة؛ وهذا أوّل ابتداء تحكّم جمالِ الدين في الناس. ثم قُبض على الأمير خِيرْبَك نائب غَزّة، وقدِم به إلى القاهرة مُقيّداً.

ثـمَّ عيَّن السلطانُ جماعةً مِنَ الأمراء للتجريدة بالبلاد الشّامية، ومقدّمهم الأمير تِمراز النّاصريّ النائب، وآقْبَايُ، وغيْرهما. وخرجوا من القاهرة فِي عاشر

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) جمال الدين يوسف بن أحمد البيري البجاسي.

(٣) زيادة عن السلوك.

شهر رمضان، فَوردَ الخبَر بأن عَسكراً مِنَ الشام أخذَ غزّة، وأن يَشْبُك بن أَزْدَمُر أخذَ قَطْيا، وأخربها وعاد إلى غَزَّة. فأقام تِمْرَاز بمن معه على مدينة بُلبيس أياماً، ثم عادَ هو وآقْباي بمن معهما إلى القاهرة في سابع شوّال.

ثمَّ قَدِم الخبرُ على الملك الناصر بأن الأمير جَكَم مِنْ عَوَض نائب حَلب تسلْطَن بقلعة حَلب في يوم حادي عشر شوال من سنة تسع وثمانمائة المذكورة، وتلقّبَ بالملك العادل أبي الفتح[١] عبد الله جَكَم، وخُطب باسمه مِنَ الفُرات إلى غزّة، ما عدا صَفَد، فإن بها الأمير شيخاً المحموديّ، وقد استولى عليها من سودُون الحمزاويّ حسبما تقدّم ذكره، وأنه لم يخطب باسم جَكَم، وأنه مستمرٌ على طاعة السّلْطان، وأن الأمير نوروزاً نائب الشّام باس الأرض لجكَم، وخَلع على بَكْتَمُر جلق بنيابة صَفَد بأمر الملك العادل جَكَم. ثمَّ قدم بعد ذلك عدَّةُ كتب من أمراء الشَّام على السّلطان يرغّبون السّلطان في الخروج إلى البلاد الشّامية. ثم قدمت عدَّة كتب من جَكَم إلى عرُبان مصر وفلّاحيها بمنعهم منْ دفع الخراج إلى السلطان وأمرائه وأجنادِه، وتحذيرهم مِنْ ذلك حتى يَقْدُم جَكَم إلى مصر. ثم وردَ الخبرُ من البلاد الشّامية أنه في ثامن عشر شوال وصل إلى دمشق قاصدُ الملك العادل جَكَم، وعلى يده مرسومُ جَكَم بأنّ الأمير سودون الحمزاوي يكونُ دَوادَاراً بالدّيار المصرية على عادته، وأن الأمير إينالَ باي بن قَجْماس يكونُ أَمير آخور كبيراً على عادته، وأن الأمير يَشْبُك بن أَزدَمُر يكون رأس نوبة النّوب على عادته، وأن الأمير نَوْرُوزاً مُستمرّ على نيابة[٢] دمْشق، وجيءَ لهُ بالخِلْعَة فلبسها نَوْرُوز، وقبّلَ الأرض، ودقت البشائر لذلك ــ بدمشق ــ أياماً، وزُيّنت المدينة.

فلما بَلَغ السّلطان ذلك أراد الخروجَ إلى البلاد الشّامية، فكلمه أمراؤه في تأخير السفر حتى يخفّ الطاعون من الدّيار المصريّة فإنه كان فشا بها وكثر ــ

(١) في السلوك: «أبي الفتوح».
(٢) في السلوك للمقريزي أن جكم رسم باستقرار نوروز «قسيم الملك، وما يختار يفعل، وأمر الأمراء بلبس الكلفتاة، وكانوا قد تركوها مدّة، إشارة منهم أنهم غير طائعين للسلطان».

فلم يلتفت السُّلْطان لذلك. وشرع في أوّل ذي الحجة في الاهتمام إلى سفر الشّام هو وعساكرُه. ثم في خامس عشرين ذي الحجة المذكورة علّق السُّلطان جاليش[١] السفر، وصُرفت النّفقةُ للمماليك السُّلْطانية في تاسع عشرينه، لكل مملوكٍ ثلاثون مثقالاً وألف دِرْهم فُلُوساً[٢]، فتجمّع المماليك تحت الطَّبْلَخانَاه السلطانيّة وامتَنَعوا من أخذها، فكلّمهم بعض الأمراء على لسان السّلطان في ذلك، فَرَضوا. وبَينما السلطانُ في ذلكَ وردَ علَيه الخبر بقتل الأمير جكم بآمد، منْ دِيار بكر بن وائل، في سابع عشر ذي القعدة من سنة تسع وثمانمائة المذكورة.

وسبب قتلة جَكم المذكور أنه لما تسلْطَن بمدينة حَلَب، ووافقه وأطاعه غالبُ نوّاب البلاد الشّاميّة، وعَظُمَ أمرُه، وكَثُرت عساكرُه، وخافه كُلُّ أحد حتى أهل مِصْرَ، وتهيّأ الملك النّاصرُ إلى الخروج من مصر لقتاله، ابتدأ جَكَم بالبلاد الشّاميّة واستعد لأخذها، على أن الدّيار المصريّة صارت في قبضته، وأعرض عنها حتى ينتهي من بلاد الشرق، وجعل تلكَ الناحية هي الأهم. وخرج من مدينة

(١) الجاليش هنا العلم الخاص بالسلطان، وبأعلاه خصلة من الشعر. وقد مرّ معنا أن الجاليش يعني أيضاً طليعة الجند التي تتقدم العسكر للكشف والاستطلاع. ــ راجع فهرس المصطلحات.

(٢) الفلوس: نوع من النقد يتّخذ من النحاس الأصفر أو الأحمر. وقد اتخذت في الأصل للتعامل بها في شراء الاحتياجات الصغيرة البسيطة التي يقلّ ثمنها عن الدرهم الفضّي أو جزء منه. ثم زاد استخدامها وكثرت بين أيدي الناس حتى صار أكثر التعامل بها، وذلك لقلة الدراهم الفضيّة أو الدنانير الذهبية. كما أنه كان يجري أحياناً التلاعب بعيارها فيصيب الناس من ذلك مكروه كبير.
وكانت الفلوس بمصر على نوعين: أحدهما المطبوع بالسكّة، والثاني غير المطبوع. أما المطبوع فكان يسمى الفلوس الجدد، وسكّتها أن يكتب على أحد الوجهين اسم السلطان ولقبه ونسبه، وعلى الوجه الآخر بلد الضرب وتاريخه. وهذه الفلوس أحدثت في سنة ٧٥٩هـ في سلطنة الناصر حسن بن محمد بن قلاوون. وكانت زنة كل فلس منها مثقالاً، وهو قيراط من أربعة وعشرين قيراطاً من الدرهم.
أما الفلوس غير المطبوعة فكانت عبارة عن قطع من النحاس المكسّر، ويعبر عنها بالفلوس العتق، أي أنها كانت تستعمل قبل استحداث الفلوس الجدد. وكانت قيمتها كل رطل منها بدرهمين من الدراهم النقرة (الدراهم التي تغلب فيها نسبة الفضة على النحاس). ولما استحدثت الفلوس الجدد استقرّ كل رطل منها بدرهم ونصف، واستمر ذلك إلى ما بعد سنة ٨٢٠هـ.
(انظر صبح الأعشى: ٥١٠/٣، ٥٣٥، طبعة دار الكتب العلمية ــ وإغاثة الأمة للمقريزي: ١٠٥ ــ ١١٠) وكانت ثقة الناس بهذه الفلوس غير مستقرّة بسبب التلاعب بعيارها. والظاهر من عبارة المؤلف أن امتناع المماليك من أخذها يعود إلى هذا السبب. ــ وانظر ما يأتي ص ١٠٨، حاشية (٤).

حَلَب بعساكره إلى نحو الأمير عثمان بن طُرْعَليّ المعروف بِقَرَايُلُك[١]، صاحب آمِد، وغيرها من دِيَار بكر. وكانَ قَرايُلُك المذكور يومئذٍ نازلاً بآمِد، فسار جَكَم حتّى نزل على البِيرَة، وحصَرها وأخذهَا، وقتل نائبها الأمير كُزُل، فأتته بها رسل قَرايُلُك يرغب إليه في الطّاعة، ويَسأله الرجوعَ عنه إلى حَلَب، وأنه يحمل إليه منَ الجمال والأغنام عِدّةً كبيرة، ويخطب له بديار بَكْر، فلم يقبل جكَمَ ذلك، وسار حتى نزلَ قرب مارْدِين، فأَقامَ هناك أياماً حتى قَدم الملك الظّاهر مجد الدين عيسى الأرتقيّ صاحب مَارْدين، ومعه حاجبه فيّاض بعساكره، فاستصْحَبهُ جَكم مَعه إلى نحو مدينة آمد، وقد تهيأ قَرايُلُك لقتال جَكم المذكور، فعبّأ جَكَمَ عساكره، وَمَشَى على آمِد، فالتقاهُ قَرايُلُك بظاهرها، وَتقاتلا قِتالاً شديداً قاتل فيه جَكَم بنفسه، وقتلَ بيده إبراهيم بن قَرَايُلُك، ثمّ حملَ على قَرَايُلُك بنفسه، فانهزم قَرَايُلُك بمن معه إلى مدينة آمد وامتنعوا بها، وغلّقوا أَبوابها. فاقتحم جَكَم في طائفة مِنْ عسكره القرايُلُكيّة، وساقَ خلفهم حتى صارَ في وسط بَساتين آمِد. وكان قَرَايُلُك قد أرسل المياه على أراضي آمِد حتى صارت رَبْواً[٢]، يَدْخل فيها الفارسُ بفرسه فلا يقدرُ على الخلاص. فلما وصلَ جَكَم إلى ذلك الموضع المذكور أخذه الرّجْم هو ومَنْ معه مِنْ كلّ جهة، وقد انحصروا مِنَ الماء الذي فاض على الأرض، وجعَلها رَبْواً، فصاروا لا يمكنهم فيه الكرّ والفرّ. فصوّبَ عند ذلك بعضُ التّراكمِين منَ القَرَايُلكيّة على جَكَم، وهو لا يعرفه، ورماهُ بحجر في مقلاع أصابَ جبهته وشجّه، وسال الدّم على ذَقنه ووجهه، وجَكَم يتجلّدُ ويمسح الدّم عنْ وجهه، فلم يَتمالك نفسه وسقط عنْ فرسهِ مغشياً عليه. وتكاثر التّركمانُ على رفقته فهزموهم بعد أن قتلوا

(١) ورسمها المناسب للفظها هو: قرايولوك أو قره يولوق، ومعناها القلعة السوداء. واسمه الصحيح هو بها الدين عثمان بن فخر الدين قطلو بن طور علي. وهو مؤسس أسرة «آق قيونلو» أو «أق قويونلي» من تركمان آسيا الوسطى. وقد استولى على أملاك برهان الدين صاحب سيواس، وأقرّه تيمور لنك على ديار بكر (آمد). وتوفي قره يولوك سنة ٧٣٨هـ. (دائرة المعارف الإسلامية: ١٢٨/٤، ومعجم زامباور: ٣٨٤).

(٢) رَبَت الأرضُ وصارت ربواً أي زادت وانتفخت لما يتداخلها من الماء والنبات. ومن ذلك قوله تعالى: «وترى الأرضَ هامدةً فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزّتْ ورَبَتْ».

منهم عـدّة كبيرة، فنـزلَ بعضُ التّراكمين وقـطـع رأسَ جَكَم. وجال العسكـرُ واضطربَ أمر جيش جَكم ساعة، ثم انكسروا لفقد جَكَم. وقد عاينتُ أنا موضع قتلِ جَكَم بظاهر مدينة آمِد لما نزل السّلطان الملك الأشرفُ بَرْسبَاي عليها في سنة ستٍّ وثلاثين وثمانمائة ـ عرّفني ذلك الأمير السّيفيّ صَرْبُغَا أمير آخور الوالد، فإنه كان يومَ ذاكَ صحبةَ جَكَم في الواقعة المذكورة ـ انتهى.

ثم أخذَ التّركمـانُ في الأسر والقتـل والنّهب في عساكـر جَكَم وعساكـر ماردِين، حتى إنه لم ينج منهم إلّا القليل. فلما ذهبَ القوم نزل قُرَايُلُك وتطلّب جَكَم بينَ القتلى حتى ظفر به، فقَطع[1] رأسه، وبعث به إلى السلطان الملك الناصر إلى الدّيار المصريّة. وقُتِل في هذه الواقعة مـع الأمير جَكَم من الأعيان: الملك الظّاهر عيسى صـاحبُ ماردِين، وكـانَ منْ أجلِّ الملوك، والأميـر نَاصـر الدين محمـد بن شَهريّ حـاجبُ حجّاب حَلَب، والأميـر قَمُول[2] نـائب عين تاب، وصارو[3] سيّدي. وفرّ الأميرُ تَمُرْبُغَا المشطوب، وكَمَشْبُغَا العيساويّ، حتى لحقا بحَلَب في عِدّة يسيرة من المماليك. وكانت هذه الواقعةُ في سابـع عشر[4] ذي القعدة من سنةِ تسـعٍ وثمانمائة ـ انتهى أمرُ جَكَم وقتْلَته.

وأما أمرُ الأمير شيـخ المحموديّ نائب الشّام ـ كان ـ فإنه في ذي القعدة أيضاً ركب من صَفَدَ يريد الأمراء الذين مِنْ جهة نَوْرُوز وجَكَم ـ وقد وصلوا من دِمشق إلى غَزّة ـ وهم: إينال باي بن قَجْماس، وسُودُون الحمزاويّ، ويشْبُـك ابن أزدَمُر، ويونس الحافظيّ نائبُ حَماة ـ كانَ ـ وسُودُون قُرناص في آخرين. فسارَ شيـخٌ بمن معه وطرقهم بغزّة على حين غَفلة في يوم الخميس رابـع ذي الحجة، فركبوا وقاتلوه قتالاً شديداً، قُتِلَ فيه إينال بـاي بن قَجْماس، ويـونس الحافظيّ، وسودُون قُرْناص. وقبضَ شيـخ على سوُدُون الحمزاويّ، بعد ما قُلعت

---

(١) ذكر قبل قليل أن أحد أجناد التركمان هو الذي قطع رأس جكم.

(٢) في السلوك: «أقمول». وفي نزهة النفوس: «أقول».

(٣) في نزهة النفوس: «وقتل الأمير ناصر الدين بن شهري المعروف بصرد سيدي حاجب حجاب حلب».

(٤) في السلوك ونزهة النفوس وعقد الجمان: «يوم السابع والعشرين من ذي القعدة».

عينه، وهرب يَشْبُك بن أَزْدَمُر إلى دمشق. وقبضَ شيخٌ على عدّة مماليك مِنَ المماليك السّلطانيّة، فوّسط منهم تسعة، وغرّق أحدَ عشر، وأفرجَ عنْ مماليك الأمراء، ولم يتعرض لهم بسوء، وبعث بطائفةٍ أخرى من المماليك السّلطانية إلى الملك النّاصر فرج، ثم عاد شيخٌ إلى صَفَد.

ثمّ ورد الخبر بأن الأمير نَوْرُوزاً نائب الشام عاد إلى طاعةِ السّلطان بعد قتل جَكَم، وأنّ تَمُرْبُغَا المشطوبَ تغلّب على حَلَب، وقاتلته التّراكمين حتى ملك قلعة حلب بعد أمور، وأنه أخذ ما كان لجكَم بحَلَب واستخدم مماليك جَكَم، فعظُم أمْرُهُ لذلك. فأمر السلطانُ بتجهيز أموره للسفر إلى البلاد الشّاميّة، وتجهزت العساكر. فلمّا كان يومُ الاثنين سادس المحرم من سنة عشرة وثمانمائة فرَّقَ السلطانُ الجِمالَ على المماليك السّلطانية، برسْم السّفَر إلى الشَّام صُحبة السّلطان.

ثمّ في يوم الجمعة عاشِر المحرم قَدِم إلى القَاهِرة حاجبُ الأمير نُعَيْر برأس الأمير جَكَم، ورأس ابن شهْري، فخلع السلطانُ عليه، وطيفَ بالرأسين على رُمْحَين، ونوديَ عليهما بالقاهرة، ثمّ عُلِّقا على باب زُويلة، ودُقّت البشائر، وزُيّنَت القاهرة لذلك.

ثمّ في تاسع عشَر المحرم، خرَجت مُدَوَّرَة[١] السلطانِ إلى الرّيْدَانِيّةِ خارج القاهرة. ثم في يوم حادي عشرينه، برز الجاليش السلطاني من الأمراء إلى الريدانية، وهم الأتابَك يَشْبُك، والوالدُ وهو تَغْرِي بَرْدِي البَشْبُغَاويّ، والأميرُ بَيْغُوت في آخرين مِن الأمراء. ورحلوا في خامس عشرينه من الرّيدانيّة. ونزل السّلطانُ مِنْ قَلْعة الجبل في يوم الإثنين ثامن عشْرينه إلى الرّيْدَانِيّةِ ببقيّة أمرائه وعساكره. وهذه تَجْرِيدَةُ الملك النّاصر الرابعةُ إلى البلاد الشَّاميّة، غير واقعة السّعيدية.

ثمّ رحل السلطانُ مِنَ الرّيْدَانيّة في يوم ثاني صفر مِنْ سنةِ عشَرة وثمانمائة، يريدُ البلادَ الشَّاميّة.

(١) المدورة: هي الخيمة الكبيرة الخاصة بالسلطان.

وأما البلاد الشّامية ــ فإنَّ نَوْرُوزاً الحافظيّ خرج مِنْ دمشق في أوّل محرم مِنْ هَذه السنةِ لقتال شيخٌ فضعف شيخٌ عن مقاومته، ولم يخرُج مِن صَفَد. وأَرسَل [شيخ] يستحثّ السلطانَ على سُرعة المجيء إلى البلاد الشّاميّة. فعاد نَوْرُوز إلى دمشق بعد أن حاصر شيخاً أياماً، وأَرسل إلى السلطان يطلبُ أماناً، وأنه يمتثِل ما يرسمُ به السّلطان، وأنه يوافقُ شيخاً، ويرضَى بما يولّيه السلطانُ مِنَ البلاد.

ثمَّ أرسل نَوْرُوز إلى شيخ بأَنْ يكاتبَ السلطان بأن يكونَ نائبَ حَلَب، ويكون شيخٌ نائب الشام على عادته، فلم يَلتفت شيخٌ إلى كلامه، وانتهَز [شيخ] الفرصة، وقد قويَ أمرُه، بعد ما كان خائفاً من نَوْرُوز، لقدوم السّلطان الملك النّاصر إلى البلاد الشّاميّة، وسارَ بمماليكه وحواشيه حتى نزل بالقرب مِنْ دمشق. ففرَّ في تلك الليلةِ مِنْ نَوْرُوز إلى شيخ جماعةٌ مِنَ الأمراء، منهم: قِمْشُ، وجُمَق. ثمّ تحوّل نَوْرُوز من المِزّة إلى قُبّة يَلْبُغا، فوصل إليه قاصدُ الأمير شيخ بأنّ السلطان أرسَل إليه تشريفاً بنيابة دمشق، وأنه طلب مِن السلْطان لنوْرُوز نيابة حَلَب، فأبـى السّلطانُ ذلك، وأن عسكر السّلْطان وصل إلى مدينة غزّة. فتحول عند ذلك نَوْرُوز إلى بَرْزة، ودخلت مماليك الأمير شيخ إلى الشام مِنْ غير قتال.

وأمّا السّلطانُ الملك النّاصر فإنه لمّا[1] رحل مِن الرّيدَانيّة بعد أنْ عمل الأميرَ تمراز نائب السلطنة نائب غيبته بديار مصر، وأنزله بباب السلسلة، وأنزل الأمير آقْبَاي بقلعة الجبل، وسكَّن سودُونَ الطيّار أمير سِلاح بالرمَيْلة تجاه باب السُّلسلة. وسارَ السّلطان حتى وصل إلى غزّة في ثاني عشر صفر، فورد عليه الخبر بفرار نَوْرُوز، فلم يلتفت إلى ذلك، وسار حتى دخَل إلى دمشق في يوم ثاني عشرين صفر، بعدما خرجَ الأمير شيخ إلى لقائه، وقبّل الأرض بين يديه، وسار معه حتى دخل دمشق في خدمته منْ جُملة الأمرَاء. ونزَل السّلطان بدار السعادة منْ دمشق وصلّى الجمعةَ بجامع بني أمية. ثم قبض على قضاةِ دِمشقَ ووزيرها، وكاتب سرها، وأهانهم السّلطانُ وألزمهم بحمل مال كبير.

ثم في يوم الأحد خامس عشرين صفر، أمسك السّلطان الأمير شيخاً

(١) هذا اللفظ زائد ولا حاجة إليه في سياق الجملة.

المحموديّ نائب دِمشق، والأمير الكبير يشبك الشّعبانيّ الأتَابكي، واعتَقلهما بقلعة دِمشق. وكان الأمير جرْكس القاسِميّ المصارع الأمير آخور قد تأخرّ في هذا اليوم عن الخدمة السلطانية بداره، فلما بلغه الخبرُ فَرّ منْ وقته، فلم يُدْرَك. وهرب جماعةٌ كبيرةٌ من الشَّيخيَّة واليَشْبُكيّة.

ثمّ في سادس عشرين صفر خلع السلطان على الأمير بَيْغُوت باستقراره في نيابة دِمشق عوضاً عنْ شيخ المحمودِيّ، بحكم حبسه بقلعة دِمشق، وخَلع على الأمير فارس دوادَار تَنَم باستقراره حَاجب حُجّاب دمشقَ، وخَلع على الأمير عُمر الهَيْذُبانيّ بنيابة حَمَاة، وعلَى صَدْرِ الدّين عليّ بن الأدَميّ باسْتِقْرَارِه قاضي قضاة الحنفِيَّة بدِمشْق.

ودامَ يَشْبُك وشيخُ بقلعة دِمَشق إلى أن اسْتَمالاَ نائبَ قلعتها الأميرَ مَنْطُوقاً، حتى أَفرج عنهما في ليلة الاثنين ثالث شهر ربيع الأوَّل مِنْ سنة عشرة وثمانمائة. وهو أن منَطُوقاً تحيّل على مَنْ عنده مِن المماليك بأَنّ السُّلْطَانَ رسَم له بأَن يَنْقُلَ الأميرين شيخاً ويَشْبُكَ، من حبسٍ إلى آخر فصدّقوه، فأخرجهما على أنه ينقلهما(١)، وفرَّ بهما، وَنزَل مِنَ القلعة، فَلْم يَبْلغ السلطانَ الخبُر حتى ذهبوا حَيْثُ شاؤوا.

وأَصْبَحَ السلْطانُ يوم الإثنين نَدَب الأميرَ بَيْغُوتَ لطلبهم، فَركِب بَيْغُوتُ مِنْ وقته بمماليكه، وسارَ في طلبهم ــ غارةً ــ وقد اختفى الأمير شيخ بدمشْق ولم يخرج منها، وتوجّه(٢) يَشْبُك، فَلم يُدْرِك بَيْغوتُ سِوى مَنْطُوق نائب قلعة دِمشق الذي أَطْلَقَهُما ــ لِثقل جُثَّته، فإنه كان في غاية مِنَ السّمن. ففرّ يَشْبُك، وقاتل مَنْطُوق بَيْغُوت ساعةً ثُمَّ انْهَزَم؛ وقَبَضَ عليه [بيغوت] وقطع رأسَه، وحَمَلها إلى الملك الناصر، ورُفعت عَلى رُمح وطِيفَ بها دِمَشْق، ثم عُلّقت عَلى سُور دِمشْق.

---

(١) في السلوك: «. . . أن السلطان رسم له بقتلهما. . . فأخرجهما على أنه يقتلهما ــ الخ».

(٢) مراده: «ومضى يشبك»، كما في السلوك.

ثمّ قَدِم الخبرُ باجتماع الأتابَك يَشْبُك وشيخ وجرْكس، وأنّهم في دون الألف فارس، وهم على حِمْص، وأنّهم اشتدّوا على النّاسِ في طلب المال. فكَتَبَ السّلطانُ في الحال للأمير نَوْرُوز الحافظيّ، وهو بمدينة حَلَب عند تمرُبْغُا المشطوب، يستدعيه لمحاربة يَشْبُك وشيخ، وأنه ولّاه نيابة الشّام، وأمَرَهُ أن يحمل إليه جماعةً مِنَ الأمراء، ويبعث السلطانُ إليه التّقليد والتّشريف مع الأمير سَلامُش. ثم جهّزَ السلطانُ سَلامُش إلى نَوْرُوز، وعلى يَدِه خِلعته بنيابة دِمَشْق؛ فَلَبس نَوْرُوز الخِلْعَة، وقبّل الأرض، وامتثل ما أمَرَه السّلطانُ به مِنْ قِتالِ الأمراء وغيره، وكتَبَ يعتذر من عدم الحضور بما عنده من الحياء من السلطان، والخوْفِ لِمَا وَقَع منه قَبْل تاريخه، وأنه إذا سار السّلطانُ مِنْ دِمَشْق نحو الديار المصرية قَدِمَها وكَفَاهُ أمْر هؤلاء.

ثُمّ أرْسَل نَوْرُوز بعد ذلك بأنّه قَبَض على جَمَاعةٍ من الأمراء الذين فرّوا مِنَ السلطان مِن دِمَشْق، وهم: الأميرُ عَلّان، والأمير جانم من حَسَن شاه، والأمير إينال الجلاَليّ المنقار، والأميرُ جَقْمَق العلائي أخو جَرْكس المصارع ـ أعني الملك الظاهر جَقْمَق ـ والأمير أسَنْباي التّركماني، أحد أمراء الألوف بِدِمشق، والأمير أسنباي أمير آخور، والأمير جُمَق، نائب الكرَك ـ كان ـ وبعثَ بهم الجميع ما خلا جَانَم.

ثم [في تاسع ربيع الأول](١) أرْسَل [السلطان](١) إلى الديار المصرية بالقَبْضِ على الأمير تِمْراز النّاصِريّ نائب السّلْطَنَة بالدّيار المصريّة، ثمّ نائب الغَيْبَة، فأذعن تِمْراز وسلّم نفسه، فَمُسِكَ وقُيِّدَ وحُبِسَ بالبُرْج مِنْ قلعة الجبل؛ وسَكَن سُودُون الطيّار عِوَضه بباب السِّلْسِلَةِ مِنَ الإسطبلِ السُّلْطَاني.

ثمّ ركِبَ السّلطانُ الملك الناصِرُ في يوم الأربعاء رابع شهر ربيع الآخر مِنْ دار سَعادة دِمَشْق، وتوجّه إلى الرَّبْوَة(٢) فتَنَزّه بها ثم عاد إلى دار السعادة. ثمّ

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) الربوة: حيّ من ظواهر دمشق، به مساجد ومدارس وأبنية عظيمة عمرها نور الدين الشهيد، وبنى فيها قصراً للضيافة. (خطط الشام: ٥/٢٩٥، ٦/٦٥).

أصبح لعبَ الكرةَ بالمَيْدَان، وقَدِمَ عليه الأمير بكْتَمُر جِلّق بالأمراء الذين قَبَضَ عليهم الأمير نَوْرُوز، وهُم المقدّم ذكرهُم، فرَسَم السلطانُ بِحبْسِهِم. ثُمّ في اليوم المذكور خَرَجَ حريمُ السّلطان من دِمَشْق إلى جهة الدّيار المصْرية.

ثمَّ خرَجَ السّلطانُ من دِمَشْقَ في يوم السّبت سابع شهر ربيع الآخر يريد الديار المصرية ومعه الأمراء المقبوضُ عليهم، وفيهم: الأمير سُودُون الحمزاويّ وقد أُحضِر مِن سجنِ صَفَد، والأميرُ آقبَرْدي رأسُ نوبة أحدُ أمراء الطبْلَخَانات، وسُودُون الشّمسيّ أمير عشرة، وسُودُون البَجَاسِيّ أمير عشرة. وسَار السّلْطانُ إلى مصر، وجعل بكْتَمُر جلّق نائب الغَيْبَة بدمِشَق حتى يحضر إليها نائبها الأمير نَوْرُوز. وكان بكْتَمُر جِلّق المذكور قد خَلَع عليه السّلطان باستقراره في نيابة طرابُلُس قبل تاريخه. وأصبحَ شَيْخ، لَمّا بَلَغَهُ خُرُوج السّلطان مِن دِمْشق، فطرق[1] دمشق ومعه يَشْبُك وجَرْكَس، وأخذَها مِن بكْتَمُر، وملكها بعد أنْ فرّ بكْتَمُر منها. وقَبَضَ شَيْخُ عَلى جَماعة من أمراء دِمْشق، وَولّى وَعَزَل، وأخذَ خُيُولَ الناس، وصادَر جماعة.

ثم وردَ الخبر على يَشْبُك وشيخ بنزُول بَكْتَمُر جِلّق على بعلبك بأناس قليلة، فخرج إليه يَشْبُك الشّعبانيّ وجَرْكَس في عسكر، ومضى بَكْتَمُر جِلّق إلى حِمص. وسار يَشْبُك وجَرْكَس حتى وصلا إلى بَعْلَبك، فوافاهما الأميرُ نَوْرُوز بعساكره على كُرُوم بَعْلَبك، فبرز إليه يَشْبُك وجَرْكَس بمن معهما، فقاتلهم نَوْرُوز حتى هزمهم، وقتلَ الأتابكَ يَشْبُك الشعبانيّ وجركس القاسمي المصارع في ليلة الجمعة ثالث عشر شهر ربيع المذكور، وقتل جماعة أخر، وقبض نَوْرُوز على جماعة، وفرَّ من بقي. فلما بلغ ذلك شيخاً خرج من وقته من دمشق على طريق جَرُود[2]. ودخلَ الأمير نَوْرُوز في يوم رابع عشْرِه إلى دمشق ومَلَكَها من غير قتال. وبعثَ نَوْرُوز بهذا الخبر إلى السلطان، فوافاهُ المُخبِرُ بذلك على العَرِيش، فسُرَّ السلطانُ بذلك سروراً كبيراً، وهانَ عليه أمر شيخ بعد ذلك.

---

(١) في الأصل: «طرقها» والتعديل والإضافة للتوضيح.

(٢) جرود: هي قرية من إقليم معلولا من أعمال دمشق (معجم البلدان).

ثمَّ سارَ السلطانُ الملك الناصر مُجِداً حتى دخل إلى الديار المصرية ضُحى نهار الثلاثاء، رابع عشرين شهر ربيع الآخر، وبين يديه ثمانيةَ عشرَ أميراً في الحديد، ورِمَّة الأمير إينال باي بن قَجْمَاس، وقد حملها الملكُ الناصرُ من غزة لأنه كان خِصيصاً عند الملك الناصر، وقُتل بغزَّة في واقعة شيخ بغير اختيار السلطان. وطلع السلطان إلى قلعة الجبل، وحبس الأمراء المذكورين بالبُرْج من قلعة الجبل إلى أن كان يوم سادس عشرينه، فاستدعى السلطان القضاة إلى بين يديه، وأثبت عندهم إراقة دم الأمير سُودُون الحَمْزَاوِيّ لقتله إنساناً ظُلماً، فحكموا بقتله، فقتل، وقتل معه تَمُرْبُغَا دَوَادَاره، والأمير آقْبَرْدي، وجُمَق، وأسنْباي التركماني، وأسنْباي أمير آخور. وتأخر الأمير إينال المنقار، وسُودُون الشَّمسيّ، وجَقْمَق العلائي، وجماعة أخر، وسُودُون البَجَاسي في البرج من قلعة الجبل.

ثمَّ في يوم سابع عشرين شهر ربيع الآخر، أنعمَ السلطانُ على الوالد بإقطاع الأتَابَك يَشْبُك الشَّعبانيّ، وأنعم بإقطاع الوالد على الأمير قَرْدَم [الحسني] الخازِنْدَار. وأنعمَ على الأمير قَرَاجَا بإقطاع تِمْرَاز الناصريّ المقبوض عليه في غيبة السلطان بالقاهرة، واستقرّ قَرَاجَا المذكور شادّ الشّراب خاناه، وأنعم بإقطاع قَرَاجَا على الأمير أرْغُون من بَشْبُغَا، وأنعم بإقطاع أرْغُون المذكور على الأمير شاهين قَصْقَا[1]، وأنعم بإقطاع شاهين على الأمير طُوغَان الحَسَنيّ.

ثم في يوم الخميس ثالث جمادى الأولى خلع السلطان على الوالد باستقراره أتَابَك العساكر بالديار المصرية عوضاً عن يشْبُك الشّعباني، وخلع على الأمير كمشْبُغَا المزوّق الفَيْسِيّ باستقراره أمير آخور كبيراً، عوضاً عن جَرْكَس القَاسميّ المُصارع.

وفي اليوم المذكور قدم إلى القاهرة قاصِدُ الأمير نَوْرُوز الحافظيّ برأس الأتَابَك يَشْبُك، ورأس جَرْكس المصارع، ورأس الأمير فارس التَّنِميّ حاجب حجّاب دمشق.

---

(١) ذكر السخاوي في الضوء اللامع أن «قصقا» معناها القصير.

وفيه شاور جمال الدين الأستادار السّلطان أنه يُعَمِّرُ للسلطان مدرسة(١) بخُط رَحْبَة باب العيد(٢)، فأذن له السلطان في ذلك، فشقّ جمالُ الدين أساسها في هذا اليوم، وبدأ بعمارتها.

ثم أرسل السلطانُ إينالَ المنقار، وعَلّان، ويلْبُغا الناصريّ إلى سجن الإسكندرية. ثم ركب الملك الناصر مُتَخَفِّفاً بثياب جلوسه ونزل إلى عيادة الأمير قَرَاجَا، فعاده. ثم سار إلى بيت جمال الدين الأستادار وأخذ تقدمته(٣). ثم ركبَ وسارَ حتى نزل بالمدرسة الظاهرية ببين القصرين، وزار [قبرَ] أمه وجده لأبيه الأمير أنص [وإخوته](٤)، وجعل ناحية مُنْبابَة(٥) بالجيزة وقفاً عليها [زيادةً على وقف أبيه](٤). ثم ركب منها إلى دار الأمير بَشْبَاي ـ رأس نوبة النُّوب ـ ونزل عنده. ثم ركب من عنده، وتوجّه إلى بيت الأمير كُزُل العجميّ حاجب الحجّاب. ثم سار من عنده إلى قلعة الجبل.

قال المقريزي: ولم نَعْهَد مَلِكاً من مُلُوك مصر رَكِبَ من القَلْعَةِ بقماش جُلوسه غيرَه. قلتُ: لعل المقريزي أراد «بقماش جُلوسِه» عدم لبْس السّلطان الكَلَفْتاة، وقماش الخدمة، وهذا كان مقصوده ـ والله أعلم.

ثم في تاسع عشر جمادى الأولى المذكور، خلع السلطانُ على الأمير طوخ الخازندار باسْتِقْرَارِهِ أمير مجلس عِوضاً عن يَلْبُغَا النّاصري بحكم القبض عليه. والعامة تُسَمي طُوخ هذا طُوق الخازندار، والصواب ما قلناه. وخلع على الأمير قَرْدَم باستقراره خازنداراً عوضاً عن طُوخ المذكور.

---

(١) ذكرها المقريزي باسم «مدرسة الأمير جمال الدين الأستادار». وقد انتهى من بنائها في ثالث شهر رجب من سنة ٨١١هـ. (خطط: ٢/٤٠١).

(٢) رحبة باب العيد: خط يُنسب إلى باب العيد. وسمي بذلك لأن الخليفة الفاطمي كان يخرج منه في العيدين إلى المصلىّ التي كانت بظاهر باب النصر. (خطط المقريزي: ٢/٤٣٥).

(٣) في السلوك: «فأكل ضيافته».

(٤) زيادة عن السلوك.

(٥) هي أمبوبة. وتتبع اليوم مركز إمبابة بمحافظة الجيزة ـ راجع فهرس الأماكن.

ثم في سادس عشر جمادى الآخرة قبض السّلطانُ على الأمير سُودُون من زَادَة، وقيّده وحمله إلى الإسكندرية، فَسُجِنَ بها مع من بها من الأمراء.

وأما الأمير نَوْرُوز الحافظيّ فإنّه منْذُ دَخل دِمَشْق كانت مُكاتَبَاتُ الأمير شَيْخ تَرِدُ عليه بِطَلَب الصُّلح، ويتَرَقّق شَيْخُ لنَوْروز، ويتخضّع إليه، إلى أن أجاب نَوْرُوز إلى ذلك؛ وخَرَجَ من دِمشق في سادس عشرين شهر رجَب، إلى جهة حَلَب، ليُصالح الأمير شَيْخاً. فتقدم الأميرُ شيخُ إليه والْتَقاهُ واصطَلَحا. ومسك نَوْروز بكْتَمُر جِلّق، بَعْدما كَانَ أعزَّ أصْحابِ نَوْرُوز، مُرَاعاةً لخاطر شَيْخ.

وحكى لي من أثقُ به من أعْيانِ المماليك الظَّاهريّة مِمّن كان في صُحبتِهم يَوْم ذاك قال: لمَّا أرادَ شيخُ الصُّلح مع نَوْرُوز، طلبَ منه القبْضَ على بَكْتَمُر، فبلغ بَكْتَمُر ذلك، فلم يُصَدِّق أنَّ نَوْرُزاً يقع في مثل هذا لما كان بيْنَهُما من تَأكُّدِ الصحُّبة. فلمَّا اجتمعَ شيخٌ مع نَوْرُوز وأراد نَوْرُوز القبْضَ على بَكْتَمُر، قال بلسانِ الجَرْكَسِيِّ: «وُبُطْ». قال بَكْتَمُر: «يا جِنْسَ النَّحس، بلغني ذلك من مدَّةٍ، ولكنني ما ظَنَنْتُ أنَّها تَخْرُج من فَمِك في حقِّي أبداً». ومُسِكَ بَكْتَمُر جِلّق، وسُجِنَ بقلعةِ دِمَشْق. ثمَّ دَخل الأميرُ شيخ ونَوْرُوز إلى دِمَشْق، وقد استقرَّت طَرَابُلُس للأمير شيخ، ودِمَشْق للأمير نَوْرُوز، فأقامَ شيخٌ بدِمشْق عشرةَ أيَّام، ثم خرجَ منها وسارَ إلى طَرَابُلُس.

وكثُرت المصادراتُ بدِمَشْق وغيرها في أيام هذه الفِتَن، وأُخْرِجت الأوقافُ عن أرْبابِها، وَخَرِبَت بلادٌ كثيرةٌ بمصرَ والشَّام، لكثرةِ التَّجاريد، وسُرْعةِ انتقال الأمراء مِنْ إقطاعٍ إلى إقطاع.

ولما بلغ الملك الناصر ذلك، وما وقَع من نوْرُوزٍ في حقِّ شيخ من الإكرام شق عليه ذلك؛ لأن شيخاً كان قد تلاشى أمرُه، ونفر عنه مماليكه وأصحابُه، من كثرة الأسفار والانتقال من بلدٍ إلى بلد، وافتقر وصار لا يجدُ بلداً يأوي إليه، حتى صالحه نَوْرُوز، وأعطاه طرابلس، فعاد إليه مماليكُه، ودار فيه الرمق ـــ انتهى.

ثم في حادي عشر شعبان أفرج السلطان عن الأمير تِمراز الناصري نائب السلطنة ـ كان ـ من حبسه بالبرج من قلعة الجبل، ونزل إلى داره. ثم ورد الخبرُ على الملك الناصر بأن بكتمر جلق فر من سجن قلعة دمشق في ليلة الأربعاء عاشر شهر رمضان من سنةِ عشرٍ وثمانمائة، وأنه توجه إلى صفد، ثم نزل غزة.

ثم ورد على السلطان كتابُ الأمير شيخ يسأل السلطان الملك الناصر الرِّضى عنه، وعن جماعته، فلم يقبل السلطانُ ذلك. فلم تزل مكاتباتُ شيخٍ ترد على السلطان في ذلك حتى رضي عنه. وكتب لهُ بنيابة الشام على عادته، وحمل إليه التقليد الأمير أَلْطُنْبُغَا بشلاق صحبة مملوك شيخ أَلْطُنْبُغَا شقل، وقاضي القضاة نجم الدين عمر بن حجّيّ [الشافعي][1]، وقاضي القضاة صدر الدين بن الآدمي [الحنفي][1]، وقد تولى كلٌّ منهما قاضياً بدمشق على مذهبه. وكانا هما وأَلْطُنْبُغا شقل قَدِمُوا في إصلاح أمرِ شيخ مع أستاذه الملك الناصر فرج.

ثم كتب السلطان أيضاً باستقرار بَكْتَمُر جِلّق في نيابة طرابلس على عادته. وكتب السلطان أيضاً باستقرار يشبُك بن أَزْدَمُر في نيابة حماة. ووصلت رُسُل السلطان إلى الأمير شيخ وغيره من الأمراء المذكورين من البحر المالح[2] من عكا، وسارُوا حتى لقوا شيخاً على المرقب، وقد تغير عن حاله، وأوصلُوه التقليد بنيابة الشام، فقال: «أنا لا أعادي نَوْرُوزاً، وقد أحسن إلي، وأقامني ثانياً. وأيضاً لم يكن لي قُدرةٌ على قتاله». وأخذ الخلعة منهم، وبعثها إلى الأمير نَوْرُوز، وأعلمه أنه باق على طاعته، فدقت البشائر لذلك، وزينت دمشق.

ثم في أول المحرم من سنة إحدى عشرة وثمانمائة برز الأميرُ نَوْرُوز من دمشق، يريد قتال الأمير بَكْتَمُر جلّق، فتهيأ بكتمر أيضاً لقتاله، وتصافقا، واقتتلا قتالاً شديداً، قُتل بينهما أناسٌ، وحُرقت الزُّروع، وخربت البلادُ. ثم عاد نَوْرُوز إلى جهة الرملة لحفظ مدينة غزة.

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) هو البحر المتوسط.

وكان الملك الناصر لما بلغه أن سودُون تلي المحمدي صارَ نائب غزّة، من قبل نَوْرُوز، ولّى الأمير أَلْطُنْبُغَا العثماني نيابة غزّة وندبه لقتال سُودُون المحمدي. وأرسل معه من الأمراء بشباي رأس نوبة النوب، وسودون بقجة، وطُوغان الحسني، والجميعُ يتوجهون لقتال سُودُون المحمدي، ثم يمضون إلى صفد، نجدةً لمن بها من السلطانيّة. وخرجوا من القاهرة، وساروا حتى وصلوا إلى العريش، فبلغهم أن الأمير بَكْتَمُر جِلّق، والأمير جانم من حسن شاه، خرجا من صفد إلى غزة، وملكاها من سُودُون المحمدي، وفرَّ سُودُون المحمدي، ولحق بالأمير نَوْرُوز، فجهزه نَورُوز في الحال بعدة مقاتلة لقتالهم، وأن نَوْروزاً يكونُ في أثره إلى غزة. فلما بلغ بَكْتُمر جِلق وجَانم مجيء سُودُون المحمدي ونَوْرُوز إلى غزة، خرجا من غزة وعادا إلى صفد. وبلغ هذا الخبرُ بشباي وهو بالعريش، فعاد هُو وأصحابُه إلى الديار المصرية، من كونه لا يقاوم نَوْروزاً، لكثرة جموعه، فسكت السلطانُ عَنْ نَوْرُوز لما يأتي ذكره.

ثم أفرج السلطانُ عن الأمير إينال المنقار، والأمير علاَّن، من سجن الإسكندرية. وقَدِم الخبرُ على السلطان في أثناء ذلك بوقُوع الفتنة بين شيخ ونَوْرُوز، وأن شيخاً نزل القريتين[١]، ونَوْرُوزاً بالقُرب منه. وتَراسَلا في الكف عن القتال، فامتنع شيخٌ وقال: «السلطان ولاني نيابة دمشق»، وباتا على القتال. فلما كان الليل سار شيخٌ بمن معه يُريدُ دمشق، وأكثر في منزلته من إشعال النيران، يخدعُ بذلك نَوْرُوزاً [ويوهم أنه يقيم][٢]، فلم يفطن نَوْروز برحيله، حتى مضى أكثرُ الليل. فركب في الحال نوروز في إثر شيخ حتى سبقه إلى دمشق. ودخلها ولم يقدر شيخ على دُخول دمشق. وكان مع نَوْروز يشبُك بن أزدمُر نائب حماة. ووقع أمور إلى أن واقع نوْروز شيخاً بعساكره، وكان مع شيخ نفرٌ يسيرٌ، وقد تعوق عنه أصحابه، لكنه كان متولي دمشق من قبل السلطان، ومعه سنجق[٣] الملك الناصر، وأردفه بكتَمُر جِلّق، وسيدي الكبير [الأمير قَرْقماس]

(١) القريتين: قرية من أعمال حمص. (معجم البلدان).

(٢) زيادة عن السلوك للتوضيح.

(٣) السنجق: الراية السلطانية ــ راجع فهرس المصطلحات.

وغيرهما من الأمراء، فتواقعا بسعسع[١]، فانهزم نَوْروزٌ بمن معه، وقصد حلب. وركب شيخ أقفيتهم، فدخل نَوْروز دمشق، في عدةٍ يسيرة من الأمراء من أصحابه، وبات بها ليلةً واحدة، ثم خرج منها على وجهه إلى حلب. وبعد خُروج نَوروز من دمشق، دخل إليها الأمير بكتَمُر جِلّق، والأميرُ قَرْقَماس ابن أخي دمرداش، المعروف بسيدي الكبير، ونُودي في دمشق بالأمان، وأن شيخاً نائبُ دمشق. ثم دخل شيخٌ بعدهُم إلى دمشق، ونزل بدار السعادة. ثم خرج شيخ من دار السعادة ونزل بقبةِ يلبغَا، ولبس التشريف السلطاني المجهز إليه من مصر بنيابة الشام قبل تاريخه، وعاد إلى دار السعادة في موكبٍ جليل. وقبض [شيخ] على الأمير نكباي حاجب دمشق، وعلى الأمير أرغز، وهما من أصحاب نوْرُوز، وعلى جماعةٍ أُخر من النّورُوزية. ثم قَدِم عليه الأمير دَمُرْداش المحمدي، فأكرمه شيخٌ وأنزله بدمشق مدة أيام. ثم ندبه هو والأمير بكتَمُر جِلّق لقتال نوْروز ومعهما عساكر دمشق. وورد الخبرُ على السلطان بذلك، فسُرَّ سروراً عظيماً؛ وكتب للأمير شيخٍ بالشكر والثناء على ما فعله مع نَوْروزٍ لأن الملك الناصر كان حصل له من نوروزٍ قهرٌ عظيم، كونه كان ولّاه نيابة دمشق، ولم يلتفت إلى شيخ، فتركه نَوْروز، ووافق شيخاً، فلم يقم شيخُ على صُلْحه مع نَوْروز إلا أياماً يسيرة، وتركهُ وعاد إلى طاعة السلطان، وحارب نَوْروزاً، فعرف له السلطان ذلك وولّاه نيابة دمشق عوضاً عن نَوْروز، وسلّطَ بعضهم على بعض.

ثم إن الملك الناصر في يوم الجمعة سابع جُمادى الأولى من سنة إحدى عشرة وثمانمائةٍ أمسك أعز أُمرائه الأمير بيغوت، وأمسك معه الأمير سُودُون بُقجة، والأمير أرنبغا أحد أمراء الطبلخانات، والأميرَ قَرا يشبُك، أحد أمراء العشرات، وقيد الجميع وأرسلوهم إلى سجن الإسكندرية. وخلع على إينال المنقار، وعَلّان، ويشبك الموساوي، وجعل كلًّا منهم أمير مائةٍ ومُقدّم ألف بالديار المصرية. ثمّ

---

(١) سعسع: قرية في فلسطين على بعد ١٥ كيلومتراً إلى الشمال من صفد. (الموسوعة الفلسطينية: ٢/ ٥٥٠).

خلـع السلطان على الأمير أرغون من بشبُغا، واستقرّ به أمير آخور كبيراً، عوضاً عن كَمَشْبُغَا الفيسيّ.

وأما أُمراء الشام فإن الأمير نَوْروزاً الحافظي لما خرج من دمشق لم يأمن على نفسه أن يكون بحلب عند تمُرْبغا المشطوب؛ وكان أول ما قدمها قابلهُ تَمُرْبغا المذكور ووافقه، ثم بدا له أن يكون على طاعة السلطان، ففطن نَوْروزٌ بذلك، فخرج من حلب بعد أمور، وسار إلى ملطية واستقر بها، وآواهُ ابنُ صاحب الباز[1] التركماني. ثم سلم تمُرْبُغا المشطوب حلب للأمير قَرْقَماس ابن أخي دَمُرداش المعروف بسيدي الكبير، ونزل من قلعتها. ثم فرّ جماعة من الأمراء أصحاب نَـوْرُوز إلى شيـخ، وهم: الأمير سُـودُون تلي المحمدي، وسـودُون اليوسفي، وأخبروه أن نَوْرُوزاً عزم على الفرار من أنطاكية؛ فسار شيخٌ بجموعه من العمق[2] يريد نوْرُوزاً بغتة، فأدرك أعقابه، وقبض على عدة من أصحابه وعاد إلى العمق. وبعث العسكر في طلبه، فقدِم عليه الخبرُ أنه أُمسك هو ويشبُك بن أزْدَمُرْ في جماعةٍ أُخر، فكتب شيخٌ في الحال يُعرِّفُ السلطان بذلك كله، فشكره السلطان على ذلك وأرسل إليه بالخلـع.

ثم إن السلطان في هذه السنة أضاف إمرة المدينة النبوية، وإمرة الينبـع، وخُليص[3]، والصفراء[4]، وأعمالهم، إلى الشريف حسن بن عجلان أمير مكة، وكتب له بذلك توقيعاً، وهذا شيء لم ينله أمير مكة قبله في هذا الزمان.

ثم في خامس عشرين جمادى الأخرة، أنعم السلطان بإقطاع بشباي رأس

---

(١) يفهم مما جاء في كتاب خطط الشام لكرد علي (٢: ١٨٨ ــ ١٩٣) أن ابن صاحب الباز هو ابن الفارس إياس بن صاحب الباز. وكان مستولياً على أكثر البلاد الشمالية للشام وكان عنده ما يزيد على ثلاثة الآف فارس غير الرجالة ــ وقد انضم إلى نوروز في حروبه مع شيخ المحمودي وانكسر فيها نوروز سنة ٨١١هـ.

(٢) العمق: كورة بنواحي حلب.

(٣) خليص: حصن بين مكة والمدينة.

(٤) الصفراء: قرية بين المدينة وينبع.

نوبة النوب ــ بعد وفاته ــ على الأمير إينال المحمدي الساقي المعروف إينال ضُضَع، وأنعم بإقطاع إينال المذكور على الأمير أرْغُون من بشبغا الأمير آخور الكبير، وأنعم بإقطاع أرْغون المذكور على الأمير مُقبل الرومي، والجميع تقادم ألوف، لكن بينهم التفاوُت في كثرة المغل والخراج. وأنعم بإقطاع مقبل الرومي ــ وهو إمرة طبلخاناه ــ على الأمير بُرْدبك. ثم خلع السلطان على الأمير إينال الساقي المذكور باستقراره رأس نوبة النوب، عوضاً عن بَشْباي المذكور بحكم موته.

ثم قَدِمَ الخبرُ على السلطان من شيخ بأن التركمان الذين كانوا قَبضوا على نَوْروز أطلقوه، وأن تَمُرْبغا المشطوب هرب من الأمير شيخ، وأن نَوْروزاً توجه بعد خلاصه من يد التركمان إلى قلعة[1] الروم، وأنه خرج من دمشق جماعةٌ كبيرة من عند شيخ إلى نوْروز، فركب شيخٌ في أثرهم فلم يدركهم، فعاد إلى دمشق وقبض على الأمير يشبُك العثماني. ثم بعد مدة يسيرة بلغ الأمير شيخاً أنه قيل للسلطان عنه إنه عاصٍ. فطلب الأمير شيخ القضاة وأعيان أهل دمشق، وكتب محضراً بأنه باقٍ على طاعة السلطان الملك الناصر، وبعث به مع القاضي نجم الدين عُمر بن حجّيّ. وقَدِم ابن حجّيّ بالمحضر، ومع المحضر المذكور كتابُ الأمير شيخ يستعطِفُ خاطر السلطان عليه، ويعتذر عن تأخرّه بإرسال من طلبه السلطان من الأمراء النَّوْروزيَّة. وكان السلطان قد بعث إليه قبل ذلك يشبُك الموساوي بطلب جماعةٍ من الأمراء، فلم يرسلهم شيخ إليه، فلم يقبل السلطان عذره، واشتد غضبه، وأظهر الاهتمام بالسفر إلى الشام. ثم كتب [السلطان] الجواب بتجهيز أمراء عيّنهم، وواعدهم على مدة ستة وعشرين يوماً، ومتى مضت هذه المدة ولم يجهزهم [شيخ]، سار السلطان لقتاله؛ وبعث السلطانُ بذلك على يد قاصد شيخ نجم الدين بن حجّيّ، فعاد ابن حجي إلى الأمير شيخ وأدى الرسالة، فأخذ شيخٌ في تجهيز الأمراء الذين طلبهم السلطان، وامتثل مرسومه بالسمع والطاعة.

(١) قلعة الروم، وتسمى قلعة المسلمين، غربي الفرات. ــ راجع فهرس الأماكن.

وبينما هو في ذلك، بلغهُ أن تغرى برمش كاشف[1] الرملة فرَّ منها لقدوم كاشف ونائب القدس من قبل السلطان، وأن السلطان قد عزم على المسير إلى الشام، وأخرج الروايا والقرب على الجمال ومعهم الطبول، نحو مائتي جمل إلى البركة[2]. فعند ذلك رجع شيخٌ عن إرسال الأمراء، وعول على مصالحة نوروز، وبعث إليه الأمير جانم ليصلح بينهما، وجهز له شيخٌ ستة آلاف دينار، فمال نوْروز لمصالحته. فلما بلغ دمرداش نائب حلب الخبرُ اهتم لقتال نوْروز، وجمع طوائف التركمان والعربان، وسار إليه بكْتَمُر جِلِّق نائب طرابلس، وحضر إليه أيضاً نائب أنطاكية. وبعث دمرداش ابن أخيه تغري بردي المعروف بسيدي الصغير ــ وهو يومئذ أتابك حلب ــ إلى مرج[3] دابق ومعه جماعة كبيرةٌ من التركمان. ثم أتاه بكْتَمُر جِلِّق، فرحلا من حلب بعساكرهما وقصدا نوْروزاً، وقد نزل نوْروز بجموعه على عين تاب. فتقدم إليه تغري بردي سيدي الصغير بالتركمان الكبكية[4]، جاليش عمه دَمُرداش، فرحل نوْروز إلى مَرْعش[5]، وتحاربت كشافته مع كشافة دَمُرداش محاربةً قويّة، أسر فيها عدةً من النُّوْروزية، وانهزم نوْروز، واستولى عسكر دَمُرداش على عين تاب، وعاد دَمُرداش إلى حلب، وكتب بذلك إلى السلطان؛ فسُر السلطان بذلك، وكتب الجواب: إني واصلٌ عقيب ذلك إلى البلاد الشامية».

وعظم اهتمام السلطان وعساكره للسفر، إلى أن خرج جاليشه من الأمراء إلى الريدانية، في يوم الأربعاء سابع المحرم من سنة اثنتي عشرة وثمانمائة، وهم: الوالد ــ وهو يومئذٍ أتابك العساكر بالديار المصرية ــ وآقباي الطرنطائي رأس

---

(١) الكاشف: هو الذي يشرف على أحوال الأراضي والجسور، ولذلك كان يسمى كاشف الجسور أو كاشف التراب. ــ راجع أيضاً فهرس المصطلحات.

(٢) أي بركة الحاج خارج القاهرة ــ راجع فهرس الأماكن.

(٣) مرج دابق: من أعمال حلب، قرب أعزاز أو عزاز.

(٤) الكبكيّة: من بطون التركمان الجراكسة ــ انظر كتاب السيف المهنّد في سيرة الملك المؤيّد (شيخ) لبدر الدين العيني: ص ٢٦.

(٥) مرعش: مدينة بالثغور بين الشام وبلاد الروم. أحدثها هارون الرشيد. (مراصد الاطلاع).

نوبة الأمراء، وطوخ أمير مجلس، وطوغان الحسني، وإينال المنقار، وكمشبُغا الفيسيّ المعزول عن الأمير آخورية، ويشبُك الموساوي الأفقم، وعدة أمراء أُخر من الطبلخانات والعشرات، ونزل الجميع بالريدانية.

ثم في يوم الاثنين حادي عشر المحرم المذكور، ركب السلطان الملك الناصر ببقية أمرائه وعساكره من قلعة الجبل، ونزل بمخيمه بالريدانية. وفي اليوم المذكور، رحل الوالدُ بمن معه من الأمراء وهوجاليش السلطان، وسار بهم يريد دمشق.

ثم خلع السلطان على الأمير أرغون من بشبُغا الأمير آخور الكبير باستقراره في نيابة الغيبة، وأنه يقيم بسكنه(١) بالإسطبل السلطاني. وخلع على مقبل الرومي، ورسم له أن يقيم بقلعة الجبل. وخلع على الأمير يلبُغا الناصري باستقراره في نيابة الغيبة(٢)، ويقيم بالقاهرة للحكم بين الناس، وكذلك الأمير كزل العجمي حاجب الحجاب(٣). ثم رحل السلطان في رابع عشر المحرم من الريدانية، يريد البلاد الشامية.

وأما الأمير شيخٌ نائب الشام، فإنه لما سمع بخروج السلطان من مصر، أفرج عن الأمير سودُون تلي المحمدي، وعن سُودون اليوسفي، وعن الأمير طوخ، وهم الذين كان السلطان أرسل إلى شيخ بطلبهم. وأظهر شيخٌ العصيان ، وأخذ في مصادرات أهل دمشق، وأفحش في ذلك إلى الغاية.

ثم سار الملك الناصرُ إلى أن وصل إلى غزة، وعزل عنها الأمير ألطُنْبُغَا

---

(١) كان من عادة نائب الغيبة أن يقيم بدار النيابة بالقلعة. ولما كان الأمير أرغون هذا أمير آخوراً فقد رسم له السلطان ألا يتحوّل عن مكان إقامته المعتاد وهو الإسطبل السلطاني؛ وهذه التفاتة تكريم من السلطان له، ذلك أن الإسطبل السلطاني كان أيضاً مكان إقامة الأتابك الكبير مدبّر المملكة والوصيّ على السلطان إذا كان هذا الأمير صغيراً. وفي حال وجود منصب الأتابك الكبير فإن العادة كانت تقضي بأن يتحوّل الأمير آخور عن الاسطبل السلطاني ويخْليه للأتابك الكبير.

(٢) الملاحظ أن السلطان عينٌ نائبين للغيبة، أحدهما في قلعة القاهرة والآخر في المدينة. وهذا الإجراء لم يكن بالأمر المعتاد. والظاهر أن ذلك كان من باب زيادة الحرص والاحتياط.

(٣) زاد المقريزي في السلوك: «ومرجع الجميع إلى الأمير يلبغا الناصري».

العثماني وولاه نيابة صفد، وخلع على الأمير إينال الصصلاني الأمير آخور الثاني باستقراره عوضه في نيابة غزة. وكان الأمير شيخٌ قد أرسل قبل ذلك الأمير سودون المحمدي ودواداره شاهين إلى غزة؛ فلما وصل جاليش السلطان إليها انهزما من الرملة إلى شيخ، وأخبراه بنزول السلطان على غزة. وكان استعدّ شيخٌ في هذه المرة لقتال السلطان، فلما تحقق قدومه، خارت طباعه، وتحول في الوقت إلى داريا[١]. فقدم عليه الأمير قرقماس ابن أخي دمرداش فاراً من صفد، وشجع الأمير شيخاً على ملاقاة السلطان وقتاله، وعرفه أن غالب عساكره قد تغير خاطرهم على السلطان، فلم يلتفت شيخٌ لذلك، وأبى إلا الهروب، ثم قدم عليه الأمير جانم نائبُ حماة بعسكره، وعرفه قدوم نوْروز عليه، وهو مع ذلك في تجهيز الرحيل من دمشق.

وسار السلطان من غزة حتى نزل اللجون[٢] في يوم السبت أول صفر من سنة اثنتي عشرة وثمانمائة، فكثر الكلام في وطاق[٣] السلطان بتنكر قلوب المماليك الظاهرية على السلطان، وتحدثوا في بعضهم بإثارة فتنة، لتقديمه مماليكه الجلب[٤] عليهم، وكثرة عطاياه لهم. فلما أصبح السلطان رحل من اللجون ونزل بيسان[٥] وأقام بها نهاره إلى أن غربت الشمس، فماج العسكر، وهدت الخيم، واشتد اضطراب الناس. وكثر قلق السلطان طول ليلته إلى أن أصبح وجد الأمير تمراز الناصري النائب، وإنيهُ[٦] وزوج بنته سُودُون بقجة، والأمير إينال المنقار، والأمير قرا يشبُك، والأمير سُودون الحمصي، وعدةً كبيرة من

(١) داريا: من قرى دمشق بالغوطة. (معجم البلدان).

(٢) اللجُّون: بجيم مشدّدة. قرية في فلسطين تقع على بعد ١٨ كيلومتراً شمالي غرب جنين، وتبعد كيلومترين إلى الجنوب من تلّ المتسلّم (مجدّو) ـ (الموسوعة الفلسطينية: ٤/ ٣٦).

(٣) الوطاق: الخيمة الكبيرة تعدّ للسلاطين والأمراء الكبار ـ راجع فهرس المصطلحات.

(٤) المماليك الجُلْب، أو الأجلاب، أو المشتروات: هم الذين اشتراهم السلطان وجلبهم من الخارج ليكونوا خاصته ويعتمد عليهم. ـ راجع أيضاً فهرس المصطلحات.

(٥) بيسان: مدينة بفلسطين بين نابلس وعين جالوت.

(٦) راجع ص ٢٦٤ من الجزء ١٢، حاشية (١) ـ والضمير في هذا اللفظ عائد على تمراز الناصري.

المماليك السلطانية قد فروا إلى الأمير شيخ. وكان سبب فرارهم في هذه الليلة أن آقْبُغَا الدوادار اليشبكي عرف السلطان بأن هؤلاء الجماعة يريدون إثارة فتنة، فطلب السلطان كاتب سره فتح الله، وجمال الدين الأستادار، وعرفهما ما بلغه عن الجماعة؛ فدار الأمرُ بينهم على أن السلطان في وقت المغرب يُرسل خلفهم ويقبض عليهم. وخرجوا على ذلك من عند السلطان، فغدر جمال الدين الأستادار وأرسل ـ بعد خروجه من عند السلطان ـ عرف الأمراء بالأمر. وكان تمراز قدم من مصر في محفة، لرمد كان اعتراه، فأعلمهم جمالُ الدين بالخبر. وبعث إليهم بمالٍ كبيرٍ لهم وللأمير شيخ نائب الشام، فأخذوا حذرهم، وركبوا قبل أن يرسل السلطان خلفهم، ولحِقُوا بالأمير شيخ. ولما خرجوا من الوطاق وسارُوا لم يكن حينئذ عند السلطان أحدٌ من أكابر الأمراء، لتوجههم في الجاليش أمام السلطان؛ فبعث السلطان خلف فتح الله وجمال الدين الأستادار، ولا علم للسلطان بما فعله جمالُ الدين المذكور، وكلَّمَهُما فيما يفعل، واستشارهما، فأشار عليه فتحُ الله بالثبات، وأشار عليه جمالُ الدين بالركوب ليلاً وعوده إلى مصر ـ يريد بذلك إفساد حاله ـ فمال السلطان إلى كلام فتح الله، وأقام بوطاقه، فلما طلع الفجرُ ركب وسار بعساكره نحو دمشق، فقَدِمَ عليه الخبرُ برحيل شيخ من دمشق إلى بُصرى[1]، فنزل السلطان على الكُسوة[2]، ففرّ في تلك الليلة الأميرُ علان وجماعة من المماليك لشيخ. فركب السلطان بُكرة يوم الخميس سادس صفر، ودخل دمشق، ونزل بدار السعادة. ثم قبض على شهاب الدين أحمد الحسباني وسلمه إلى الأمير أَلْطُنْبُغا شقل، من أجل أنه أفتى بقتاله، وطلب ابن التَّبَّانيّ فإذا هو سار مع شيخ. وكتب السلطان بالإفراج عن الأمير أرْغَز، وسُودُون الظريف، وسلمان، من قلعة الصبيبة. وخلع على الأمير زين الدين عُمر الهيدباني باستقراره حاجب حُجَّاب دمشق، وعلى أَلْطُنْبُغَا شَقَل حاجباً ثانياً، وخلع على الأمير بُرْدبك باستقراره في نيابة حماة عِوَضاً عن جانم. ثم كتب السلطان للأمير نَوْرُوزٍ تقليداً بنيابة حلب عوضاً عن الأمير دَمُرْدَاش المحمدي.

(١) بُصرى: قصبة كورة حوران من أعمال دمشق.

(٢) الكسوة: قرية صغيرة، وهي أول منزلة تنزلها القوافل بعد خروجها من دمشق متوجهة إلى مصر.

ثم قَدِم الأمير بكْتَمُر جِلّق نائب طرابلس إلى دمشق، وأخبر أن الطاعون فشا ببلاد حمص وطرابلس. ثم في عشرينه قدِم الأميرُ دَمُرْدَاش المحمدي نائب حلب فأكرمه السلطان وخلع عليه. ثم خلع السلطان على الأمير بكْتَمُر جِلِّق باستقراره في نيابة دمشق عِوَضاً عن شيخ المحمودي، وخلع على دمرْدَاش المحمدي باستقراره في نيابة طرابلس عوضاً عن بَكْتَمُر جِلِّق ــ مضافاً لنيابة حلب.

ثم وقَع من جمال الدين الأستادار نكبة في حق بعض أصحاب الأمير شيخ، وهو أنه أمسك جمال الدين القاضي ناصر الدين ابن البارزي وضربه ضرباً مُبرحاً، لأجل معلوم تناوله لشمس الدين أخي جمال الدين الأستادار. ثم في ليلة السبت أيضاً قتل جمال الدين الأستادارُ القاضي شرف الدين بن الشهاب محمود الحلبي كاتب سر دمشق، لحقد كان في نفس جمال الدين منه أيام خموله بحلب، وكان شرفُ الدين أيضاً من أصحاب الأمير شيخ، وكان عبد الباسط بن خليل في خدمة شرف الدين هذا، ومنه تعرف بالأمير شيخ، وكان عبدُ الباسط في أيام سعادته بمصر ينقل في غالب أفعاله عن أستاذه شرف الدين هذا.

ثم في يوم الاثنين ثاني شهر ربيع الأول، خرج أطلاب السلطان والأمراء من دمشق، وتَبِعَهُم السلطانُ بعساكره وهُم بآلة الحرب والسلاح، ونزل بالكسوة. وأصبح راحلاً إلى جهة الأمير شيخ ورُفقتهِ، فالتقى كشّافةُ السلطان مع كشّافةِ شيخ، واقتتلوا، وأسر من الشيخية رجلٌ، ثم انهزمت الشيخية. ثم سار السُّلطان بكرة يوم الأربعاء فنزل قرية الحراك نصف النهار، وأقام بها قدر ما أكل السماط. ثم ركب منها بعساكره وسار سيراً مُزْعِجاً، ونزل عند الغروب بكَرَك البثنيّة[١] من حَوْران، وبات. وأصبح وسار حتى نزل مدينة بُصرى، فتحقق هناك خبر شيخ بأنه في عصر يوم الأربعاء الماضي بلغه أن السلطان خرج من دمشق في أثره، فرحل من بُصرى بعساكره فزعاً يريد صرخد بعد ما كلّمهُ الأمراء في الثبات، وقتال الملك الناصر؛ فلم يقبل، وركب من وقته، وترك غالب أصحابه بمدينة بصرى؛ ثم تبعته أصحابه مع كثرة عددهم إلى صرخد.

(١) البثنيّة: هي مدينة أذرعات، من أعمال دمشق القبليّة. (صبح الأعشى: ٤/١٠٥).

ولما بلغ الملك الناصر فرارُ شيخٍ وأصحابه، تأوّه لذلك وقال لكاتب سرّه فتح الله ولجمال الدين الأستادار: «ألم أقل لكما إن شيخاً فظيعٌ[١]، ليس له قلبٌ، ولو كان معه مائة ألف مقاتل لا يقدر أن يقابلني بهم، لرُعب سكن في قلبه مني؟». ثم أقام السلطان على بُصرى إلى بُكرة يوم السبت، فقدم عليه وهو ببُصرى الأميرُ برسباي الدُّقماقي الساقي ـ أعني الملك الأشرف ـ والأمير سكب اليوسفيّ، فأكرمهما السلطان ووعدهما بكل خير، ثم ركب وسار ـ وهو ثمل ـ حتى نزل بقرية عُيون تجاه صرخد، فتناوش العسكران بالقتال، فقُتل من جماعة شيخ فارسان، وجُرح جماعةٌ من السلطانية، ثم فرَّ جماعة أخر من السلطان إلى الأمير شيخ. وبات السلطان وأصبح في وقت الفجر نادى أن لا يهدّ أحد خيمته، ولا يُحَمَّل جملٌ، وأن يركب العسكر خيولهم، ويجرّ كل فارس جنيبه[٢] مع غلامه من غير أن يأخذوا أثقالهم. فركبوا، وسار بهم على هذه الحالة حتى طرق شيخاً وأصحابه على حين غفلة، بعد أن كان سار هو بنفسه أمام عسكره مُسرعاً، وأُمراؤه يُخَذّلونه من انقطاع عساكره عنه، ويقولون له: «بمن تلقى شيخاً، وقد عظُم جمعه وتخلفت عساكر السلطان مُنقطعة؟»، والملكُ الناصر لا يلتفت إلى قولهم ويقول: «لو بقي معي عشرةُ مماليك لقيتُ بهم شيخاً ومن معه. [أنا] أعرفهم حق المعرفة».

ودام على سيره حتى طرق شيخاً على حين غفلة، وقد عبأ شيخٌ عساكره، فأوقف المصريين ناحية ـ أعني الذين فرّوا إليه من الملك الناصر ـ وجعل عليهم الأمير تمراز النائب، ووقف هو في ثقاته وخواصه، وهم نحو خمسمائة نفر، فتقدَّم السلطانُ وصدم بعساكره الأمير تمراز بمن معه ـ وكانوا جمعاً كبيراً ـ فانكسروا من أول وهلةٍ. ثم مال على الأمير شيخٍ وأصحابه، وقد تقهقر شيخ وأصحابه إلى جهة القلعة، فكان بينهم معركةٌ صدراً من النهار، وهو يتأخر إلى المدينة،

(١) كذا في طبعة كاليفورنيا. وفي بعض الأصول: «قطيع».
ونرجّح أنه المراد، إذ لعلّه من العاميّة «قطيع» و«قطيعة» بمعنى جبان. يُقال: فلان قطيعة، أي ضعيف القلب، شديد الخوف جبان.

(٢) الجنيب: المقود إلى الجنب من الخيل وغيرها.

وأصحابه تتسلل منه، وصار القتالُ بجدران مدينة صرخد. ولا زال شيخٌ يتأخر بمن معه، والملكُ الناصرُ يتقدم بمن معه، حتى ملك وطاق شيخ وانتهب جميع ما كان فيه من خيلٍ وقماش وغيرها. ثم هرب شيخٌ إلى داخل جُدران المدينة. واستولى السلطانُ على جامع صرخد، وأصعد أصحابه فرموا من أعلى المنارة بمكاحل النفط والمدافع والأسهم الخطائية[1] على شيخ، وشيخٌ يلوم أصحابه ويُوبخّهم على ما أشاروا عليه من قتال الملك الناصر. ثم حمل السلطانُ عليه حملةً منكرة بنفسه، فلم يثْبُت شيخٌ وانهزم والتجأ في نحو العشرين من أصحابه إلى قلعة صرخد، وكانت خلف ظهره وقد أُسند عليها، فتسارع إليه عدةٌ من أصحابه، وتمزق باقيهم. وطلع شيخٌ إلى قلعة صرخد في أسوإ حال، وأحاط السلطان على المدينة، ونزل حول القلعة، وأتاهُ الأمراء فقبّلوا الأرض بين يديه، وهنَّؤوه بالظفر والنصر. وامتدت أيدي السلطانية إلى مدينة صرخد، فما تركوا بها لأهلها جليلاً ولا حقيراً. وانطلقت ألسنةُ أهل صرخد بالوقيعة في شيخ وأصحابه، وأكثروا لهُ التوبيخ بكلام معناه أنه إذا لم يكن له قوة ما باله يقاتل من لم يطق دفعه وقتاله.

وسار الأمير تمراز، وسودون بُقجة، وسودون الجلب، وسودُون المحمدي، وتَمُرْبغا المشطوب، وعلاّنُ في عدةٍ كبيرةٍ إلى دمشق، فقدمُوها يوم الاثنين تاسعه، فقاتلتهم العامة ودفعوهم عنها، وأسمعوهم من المكروه أضعاف ما سمعه شيخٌ بصرخد، فولوا يريدُون جهة الكرك، وهُم في أحقر ما يكون من الأحوال. وسارُوا عن دمشق بعد ما قُتل منهم جماعةٌ، وجرح جماعة، وتأخر كثيرٌ منهم بظواهر دمشق، ومضى منهم جماعة إلى حماة، والجميعُ في أنحس حال، وأخذ منهم جماعةٌ كثيرةٌ بدمشق وغيرها.

ولما دخلت الأمراء على السلطان الملك الناصر للتهنئة حسبما ذكرناه التفت

---

(١) الأسهم الخطائية: هي سهام عظام يرمى بها عن قسّي عظام توتر بلولب يجر بها ويرمى عنها فتكاد تخرق الحجر (صبح الأعشى ٢ : ١٤٤). ولعل نسبتها إلى أمة الخطا أي الصين.

السلطان للوالد، وكان يُسميه أطا[١]: أعني أب، وقال له: «يا أطا، أنا ما قلتُ لك أنا أعرف شيخاً! إذا كان معي عشرةُ مماليك قاتلته بهم». ثم تكلم في حق شيخ بما لا يليق ذكره، فقال له الوالد: «يا مولانا السلطان، هذا كله بسعد مولانا السلطان، وعظم مهابته. وأما شيخٌ فإنه إذا كان من حزب السلطان وشمله نظرُ مولانا السلطان من ذا يُضاهيه في الفروسية؟ غير أنّـ[ـه] للرُّعب الذي في قلبه من حرمة مولانا السلطان وغضبه عليه يقع في مثل هذا أو أكثر».

قلتُ: وأظهر الملكُ الناصرُ من الشجاعة والإقدام ما سيذكر عنه إلى يوم القيامة. على أن غالب أُمرائه ومماليكه الأكابر كانوا اتفقوا مع جمال الدين الأستادار أنهم يَكْبسُون عليه ويقتلونه في الليل. وبلغ الملك الناصر ذلك من يوم خروجه من غزة، فاحترز على نفسه. وأشار عليه كلٌّ من خواصه أن يرجع عن قتال شيخٍ وأصحابه بحيلةٍ يدبرها، ويرجع إلى نحو الديار المصرية، مخافة أن تخذله عساكره، فلم يلتفت إلى كلام أحد، وأبى إلاّ قتالَ شيخ ــ وهذا شيء مهولٌ عظيمٌ إلى الغاية، وإن كان هو يهول في السماع، فإذا تحققه الشخصُ يهوله إلى الغاية، من كون عسكر الملك يكونُ مختلفاً[٢] عليه وهو يريد يقاتل ملوكاً[٣] عديدة، كل واحدٍ منهم مرشحٌ للسلطنة. وما أظن أن بعد الملك الأشرف خليل بن قلاوون ولي على مصر سلطانٌ أشجع من الملك الناصر هذا في مُلُوك التُّرك جميعها. ولقد أخبرني جماعة كبيرةٌ من أعيان المماليك الظاهرية الذين كانوا يوم ذاك مع الأمير شيخ المذكور، قالوا: لما قيل للأمير شيخ: إن السلطان الملك الناصر قَدِم إلى جهة صرخد، تغير لونه واختلط في كلامه، وأراد طلوع قلعة صرخد قبل أن يُقاتل الملك الناصر، فلامه على ذلك بعضُ خواصّه، وقالوا له: قد انضم عليك في هذه المرة من الأمراء والعساكر ما لم يجتمع مثله لأحد قبلك، فإن كنت بهم لا تقاتلُ الملك الناصر في هذه النوبة فمتى تقاتله؟ وبعد

(١) ومن ذلك تسمية الأتابك أو الأطابك ــ راجع أيضاً فهرس المصطلحات.
(٢) مراده أن عسكره غير موافقين له، غير ملتفّين حوله.
(٣) المراد بهم كبار الأمراء.

هذا فلا ينضم عليك أحدٌ. فقال شيخٌ: صدقت فيما قلت! غير أن جميع من تنظرُه الآن، وهو يتنمر على فرسهِ، إذا وقَع بصرُه على الملك الناصر صار لا يستطيع الهروب، فكيف القتال؟! فقال له القائل: فالذي يعلمُ هذا لا يصلح له أن يعصي ويتطلب السلطنة. فقال شيخٌ: والله ما أريد السلطنة! وإنما غالبُ ما أفعله خوفاً من شر هذا الرجل، وقد بذلتُ له الطاعة غير مرة، وتوجّهتُ إلى خدمته بمصر والشّام، وقاتلتُ أعداءه! والله أنا أهابُه أكثر من أستاذي الملك الظاهر برقُوق! غير أنه لا يريد إلّا أخذ رُوحي، والرُّوحُ والله لا تهُون، فأيش يكون العمل؟.

وشرع يتكلم في هذا المعنى ويُكثر، حتى أمرهُ تِمْرازُ النائب بالكفِّ عن هذا الكلام في مثل هذا الوقت، والعمل فيما يعود نفعُه عليه وعلى رفقته. فكف شيخٌ عن ذلك، وأخذ في تدبير أمره وتعبية عساكره، حتى وقع ما حكيناه ــ انتهى.

ولما نزل السلطانُ الملكُ الناصر على قلعة صرخد، أصر النوَّاب أن يتوجه كلُّ واحد منهم إلى محل كفالته(١)، فسار الجميعُ إلا الأمير دَمُرْداش المحمدي، فإنه أرسل ابن أخيه تغري بردي المدعو سيدي الصغير إلى حلب، ليكون نائباً عنه بها، وأقام هو عند السلطان على صرخد، وكذلك الأمير بكتمر جلَّق نائب الشام، فإنه أيضاً أقام عند السلطان. وأخذ السلطانُ في حصار قلعة صرخد، وعزم على أنه لا يبرح عن قتالها حتى يأخذها.

ثم قَدِم الخبرُ على السلطان أن تُرْكُمان الطَّاعة قاتلُوا نَوْرُوزاً وكسرُوه كسرةً قبيحةً، فدُقَّت البشائر بصرخد لذلك. ثم أمر السلطان دمرداش المحمدي بالتوجه إلى محل كفالته بحلب. هذا ونوَّاب الغيبة بدمشق في أمرٍ كبير من مصادرات الشيخية، وقبضوا على جماعة كبيرة من حواشيه، منهم: علم الدين داود، وصلاح الدين أخوه ابنا الكُوَيز ــ قُبض عليهما من بيت نصراني بدمشق، فأُهينا ــ وقُبض أيضاً على شهاب الدين أحمد الصّفديّ مُوَقِّع الأمير شيخ، وتوجّه

(١) أي مكان نيابته أو ولايته.

الطَّواشي فيرُوز الخازندار فتسلمهم من دمشق. هذا والملكُ الناصرُ مُستمرٌ على حصار قلعة صرخد، وأحرق جسر القلعة، فامتنع شيخٌ بمن معه داخلها. فأنزل السلطانُ الأمراء حول القلعة، وألزم كل أمير أن يُقاتل من جهته، والسلطانُ في لهوه وطربه لا يركب إلى جهة القلعة إلا ثملاً. ثم طلب السلطانُ مكاحل النفط، والمدافع من قلعة الصبيبة وصفد ودمشق، ونصبها حول القلعة ـ وكان فيها ما يرمي بحجر زنتهُ ستون رطلاً دمشقياً. وتمادى الحِصار ليلاً ونهاراً، حتى قَدِمَ المنجنيق من دمشق على مائتي جَمَل، فلما تكامل نصبُه ولم يبق إلا أن يرمى بحجره، وزنة حجره تسعون رطلاً بالدمشقيّ. فلما رأى شيخ ذلك خاف خوفاً عظيماً، وتحقق أنه متى ظفر به الملك الناصر على هذه الصورة لا يُبقيه، فترامى على الوالد، وعلى بقية الأمراء، وألقى إليهم الأوراق في السهام. وأخذ شيخٌ لا يقطع كُتُبَه عن الوالد في كل يوم وساعة، وهو يقول له في الكُتُب: «صُنْ دماء المُسلمين واجعلنا عُتقاءك؛ وما لك فينا جميلةٌ، فإننا إنياتُك[1]، وخشداشيتك، ولم يكن في القوم من له عليَّ أنا خاصَّة شفقة وإحسان غيرك وأنت أتابكُ العساكر وحموُ السلطان، وأعظمُ مماليك أبيه، فأنت عنده في مقام برقوق، وكلمتُك لا تردُّ عنده، وشفاعتُك مقبولة» وأشياء كثيرة من هذا الكلام وأشباهه. وكان الوالدُ يميلُ إلى الأمير شيخ لما كان لشيخٍ عليه من الخدم بالقصر السلطاني أيام أستاذهما الملك الظاهر برقوق من تلبيسه القُماش، والقيام في خدمته. ثم كاتب شيخ أيضاً الأمير جمال الدين الأستادار، وفتح الله كاتب السر؛ وكان جمالُ الدين قد انحط قدره عند الملك الناصر في الباطن، واتفق السلطانُ مع الوالد على مسكه بدمشق، فمنعهُ الوالدُ من ذلك، ووعده أنه يكفيه أمره ويمسكه بالقرب من القاهرة، حتى لا يفر أحدٌ من أقاربه وحواشيه.

ثم أخذ الوالد مع السلطان في أمر شيخ ورفقته في كل يوم وساعة، ولا زال يخذل الملك الناصر عن قتالهم، ويحسن له الرضى عنهم حتى أذعن السلطان، وشرط عليه شرُوطاً، فعند ذلك ركب الوالدُ ومعه الخليفةُ المُستعين

(١) راجع ص ٢٦٤ من الجزء ١٢ حاشية (١).

بالله العباس، وفتح الله كاتب السر، في يوم السبت ثاني عشرين شهر ربيع الأول من سنة اثنتي عشرة وثمانمائة المذكورة، وساروا حتى نزلوا على جانب الخندق، وخرج شيخٌ وجلس بداخل باب القلعة؛ فأخذ الوالدُ يوبخُه على أفعاله، وما وقع للناس والبلاد بسببه، وهو ساكت لا يتكلم ــ وقيل إن شيخاً أراد الخُروج إليهم فغمزهُ الوالد ألا يخرج، ففطن شيخٌ بها، وجلس بداخل باب القلعة. ثم أخذ فتحُ الله أيضاً يحذره مخالفة السُّلطان، ويخوفه عواقب البغي، وفي كل ذلك يعتذرُ شيخٌ للوالد بأعذارٍ مقبولة، ويستعفي من مقابلة السلطان، خوفاً من سوء ما اجترمه، والوالدُ يشتدُّ عليه، ويُلزمُه بالخروج معه إلى السلطان في الظاهر، وفي الباطن يشير عليه بعدم الخروج ــ هكذا حكى الملكُ المؤيدُ شيخٌ بعد سلطنته. وطال الكلامُ حتى قام الوالدُ، والخليفةُ، وفتحُ الله، وأعادوا بالجواب على السلطان، فأبى السُّلطانُ الرضى عنه إلا أن ينزل إليه. فكلم الوالدُ السُّلطان في العفو عن ذلك، فلم يقبل؛ فكرر عليه السؤال مرات، وقبَّل يده والأرض غير مرَّة، واعتذر عن عدم حضوره بأعذارٍ مقبولة.

ثم عاد الوالدُ وفتحُ الله فقط إلى شيخ. فخرج شيخٌ حينئذٍ للوالد فعانقه الوالدُ، فبكى شيخ؛ فقال له الوالدُ على سبيل المُداعبة والمماجنة: «ما مُتّ يا شيخ حتى مشينا في خدمتك». فقال شيخٌ: «لم تزل الأكابرُ تمشي في مصالح الأصاغر». كلُّ ذلك في حال الوُقُوف للسلام. ثم جلسا، وعرفه الوالدُ رضى السلطان عليه، وعرفه الشروط، فقبلها، وقام قائماً وقبَّل الأرض غير مرة. وتقدم فتحُ الله وحلفه على طاعة السلطان، وأخذ منه الأمير كمشبغا الجماليّ، وأسنْبُغا ــ وكانا في حبس الأمير شيخ ــ بعدما خلع عليهما شيخ وأدلاهما من سور قلعة صرخد. ثم أدلى الأمير شيخ ابنه إبراهيم ليتوجه مع الوالد ويقبِّل يد السلطان، فلما تعلق الصغيرُ من أعلى السور بالسُّرياقات(١)، صاح وبكى من خوفه أن يقع، فرحمه الوالدُ وأمره برده إلى القلعة، فنشلوه ثانياً، وقال الوالد: «أنا أكفيك هذا الأمر ولا يحتاج إلى نزول الصغير». ثم تصايح الفريقان من أعلى السور ومن

(١) السرياقات: جمع سرياق، وهو الحبل الغليظ.

جميع خيم العسكر: «اللَّهُ ينصرُ السُّلطان»، فرحاً بوقوع الصُّلح. وفرح أهلُ القلعة من أصحاب شيخ فرحاً عظيماً، لأنهم كانوا قد أشرفُوا على الهلاك. وأما فرحُ العسكر فإن غالب أُمراء الملك الناصر كانوا غير نصحاء له، ولم يرد أحدٌ منهم أن يظفر بشيخ، حتى ولا الوالد، خشية أن يتفرغ السلطان من شيخ لهم.

ثم أصبحوا يوم الأحد، ركب الوالدُ وكاتبُ السر وجماعة من الأمراء، وطلعوا إلى قلعة صرخد، وجلسوا على عادتهم[1]، وخرج شيخٌ وجلس على باب القلعة. وأحلف فتحُ الله من بقي مع شيخ من الأمراء [للسلطان][2]، وهم جانم من حسن شاه نائب حماة، وقَرْقماس ابن أخي دَمُرْداش ــ وقد فارق عمه دَمُرْداش، وصار من حزب شيخ ــ وتمراز الأعور. وأفرج شيخ عن تجار دمشق، الذين كان قبض عليهم لما خرج عن الطاعة وصادرهُم. ثمّ بعث شيخٌ بتقدمة إلى السلطان فيها عدة مماليك.

وتقرَّر الحالُ على أن شيخاً المذكور يكون نائب طرابلس، وأن يلبس التشريف السلطاني إذا رحل السلطانُ. ثم قام الوالدُ ومن معه وسلم على شيخ، وعاد إلى السلطان.

فرحل السلطانُ من وقته، وسار حتى نزل زرع[3] وبات بها. ثم سار حتى قدم دمشق يوم الثلاثاء أول شهر ربيع الآخر، بعد أن جد في السير، فنزل بدار السعادة على عادته.

وأما شيخ فإنه نزل من قلعة صرخد بعد رحيل السلطان، ولبس التشريف السلطاني بنيابة طرابلس، وقبّل الأرض على العادة[4]، ثم قبّل يد الوالد غير مرَّة. ثم جهز شيخٌ ولده إبراهيم صحبة الوالد إلى السلطان الملك الناصر. ورحل الوالدُ، ورحل معه سائر من تخلف عنده من الأمراء، منهم: بَكْتَمُر جِلّق نائب

(١) عبارة السلوك: «وجلسوا على شفير خندقها وكنت معهم . . .».

(٢) زيادة عن السلوك.

(٣) زرع: من أعمال حوران، وهي نطق العامة لقرية زره (معجم البلدان).

(٤) ليس ضرورياً أن يكون تقبيل الأرض بين يدي السلطان فقط، وإنما جرت العادة أن يكون أيضاً بين يدي مبعوثه دلالة على الشكر وتوكيداً للخضوع.

الشام ــ وهو أعدى عدو للأمير شيخ ــ وساروا حتى وصلوا الجميع دمشق في سابع شهر ربيع الآخر المذكور. وأحضر الوالدُ إبراهيم ابن الأمير شيخ إلى السلطان، فأكرمه السلطان وخلع عليه، وأعاده إلى أبيه، ومعه خيولٌ، وجمالٌ، وثيابٌ، ومالٌ كبير.

ثم خلع السلطانُ على الشريف جماز بن هبة الله بإمرة المدينة النبوية ــ على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ــ وشرط عليه إعادة ما أخذه من الحاصل بالمدينة.

ثم في رابع عشر شهر ربيع الآخر المذكور، خرج قضاة مصر الذين كانوا في صحبة الملك الناصر من دمشق عائدين إلى الديار المصرية، وهم وكثيرٌ من الأثقال، ونزلُوا بداريّا خارج دمشق. ثم طُلبت القُضاة من يومهم فعادُوا إلى مدينة دمشق، لعقد [قران] ابنة السلطان على الأمير بَكْتَمُر جِلّق نائب الشام.

ثم في يوم الخميس سابع عشره، حمل بكتمر جلق المهر، وزفّته المغاني حتى دخل دار السعادة إلى السلطان، ثم عقد العقدُ بحضرةِ السلطان والأمراء والقضاة، فتولى العقدَ السلطانُ بنفسه، وقبلهُ عن الأمير بَكْتَمُر جِلّق الوالد. ثم خرجت القضاةُ من الغد في يوم الجمعة سائرين إلى مصر، ثم صلّى السلطانُ صلاة الجمعة بالجامع الأمويّ، وخرج منه وسار من دمشق بعساكره يريد القاهرة، ونزل بالكسوة. وخلع على الأمير نكباي باستقراره حاجب حُجّاب دمشق، عوضاً عن عُمر بن الهيدبانيّ.

ثم في تاسع عشره أخلع السلطانُ على الأمير سُودُون الجلب باستقراره في نيابة الكرك.

ثم سار السلطانُ في ليلة الأحد من الكُسوة. واستولى بَكْتَمُر جِلّق على دمشق، ونزل بدار السعادة. وسار السلطانُ حتى نزل الرملة في رابع عشرينه، وركب منها وسار مُخفاً يريد زيارة القُدس، وبعث الأثقال إلى غزة، ودخل القُدس وزاره، وتصدّق بخمسة آلاف دينار، وعشرين ألف درهم فضة، وبات ليلته في القُدس. وسار من الغد إلى الخليل عليه السلام فبات به، ثمّ توجه إلى غزة، فدخلها في سابع عشرينه، وأقام بها إلى ثاني جُمادى الأولى، فرحل منها.

وأما دِمَشْقُ، فإنه قَدِمَ إليها في ثالث جمادى الأولى كتابُ السلطان إلى أعيان أهل دمشق بأنه قد ولى الأمير شيخاً نيابة طرابلس، «فإن قصد دمشق فدافعوه عنها وقاتلوه». وسببُه أن الأمير شيخاً كان قصد دخول دمشق، وكتب إلى الأمير بكتمر جلق يستأذنه في الحضور إليها ليقضي بها أشغاله ثم يرحل إلى طرابلس. وكان الذي قصدهُ الأميرُ شيخٌ على حقيقته، وليس له غرض في أخذ دمشق، فلم يأذن له بَكْتَمُر في الحضور إليها وخاشنهُ بالكلام. فقال شيخٌ: أنا أسيرُ إلى جهة دمشق ولا أدخلها. وسار حتى نزل شيخٌ في ليلة الجمعة عاشر جمادى الأولى على شقحب(١). وكان الأمير بَكْتَمُر قد خرج بعساكر دمشق إلى لقائه، ونزل بقبة يلبُغَا؛ ثم ركب ليلاً يريدُ كبس الأمير شيخ، فصدف كشّافته عند خان ابن ذي النّون فواقعهم. فبلغ ذلك شيخاً، فركب وأتى بَكْتَمُر وصدمه بمن معه صدمةً كسرهُ فيها؛ وانهزم بَكْتَمُر بمن معه إلى جهة صفد، ومعه قريب من مائة فارس، وعدَّةٌ من الأمراء، وتخلف عنه جميعُ عساكر دمشق. وسار شيخٌ حتى أتى دمشق بكرةَ يوم الجُمعة، ونزل بدار السعادة من غير مُمانع، وقد تلقَّاه أعيان الدِّماشقة، فاعتذر إليهم، وحلف لهم أنه لم يقصد سوى النُّزُول بالميدان خارج دمشق ليقضي أشغاله، وأنه لم يكن له استعداد لقتال، وأنّه كتب يستأذن الأمير بَكْتَمُر في ذلك، فأبى ثم خرج وقاتله فانهزم. وسأل [شيخٌ] جماعةً من أعيان دمشق أن يكتُبوا للسلطان بذلك، بعد أن كتب بهذا جميعه محضراً، وأراد إرساله إلى السلطان، فلم يجسر أحدٌ من الشاميين أن يمضي به إلى السلطان الملك الناصر، خوفاً من سطوته.

ثمّ في ثالث عشره ولى الأميرُ شيخ شهاب الدين أحمد بن الشهيد نظر جيش دمشق، وولّى شمس الدين محمد بن التباني نظر الجامع الأموي، وولّى تغري برمش أستاداره نيابة بعلبك، وولّى إياساً الكَرَكيّ نيابة القدس، وولّى منكلي

(١) شقحب: من ضواحي دمشق.

(٢) زيادة عن السلوك.

(٣) هذه التعيينات التي أجراها شيخ في دمشق وتوابعها، والتي لم تكن من اختصاصه وصلاحياته، تشير بوضوح إلى عدم سلامة نيّته في طلب الدخول إلى دمشق. والمستغرب بعد هذا أن نرى أبا المحاسن يؤكد صحّة ادعاء شيخ بأنه ما قصد سوى قضاء بعض حاجاته الشخصية.

بُغَا كاشف القبلية، وولى الشريف محمد [بن دغا](٢) محتسب دمشق(٣).

وأما السُّلطانُ فإنه لمّا خرج من مدينة غزّة سار منها حتى نزل قرية غيتا(١) خارج مدينة بلْبيْس في يوم الخميس تاسع جمادى الأولى. ولما استقر السُّلطانُ في المنزلة المذكورة، وقد خرج الناسُ لتلقي العسكر، وخرج غالبُ أقارب جمال الدين الأستادار إلى تلقيه، وفُرشت له الدّورُ بالقاهرة، فركب الوالدُ بقُماش جُلُوسهِ من مُخيَّمه من غير أن يجتمع بالسلطان، لاتفاق كان بينهما من دمشق في القبض على جمال الدين المذكور لأسباب نذكُرُها. وكان الوالدُ يكره جمال الدين بالطبع، على أنه باشر أيام عظمته أُستادارية الوالد، مُضافاً إلى أُستاداريَّة السُّلطان، وصار يجلس مع مباشريه وينفذُ الأمور، ومع ذلك لم يُقبل عليه الوالد، لقلة دينه وسفكه الدماء، وعظم ظُلمه. وسار الوالدُ من مُخيَّمه، ومماليكُه مشاةٌ حوله، يقصدُ وطاق جمال الدين.

حدثني القاضي شرفُ الدين أبو بكر بن العجميّ، موقع جمال الدين، وزوجُ بنت أخيه، قال: «كنت جالساً بين يدي الأمير جمال الدين الأستادار في وطاقه، وقد حضر إلى تلقّيه غالب أقاربه، فقيل له: إن الأمير الكبير تغري بردي قادمٌ إلى جهتك. فلما سمع جمال الدين ذلك تغير لونُه وقال: هذا من دُون عسكر السلطان لا يُعودني في مرضي! فما مجيئه في هذا الوقت لخير». ونهض من وقته قبل أن نرد عليه الجواب، وخرج من خامه ماشياً إلى جهة الوالد خطواتٍ كثيرة غالبها هرولة حتى لقي الوالد ــ وهو راكب ــ فقبل رجله في الركاب، فمسكه الوالد من رأسه ثم أمر به فقيد في الحال، وقال لمن تولى تقييده: «هذا الأميرُ جمال الدين عظيم الدولة! أبصر له قيداً ثقيلاً يصلح له»، فبكى جمالُ الدين ودخل تحت ذيله.

ثم أمر الوالد بالقبض على جميع أقاربه وحواشيه، فقُبض على ابنه أحمد،

(١) في السلوك: «غيفا». وكلاهما صحيح. وغيفا أو غيفة: قرية قديمة عرفت بعد ذلك باسم غيتا أو غيتة. وهي من قرى مركز بلبيس بالشرقية. ـ انظر الخطط التوفيقية: ١٤/ ٦٤، والقاموس الجغرافي لمحمد رمزي: ١/٢/١٠٣.

وعلى ابني أخته أحمد وحمزة. وكان الوالد ندب جماعةً من مماليكه إلى القاهرة للحوطة على دور جمال الدين وأقاربه، ثم أخذهم الوالد، وأركبهم بالقيود، وسار بهم إلى جهة الديار المصرية. كلّ ذلك والسلطانُ لا يعلم بما وقَع إلا بعد سير الوالد إلى جهة القاهرة. وأخذ جمالُ الدين في طريقه يترفقُ للوالد ويعدهُ ويسأله القيام في أمره، كل ذلك والوالد لا يعتبه إلا على قتل أستاداره عماد الدين إسماعيل وأخذ ماله.

وكان خبرُ إسماعيل مع جمال الدين المذكور أن إسماعيل كان أستادار الوالد، وكان له عز وثروةٌ ومعرفةٌ ورئاسةٌ قبل أن يترأس جمال الدين، فكان يستخفُّ بجمال الدين، ويطلق لسانه في حقه، وجمال الدين لا يصل إليه من انتمائه للوالد. فأخذ جمالُ الدين يسعى في أستادارية الوالد مدة طويلةً حتى ولّاه الوالد أستاداريته، بعد أن بذل جمال الدين مالاً كثيراً للوالد ولحواشيه. واستأذن الوالد أن يقبض على [عماد الدين] إسماعيل ويؤدبه، ويظهر للوالد في جهته جملة كبيرة من الأموال، وفي ظنِ الوالد أنه يوبخه بالكلام، أو يهينه ببعض الضرب ثم يُطلقه، فأذن له الوالد في ذلك. وكان [عماد الدين] إسماعيل المذكور مُسافراً، فلماً قَدِمَ من السفر ركب وأتى إلى الوالد ـ وكان الوالدُ تغير عليه قبل ذلك لسببٍ من الأسباب ـ فقبَّل يد الوالد، وخرج من عنده، فصدف جمال الدين عند مدرسة سُودُون من زادة، فقال له الأمير جمال الدين: «بسم الله يا أمير عماد الدين، أين الهدية؟» فعاد معه عماد الدين، وحال وصوله إلى بيته أجرى عليه العُقُوبة، وأخذ منه أربعين ألف دينار، ثم ذبحهُ من ليلتهِ. فلما سمع الوالدُ بقتلته من الغد كاد عقلُهُ أن يذهب، وأراد الرّكوب في الحال والطّلُوعَ إلى السُّلطان، فقال له حواشيه وخواصّه: «يا خوند قد فات الأمرُ، وما عسى أن يصنع فيه الملكُ الناصرُ مع خصوصيّته عنده». فسكت الوالدُ على دغل(١)، وأخذ في توغير خاطرِ السُّلطان عليه، ويعرفُ السُّلطان بأفعال جمال الدين. ولا زال به حتى تغير عليه [السلطان] مع أمورٍ أُخر وقعت من جمال الدين، فكان ذلك أكبرُ أسباب ذهاب جمال الدين،

(١) الدَّغَل: الحقد المكتتم. وهو فصيح.

وأراح الله المسلمين منه.

ثم ركب السلطانُ من غيتا وسار حتى نزل بالخانقاه[١]، ثم سار حتى طلع إلى قلعة الجبل في يوم السبت حادى عشر جمادى الأولى المذكور، بعد أن زُيّنت له القاهرةُ ومصر، وخرج الناسُ لتلقيه، فكان لدخوله يومٌ عظيم، وحمل الوالدُ على رأسه القُبة والطير[٢]. ولما استقر السلطان بقلعة الجبل ـ وقد حُبس بها جمالُ الدين ـ ثم رسم السلطان للوالد أن يتسلم جمال الدين ويعاقبه، فقال الوالد: «يا مولانا السلطان! جمال الدين كلبٌ لا يتسلمهُ إلا كلبٌ مثلهُ»، فقال تاجُ الدين عبدُ الرَّزاق بنُ الهيصم: «يا خوند! أنا ذلك الكلب»، فسلمهُ السلطانُ له.

وأما أسبابُ القبض على جمال الدين فكثيرةٌ، منها: ما فعله ليلة بيسان لما استشاره السلطان هو وفتح الله، وفر الأمراء. وكان جمال الدين لما خرج من عند السلطان أرسل إلى الأمراء بذلك، وطلب جمال الدين صيرفيه عبد الرحمن وأمره فصر للأمير شيخٍ المحمودي نائب الشام بخمسة آلاف دينار يرسلها له صُحبة الأمراء المتوجهين في الليل إليه، وإلى تمراز بثلاثة آلاف دينار، وهو رأس الأمراء الذين عزمُوا على الفرار، وعلى رُفقته: سُودُون بُقجة، وعلَّان، وإينال، لكل واحد بألفي دينار، وبعث بالمبلغ إليهم، وأعلمهم بما عزم عليه السلطان من القبض عليهم، فكان هذا من أكبر الأسباب في هلاك جمال الدين، ولم يعلم السلطانُ ذلك إلا بعد أيام.

ومنها أن السلطان الملك الناصر لم يكن معه في هذه السفرة من الذهب إلا النزر اليسير، فسأل جمال الدين في مبلغٍ فقال جمال الدين: ما معي إلَّا مبلغٌ هيّنٌ[٣]. فندب السلطانُ فتح الله كاتب السرّ في الفحص عن ذلك، فقال له فتح الله: «قد رافق جمال الدين في هذه السفرة تاجُ الدين عبد الرزّاق بن الهيصم

---

(١) أي خانقاه سرياقوس.

(٢) المراد بالقبة والطير المظلّة التي كانت تُحمل في المواكب فوق رأس الخليفة أو السلطان؛ وهي من رسوم الدولة الفاطمية، ثم انتقلت إلى الدولة المملوكية ـ راجع أيضاً فهرس المصطلحات.

(٣) في الأصل: «ما معي إلا مبلغاً هيّناً».

كـاتبُ المماليـك، وأخوه مجـدُ الدين عبـد الغنيّ مستوفي[١] الـديوان المُفـردِ، فاسألهما وتَلَطَّفْ بهما تَعْلَم ما مـع جمال الدين من الذهب». فطلبهما السلطان، وفعل ذلك، فأعلماه بليلة بيسان، وما فعله جمال الدين من إرسال الذّهب، وإعلام الأمراء بقصد السّلطان، حتى فرُّوا ولحقُوا بالأمير شيـخ، فقال السلطان: «من أين لكم هذا الخبر؟» فقـالا: صيرفيـهُ عبد الـرحمن ينزل عنـدنا وعنـد تقي الدين عبد الوهاب بن أبـي شاكر ناظر ديوان المُفْـرد، وهو الحـاكي»، فصدَّق السلطان مقالتهما وأسرها في نفسه، واستشار الوالد في القبض على جمال الدين، فقال له الوالد: «المصلحةُ تركُه حتى يعود إلى جهة القاهرة، ويُقبض عليه وعلى جميـع أقاربه؛ حتى لا يفوت السلطان منهم أحدٌ، وتكون الحوطةُ على الجميـع معاً»، فأعجب السلطان ذلك، وسكت عن قبضه بالديار الشامية.

ثم إن [تاج الدين عبد الرزّاق] بن الهيصم لا زال حتى أوصل عبد الرحمن الصيرفيّ إلى السلطان، وحكى له الواقعة من لفظه في مجلس شرابه، وشرب معه عبد الرحمن في تلك الليلة.

ومنها أن القاضي محيـي الدين أحمد المدنيّ كاتب سرّ دمشق لقي ابن هيازع عند باب الفراديس بدمشق، فأعلمه ابن هيازع أن أصحابه وجدُوا عند مدينة زرع ساعياً معه كُتُب، فقبضُوا عليه وأخذوا منه الكُتُب وجاؤوا بها إليه. وكان محيـي الدين المذكور معزولاً عن كتابة سرّ دمشق من مُدّة، فأخذ الكتب ولم يدر ما فيها وسلمها لفتـح الله، فأخذ فتـح الله الكتب ومحيـي الدين إلى السلطان. وفتحت الكتب، وقُرئت بحضرة السلطان، فإذا هي من جمال الدين إلى الأمير شيـخ؛ فزاد السلطان غضباً على غضبه، وأخفى ذلك كلّه عن جمال الدين لأمر سبق. وأخذ السلطان يغالطُ جمال الدين، والتغيير يظهر من وجهه، لشبيبته[٢]

---

(١) المستوفي: هو الذي يضبط أمور الديوان وينبّه على مصالحه. والديوان المفرد هو ديوان خاص استحدثه برقوق وأفرد له أراضٍ للإنفاق على مماليكه ــ راجع فهرس المصطلحات.

(٢) الشباب والشبيبة بمعنى واحد. ولعل المراد أن مشاعر السلطان كانت تظهر على وجهه، لا يستطيع إخفاءهما، لحداثة سنّه.

وشدّة حقده عليه، فتقهقر جمال الدين قليلاً، وأخذ يغالطُ السلطان، ويسأله أن يسلم له ابن الهيصم وابن أبي شاكر، وألح في ذلك، والسُّلطان لا يُوافقُه ويعدهُ ويمنيه، إلى أن نزل السلطانُ بمدينة غزة، وأظهر لجمال الدين الجفاء، وأراد القبضَ عليه، فلم يُمَكِّنْه الوالدُ، فتركه السُّلطان إلى أن نزل بُلْبَيْس ووقع ما حكيناه.

وأما أصل جمال الدين ونسبُه فإنه يوسف بن أحمد بن محمد بن أحمد بن جعفر بن قاسم البيري الحلبيّ البجاسيّ. كان أبوه يتزيّا بزيّ الفقهاء، وكان يخطب بالبيرة، فتزوج بأخت شمس الدين عبد الله بن سهلول، وقيل سحلول، المعروف بوزير حلب، فولدت له يوسف هذا، ولقّب بجمال الدين، وكُنِّي بأبي المحاسن هو وأخوته. ونشأ جمال الدين يوسف المذكور بالبيرة. ثم قَدِم البلادَ الشامية على فاقةٍ عظيمةٍ، وتزيًّا بزيِّ الجُند، وخَدم بلاصياً[1] عند الشيخ عليّ كاشف برِّ دمشق، ثم عند غيره من الكشاف. وطال خموله، وخالط[2] الفقر ألواناً إلى أن خدم عند الأمير بجاس ــ وهو أمير طبلخاناه ــ بعد أمور يطول شرحها. ثمّ جعله بجاسُ أستاداره، وتمول وعرف عند الناس بجمال الدين أستادار بجاس، وكَثُر مالُه، وسكن بالقصر بين القصرين، واتهم أنه وجد به من خبايا الفاطميين خبيئة. ثم خدم بعد بجاس عند جماعة من الأمراء إلى أن عُدَّ من الأعيان. وصحب سعد الدين إبراهيم بن غراب، فنوَّه ابنُ غراب بذكره إلى أن

---

(١) لعلّ هذه التسمية مأخوذة من «البلْص» وهو أخذ المال من الرعيّة وبدون وجه مشروع. والعامة تقول: بَلَصَهُ وبَلَفَهُ بمعنى خدعه.
على أن سياق العبارة يوحي بأن هذا العمل كان وظيفة أو شبه وظيفة وعليه فإننا نميل إلى الاعتقاد أن هذا اللفظ مأخوذ من «البلاّص» وهي جرّة ذات أذنين معروفة في صعيد مصر. ولما كان سيّده المشار إليه كاشفاً لبرّ دمشق، أي مشرفاً على أحوال الأراضي الزراعية والجسور، فلعلّ البلاّصي يكون ذاك الشخص الذي يعمل لدى الكاشف ويتولى جمع بعض المواد (مثل الزيت والسمن) من الفلاحين مما يُستأدى منهم بوجه شرعي (ضريبة) أو غير شرعي (خوّة ــ خاوة).
وكذلك ورد هذا اللفظ في هذا الكتاب بصيغة الجمع «البلاّصيّة» بمعنى من معاني التحقير أقرب ما يكون إلى لفظ «الزُّعر». ــ انظر صفحة ٩٠ من هذا الجزء.

(٢) في الأصل: «وخلّط».

طُلب أن يلي الوزر فامتنع من ذلك، وطلب الأستاداريّة، فخلع السلطانُ عليه باستقراره أستاداراً عوضاً عن سعد الدين بن غراب المذكور، بحكم توجُّه ابن غراب مع يشبُك الدّوادار إلى البلاد الشامية، وذلك في رابع شهر رجب سنة سبع وثمانمائة؛ ومن يومئذٍ أخذ أمرُه يظهر حتى صار حاكم الدولة ومدبرها، بعد أن قتل خلائق من الأعيان لا تدخل تحت حصر من كلِّ طائفة، بالعُقُوبة والذَّبح والخنق وأنواع ذلك.

قلتُ: لا جرم أن الله تعالى قاصصهُ في الدنيا ببعض ما فعله؛ فعُوقب أياماً بالكُسَّارات وأنواع العذاب، ثم ذُبحَ في ليلة الثلاثاء حادي عشر جمادى الآخرة، وأراحَ اللهُ الناس من سوء فعله وقُبح منظره ـ انتهى.

ثم في يوم الثلاثاء رابع عشر جمادي الأولى المذكور خلع السلطانُ على تاج الدين عبد الرزّاق بن الهيصم ناظر الإسطبل، وكاتب[1] المماليك السلطانية، باستقراره أستاداراً عوضاً عن جمال الدين يوسف البيريّ ـ بحكم القبض عليه ـ وترك لبس المباشرين ولبس الكَلَفتَّاة[1]، وتقلد بالسيف وتزيّا بزي الأمراء، وخلع على أخيه مجد الدين عبد الغني بن الهيصم مستوفي ديوان المفرد، واستقر في نظر الخاص، وخلع على سعد الدين إبراهيم بن البشيري ناظر الدولة، واستقر في الوزارة ـ وكل هذه الوظائف كانت مع جمال الدين الأستادار ـ وخلع على تقي الدين عبد الوهاب بن أبي شاكر واستقر ناظر ديوان المفرد، وأُضيف إليه أستادارية الأملاك والأوقاف السلطانية، عوضاً عن أحمد ابن أخت جمال الدين، وخلع على تاج الدين فضل الله بن الرملي واستقر ناظر الدَّولة، وخلّع على حسام الدين حسين الأحول ـ عدوّ جمال الدين ـ واستقر أمير جاندار[3].

---

(١) كان للمماليك السلطانية ديوان خاص بهم يعرف بديوان المماليك، وعليه ناظر خاص يسمى ناظر المماليك أو ناظر ديوان المماليك. وكان لصاحب هذا الديوان كاتب خاص يسمى كاتب المماليك، وعمله كتابة المحررات الخاصة بأحوال المماليك السلطانية ورتبهم وإقطاعاتهم وجراياتهم. ـ انظر نظم دولة سلاطين المماليك للدكتور عبد المنعم ماجد: ١/١٣٩.

(٢) الكلفتاة: نوع من غطاء الرأس، وهي الكلوتة. (راجع فهرس المصطلحات). وكانت من ضمن زيّ الأمراء الكبار. أما المباشرون فهم موظفو الدواوين، وهم من صغار الموظفين في الدولة.

(٣) هذه الوظائف المشار إليها سبق التعريف بها، فارجع إلى فهرس المصطلحات لمعرفة مظانّها.

ثم قدِم الخبرُ بأخذ شيخ لدمشق، وفرار بَكْتَمُر جِلّق إلى صفد. وأرسل الأمير شيـخٌ محضراً يتضمن أنه كان يُريد التوجّه إلى طرابلس، فلما وصل شقحب قصده بكْتَمُر جِلّق وقاتله، فركب ودفع عن نفسه؛ وشهد له في المحضر جماعةٌ كبيرة من أهل دمشق وغيرها. وكان الأمرُ كما قالهُ شيخ ــ حسبما ذكرناه(١) قبل تاريخه. وسكت الوالدُ، واحتار في نفسه بين بَكْتَمُر وشيـخ، فإنه كان يميلُ إلى كل منهما.

ثم قدِم في أثناء ذلك الأميرُ بَكْتَمُر جِلّق إلى القاهرة في سابع عشرين جمادى الأولى، بعد دخول السلطان إلى القاهرة بنحو ستة عشر يوماً، وقَدِم صُحبة بَكْتَمُر المذكور الأمير بُرْدبَك نائب حَمَاة، والأمير نكْبَاي حاجب دِمشق، والأمير ألطُنبُغَا العثمانيّ، والأمير يشْبُك الموساويّ الأفقم نائب غَزّة، فخرج السلطانُ إلى لقائهم، ودخل بهم من باب النصر، وشقّ القاهرة وخرج من باب زُويلة، ونزل بدار الأمير طـوخ ــ أمير مجلس ــ يعـودُه في مرضـه، ثم طلـع إلى القلعة. ولم يعتب السُّلطان على الوالد في أمر شيـخ، ولا فاتحه الوالد في أمره، حتى قال الوالدُ لبعض مماليكه: «كأن السلطان عذر الأمير شيخاً فيما وقَع منه» ــ والله أعلم.

وفي هذه الأيَّام، تناوَلَت جمالَ الدين وحواشيَه العقوباتُ، وأَخذُوا له عدّة ذخائر من الأموال؛ وما استهلّ جمادى الآخرة حتى كان مجموعُ ما أُخذ منه من الذَّهب العين المصريّ تسعمائة ألف دينار وأربعة وستّين ألف دينار، وهو إلى الآن تحْتَ العقوبة والمصادَرة.

ثمَّ ورَد الخبر على السلطان من البلاد الشامية، من دَمُرْدَاش نائب حلَب، بأنّ الأمير نَوْرُوزاً الحافظيّ قدِم إلى حَلب، ومعه يَشْبُك بن أَزْدَمر وغيره، وأنَّ الأميـر دَمُـردَاش المحمّـدي نـائب حلب تلقـاه وأكـرمـه وحلفـه للسلطان، ثم كتب يعلم السلطان بـذلـك ويسـألـه أن يعيـده إلى نيـابـة دمشـق وأن يـولي ابن أزدمـر نيـابـة طَـرابُلُس وأَن يُـولِّي ابنَ أخيـه [تغـري بـردي] المعروف بسيِّدي الصغير نيابة حَماة فأجاب السُّلطانُ إلى ذلك، وأَرْسل الأميرَ

(١) راجع ص٥٢ من هذا الجزء، حاشية(٣).

مُقْبلاً الرُّوميّ في البحر إلى نَوْرُوزٍ المذكور وعلى يدِه التقليد والتَّشريف بنيابة الشَّام. فوَصل إليه مُقْبل الروميّ المذكور في رابع شعبان، فلَبِس نَوْرُوزٌ التشريف، وقبّل الأرض، وجدَّد اليمين للسُّلطان بالطَّاعة على كلّ حال، وعدم المخَالفة. ولما بلغَ شيخاً ذلك فَرَّ منهُ جماعةٌ مِن الأمراء وأتوا إلى الأمير نَوْرُوز، منهم: تمُرْبغا العلائيّ المشطوب، وجانَم من حسن شاه نائب حَماة، وسودُون الجلَب، وجَانِبَك القرميّ، وبُرْدبَك حاجب حَلب. فلمّا وقع ذلك أرسل الأميرُ شيخٌ إلى السلطان الملك الناصر إمامَ [مسجد] الصَّخرة [بالقدس]وجُنْدياً آخر بكتابه، فقدِما إلى القاهرة في ثاني جمادى الآخرة المذكور وعلى يدهما أيضاً محضَرٌ مكتوبٌ، فغِضب السلطانُ غضباً عظيماً، وَوسَّط الجنديّ، وضَرب إمام الصخرة ضرباً مُبَرّحاً وسجنه بخزانة شمائل.

ثمّ مِن الغد أُنزل جمالُ الدين وابنه أحمدُ على قفصَيْ حمّال إلى بيت تاج الدين بن الهيصَم. ثمّ قَبض السُّلطان على الأمير بلاط أحد مقدّمي الألوف، وعلى الأمير كُزُل العجميّ حاجب الحجّاب، وقيدهما وأرسلهما إلى سجن الإسكندرية.

ثمَّ في حادي عشر جمادى الآخرة نُقل جمال الدين الأستادار ــ في قفص حمّال أيضاً ــ من بيت ابن الهيْصَم، بعد ما قاسَى محناً وشدائد، إلى بيت حُسام الدين الأحول، فتنوَّع حسامُ الدين في عقوبته أنواعاً، لما كانَ في نفسه منه، وأخذَ في استصفاء أمواله؛ فاستحثه القومُ في قتله خشية أن يحدُث في أمره حادِثٌ، فقتله خنقاً، ثمَّ حزَّ رأسه من الغد وحَمله إلى السُّلطان حتى رآه، ثمّ أعادَهُ فدُفن مع جثته بتربته بالصَّحراء. وقد ذكرنا تاريخ مَوْته عند القبض عليه.

ثم أصبح السلطان خلع على الأمير يَلْبُغا الناصريّ باستقراره حاجب الحجاب ــ بالدِّيار المصرية ــ بعد مسك كُزل العجميّ.

ثم ورَد الخبرُ بأن الأمير شيخاً تَوجَّه لقتال نوْرُوزٍ بحماة، فتوجه وحصره بها، وأنَّ الأمير يشبك الموساويَّ نائب غَزة كان بينه وبين سودون المحمدي وعَلَّان واقعة قُتل فيها جماعة، وفَرّ يَشْبُك الموساوي إلى جهة الديار المصرية، وأن عَلَّان جُرح في وجهه فحُمل إلى الرملة فمات بها.

قلتُ: وعَلّان هذا هو خِلاف عَلَّان جِلِّق نائب حَماة وحلب ــ الذي قتله جَكَم مع طُولو نائب صَفَد في سنة [ثمان و] ثمانمائة ــ حسبما تقدَّم ذكره، وأن سُودون المحمدي بَعث يسأل شيخاً في نيابة صفد فأجابه إلى ذلك، كل هذا ورَد على السلطان في يوم واحد.

ولما طالَ حصارُ شيخ لنَوْرُوز على حماة، خرَج دَمُرداش نائب حَلب وقدِم إلى حماة ــ نجدةً لنَوْرُوز ــ ومعه عساكر حلب. فلمَّا بلغ شيخاً قدوم دَمُرداش، بادر بأن ركب وترك وطاقه وأثقاله وتوجه إلى ناحية العُرْبان، فركب دَمُرداش بُكرةَ يوم الأحد، وأخذ وطاق شيخ واستولى عليه، فعاد شيخ وتقاتلا بمن معهما قتالاً شديداً قُتل فيه جماعةٌ كبيرة، منهم: بأ يزيد ــ من إخوة نَوْروز الحافظيّ ــ وأُسر عدَّةٌ كبيرة من أصحاب دَمُرداش، منهم: الأمير محمد بن قُطْبَكي كبير التركمان الأوشرية[1]، وفارس أمير آخور دمرداش، واستولى الأمير شيخٌ على طبلخاناة الأمير دَمُرداش، وكسر أعلامه، ثم ركب شيخٌ وسار يريد حمص.

ثم إن الأمير شيخاً بعد مدَّة أرسل يخادع السلطان بكتابٍ يسترْضيه ويقُول فيه: إنه باقٍ على طاعة السلطان، وحكى ما وقع له مع الأمير بَكْتَمُر جِلِّق نائب الشام، ثم ما وقع له مع الأمير نَوْرُوز، ثم مع الأمير دَمُرداش، وأن كلّ ذلك ليس بإرادته ولا عن قصده، غير أنه يدافِعُ عن نفسه خوفاً مِنَ الهلاك، وأنّه تابَ وأنابَ ورجع إلى طاعة السُّلطان. وأرسلَ أيضاً للوالدِ بكتابٍ مثل ذلك، فلم يتكلّم الوالدُ في حَقِّهِ بكلمة. ثم أخَذَ شيخٌ يقولُ عن نَوْرُوز أشياء ويُغْرِي السُّلطان به؛ من ذلك أنّه يقول: إنَّ نَوْرُوزاً يريدُ المُلْكَ لنفسه، وهو حريصٌ على ذلك من أيّام السُّلطان السّعيد الشهيد الملك الظاهر بَرْقُوق، وأنَّه لا يُطيعُ أبداً، وأنَّه هُوَ لا يريد إلاَّ الانتماء إلى السُّلطان فقط، ورَغْبتهُ في عَمَل مصالح العِبادِ والبِلادِ. ثمّ كَرَّرَ السؤالَ في العَفْو والصَّفْح عنه في هذه المرّة، فلم يمْشِ ذلك على الملكِ الناصر ولم يلتَفت إلى كتابه.

---

(١) الأوشار أو الأفشار أحد بطون قبائل الأوغوز التركمانية. وكانوا يعيشون أيام المماليك في الشام وخاصة حول حلب. (انظر دائرة المعارف الإسلامية: ٣/٥٨٧).

وشرَعَ السُّلطان في التّنزّه، وأكثر من الرّكوب إلى برِّ الجيزةِ للصَّيْد في كلّ قليل، ووقع منه ذلك في الشهرِ غير مرة. ولمَّا عادَ في بعضِ ركوبهِ في يوم الخميس ثالث عشرين شوَّال من سنة اثنتي عشرة وثمانمائة المذكورة، ووصل قريباً من قناطر السِّباع[1] عند الميدان الكبير، أمر السُّلطان بالقبض على الأمير قَرْدَم الخازندار، وعلى الأمير إينال المحمّدي السَّاقيّ ــ المعروف بضضع ــ أمير سلاح، فقُبِضَ في الحَال على قَرْدَم؛ وأما إينال ضُضَع المذكور فإنَّه شَهَرَ سَيْفَه وساق فرسه ومَضَى، فلم يلحقه غيرُ الأمير قُجَق الشّعبانيّ، فأدركَهُ وضَرَبَهُ بالسَّيف على يده ضربةً جرحتْه جُرْحاً بالِغاً، ثم فاتهُ ولم يَقْدِر عليه. وطلَعَ السلطانُ القلعة، كلّ ذلك وهو لا يملك نَفْسَهُ على فَرسِه من شِدَّة السُّكر. ونُودِي في الحالِ بالقاهرة على الأمير إينال المحمَّدي المذكور، فلم يَظْهَر له خبرٌ وقُيِّد قَرْدَمُ وحُمل إلى الإسكندريَّة من يومه.

وأمّا الأميرُ شيخ، فإنَّه كمَّل في هذا الشهر ــ وهو ذو الحجّة من سنة اثنتي عشرة وثمانمائة ــ سبعةَ أشهُرٍ وهو يقاتل نَوْرُوزاً ودَمُرْداش، ويُحاصِرُهما بحماة، ووقع بينهم في هذه المدّة المذكورة حُرُوبٌ وخطوبٌ يطولُ شرْحُها، وقُتل بينهم خلائقُ لا تُحْصى. واشتدّ الأمر على نَوْرُوز وأصحابه بحَمَاة، وقلَّت عندهم الأزوادُ وقاسوا شدائدَ حتّى وقع الصلحُ بينه وبين الأمير شيخ؛ وذلك عندما سَمِعُوا بخروجِ الملك الناصرِ فَرَج إلى البلاد الشَّاميَّة، وخاف نَوْرُوز إنْ ظَفِر به الملكُ الناصرُ لا يُبْقيه، فاحتاج إلى الصُّلح. وحَلَف كلُّ من نَوْرُوز وشيخ لصاحبه، واتَّفقا على أَنَّ نَوروزاً يُمسك دمُرْداش نائب حَلَب، وأَنَّ شيخاً يُمْسك ابن أخيه قَرْقماس ــ المدعوّ سيِّدي الكبير ــ ففطن دَمُرْداش بذلك، وأرسل أعلم ابن أخيه قَرْقماس المذكور مع بعض الأعوان، وهرَب دَمُرْداشُ من نَوْرُوز إلى العِجْل ابن نُعَير، وفرّ ابنُ أخيه قَرْقماس من عند شيخ إلى أنْطاكِيَّة. والعجبُ أنَّ قَرْقماس

---

(١) قناطر السباع: أنشاها الملك الظاهر بيبرس البندقداري. ونصب عليها تماثيل من الحجارة. لأن شعاره كان على شكل سبع. فقيل لها قناطر السباع. وتقع على الخليج المصري. وتتكون من قنطرتين، وقد اندثرت بعد ردم الخليج. ومكانها اليوم ميدان السيدة زينب عند ملتقاه بشارع الكومي (محمد رمزي).

المذكور كان قد صار من حِزْب شيخ، وترك عمَّه دَمُرْداش وخالَفه وصار يقاتل نَوْروزاً وعمه هذه المدة الطويلة، وعمه دَمُرداش يرسلُ إليه في الكفِّ عن قتالهم، ويدعوه إلى طاعةِ نَوْروز ويوبخهُ بالكلام وهو لا يلتفت، ولا يبرَحُ عن الأمير شيخ، حتى بَلغهُ من عمِّه أنّ شيخاً يريدُ القبضَ عليه، فعند ذلك تركهُ وهرَب. ثمّ إنّ الأمير نَوْروزاً قصد حلب وأخذَها واستولى عليها. وهرَب مُقْبل الروميّ، الذي كانَ حملَ للأمير نَوْرُوز التّقليد بنيابة الشام، ولحقَ بالسّلطان على غزّة.

وأمّا السلطانُ الملكُ الناصر، فإنه أخذَ في التّجهيز إلى السفر نحو البلاد الشّامية، وعظم الاهتمام في أوّل محرم سنة ثلاث عشرة وثمانمائة.

وخلَـع في عاشر المحرّم على الأمير قَراجا شادّ الشراب خاناه باسِتقرارِه دَوَاداراً كبيراً ـ دفعةً واحدة ـ بعد مـوت الأمير قُجـاجق، وخلـع على سُودون الأشقر باستقراره شادّ الشّراب خاناه عوضاً عن قَراجا المذكور. ثمّ عمل السلطان في هذا اليوم عُرْس الأمير بَكْتَمُر جِلِّق، وزُفّت عليه ابنةُ السلطان الملك الناصر ـ التي كان عُقِدَ عليه عقدُها بدمشق ـ وعمرُها يوم ذلك نحو سبـع سنين أو أقلّ، وبَنَى عليها بَكْتَمُر في ليلة الجمعة حادي عشر المحرّم المذكور.

وأخذ السّلطانُ في أسباب السفر، وتهيأ وأنفق على المماليك السلطانيـة وغيرهم من الأمراء، ومن له عادة بالنّفقة، فأعطَى لكلّ مملوكٍ من المماليـك السلطانية عشرين ألف درهم، وحَمل إلى الأمراء مقدّمي الألوف لكلّ واحد ألفي دينار، ما خلا الوالد وبَكْتَمُر فإنه حمل لكلٍّ منهما ثلاثة آلاف دينار، وأعطى لكل أَمير منْ أمراء الطّبلخانات خمسمائة دينار، ولأمراء العَشَرات ثلاثمائة دينار.

ثم خرج الأمير بَكتَمُر جِلّق جاليشاً من القاهرة إلى الرِّيدانيّة، وصحبته عدّةٌ من أمراء الألوف وغيرهم، في يوم الخميس ثالث عشرين صفر. فالذي كانَ معه من أمراء الألوف هم:

يَلْبُغا الناصري حاجبُ الحجاب، وأَلْطُنْبُغا العثمانيّ، وطُوغانُ الحسنيّ رأس

نوبة النّوب، وسُنقر الرُّومي، وخيربك[١]، وشاهين الأفْرم، وعِدّةٌ كبيرةٌ من أمراء الطّبلخانات والعشَرات، وسار بَكتَمُر بعد أيام قبل خروج السلطان.

ثمّ ركب السلطان من قلعة الجبل ببقيّة أمرائه وعساكره في يوم الإثنين رابعُ شهر ربيع الأول من سنة ثلاث عشرة المذكورة، ونزل بالرّيدانية ـ وهذه تجريدةُ الملك الناصر السادسة إلى البلاد الشامية، غير سفرة السعيدية ـ وخلع على أرغون من بَشْبُغا الأمير آخور الكبير بنيابة الغيبة على عادته، وأنه يستمر بسكنه بباب السلسلة، وأنْزلَ الأمير كَمَشْبُغا الجمالي بقلعة الجبل، وجعل بظاهر القاهرة الأمير إينال الصصلاني الحاجب الثاني أحد مقدمي الألوف، ومعه عدّة أمراء أخر. والذي كان بقي مع السلطان ـ من أمراء الألوف وخرجوا صُحبته ـ الوالد رحمه الله، وهو أتابك العساكر، وقُجق الشعباني، وسودُون الأسَنْدَمُري، وسُودون من عبد الرحمن، وسوُدُون الأشقر شاد الشَّراب خاناه، وكَمَشْبُغا الفَيْسي المعزول عن الأمير آخورية، وبُرْدبك الخازندار.

ثمَّ ركب الملك الناصر من الغد في يوم الثلاثاء خامس شهر ربيع الأوَّل منَ الرَّيدانية إلى التربة التي أنشأها على قبر أبيه بالصّحراء.

قلت: وجماعة كبيرة من النّاس يظنّون أنَّ هذه التربة العظيمة أنشأها الملكُ الظاهر برقوق قبل موته، ويسمْونها الظاهـرّية، وليس هـو كذلـك، وما عمـرها إلّا الملك الناصِر فرج بعد موت أبيه بسنين، وهي أحسن تُربة بُنيت بالّصحراء ـ انتهى.

وسار الملك النّاصر حتى نزل بالتّربة المذكورة، وقرّر في مشيختها[٢] صدرَ الدين أحمد بن محمود العجميّ[٣]، ورتّبَ عنده أرَبعين صُوفياً، وأجرى عليهم الخبزَ واللحمَ الضأن للطبوخ في كلِّ يوم، وفُرشت السّجادة لصدر الدين

(١) في السلوك: «خايربك».
(٢) أي مشيخة الخانقاه في هذه التربة. والخانقاه هي بيت الصوفية ـ راجع فهرس المصطلحات.
(٣) ترجمته في الضوء اللامع: ٢/٢٢٣.

المذكور بالمحراب، وَجلس عليها. أخبرني العلاّمة علاء الدين عليّ القلقشنديّ[١] قال: «حضرتُ جلوس صدر الدين المذكور في ذَلك اليوم مع من حضَر من الفقهاء، وقد جلَس السلطانُ بجانب صدْر الدين في المحراب، وعنْ يمينه الأميرُ تَغري بَرْدي من بشبُغا الأتابك ـ يعني الوالد ـ وتحته بقيّةُ الأمراء، وجلس على يسار السلطانِ الشيخُ بُرْهان الدين إبراهيم بنُ زُقّاعة[٢]، وتحته المعتقد الكَرَكي[٣]، فجاء القضاةُ، فلم يجسر قاضي القضاة جلال الدين البُلقيني[٤] الشافعيّ أن يجلس عن يمين السّلطان فوق الأمير الكبير، وتوجَّه وجلس عن ميسرة السّلطان تحت ابن زُقّاعة والكركي، فإنهما كان لهما عادةٌ بالجلوس فوقَ القضاة من أيّام الملك الظاهر بَرْقوق ـ انتهى.

قلتُ: والعادةُ القديمةُ من أيّام شَيْخون العُمريّ إلى ذلك اليوم، أنه لا يجلس أحدٌ فوقَ الأمير الكبير مِنَ القضاةِ ولا غيرهم، حتى ولا ابن السّلطان، غير صاحب مكة المشرفّة مراعاةً لسلفه الطاهر ـ انتهى.

ثمّ ركبَ السّلطانُ بأمرائه وخواصه وعاد إلى مخيّمه بالرَّيدانية، وأقام به إلى أن رَحل منه في يوم السبت تاسع شهر ربيع الأوّل المذكور، يريدُ البلاد الشّامية.

وأمَّا الأمير شيخ، فإنه لمَّا بلغه خروج السّلطانِ من الدّيار المصرية، لم يَثبت، وداخَله الخَوف. وخرج من دِمشق في يوم الثلاثاء سادس عشرين شهر ربيع الأوَّل المذكور بعساكره ومماليكه، وتَبعهُ الأميرُ جانَم نائب حَماة. فدخل بَكْتَمُر جلق إلى الشّام من الغد في يوم سابع عشرينه ـ على حين غفْلة ـ حتى يَطرق شيخاً، ففاَتهُ شيخٌ بيوم واحد، لكنّه أدْرك أعقابه وأخذ منهم جماعةً، ونهب بعض أثقال

(١) ترجمته في الضوء اللامع: ١٦١/٥.
(٢) ترجمته في الضوء اللامع: ١٣٠/١.
(٣) هو أبو عبد الله محمد بن سلامة النويري المعروف بالكركي المتوفى سنة ٨٠٠هـ.
(٤) ترجمته في الضوء اللامع: ١٠٦/٤.

شيخ. ثمَّ دخل السلطانُ الملك النّاصر إلى دِمَشْق بعد عشاء الآخرة مِنْ ليلة الخميس ثامن عشرينه، وقد رَكِبَ من بُحيْرَةِ طَبَريّة في عصر يوم الأربعاء على جَرَائِدِ الخَيْل لِيكْبِسَ شيخاً، ففاته بيسير. وكان شيخ قد أتاهُ الخبرُ وهو جالسٌ بدار السَّعادة من دِمَشْق، فركب من وقته وَتَرَكَ أصحابه، وَنَجا بنفسه بقُمَاشِ جلوسه(١)، فما وصل إلى سطح المِزَّة إلاّ وَبَكْتَمُر جِلّق داخِل دِمَشْق؛ ومرَّ شيخ على وجهه مُنْفَرِداً عن أصحابه، ومماليكه وحواشِيه في أَثَره، والجميعُ في أسوإِ ما يكون من الأحوال.

ولمّا دخل السُّلطانُ إلى دمَشْق، أصبحَ نادَى بدِمشَق بالأمان والاطمِئْنان لأهل الشّام، وألا ينزل أحدٌ من العسكر في بيت أحدٍ من الشّاميين، ولا يُشوِّش أحدٌ منهم على أحد في بيعٍ ولا شراء، ونودي أن الأمير نَوْرُوزاً الحافظيّ هو نائب الشّام(٢).

ثمّ في ثاني ربيع الآخرة قدم الأمير شاهين الزَّرَدْكاش(٣) نائب صفد على السُّلْطان بِدِمَشْق ثمّ في ثالثه خَلَعَ السُّلطانُ على الأمير يَشْبُك الموساويّ الأفْقَم باستِقْراره في نيابة طَرابُلُس، واستقرّ أبو بكر بن اليَغْموريّ في نيابة بعلبك وأخوه شعبان في نيابة القُدْس. ثمّ في سادس شهر ربيع الآخر المذكور، خرجَ أطلابُ السُّلطان والأمراء من دِمَشق إلى بَرْزة، وصلّى السلْطانُ الجمعةَ بجامع بني أُميَّة، ثمّ ركبَ وتوجه بأمرائه وعساكره جميعاً إلى أنْ نزَل بمخيّمه ببَرْزة. وخلَع السلطانُ على شاهين الزَّردكاش نائب صفد باستقراره نائب الغَيْبة بدِمَشق، وسكن شاهين بدار السعادة. وتأخر بدمشق من أمراء السلْطان

---

(١) أي بثيابه التي يلبسها أثناء جلوسه متخففاً في بيته. وهذا التعبير كثير الاستعمال في هذا الكتاب للدلالة على أن الرجل يقوم مسرعاً من مجلس لأمر هام دون أن يتسنّ له تبديل ثيابه.

(٢) هذه محاولة من السلطان لشقّ التحالف القائم بين نوروز وشيخ.

(٣) الزردكاش هو صانع الدروع. وربما توسع مدلول الكلمة ليعني صانع السلاح بعامة والذي يتولى صيانته وحفظه. وعمل الزردكاش في الزردخاناه.

الأمير قَاني بَاي المحمّديّ، لضعفٍ كان اعترَاهُ، وتخلَّفَ بدِمشق أيضاً القضاةُ الأربعة، والوزير سعد الدين بن البشيريّ وناظر الخاص مجدُ الدين بن الهَيْصم. وسارَ السّلطانُ بعساكرِه إلى جهةِ حلَب حتى وَصلَهاَ، في قصد شيخٍ ونَورُوز بمن معهما من الأمراء، ثمّ كتبَ السلْطانُ لنَوْروز وشيخٍ يُخيِّرهما، إما الخروج من مَملكتِه، أو الوقوف لمحاربتِه، أو الرجوع إلى طاعتِهِ: يريدُ ـ بذلك ـ الملكُ الناصر الشفقة على الرعيّةِ من أهلِ البلادِ الشَّامية، لكثرةِ ما صار يحصُلُ لهم من الغرامة والمصادَرة، وخرابِ بلادهم من كثرةِ النّهّابِة من جهة العُصاَة. ثمّ أخبرهما الملكُ الناصرُ أنه عزَم على الإقامة بالبلاد الشَّامية السنتين والثلاثة حتى ينـاَل غَرَضه؛ فأَجابهُ الأميرُ شيـخ بأَنه ليسَ بخارجٍ عن طاَعتِه، ويعتذرُ عن حضورهِ بما خاَمر قلبه من شدة الخوْف والهيبة عندما قبضَ عليه السُّلطان مـع الأتابَك يَشْبُك الشعبانيّ في سنة عشر وثمانمائة، وأنه قد حلَف لا يُحارب السلطان ما عاش، من يوم حلّفه الأميرُ الكبير تَغري بَرْدي ــ أعني الوالد ــ في نوبة صَرْخَد، وكرّر الاعتذار عن محاربتهِ لِبَكْتَمُر جِلّق، حتى قال: وإن كان السلطانُ مـا يسمـح له[1] بنيابة الشَّام على عادته، فينعم عليه بنيابة أُبُلُسْتين، وعلى الأمير نَوْرُوز بنيابة مَلَطْيَة[2]، وعلى يَشْبُك بن أزدَمُر بنيابة عين تاب، وعلى غيرهـم من الأمراء ببقية

(١) الضمير عائد على الأمير شيخ.
(٢) هذا علماً أن السلطان لما دخل دمشق نادى بنيابة نوروز على الشام. ومهما يكن من أمر فقد بات واضحاً أن القاعدة التي تحكم العلاقة فيما بين السلطان وكبار الأمراء، أو فيما بين الأمراء أنفسهم ــ حتى المتحالفين منهم، هي الريبة والحذر وتحينّ الفرص لانقضاض الواحد على الآخر. ولعل هذا الحذر العام كان السبب الأساس وراء التردّد الذي نلاحظه في موقف الأمراء: فهم يحاربون السلطان ويتآمرون عليه وفي نفس الوقت يطلبون ودّه، وفي جميـع الأحوال فإن الخوف لا يغادرهم لحظة من أنه يبطش بهم إن هم هادنوه. والبارز أيضاً في هذا الوضـع أن الصراع والعصيان الذي كان يقوده الأمراء أمثال شيخ ونوروز لم يعد يمتلك قضيّة سياسية كبرى أو مشروعاً كبيراً، وإنما جلّ أهدافه المنافـع الشخصية. وفي جميـع الأحوال فإن هذا الوضـع المشار إليه كان من العلامات البارزة على تفكك السلطة المملوكية وتردّي الوضـع على جميـع المستويات. ويكفي أن نلاحظ أن سلوك السلطان وأشياعه تجاه الناس لم يعد يختلف كثيراً عن سلوك المتمردين والعصاة على السلطنة. بحيث بات الناس ــ عند أية فتنة أو مواجهة ــ يتعرضون للنهب ومصادرة الممتلكات من هذا الفريق أو ذاك على حدّ سواء.

القلاع؛ فإنهم أحق من التركمان المفسدين في الأرض ـ وكان ما ذكروه على حقيقته ـ فلم يرضَ السُّلْطانُ بذلك، وصَمَّم على الإقامةِ ببلاد الشام، وكتب يستدعي التركمانَ وغيرهم، كلّ ذلك والسلطان بأُبُلُستين. وبيناهم في ذلك فارقَ الأميرُ سودُون الجَلبُ شيخاً ونَوْروزاً، وتوجهَ إلى الكَرَك واستولى عليها بحيلةٍ تحيَّلها.

ثمّ عاد السّلطانُ إلى حَلَب في أوّل جمادى الآخرة، ولم يَلْقَ حَرْباً؛ فَقدِم عليه بها قَرْقمَاس ابن أخي دَمُرْدَاش ـ المدعو سيِّدِي الكبِير ـ والأمير جَانَم من حسن شاَه نائب حَماة ـ كان ـ فأكرَمَهُما السلطانُ، وأنعمَ على قَرْقماس بنيابة صَفَدَ، وعلى جَانم بنيابَة طَرابُلُس، واستقرّ الأميرُ جَركس والد تَنَم حاجبَ حجّاب دِمَشْق، ثمّ خلع على الأمير بكتمر جلق باستقراره في نيابة الشام ثانياً، وأنعم بإقطاعه على الأمير دَمُرْداش المحمّدِيّ نائب حَلَب، ثمّ بعْد مدّة غيَّر السلطان قَرْقَمَاس ـ سيّدِي الكبير ـ مِنْ نيابة صَفَد إلى نيابة حَلَب، عِوَضاً عن عمّه اِمير دَمُرْدَاش المحمَّدِيّ، وأخلعَ على أخيه تَغْري بَرْدي ـ المدْعو سيّدي الصَّغير ـ باستقرارِهِ في نِيابة صَفَد.

وَبَيْنما السلْطانُ في ذلك بحلَب، وَرَدَ عليهِ الخبرُ بأَنّ شيخاً وَنوْرُوزاً وَصلا عَيْن تَاب، وسارَا على البَرِّية إلى جهة الشَّام؛ فَركبَ السلْطان مُسْرِعاً مِنْ حَلب عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ في ثالث عشرين شهر رجب بِبعْضِ عساكِرهِ، وسارَ حتى دَخَل دِمَشْقَ في أربعة أيّام، ثمَّ قَدِمَ في أثَره الوالِدُ بغالِبِ العساكر، ثمّ الأمير بَكْتَمُر جِلِّق نائب الشَّام، ثمّ بقيَّة الأمراء والعساكر.

ثمّ في ثالث شعبان قَدِمَ الأمير تِمْرَازُ النَّاصري نائبُ السّلطنة ـ كان ـ إلى دِمَشْق في خمسِينَ فارساً، داخلاً في طاعة السّلطانِ بَعْدَما فَارَقَ شَيخاً وَنوْرُوزاً، فركبَ السّلطان وتلقّاهُ وبالَغَ في إكرَامِه. قلتُ: وتِمرْازُ هذا هو الذي كانَ فَرّ مِن السّلطان في ليلة بَيْسَان ومعهُ عدَّةُ أُمراء ـ وقد تَقَدّم ذكرُ ذَلك في وقته.

ثمّ في الغَدِ سَمّر السُّلطانُ ستةَ نَفَرٍ مِنْ أصحاب شَيْخ وَوَسّطَهُم.

وأما شيخٌ ونورُوزٌ، فإنهما لمَّا سارَ السّلطانُ عن أُبُلُسْتَين خرجا من

قَيْسارِيّة(١) بمن معهم، وجاؤوا إلى أُبُلستين فمنعهم أبناء دُلْغـادِر(٢) وقاتلوهم، فانكَسَرُوا منهم وفَرُّوا إلى عَيْن تاب(٣)؛ فلمّا قربوا مِنْ تلّ باشِر(٤) تمزّقوا، وأخذت كلّ طَائفةٍ جهةٍ من الجهاتِ، فلحق بحَلَب ودمَشْقَ منهم عِدَّةٌ وافرةٌ، واختفى منهم جَماعةٌ. ومرّ شَيخٌ ونَوْروزٌ بحواشيهما على البرّية إلى تَدْمُر(٥) فامْتارُوا منهـا، ومضوا مسرعين إلى صَرْخَد وتوجهوا إلى البَلْقاء(٦) ودخلوا بيت المقدِس؛ ثمّ توَجّهوا إلى غَزّة بعد أن مات من أصحابهم الأمير تَمُرْبُغا المشْطُوب نَائب حَلب ــ كان ــ والأمير إينال المِنْقار، كلاهُما بالطّاعون بمدينة حُسْبان(٧).

ثمّ قَدِمَ عليهم سودُون الجلَب مِنَ الكَـرَك، فتتبَّعُوا مـا بِغَزّة مِن الخيـولِ فأخذوها، وأقاموا بها حتى أخرَجَ السّلطانُ إليهم بَكْتَمُر جِلِّق على عَسكرٍ كبير، فسارَ إلى زُرْع، ثمّ كتبَ للسّلطان يَطْلُبُ نجدةً، فأخرَجَ إليهِ السّلطانُ منْ دِمَشق بعسّكر هائِل من الأمراء والمماليكِ السلطانّية، وَرأْسُ الأمراء الأميرُ تمْرَازُ النّاصريّ ــ الذي قَدِم على السّلطان طائِعاً بِدِمَشْق ــ ويَشْبُك الموساويّ الأفقم، وأَلْطُنْبُغا العُثمانيّ، وأسَنْبُغا الزّردكاش وسُـودُون الظّريف نـائب الكَرك ــ كـان ــ والأمير طُوغان الحسنيّ رأسُ نوبة النّوب، فخرجوا من دِمَشْق مُجدِّينَ في السَّيـر إلى قاقُون(٨) ــ وبها الأميرُ بَكْتَمُر جِلّق ــ فساروا جميعاً إلى غزّة، فقدِمُوها في عصر

(١) هي قيسارية الروم، وتقـع على نهر قراصو أحد فروع نهر قزل أرمك. وكانت عاصمة بني سلجوق بآسيا الصغرى. (معجم البلدان).

(٢) بنو دلغادر ــ أو ذلغادر، أو ذولقادر ــ ينتسبون إلى ذولقادر الساساني، من سلاجقة آسيا الصغرى. وقد حكموا أبلستين ومرعش وعينتاب وآمد وسيس وغيرها من سنة ٧٤٠هـ إلى سنة ٩٢٨هـ حيث انتقلت تلك المنطقة إلى السيادة العثمانية. (معجم زامباور: ٢٣٥ ــ ٢٣٦).

(٣) عينتاب ــ أو عينتاب أو عنتاب ــ مدينة إلى الشمال من مدينة حلب (في تركيا اليوم) بين حلب وأنطاكية، ويمر بها نهر الساجور. (انظر معجم البلدان: ٤/١٧٦، والدرّ المنتخب: ١٧٠).

(٤) تلّ باشر: تقـع بين عينتاب وحلب على نهر الساجور. ــ انظر الدرّ المنتخب: ١٦٩.

(٥) في طرف بادية الشام. وهي مدينة قديمة مشهورة.

(٦) البلقاء: في الطرف الجنوبي من الشام تلقاء الحجاز. حالياً في الأردن.

(٧) حسبان: قاعدة عمل البلقاء.

(٨) قاقون: قرية من أعمال فلسطين تقـع شمال غربـي طول كرم.

يوم الثلاثاء مِن ثالث شهر رمضان، وقد رَحلَ شيخٌ ونَوْرُوزٌ بمنْ معَهُما بُكْرَةَ النهار عندما قدِمَ عليهم سُودُون بُقْجة وشاهين الدّوادار من الرّملة، وأخبَراهم بقدُوم عسكر السلطان إليهم، فنهبوا غزّة وأخذوا منها خيولاً كثيرةً وغلالاً، فتبعهم الأميرُ خير بك نائب غزّةَ إلى الزّعقة[1]، وسارت كشّافَتهُ في أثرهم إلى العَريشِ، ثمّ عَادُوا إلى غَزَّة.

فلمّا وَصل بَكْتَمُر جِلّق بمنْ معَهُ مِنَ الأمراء إلى غَزَّة، وبلغه توجّه شيخ ونَوْرُوز إلى جهة مصر، أرسَل بكْتَمُر الأميرَ شاهينَ الزَّردكاش والأميرَ أَسَنْبُغا الزَّردكاش على البريّة إلى مصر ليخبرا من بقلعة الجبل بقدُوم شيخ ونَوْرُوز إلى مصر؛ فسارا وسبقا شيخاً ونَوْرُوزاً، وعرّفا الأميرَ أرْغون الأميرَ آخور وغيرَه ممن هُو مِن الأمراء بمصر، ورُدّ جَوابُ أرْغون على بَكْتَمُر بأنه حصّنَ قلعة الجبل، والأسطبلَ السلطانيّ، ومدرسة السلطان حسن، ومدرسة الملكِ الأشرف شعبان بن حسين ــ التي كانت تجاه الطبلخاناه عند الصَّوّة ــ وأنه هُو ومَنْ معه قد استعدّوا للقاء شيخٍ ونَوْرُوز.

وأمّا شيخُ ونَوْرُوز ومَنْ معهم فإنهم ساروا مِنْ مدينة غزّة إلى جهة الدِّيار المصرية، فمات بالعَريش شاهينُ دَوادار الأمير شيخ ــ وكان عضد الأمير شيخ وأعظم مماليكه. ثمّ ساروا إلى قَطْيا ونهبوها. ثم سارُوا من قَطْيا إلى أنْ وصلوا إلى مِصر في يوم الأحد ثامن شهر رمضان مِن سنة ثلاث عشرة وثمانمائة المذكورة. ودخل شيخ ونَوْرُوز بمَنْ معهما مِن أُمراء الألوف، وهم: الأمير يَشْبُك بن أزدمُر، والأمير سودُون بُقْجة، والأمير سُودون المحمّدي تلّي، والأمير يَشْبُك العثمانيّ، وغيرهم مِنْ أُمراء الطّبلخانات مِثل قِمش وقُوزي وغيرهما، ودَخلَ معهم إلى القاهرةَ خلائقُ مِن الزُّعْر، وبني وَائِل ــ من عرب الشّرْقية ــ والأميرُ سعيدٌ الكاشِف ــ هو معزُول ــ فبَلغُهم تحصينُ القلْعةِ والمدرستين[2]، وأنّ الأمير أرْغُون ومَنْ معه مِن الأمراء

(١) الزعقة: من مراكز بين العريش ورفح.

(٢) يريد مدرسة السلطان حسن ومدرسة السلطان الأشرف شعبان، وكانتا بمثابة الحصون والقلاع من ملكهما يستطيع أن يصمد للرماة من القلعة وأن يبادلهم الرمي.

قبضوا على أربعينَ مملوكاً مِن النَّوروزية ـ أعني مِمن كانَ له مَيلٌ إلى نَوْرُوز مِن المماليك السلطانيَّة ـ وسجنوهم بالبُرْج من قلعةِ الجبل خوفاً مِنْ غَدْرِهم، فسارُوا مِنْ جهة المطريّة خارج القاهرة إلى بُولاق، ومضوا إلى الميدان الكبير إلى الصّليبة، وخرجوا إلى الرّميلة(١) تحتَ قلعة الجبلِ، فَرماهم المماليك السلطانيةُ بالمدافِع والنّشّاب، وبرزَ لهم الأميرُ إينال الصصلانيّ الحاجِبُ الثاني بمن معه، وَوقف تجاه باب السّلْسلة، وقاتَل الشيْخية والنَّورُوزية ساعةً، فَتقنطَر مِنَ القوْم فارسان، ثمّ انهزَم إينال الصصّلانيّ وعَادَ إلى بيتِهِ تجاه سَبيل المؤمِنيّ ـ المعرُوف ببيت نَوْرُوز ـ وباتَ الأمراء تلكَ اللّيلة بالقاهرة. وَأصبحَ الأميرُ شَيخٌ أقامَ رَجلاً في ولاية القاهرة فنادَى بالأمان، وَوعَد الناسَ بترخِيص الأسعار، وبإزَالة المظالم، فَمالَ إليه جمعٌ من العّامة. وأقاموا ذلك اليوم، وملكُوا مَدْرسةَ الملكِ الأشْرَف شعبان التي كانت بالصوّة تجاه الطّبلخَاناة السلطانية، هذا والقتال مُستمرٌ بَينهم وبين أهل القلعةِ. ثمَّ ملك الأمراء مدرسة السلطان حسن، وهزَموا مَن كان فيها مِن المقاتلة، بعدَ قِتال شدِيد، وأَقاموا بها جَماعةَ رُماةٍ من أصحابهم، ورَموا على قلعة الجبل يومَهم ولَيلتهم، وَطلعَ الأميرُ أرغون مِنْ بَشْبُغا ـ الأمير آخور ـ من الإسطبل السُّلْطانيّ إلى أعلى القلعة عند الأمير جَرْباش وكَمشْبُغا الجمالي، فأدْخلاهُ القلعة بمفردِهِ مِنْ غير أصْحَابِهِ.

فلمّا كانت ليلة الاثنين، كُسرتْ خُوخة(٢) أيْدَغْمُش، وَدَخلت طائفةٌ مِنَ الشامِّيين إلى القاهرة، ومعهم طوائفُ مِنَ العامة؛ ففتحُوا بابَ زويلة ـ وكان والي القاهرة حسام الدين الأحولَ، وقد اجتهد في تحصين المدينَة ـ ثمَّ كَسرُوا بابَ خِزَانة شمائل، وأخرجوا مَنْ كانَ بها، وكسرُوا سِجنَ الدّيلم أيضاً، وسِجْنَ رَحبةِ باب العيد، وانتشرُوا في حارَات القاهرة، ونهبُوا بيتَ كَمَشْبُغا الجماليّ، وتَتبّعُوا الخُيولَ والبغالَ من الإسطبلات [التي للناس](٣) وغيرها، وأخذُوا منها شَيئاً كثيراً.

(١) في الأصل: «الرملة» وهو خطأ.

(٢) الخوخة: هي عبارة عن باب صغير في أصل بوابة كبيرة ـ والأماكن الواردة هنا سبق التعريف بها فارجع إلى فهرس الأماكن.

(٣) زيادة عن نزهة النفوس والابدان.

ثمّ فَتحوا حَاصِلَ الديوانِ المُفرد بِبينِ القصْرَين وأخذُوا منه مالاً كثيراً. ثمَّ ملك شيخٌ بابَ السلسلة، وجَلسَ بالحرّاقة(١) هو ورُفقته. ثمّ طلبوا مِن الأمراءِ الذينَ بِالقلعةِ فتحَ [باب] القلعةِ لهم في بُكرةِ يوم الثلاثاء، فاعتذَرَ الأمراء لهمْ بأنّ المفاتيح عند الزّمام(٢) كافور، فاستدْعوهُ فأتاهم، وكلّمهم مِنْ وراء الباب، فسلموا عليه من عند الأمير شيخ ومن عِند أنفسهم، وكان الأميرُ نَوْرُوز منْ جُمْلة مَنْ كان واقفاً على الباب، وسألوه الفتْحَ لهم، فقالَ: «ما يُمكنُ ذلكَ، فإنّ حريمَ السُّلطانِ بالقلعة»، فقالوا: «مَالنا غرضٌ في النهب وإنما نُريدُ أن نأخذ ابنَ أُستاذِنا» ـ يعنون بابن أُستاذِنا: الأميرَ فرجَ ابنَ السُّلطان الملك الناصر فرَج؛ وكانَ هذا الصبيّ سُمي على اسم أبيه، وهوَ أكبرُ أولادِ الملكِ الناصر ـ فقالَ كافورُ الزِّمام: «وأيش صاب(٣) السُّلطانَ حتى تأخذُوا وَلدَه؟» فقالوا: «لو كانَ السُّلطانُ حيّاً ما كنّا هَاهنا ـ يعنون أنهم قتلوا السلطانَ، وساروا إلى الديار المصرية ليُسلطنوا ولدَه ـ فلم يمْشِ ذَلك على كَافور ولا على غيرِه. وطالَ الكلامُ بينهم في ذلك، فلم يلتفِت كَافور إلى كلامهم، فهدّدُوه بإحراق الباب، فخافَ وقالَ: «إن كنتم ما تريدون إلا ابن أُستاذِكم فليحضر إلى باب السرّ اثنان مِنكم أو ثلاثة، وتحضُر القضاةُ، ثمَّ احلفوا أنكم لا تَغْدِرُون بهِ ولا تمسُّونه بسُوء». وكَانَ كَافور يقْصدُ بذلك التطويلَ، فإنه كانَ بلغهُ هُو والأمراء الذين بالقلعة قُرْبُ مجيء العسكر السلطانيّ إلى القاهرة، فبعثوا لهم البطاقةَ من القلعة باستعجالهم، وأنهم في أقوَى ما يكون مِنَ الحصَار،

(١) الحّراقة: نوع من السفن الحربية الخفيفة. وكان هناك نوع من الحراقات يستخدم من النيل لحمل الأمراء ورجال الدولة في الاستعراضات البحرية، وهو تقليد منذ أيام الفاطميين واستمر إلى عصر المماليك. كما كان للسلطان حرّاقة خاصة به تسمى الحرّاقة السلطانية، ولعلها هي المقصودة في المتن أعلاه. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ١٠٤).

(٢) الزمام، أو الزمام دار: هو الذي يتحدّث على باب ستارة السلطان، وهو الموكل بحفظ الحريم، ويكون عادة من الخدّام الخصيان أو الطواشية. وأصل اللفظ «زنان دار» من «زنان» لفظ فارسي بمعنى النساء. (انظر الأعشى: ٥/٤٥٩ ـ ٤٦٠).

(٣) صاب بمعنى أصاب، وكلاهما فصيح.

ومتى[١] ما لم يُدرَكوا أُخذُوا. وأخذَ كَافور في مُدَافعةِ الجماعة والتمويه عليهم ـ قلت: وعلى كل حال فهو أرجلُ[٢] مِنْ أرغون الأمير آخور، فإنّ أرغونَ مع كثرة من كان عنده من المماليك السلطانية ومَماليكه لم يقْدِرْ على منع بابِ السِّلسلة، وتركها وفرّ في أقلّ مِنْ يومين، وكانَ يمكنه مدافعة القوم أشهراً ـ انتهى.

وبينما [كافور] الزّمام في مُدَافعتهم لاحَتْ طلائعُ العسكر السلطانيّ لمنْ كانَ شيخُ أوقفه مِنْ أصحابه يرقبهم بالمآذن بقلعة الجبل، وقد ارتفع العجاجُ، واقبلوا سائقين سوقاً عظيماً جهدهم. فلما بلغَ شيخاً وأصحابه ذلك لم يثْبتُوا ساعةً واحدةً، وركبوا من فورهم ووقفُوا قريباً من باب السلسلة، فدهمهم العسكرُ السلطانيّ فولوا هاربين نحو باب القرافة، والعسكرُ في أثرهم، فكبا بالأمير شيخٍ فرسُه عند سُوق الخيم بالقرب من باب القرافة، فتقنطر من عليه، فلم يستطع النهُوضَ ثانياً، لعظَم روعه وسرعة حركته، فأركبهُ بعضُ أمراء آخوريته ـ يُقالُ إنه الأمير جُلُبَّانُ الأميرُ آخور، الذي كان وَليَ نيابة الشام في دولة الملك الظاهر جَقْمَق إلى أن مات في دولة الملكِ الأشرف إينال في سنة ثمان وخمسين وثمانمائة ـ وركب شيخُ ولحقَ بأصحابه، فمرّوا على وجُوههم على جرائد الخيل، وتركوا ما أخذُوه من القاهرة، وأيضاً ما كان معهم، وسارُوا على أقبح وجهٍ بعد أن قبض عسكرُ السلطان على جماعةٍ من أصحاب شيخ، مثل الأمير قَرَا يَشْبُك ـ قريب نَوْرُوز ـ وبُرْدبَك رأس نَوْبة نَوْرُوز ـ لأن نَوْرُوزاً ثبت قليلاً بالرُّميلة بعد فرار الأمير شيخ ـ وعلى بَرْسبَاي الطُّقْطَائيّ أمير جاندار، وثمانية وعشرين فارساً، وجُرحَ جماعةٌ كبيرة، منهم السيفيّ يشبُك السَّاقيّ الظاهريّ ـ الذي وُلّي في الدولة الأشرفية [بَرْسبَاي] الأتابكيةَ ـ ومن هذا الجرح صار أعْرَجَ بعد أن أشرف على الموت.

---

(١) كذا بالأصل. ولفظ «متى» هنا لا لزوم له. وفي حاشية طبعة كاليفورنيا يلاحظ بوبر أن أبا المحاسن يستعمل «متى» بمعنى «إنْ».

(٢) عاميّة بمعنى أكثر رجولة ومقدرة.

ودخل الأمير بَكْتَمُر جِلّق بعساكره، وأرسل الأميرَ سُودُون الحمصيّ فاعتقل جميع من أُمسكَ من الشاميين، وأخذ يتتبّعُ من بقي من الشامية بالقاهرة. ثم نادى في الوقت بالأمان. ثم أخذت عساكره يقتلون في الشاميين، ويأسرون وينهبون إلى طمّوه[١]. وألزم بَكْتَمُر جِلّق واليَ القاهرة بمسك الزّعر الذين قاموا مع الشّاميين، فأبادهم الوالي، وقطع أيدي جماعة كبيرة، وحبس جماعة أُخر بعد ضربهم بالمقارع. وأخذ الأميرُ بَكْتَمُر جِلّق في تمهيد أحوال الديار المصرية. وقدم عليه الخبرُ في ليلة الأربعاء حادي عشر من شهر رمضان المذكور بأنّ شيخاً نزل إطفيح[٢]، وأنّ شعبان بن محمد بن عيسى العائذيّ توجه بهم إلى نحو الطور[٣]، فنودي بالقاهرة ومصر بتحصيل من اختفى من الشاميين بها. ثم قدم الخبرُ بوصولهم إلى السُّويس، وأنهم أخذُوا علفاً كان هناك للتجار، وَزاداً وجمالاً، وسار بهم شعبان بن عيسى في درب الحاج[٤] إلى نخل[٥]، فأخذُوا عدَّة جمالٍ للعُربان، وأن شعبان المذكور أمدَّهم بالشعير والزَّاد، وأنهم افترقُوا فِرقتين، فرقة رأسها الأمير نَوْرُوزُ الحافظيّ ويشبُك بن أَزْدَمُر وسُودون بقجة، وفرقة رأسها الأمير شيخُ المحموديّ وسودُون تلّي المحمديّ وسُودون قراصُقل، وكلّ فرقة منهما معها طائفة كبيرةٌ من الأمراء والمماليك، وأنهم لما وصلوا إلى الشُّوبَك[٦] دفعهم أهلها عنها، فسارُوا إلى جهة الكرك وبها سُودُون الجلب، فتضرعوا له حتى نزل إليهم من قلعة الكرك، وتلقّاهم وادخلهم مدينة الكرك، وأنهم استقرُّوا بالكرك.

---

(١) طموه: قرية مصرية قديمة، وهي من قرى مركز الجيزة.

(٢) إطفيح: من البلاد المصرية القديمة، تقع على الشاطىء الغربي للنيل، بمركز الصف.

(٣) الطور: جبل عال قرب طبرية وحطين، ويطل على عكا، وعليه قلعة بناها الفرنج وملكت في حروب صلاح الدين، ثم خربها المسلمون وعفوا أثرها، ثم عمرها الملك العادل بن أيوب (معجم البلدان).

(٤) درب الحاج: المراد طريق الحاج البري من جهة سيناء وشرقي البحر الأحمر، وهو موصوف بتوضيح في صبح الأعشى للقلقشندي (١٤: ٧٨٥ ــ ٧٨٧).

(٥) نخل: محطة من محطات الحجاج ومنهل من مناهلهم، وهي اليوم نجع صغير يقع في وسط جبال شبه جزيرة سيناء شرقي السويس على بعد ١٢٠ كم منها، وهي نقطة حدود مصرية (عن تعليقات محمد رمزي على النجوم).

(٦) الشوبك: قلعة من قلاع الكرك بالأردن.

وأما الأمير بَكْتَمُر جِلّق بمن معهُ من الأمراء والعساكر السّلطانية، فإنهم أقاموا بالقاهرة نحو ستة أيام حتى تحققُوا توجُّه القوم إلى جهة البلاد الشَّامية، فخرجوا من القاهرة في يوم سادس عشر من رمضان يريدون البلاد الشَّاميّة إلى الملك الناصر وهو بدمشق، وتأخر بالقاهرة من الأمراء من أصحاب بَكْتَمُر جِلّق: طوغانُ الحَسنيّ رأس نوبة النّوب ــ وقد استقرّ قبل تاريخه دَوَادَاراً كبيراً بعد موت الأمير قَرَاجا بطريق دمشق، في ذهاب الملك النّاصر إلى الشام ــ ويشبُك الموساويّ الأفقم، وشاهين الزَّردكاش، وأَسَنْبُغا الزَّردكاش. وسار بَكْتَمُر جِلّق بمن بقي حتى وصل دمشق.

وأما السُّلطان الملك النَّاصر، فإنه كان في هذه الأيام بدمشق، وبلغَهُ ما وقع بالديار المصرية مفصلاً، لكن نُقل إليه أن بَكْتَمُر جِلّق وطوغان الحسنيّ قصّرا في أخذ شيخ ونَوْرُوز، ولو قصدا أخذهما لأمكنهم ذلك، فأسرها الملك الناصر في نفسه. قلتُ: ولا يبعُدُ ذلك، لما حكى لي غيرُ واحد ــ ممن حضر هذه الواقعة ــ من ضعف شيخ ونَوْرُوز، وتقاعُدِ الأمراء عن المسير في أثرهم. ولما بلغ الملك الناصر ذلك لم يسعه إلّا السكات، وعدم معاتبة الأمراء على ذلك.

ثم إن السلطان أمسك الأمير جانبك القرميّ بدمشق في يوم الاثنين أول شوال، وضربه ضرباً مُبرِّحاً، وسجنه بقلعة دمشق. ثم أمر السُّلطانُ الأمير قَرْقَماس ابن أخي دَمُرْداش ــ المعروف بسيدي الكبير ــ بالمضيّ إلى محل كفالته بحلب، فسار من دمشق عائداً إلى حلب. واستمرّ السّلطانُ بدمشق إلى يوم سابع عشر ذي القعدة، وخرج منها إلى قبّة يَلْبُغا، ورَحل من الغد بأمرائه وعساكره يريدُ الكرك بعد ما تحقق نزُول الأُمراء بالكرك. وخلَع على بَكْتَمُر جِلّق بنيابة الشام على عادته، وعاد بَكْتَمُر إلى دمشق.

وأما شيخٌ ونَوْرُوزٌ وجماعتهما، فإنهم أقاموا بالكرك أياماً، واطمأنُّوا بها، ثم أخذوا في تحصينها. فلما كان بعضُ الأيام نزل الأمير شيخٌ ومعهُ الأمير سُودُون بُقجة، وقاني باي المحمديّ في طائفةٍ يسيرة من قلعة الكرك إلى حمّام الكرك، فدخل جميعُ هؤلاء الحمام. وبلغ ذلك الأمير شهاب الدين أحمد حاجب

الكرك، فبادر بأصحابه ومعهُ جمعٌ كبير من أهل البلد، واقتحمُوا الحمام المذكورة ليقتلوا بها الأمير شيخاً وأصحابه، فسبقهم بعضُ المماليك وأعلم الأمير شيخاً، فخرج من وقته من الحمام ولبس ثيابه ووقف في مسلخ الحمام عند الباب، ومعهُ أصحابه الذين كانوا معه في الحمام، فطرقهم القومُ بالسلاح، فدافَع كل واحد منهم عن نفسه، وقاتلُوا قتال الموت، حتى أدركهم الأميرُ نَوْرُوزٌ بجماعته، فقاتلوهم حتى هزموهم بعد ما قُتِل الأميرُ سُودون بُقجة، وأصاب الأمير شيخاً سهمٌ غار في بدنه، فنزف منهُ دمٌ كثير حتى أشرفَ على الموت؛ وحُمل إلى قلعة الكرك فأقام ثلاثة أيام لا يعقل، ثم أفاق. ومن هذه الرَّجفة حصل له مرضُ المفاصل الذي تكسَّح منهُ بعد سلطنته، هكذا ذكر المؤيدُ لبعض أصحابه.

وأما الأمير نَوْرُوز لما بلغهُ قتلُ سُودُون بُقجة وهو يُعارك القومَ جدّ في قتالهم حتى كسرهم، وقتل منهم مقتلةً عظيمة، ثم عاد إلى الكرك وقد جُرح من أصحابه جماعةٌ. وبلغ هذا الخبرُ السلطانَ الملك الناصر فسُرَّ بقتل سُودُون بُقجة سُرُوراً عظيماً، لكثرة ما كان أحسن إليه ورقّاه حتى ولَّاهُ نيابة طرابُلُس، فتركهُ وتوجَّه إلى الأمير شيخ ونوْرُوز من غير أمرٍ أوْجَب تَسحُّبه، بل لأجل خاطر أغاته[1] وحميه الأمير تِمْرَاز النائب. ثم وقع بين الأمراء وبين سُودُون الجلب بالكرك، فنزل سودُون الجلب من الكرك وتركها لهم، ومضى حتى عدّى الفُرات.

وأما السُّلطان الملك الناصر، فإنه سار من مدينة دمشق حتى نزل على مدينة الكرك في يوم الجمعة رابع عشرين ذي القعدة، وأحاط بها ونصب عليها الآلات، وجد في قتالها، وحصرها وبها شيخٌ ونَوْرُوز وأصحابُهما، واشتدّ الحصارُ عليهم بالكرك. وأخذ الملكُ الناصر يلازمُ قتالهم حتى أشرفوا على الهلاك والتسليم. ثم أخذ شيخٌ ونَوْرُوز والأمراء يكاتبون الوالد ويتضرعون إليه، وهو يتبرّم

---

(١) الأغا: كلمة تركية من المصدر «أغمق» ومعناه الكبر وتقدّم السن. وقيل إنها من الفارسية «أقا». وجرى الكتّاب بالعربية على إضافة تاء إليها إذا وقعت مضافاً، كما في المتن أعلاه. وتطلق في التركية على الرئيس والقائد وشيخ القبيلة، وعلى الخادم الخصي الذي يؤذن له بدخول غرف النساء. (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي: ١٧).

من أمرهم والكلام في حقهم، ويوبخهم بما فعلهُ الأميرُ شيخٌ مع بَكْتَمُر جِلّق بعد حلفه في واقعة صرخد؛ فأخذ شيخ يعتذرُ ويحلفُ بالأيمان المغلظة أن بَكْتَمُر جِلّق كان الباغي عليه والبادىء بالشرّ، وأنه هودفع عن نفسه لا غير، وأنه ما قصدُهُ في الدنيا سوى طاعة السُّلطان، «وأنت الأميرُ الكبيرُ، وأكبر خُشدا شيتنا، إن لم تتكلم بيننا في الصلح وإلاّ فمن يتكلم؟». ثم كاتبوا أيضاً جماعة من الأمراء في طلب العفو والصلح. ولا زالوا حتى تكلم الوالدُ مع السُّلطان في أمرهم، فأبى السلطان إلاّ قتالهم وأخذهم، والوالدُ يمعن في ذلك حتى ابتُرم الصّلحُ غير مرَّة والسلطانُ يرجعُ عن ذلك.

ثم تردّدَت الرسل بينهم وبين السُّلطان أياماً حتى انعقد الصلحُ، على أن يكون الوالدُ نائب الشام، وأن يكون الأمير شيخٌ نائب حلب، وأن يكون الأميرُ نَوْرُوز نائب طرابُلُس، وكان ذلك بإرادة شيخٍ ونَوْرُوز؛ فإنهما قالا: «لا نرضى أن يكون بَكْتَمُر جِلّق أعلى منا رُتبةً بأن يكون نائبَ الشّام، ونحن أقدمُ منه عند السلطان؛ فإن كانَ ولا بُدّ، فيكون الأميرُ الكبيرُ تَغْري بَرْدي في نيابة الشّام، ونكون نحن تحت أوامره، ونسيرُ في المهمات السُّلطانية تحت سَنْجقه، وأما بَكْتَمُر ودَمُرْداش فلا. وإن فعل السّلطانُ ذلك لا يقع منا بعدها مُخالفةٌ أبداً».

ولما بلغ الأمراء والعساكر هذا القولُ أعجبهم غاية الاعجاب، وقد ضجرَ القومُ من الحصار، وملّوا من القتال، فلا زالوا بالسلطان حتى أذعنَ ومال إلى تولية الوالد نيابة الشَّام؛ وكلّم الوالد في ذلك، فأبى وامتنع غاية الامتناع. وكان السّلطانُ قد شرط على الأمراء شُرُوطاً كثيرةً فقبلُوها، على أن يكونِ الوالد نائب دمشق. وأخذ الملك الناصرُ يُكلم الوالدَ في ذلك والوالد مُصممٌ على عدم القبول، وأرمىٰ سيفه غير مرّةٍ بحضرةِ السّلطان، وأراد التوجُّه إلى القُدس بطّالاً.

وصار الوالدُ كُلمّا امتنع من الاستقرار وحنق يَكُفّ عنهُ السلطانُ، فإذا رضي كلّمهُ. ثم سلط عليه الأمراء فكلّموه من كل جهةً [حتى قبل][1]. ثم قام إليه السُّلطان

---

(١) زيادة عن حاشية طبعة كاليفورنيا.

واعتنقهُ، وطلب الخلعة فجيء بها في الحال، وألبسها للوالد باستقراره في نيابة دمشق عوضاً عن بَكْتَمُر جِلِّق. واستقر الأمير شيخٌ في نيابة حلب عوضاً عن قَرْقماس سيِّدي الكبير، والأميرُ نَوْرُوزٌ في نيابة طرابُلُس عوضاً عن جانم من حسن شاه. واستقرّ جانم المذكورُ أمير مجلس بإمرة مائةٍ وتقدمة ألف بالديار المصرية. واستقرّ تَغْري بَرْدي سيِّدي الصغير في نيابة حماة على عادته. ورسم للأمير سودُون من عبد الرحمن نائب صفد أن ينتقل من نيابة صفد إلى تقدمة ألف بالديار المصرية، وأن يكون الأميرُ يشبُك بن أزْدَمُر أتابَكَ دمشق عند الوالدِ، فإنه كان من ألزامه، وعقد عقدهُ بعد ذلك على إحدى بناته ــ ولها من العمر نحو ثلاث سنين ــ ويكون قاني باي المحمّدي أميراً بحلب عند الأمير شيخ. ثم شرط السُّلطان على شيخ ونَوْروزٍ ألا يُخرجا إقطاعاً، ولا إمرةً، ولا وظيفة لأحدٍ من الناس إلا بمرسوم السّلطان، وأن يُسلما قلعةَ الكَرَك إلى السلطان، ويُسلِّم شيخٌ قلعة صهيون وصرخد أيضاً، فرضُوا بذلك جميعه، وحَلفُوا على طاعة السُّلطان. وخلع السلطان عليهم خِلعاً جليلةً، ومَدّ لهم سماطاً أكلوا منه.

ثُمَّ رحل السُّلطان من الكرك بعساكره يُريدُ القُدس، فوصله وأقام به خمسة أيام، ثمّ خرج منه وسار يُريدُ القاهرة.

وأمّا الوالدُ فإنه سار من الكرك إلى نحو دمشق حتى دخلها في يوم سادس المحرّم من سنة أربع عشرة وثمانمائة، ونزل بدار السّعادة، وقد خمدت الفتنة، وسكن هرجُ النَّاس. ثم خرج الأميرُ شيخٌ والأمير نَوْرُوزٌ من الكرك إلى محلّ كفالتهما، وقدما إلى دمشق بمن معهما من الأمراء والمماليك لعمل مصالحهما بدمشق؛ فلما بلغ الوالد قُدومُهما خرج لتلقّيهما بقُماش جُلوسه في خواصّه لا غير، فلما وقَع بصرهُما على الوالد نزلا عن خُيولهما، فأقسم عليهما الوالدُ في عدم النزول، فنزلُوا قبل أن يسمعوا القسم، فعند ذلك نزل لهم الوالدُ أيضاً عن فرسه وسَلّمُوا عليه، فحلف عليهم الوالدُ بالنزُول في دار السعادة، فامتنعُوا من ذلك، فأنزلهم بالمزة، ثم ركب إليهم الوالدُ وأخذُهم من وطاقهم غصباً.

وأنزل الأمير شيخاً بالقرمانيّة، ونوْرُوزاً بدار الأمير فرج بن مَنْجَك، ونزل كلُّ واحد من أصحابهما بمكان حتى عُملت مصالحهم. وكثُر تردادُهم إلى الوالد بدار السّعادة في تلك الأيام، فسُرّ أهل الشام بذلك غاية السرور، وصار الأمير شيخٌ يتنزّه بدمشق، ويتوجَّه إلى الأماكن ومعه قليلٌ من مماليكه. حدثني بعضُ مماليك الوالد أن الأمير شيخاً كان يجيء في تلك المدة إلى الوالد في دار السعادة ومعه شخصٌ واحدٌ من مماليكه، وينزل ويقيلُ بالبحرة[١]، وينام بها نومةً كبيرةً إلى أن يُطبخ له ما اقترحهُ من المآكل.

ثم خرج الأميرُ شيخٌ والأمير نَوْرُوزُ كلٌّ منهما إلى محلّ كفالته بعد أن أنعم الوالدُ في يوم سفرهما على كلّ واحدٍ بألف دينار، وقيَّدَ لهُ فرساً بسرجٍ ذهب وَكُنْبُوش زَركش[٢]، وأشياء غير ذلك كثيرة.

وأما أمرُ السّلطان الملك الناصر، فإنّه سار من القُدس حتى نزل بتُربة والده بالصحراء خارج القاهرة في يوم الأربعاء ثاني عشر المحرّم من سنة أربع عشرة وثمانمائة، وخلع على الخليفة المستعين بالله العبّاس، وعلى القُضاة والأمراء، وسائر أرباب الدولة، وخلع على الأمير دَمُرْداش المحمديّ باستقراره أتابك العساكر بالدّيار المصرية، عوضاً عن الوالد، بحكم انتقاله إلى نيابة دمشق حسبما تقدّم ذكرهُ. ثم ركب السُّلطانُ من التربة المذكورة وطلع إلى القلعة، بعد ما خرج الناسُ للفرجة عليه، فكان لطلوعه يومٌ مشهودٌ. وزُينت القاهرة أياماً لقدُومه. ثم بعد قدُوم السّلطان باثني عشر يوماً قدِم الأمير بَكْتَمُر جِلّق المعزُول عن نيابة دمشق، فركِب السّلطان وتلقّاهُ وألبسه تشريفاً، وخلع على الأمير الكبير دَمُرْداش بنظر البيمارستان المنصوريّ[٣]. ودخل السُّلطان من باب النصر وشقَّ القاهرة،

(١) البحرة: ويراد بها بحيرة دمشق، وتقع شرقي الغوطة بميلة يسيرة إلى الشمال، يصب إليها فضلة نهر بردى وغيره ــ وتتسع في أيام الشتاء وتضيق في أيام الصيف. وبها غابات قصب وأماكن تخفى من العدو. (صبح الأعشى ٣: ٨٤).

(٢) الكنبوش هو البرذعة تجعل تحت سرج الفرس. والزركش: فارسية بمعنى الثوب المذهب، أو الثوب تطرز حواشيه. بخيوط الذهب. (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل: ١٢٢).

(٣) البيمارستان المنصوري: بناه المنصور قلاوون بخط بين القصرين من القاهرة سنة ٦٨٢هـ. (انظر خطط المقريزي: ٢/٤٠٦ ــ ٤٠٨).

ونزل بمدرسته التي أنشأها جمالُ الدين الأستادار له برحبة باب العيد المعروفة بالجمالية، وقد أثبت القضاةُ أنها لهُ وسُميت بالنّاصرية. ثمّ ركب السُّلطانُ من المدرسة المذكورة، ونزل بمدرسة والده المعروفة بالبرقُوقيّة[1] ببين القصرين، ثم ركب منها وأمر الأتابك دَمُرداش بعبُور البيمارستان المنصوريّ، وتوجه السّلطانُ إلى جهة القلعة.

ثم في ثاني عشر صفر من سنة أربع عشرة وثمانمائة عيَّن السّلطانُ اثنين وعشرين أميراً من الأمراء البطّالين ليتوجهّوا إلى الشّام على إقطاعات عيَّنها السّلطان لهم، منهم: الأميرُ خُزمان الحسني، وتَمان تَمُر الناصريّ، وسونجبغا، وشادي خجا، وألْطُنْبُغَا، وقاني باي الأشقر، ومعهم مائتا مملوك، ليكونوا أعواناً للوالد بدمشق، وفي خدمته. وكان الوالدُ شفع في هؤلاء المذكورين حتى أطلقهم السلطانُ ــ على عادتهم ــ من السجن، ثم أمر السّلطان بقتل جانبك القرميّ، وأسندمرُ الحاجب، وسُودُون البجاسيّ، وقاني باي أخي بلاط، والجميع كانوا بسجن الإسكندرية.

ثم في حادي عشرين صفر خلع السلطانُ على تقيّ الدين عبد الوهاب ابن الوزير فخر الدين ماجد بن أبي شاكر باستقراره في وظيفة نظر الخاص؛ وكانت شاغرةً مُنذ توفّي مجدُ الدين عبد الغني بن الهيصم في ليلة الأربعاء العشرين من شعبان من سنة ثلاث عشرة وثمانمائة. ثم أمسك السّلطانُ بثلاثة أُمراء من أُمراء الألوف، وهم: قاني باي المحمديّ، ويشبُك الموساوي الأفقم، وكمشبُغا الفيسيّ، وقبض على جماعة أُخر من الطبلخانات والعشرات، وهم: الأميرُ منجك، والأمير قاني باي الصغير العمري ابن بنت أُخت الملك الظاهر برقُوق ــ وقاني باي هذا جد خوند بنت جرباش الكريميّ وزوجة السلطان الملك الظاهر جقمق لأمها ــ وكان أمير عشرة، وعلى الأمير شاهين، وخير بك، ومأمور، وخُشكلدي، وحُمِلوا الجميع إلى سجن الإسكندرية فسُجنوا بها.

(١) المدرسة البرقوقية: أنشأها الظاهر برقوق سنة ٧٨٦هـ بخط بين القصرين الذي عرف فيا بعد بشارع النحاسين. وهي عامرة إلى اليوم وتعرف بجامع البرقوقية. (خطط علي مبارك: ٢/ ٨٩).

ثم رسم السّلطانُ للأمير تِمْرَاز الناصريّ أن يكونَ طرخاناً(١) لا يمشي في الخدمة، ويُقِيمُ بداره أو يتوجَّه إلى دمياط؛ وتمراز هذا هو الذي كان فرَّ من السّلطانُ وصحبته الأمراء من بيسان إلى الأمير شيخ.

ثمّ خلع السّلطانُ على الأمير سُنْقُر الروميّ باستقراره رأس نوبة النوب عوضاً عن قاني باي المحمديّ المقبُوض عليه قبل تاريخه.

ثم أرسل الوالدُ إلى السلطان يُعلِمُهُ برفع الطّاعون من دمشق وغيرها، وأنه أُحصي من مات من أهل دمشق فقط فكانوا خمسين ألفاً سوى من لم يُعرف.

وفي أول شهر ربيع الأوّل، قدِم الأميرُ إينال المحمّديّ السّاقيّ المعرُوفُ بضُضع من سجن الإسكندرية ــ بطلب من السّلطان ــ ورُسم له أن يكون بطّالاً بالقاهرة.

ثم أخرج السّلطانُ إقطاع الأمير جرباش كبَّاشة، ورسم له بأن يتوجه إلى دمياط بطّالاً.

ثم بعده توجَّه تِمْرَازُ الناصريّ المقدّم ذكرُه إلى دمياط أيضاً بطّالاً.

ثم قبض السّلطانُ على جماعة من كبار المماليك الظاهرية ــ برقُوق ــ وحبسهُم بالبُرج من القلعة.

ثم قَدِمَ الخبرُ على السّلطانِ بأن شيخاً ونَوْرُوزاً لم يُمْضِيَا حُكْمَ المناشير

(١) الطرخان: هو الأمير المتقاعد أو البطّال، الذي كبر في السن ولم يعد يسمح له وضعه بمزاولة الوظيفة. عندئذ يصدر السلطان مرسوماً (يسمى طرخانية) بإحالة الأمير المذكور على التقاعد وإعفائه من الخدمة السلطانية، بعد أن يعدد مزاياه وحسن خدمته السابقة. وتكون حالة الطرخان عادة من غير غضب السلطان عليه، وبالتالي يكون له الحق في الإقامة حيث شاء، وذلك بعكس الأمير البطّال الذي يطرد من الخدمة ويغضب عليه السلطان لسبب من الأسباب. والطرخان يمكن أن يتناول معلوماً (راتباً) أو يكون بغير معلوم. كما أن المعلوم الذي يتناوله الطرخان يمكن أن ينتقل إلى أولاده. وقد أورد القلقشندي عدداً من نصوص الطرخانيات في العصر المملوكي. (انظر صبح الأعشى: ١٣/٥١ ــ ٥٧، طبعة دار الكتب العلمية) ــ هذا علماً أن الأمير البطّال ليس من الضرورة أن يكون مغضوباً عليه، فقد كان بعض الأمراء ــ لأسباب خاصة ــ يطلبون بإرادتهم أن يصبحوا بطّالين، وبالتالي فإنهم يعيشون من إقطاعاتهم.

السّلطانيّة[١]، وأنهما أخرجا إقطاعات حلب وطرابُلُس لجماعتهما، وأن الأميرَ شيخاً سيّر يشبُك العثماني لمحاصرة قلعة البيرة وقلعة الروّم، وأن عزمهُما العودُ لما كانا عليه من الخُرُوجِ عن الطّاعة.

فعلم السلطانُ عند ذلك أنَّ الذي يُحرِّك هؤلاء على الخُرُوج عن الطّاعةِ والعصيان إنَّما هُم المماليكُ الظّاهريّةُ [برقوق][٢] الذين هم في خدمة السّلطان، ووافقه على ذلك أكابرُ أُمرائه، وحسّنوا له القبض عليهم، وكان الوالدُ ينهاهُ عن مسكهم، ويحذِّرُه من الوُقُوع في ذلك. فلما استقر الوالدُ في نيابة دمشق خلا لهُ الجوُّ، وفعل ما حدَّثته نفسه مما كان فيه ذهابُ رُوحه، فقبض الملكُ الناصرُ على جماعةٍ كبيرةٍ منهم، وحبسهُم بالبُرجِ من القلعة، ثم قتلهُم بعد شهر، وكانُوا جمعاً كبيراً.

ثمّ أمسك السّلطانُ الأمير خير بك نائب غزَّة، وهو يومئذ من أُمراء الألوف بالديار المصريّة.

ثم ورد الخبر على السّلطان بحصار عسكر نَوْرُوز لحصن الأكراد، فاختبط السّلطانُ وكتب إلى شيخ ونَوْرُوز بالتّهديد والوعيد.

ثم في أوّل شهر ربيع الآخر خلع السلطانُ على الأمير أسنبُغا الزَّردكاش ــ أحد أُمراء الألوف وزوج أخته خوند بيرم بنت الملك الظّاهر برقُوق ــ باستقراره شاد الشّراب خاناه عوضاً عن الأمير سُودُون الأشقر.

ثم في ثالث عشره خلع السّلطانُ على فخر الدين عبد الغني بن أبي الفرج كاشف الوجه البحريّ باستقراره أستاداراً عوضاً عن تاج الدين عبد الرزّاق بن الهيصم، بحكم القبض عليه، وتسليمه وحواشيه إلى فخر الدين المذكور.

---

(١) كان السلطان قد شرط عليهما «ألا يخرجا إقطاعاً ولا إمرة ولا وظيفة لأحد من الناس إلا بمرسوم السلطان».

(٢) زيادة للتوضيح ــ وهم مماليك أبيه الخاصّكية.

ثم في أوّل جمادى الأُولى رسم السّلطانُ بهدم مدرسة الملك الأشرف شعبان بن حُسين، التي كانت بالصّوّة تجاه الطبلخاناه السّلطانيّة، ومكانها اليوم بيمارستان الملك المؤيد شيخ، فوقع الهدمُ فيها؛ وكانت من محاسن الدنيا، ضاهى بها الملكُ الأشرفُ مدرسةَ عمّه السّلطان الملك الناصر حسن التي بالرُّميلة تجاه قلعة الجبل.

ثم رسم السّلطانُ بهدم البيوت التي هي مُلاصقة للميدان من مصلّاة المؤمنيّ إلى باب القرافة، فهُدِمَت بأجمعها وصارت خَراباً.

ثم أمر السُّلطانَ بالقبض على أقارب جمال الدين يوسف الأستادار وعقوبتهم، فأمسكُوا وعُوقِبُوا عُقُوباتٍ كثيرة. ثم خنق أحمد ابنه، وأحمد ابن أخته، وحمزة أخاه[1] في ليلة الأحد سادس عشر جُمادى الأولى.

ثم كتب السّلطانُ ثانياً إلى الأمير شيخ يخوفُه ويُحذرُه، ويأمره أن يُجهِّز إليه الأمير يشبُك العثمانيّ، وبُرْدبَك، وقاني باي الخازندار، ويُرسل سُودُون الجلب إلى دمشق، ليكون من جُملة أُمرائها.

ثم بعد إرسال الكتاب تواترت الأخبارُ باتفاق شيخٍ ونَوْرُوزٍ على الخُروجِ عن الطّاعةِ، وعزما على أخذ حماة؛ فوقَع الشُّرُوعُ والاهتمام لسفر السّلطانِ إلى البلاد الشّامية، وكتب إليها بتجهيز الإقامات.

ثم تكلّم الأستادارُ فخر الدين بن أبي الفرج مع السلطان وحسّن له القبض على الوزير ابن البشيريّ[2]، وعلى ناظر الخاصّ ابن أبي شاكر[3]، فلمّا بلغهُما

(١) أي حمزة أخا أحمد ابن أخت جمال الدين الأستادار.

(٢) هو سعد الدين إبراهيم بن بركة القبطي المصري المعروف بالبشيريّ. حسن إسلامه، وولي الوزارة إلى أن قبض عليه في دولة المؤيد شيخ سنة ٨١٦هـ، فلزم منزله حتى مات سنة ٨١٨هـ. (الضوء اللامع: ١/٣٣).

(٣) هو عبد الوهاب بن عبد الله بن موسى بن أبي شاكر القبطي المصري الحنفي. توفي سنة ٨١٩هـ. (الضوء اللامع: ٥/١٠٢).

ذلك بادرا واتّفقا مع السلطان على مالٍ يقُومان به للسّلطان إن قبض على فخر الديم ابن أبي الفرج المذكور، فمال السلطانُ إلى كلامهما، وأمسك فخر الدين المذكور في سلخ جمادى الآخرة، وسلَّمه للوزير ابن البشيريّ، فلم يدع ابنُ البشيريّ نوعاً من العقوبات حتى عاقب ابن أبي الفرج المذكور بها، فلم يعترف بشيء غير أنه وُجد له ستةُ آلاف دينار، وجِرارٌ كثيرةٌ قد مُلئت خمراً؛ واستمر ابنُ أبي الفرج في العقوبة أياماً كثيرة.

ثم في شهر رجب نزل السّلطانُ من القلعة إلى الصيِّد، فبات ليلةً وعزم على مبيت ليلةٍ أُخرى بسِرْيَاقُوس، فبلغهُ أن طائفةً من الأمراء والمماليك اتّفقُوا على قتله، فعاد إلى القاهرة مُسرعاً، وأخذ يتتبعُ ما قيلَ حتى ظَفِرَ بمملُوكين عندهما الخبر، فعاقبهُما في ثامن عشر شهر رجب المذكور، فأظهرا ورقةً فيها خُطُوط جماعةٍ كبيرة، كبيرهم الأمير جانم من حسن شاه نائب طرابُلُس ــ كان ــ وهو يوم ذاك أميرُ مجلس.

وكان جانم المذكورُ قد سافر قبل تاريخه إلى مُنية ابن سلسيل(١)، وهي من جُملة إقطاعه، فندب السّلطانُ الأميرَ بَكْتَمُر جِلّق، والأمير طُوغان الحسنّي الدّوادار، لإحضار جانم المذكور. وخرجا في يوم السبت عشرين شهر رجب، على أن بَكْتَمُر جِلّق يسيرُ في البرِّ ويُمسكُ عليه الطريق، وطُوغان يتوجهُ إليه في البحر، ويُمسكُهُ ويحضره إلى السلطان، فسارُوا.

ومسك السّلطانُ بعد خروجهما جماعةً كبيرةً من الأمراء والمماليك الظاهريّة، منهم: الأميرُ عاقل، والأميرُ سُودُون الأبايَزِيدِيّ.

وأما طُوغان الدوادار فإنه سار في البحر حتى وافى الأمير جانم، واقتتلا في البرّ، ثمّ في المراكب حتى تعين(٢) طُوغان على جانم، فألقى جانم نفسه في

(١) هي منية بدر بن سلسيل من أعمال الدقهلية. (الانتصار: ٧٦/٥، والمشترك: ٤٠٨).
(٢) كذا بالأصل. ولعل الصواب: «تغلّب».

الماء لينجُوَ، فرماهُ أصحابُ طُوغان بالنّشّاب حتى هلكَ؛ وأُخذ وقُطع رأسه في ثاني عشرينه. وقَدِمَ طُوغانُ على السلطان في رابع عشرينه.

وكان السلطانُ قد مسك في يوم ثاني عشرينه في القاهرة الأمير إينال الصصّلانيّ الحاجب، والأمير أرغز، والأمير سُودُون الظريف، وجماعةً من المماليك الظّاهريّة.

ثمّ قبض السّلطانُ في يوم ثالث عشرينه أيضاً على الأمير سُودوُن الأَسَنْدَمُرِيّ أحدِ أُمراء الألوف وأمير آخور ثاني، وعلى الأمير جَرَبّاش العُمرِيّ رأس نوبة، وأحد أُمراء الألوف أيضاً.

ثم خامس عشرينه قبض السّلطانُ على جماعةٍ من أكابر المماليك الظاهريّة، ووسّط منهم خمسة؛ فنفرت القُلوبُ منه، ووجد شيخٌ ونَوْرُوز للوثوب عليه سبيلاً لكمينٍ كان في نفسهما منه.

ثمّ خلع السّلطانُ على منكُلي أستادار الخليليّ باستقراره أستاداراً عوضاً عن فخر الدين بن أبي الفرج.

ثم كتب السلطانُ للوالد بالقبض على الأمير يشبُك بن أَزْدَمُر أتابك دِمَشق، وعلى إينال الخَازِنْدار، وعلى بُرْدبَك الخازِنْدار، وعلى بُرْدبَك أخي طُولُو، وعلى سُودُون من إخوة الأتَابَك يَشبُك، وعلى تنبك من إخوة يشبُك أيضاً، والفحص عن نُكباي الحاجب، فإن وجده من جُملة المُنافقين فليقبض عليه، ويعتقلهم. وسار البريدُ للوالد بذلك. وبعد خُرُوج البريد بذلك، ذبح السلطانُ في ليلة الأربعاء ــ مستهل شعبان ــ عشرين مملوكاً ممن قبض عليهم.

ثم وسَّط من الأمراء في يوم الأربعاء ثامنه عشرة أُخر تحت القلعة، منهم: الأمير حُزمان نائب القُدْس، والأمير عاقل، وأرغز أحدُ أُمراء الألوف بدمشق، والأمير سُودُون الظّريف، والأميرُ مغُلْباي، والأميرُ محمد بن قَجْمَاس.

وفي ليلة الأربعاء المذكورة قتل السلطان أيضاً بالقلعة من المماليك الظاهرية زيادةً على مائة مملوكٍ من الجراكسة من مماليك أبيه.

ثم ركب سحر يوم الخميس إلى الصيد بناحية بَهْتِيت[(١)] ـ من ضواحي القاهرة ـ وأمر والي القاهرة أن يقتل عشرةً من المماليك الظاهرية لتخلفهم عن الركوب معه، فقُتلُوا.

وعاد السّلطانُ من الصيد بثياب جُلُوسه، وشقَّ القاهرة وهو سكران لا يكاد يَثْبُت على فرسه من شدّة سُكره، ومرّ في أقل من مائة فارس، وسار على ذلك حتى طلع القلعة نصف النّهار.

وفي شعبان هذا، ابتدأ بالوالد مرضُ موته، ولزم الفراش بدار السعادة، وقد لهجت الناسُ أن الملك الناصر قد اغتاله بالسّمّ؛ فإن كان ما قيل حقيقة فقد التقيا بين يدي حاكم لا يحتاج إلى بيِّنة. وسببُ ذلك ـ على ما قيل ـ عدمُ مسكِ الوالدِ للأمير شيخ ونَوْرُوزٍ لما دخلا عليه بدار السّعادة بدمشق، وأيضاً أنه لما أمره بمسك من تقدَّم ذكرهم فأمسك منهم جماعةً، وأعلم يشبُك بن أزدَمُر بالخبر ففرَّ إلى جهة شيخٍ ونَوْرُوز، وأشياء غير ذلك.

ولكن حدّثتني كريمتي خوند فاطمةُ زوجةُ الملك الناصر المذكور بخلاف ذلك؛ وهو أنه لمّا قَدِمَ عليه الخبرُ بمرضه صار يتأسف ويقول: «إن مات أبوك تخربت مملكتي». وبقي كلما ورد عليه الخبر بعافيته يُظهر السّرور، وكُلّما بلغه أنه انتكس يظهرُ الكآبة، وأنّه ما أخذها صحبته في التجريدة إلى الشام إلا حتى تعوده في مرضه، وأشياء من ذلك.

ثم إن السّلطان نادى في أول شهر رمضان من سنة أربع عشرة وثمانمائة بالقلعة بالأمان، وأنهُم عتقاء شهر رمضان.

ثم تتبعهم[(٢)] بعد الأمان وأمسك منهم جماعةً كبيرة؛ حتى إنّه لم يخرج شهر رمضان حتى أمسك منهم أزيد من أربعمائة نفر وسجنهم بالبُرجِ من القلعة.

وفي رابع شهر رمضان المذكور أفاق الوالدُ من مرضه، وزُيّنَت دمشق ودُقّت

---

(١) بهتيت: قرية من ضواحي القاهرة، وحرفت إلى بهتين ثم إلى بهتيم حالياً (خطط علي مبارك: ٩/٩٨ ـ ٩٩).

(٢) الضمير عائد على المماليك الظاهرية برقوق.

البشائر بسائر البلاد الشامية حتى حلب وطرابلس، وأرسل الأميرُ شيخٌ ونَوْرُوزٌ إليه بالتّهنئة، فعظُم ذلك أيضاً على الملكِ الناصرِ.

وفي هذا الشهر تأكد عند السّلطان خروجُ شيخٍ ونَوْرُوزٍ عن طاعته، وبلغه أنَّ نَوْرُوزاً قتل آق سُنقُر الحاجب، فتحقق السّلطانُ عصيانَ المذكورين.

ثم ذبح السّلطانُ في ليلة ثالث شوّال أزْيَدَ من مائة نفسٍ من المماليك السّلطانية الظّاهريّة المحبُوسين بالبُرج، ثمّ أُلقُوا من سُورِ القلعة إلى الأرض، ورُمُوا في جُبّ ممّا يلي القرافة، واستمرّ الذبحُ فيهم.

ثم في يوم الاثنين عاشر شوّال عدّى السلطانُ النيل إلى ناحية وسيم[١] للربيع[٢] وبات به. ورحل في السحر بعساكره يُريد مدينة إسكندرية، بعد ما نُودِي في القاهرة بألّا يتأخر أحدٌ من المماليك السلطانيّة بالقاهرة، وأن يعدّوا إلى برّ الجيزة، فعدّوا بأجمعهم؛ فمنهم من أمرهُ السلطانُ بالسّفر، ومنهم من أمرهُ بالإقامة.

ثم بعث السلطانُ الأمير طُوغان الحسنيّ الدوادار، والأمير جانبك الصّوفيّ، وسودُون الأشقر، ويَلْبُغَا الناصري، وجماعةً من المماليك إلى عدّة جهاتٍ من أراضي مصر، لأخذ الأغنام والخيول والجمال حيثُ وُجدت لكائنٍ من كان؛ فسار الأمراءُ وشنُّوا الغارات فما عفّوا ولا كفُّوا.

ثم سار السلطانُ ببقية أمرائه وعساكره إلى الإسكندرية، فدخلها في يوم الثلاثاء ثامن عشر شوّال من سنة أربع عشرة المذكورة؛ فقدِم بها على السلطان مشايخُ البُحيرة بتقادِمهم، فخلع عليهم، ثم أمسكهم وساقهُم في الحديد،

(١) وسيم: قرية من قرى محافظة الجيزة غربي إمبابة. ويقال لها أوسيم. وكانت هذه القرية جارية في الديوان السلطاني، أي تابعة للسلطان وكانت مميزة بربيعها. ولابن فضل الله العمري شعر في ذلك. (انظر معجم البلدان: ١/٣٧٧، والانتصار: ٤/١٣١).

(٢) أي للرعي. وقد جرت العادة في مصر أن تسرّح خيول الأمراء والسلاطين أثناء الربيع للتسمين. وهذه العادة بدأت منذ أيام الفتح في عهد عمرو بن العاص.

واحتاط على أموالهم، ففرّ باقيهم إلى جهة برقاء[٣]. ثم قدِم الأمراء وقد ساقوا ألوفاً من الأغنام التي انتهبُوها من النواحي، وقد مات أكثرها، فسيقت إلى القاهرة مع الأموال والجاموس والخيول.

ثم رسم السلطان أن يُؤخذ من تجار المغاربة العُشْرُ، وكان يُؤخذُ منهم قبل ذلك الثُّلث، فشكرَ النّاسُ له ذلك.

ثم خرج من الإسكندرية عائداً إلى القاهرة، وسار حتى نزل على وسيم في يوم السبت تاسع عشرينه.

وقد مات بسجن الإسكندرية الأمير خيربك نائب غزة، فاتهم السلطان أنه اغتاله بالسم، والصحيح أنه مات حتف أنفه.

ثمّ قَدِمَ كتابُ الأمير نَوْرُوز الحافِظيّ على السلطانِ على يَدِ فقيه يُقالُ له سعد الدِّين، وَمملوكٍ آخر، ومعهما محضرٌ شَهِدَ فيهِ ثلاثةٌ وثلاثون رجلاً من أهلِ طَرابُلُس ـ مَا بين قاضٍ وفقيهٍ وتاجر ـ بأنه لم يَظْهر منه بطرابُلُس منذُ قَدِم إليهَا إلا الإحسانُ للرعيَّة، والتمسكُ بطاعةِ السلطّانِ، وامتثالُ مراسيمِهِ، وأنّ أهل طرابُلُس كانوا قد خرجوا منها في أيّام جَانَم لِماَ نَزَل بهم مِنَ الضرر والظلم، فعادُوا إليها أيّام نَوْرُوز المذكور، وأنَّهُ كلّما وَرَدَ عليه مثالٌ سُلطَانيّ يتكرّرُ منهُ تقبيلُ الأرْضِ، وأنّه حَلفَ ـ بحضْرَةِ مَنْ وضَعَ خَطّهُ ـ بالأيمانِ المغلّظةِ الجامعةِ لمعاني الحلفِ أنه مقيمٌ على طَاعةِ السّلطان، مُتمسِّكٌ بالعهدِ واليمين؛ فلم يَغترّ السلطانُ بالمحضرِ ولا التفت إليه، لِما ثبَتَ عندَه مِنْ عِصيانِهما[١].

قلْتُ: ولهذه الأيمان الحانثةِ ذهبَ الجميعُ على السيفِ في أسرَعِ مُدَّة؛ حتى إنني لا أعلم أن أحداً من هؤلاء الأمراء مَات على فِراشه، بَل غالبهم تفانَوْا قتْلاً على أنواع مُختَلفةٍ لتجرُّئهم على الله تعالى. وكان يمكنهم الخروجُ على الملكِ النّاصر المذكور لسوء سيرته فيهم ثمّ يعوُدون إلى طاعته من غير أنْ يَتعرَّضوا للأيمان والعهُود، والتلاعب بذلك في كلّ قَليل، وصار ذلك دَأباً لهم إلى أنْ سَلط

(٣) هي برقة، في ليبيا اليوم.

(١) أي عصيان شيخ ونوروز.

اللهُ بَعضهم على بعضٍ، فَذَهَبُوا كأنهم لم يكونوا ـ معَ قوّتهم، وَشِدَّةِ بأسِهم، وفرْطِ شجاعتهم ـ وملك بعْدَهم مَنْ لم يكُنْ فِي رُتبتهم وَلا يُدانيهم في معنى من المعاني، وَدانت لهُ البلادُ، وأطاعته العبادُ، وَصفاً له الوقتُ مِن غيرِ مُعانِدٍ وَلا مُدافع. «وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يجْعَلْ لهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِب»(١).

ثمّ إنّ السُّلطانَ الملكَ الناصرَ بعدَ حُضور هذا المحضَر أخَذ في الاهتمامِ للسَّفر.

ثمّ نَزَلَ منَ القلعة وعدّى النيل في يومِ الاثنين ثاني ذي القعدة، وتوجّه إلى الربيع؛ وعادَ منْ يَوْمِهِ إلى القلعة وهو في أناس قليلة. ثمّ بعد عَوْدِه رسَم بقَتْلِ الأمير جَرباش العُمَرِيّ، والأمير خُشْكلدِي بثغر الإسكندريّة، فقُتلا بها ودُفنا بالثّغر المذكور.

ثمّ في رابع عشر مِن ذي القعدة، أنْفقَ السُّلطانُ على المماليك السُّلطانية نفقة السفر؛ فأعطى لكلّ نَفر سبعين ديناراً ناصرياً، وبعثَ للأمير الكبير دَمُرْدَاش المحمَّديّ ثلاثة الآف دينار، ولكلٍّ مِنْ أمراء الألوف بألفَيْ دِينار، ولأمراء الطَّبلخاَنات مَا بَين سبعمائة دِينارٍ إلى خمسمائة دِينار.

ثم في ليلة الخميس رابع عشرين ذي القعدة، طلبَ السُّلطانُ الأميرَ شهاب الدين أحمد بن محمد بن الطَّبلاوِيّ؛ فلما حَضر إلى عنده ضَرَب عنقه بيده، بعدَ أن قتل مُطلَّقَتهُ بنتَ صُرُق بِيدِه تهْبِيراً بالسَّيف عند كريمتي بقاعة العواميد(٢)، فإنها كانت يوم ذاك صاحبة القاعة.

وخَبرُ ذلك: أن السّلطانَ الملكَ الناصر كان قَدْ طَلقَ خَونْد بنْتَ صُرُق المذكورة، وَنزَلت إلى دارِها، وكان له إليها مَيْل، فَوُشِي بها أنّ ابنَ الطّبلاويّ المذكورَ وَقعَ بينهُ وبينها اجتماعٌ، وظهرَ له قرائنُ تَدُلُّ على ذلك، منها أنّه وُجدَ

---

(١) سورة الطلاق: الآية: ٢، ٣.

(٢) قاعة العواميد، إحدى قاعات القلعة، وتعرف بالقاعة الكبرى، وكانت مخصصة لحاجات السلطان المنزلية.

لها خاَتمٌ عندهُ. فأَرْسلَ السُّلطانُ خلفها، فَلبسَتْ أفخرَ ثيابها ظنًّا منها أنّ السُّلطانَ يريدُ يعيدها لِعصمته. قالَتْ أُختي خوْنَدْ فاطمة: «وَكان السّلطانُ جالساً عندي بالقَاعة، فلمّا قيلَ له جاءَتْ خَونْدُ بنْتُ صُرُق، نهضَ من وَقتِه وخرَج إلى الدّهليز، وجلس به على مسطبة». قالت: «فخرجْتُ خلفه ولا عِلم لي بقْصدهِ، فجاءت بنُت صُرُق وقبَّلتْ يدَه، فقال لها: يا قحبة، مَراكيبُ الملوكِ تركبها البلاَّصِية؟!» وقبل أن تتكلم ضَربها بالنَّمْجاة[1] قطع أصابعها ــ وكانَت مقمعة بالحناء ــ فصاحَتْ وهربَت، فقَام خلفها وضربهَا ضَرْبةً ثانيةً قطعَ منْ كتفها قِطعةً. وصارَت تجري وهو خلفها ــ وَقد اجتمعَ جميع الخونْدات عندي بالقاعة للسّلام على بنت صُرُق المذكورة ــ وَلا زَال يضربها بِالنَّمْجاة وهي تجري إلى أن دخلت المستراح[2]، فتمّمَ قتلها في صَحْن المستراح، ثمّ قطعَ رأْسها وأخذها بِدَبُّوقتها[3] ــ وفي آذانها الحلق البلخش[4] الهائلة ــ وَخرَج إلى قاعة الدّهيشة[5]، وَوَضعها بَين يديهِ وغطَّاها بفوطة. ثمّ طلبَ ابنَ الطبلاويّ المقدّم ذكره وَأَجلسهُ وكشَفَ له عن الفوطةِ، وقال له: «تعرف هذه الرأس؟» فأطرق، فضرَبهُ بالنَّمْجاة طيّر رَقبتَه؛ ولفهما معاً في لحافٍ، وأمرَ بدفنهما في قَبرٍ واحد. قالتْ أختي [خوند فاطمة]: «وصارَ دمُ بنت صُرُق في حِيطانِ القاعةِ ودهليزها».

وقالت: «فوالله لمَّا دَخل الفِداويَّة[6] بقلعة دِمشق على الملكِ الناصر ليقتلوهُ ــ وكان استصحبني معهُ لأعود الوالدَ في مرِضه ــ فصارت الفِداويّة تضربُه

(١) النمجاة: خنجر مقوّس شبه السيف القصير. وكان من الات السلطان الخاصة ومن علامات السلطنة. وكان من عادة المماليك أن السلطان الجديد يتسلم النمجاة السلطانية من السلطان القديم دلالة على انتقال السلطنة إليه. ــ راجع أيضاً فهرس المصطلحات.

(٢) المستراح: قسم من الدار مخصص للراحة.

(٣) الدبّوقة: الشعر المضفور.

(٤) البلخش: نوع من الياقوت ــ راجع فهرس المصطلحات.

(٥) الدهيشة: قاعة كبيرة مرتفعة البناء، عمرها الصالح عماد الدين إسماعيل بن محمد بن قلاوون ــ راجع فهرس الأماكن.

(٦) الفداوية: طائفة من الشيعة الإسماعيلية، ويسمون أنفسهم أصحاب الدعوة الهادية. ــ راجع فهرس المصطلحات.

بالسكاكين، وهَو يَفرّ مِن بين أيديهم كما كانت تَفرُّ بنتُ صُرُق أمامه وهو يضربها بالنِّمْجاة. وبَقي دُمه بحيطانِ البرْج شِبه دم بنت صُرق بحيطانِ القاعة». قلْتُ: فانظروا إلى هذا الجزاء الذي من جنس العمل ــ انتهى.

ثمّ أصبح السلطانُ أمرَ بخروج الجاليش من الأمراء إلى البلاد الشّامية، فخرجُوا بتجُملٍ عظيم ــ وعليهم آلةُ الحرْب هم ومَماليكهم ــ وعرضوا على السُّلطانِ وهم مَارُّون مِنْ تحتِ القلعةِ والسُّلطان ينظُر إليهم مِنْ أعلى القصر السلطانيّ، وساروا حتى نزلوا بالرِّيْدَانيّة خارج القاهرة في يوم الخميس رابع عشرين ذي القعدة من سنة أربع عشرة وثمانمائة؛ وهم: الأمير بَكْتَمُر جِلِّق رأس نوبة الأمراء وصهر السلطان زوج ابنته، وَشاهين الأفْرَم أمير سلاح، وطُوغان الحَسنيّ الدّوادار الكبير، وشاهين الزّردكاش، بمُضافيهم.

وكان السّلطان قبل خروج الأمَرَاء المذكورين ــ منْ عِظَم غضبه وحنقه على الأمير نَوْرُوز الحافِظيّ ــ جمعَ القضاةَ، وطَلّق أُخْتَه خَوَنْد سارة بنتَ الملِك الظاهر بَرْقوق من زوجها الأمير نَوْرُوز، وَزَوّجها للأميرُ مُقبل الرّوميّ ــ عَلَى كُرْهٍ منهاً، بعد أن هدّدها بالقَتل ــ بعقْدٍ مُلفق مِنْ قضاة الجاه[1] والشوكة. فعظُمَ ذلك عَلَى الأميرِ نَوْرُوز إلى الغاَية، وَلم يَحْسُن ذلك ببالِ أحد ــ انتهى.

ودامَ الأمراء بالرِّيدَانيةِ إلى يوم السَّبتِ خامس ذي الحّجة، فرحلوا منها يُريدون الشّام.

ثمّ ركبَ السلطانُ في يوم الثلاثاء ثامن ذي الحّجة وَنَزل مِنْ قلعة الجبل ببقيّة أمرائه وَعساكره ــ والجميع عليهم آلة السّلاح ــ بزيّ لم يُرَ أحسن منهُ، بطُلْبٍ هائلٍ جُرَّ فيه ثلاثمائة جَنيب من خواصّ الخيل بالسّروج الذّهب التي

---

(١) المرادبهم القضاة الذين يمتثلون لرغبات السلطان خوفاً من شوكته أو طمعاً في الجاه. ويعبّر عنهم أيضاً بفقهاء السلاطين.

بعضُها مرصّع بالفصوص المجوهرة المُثمّنة[١]، ومياثرُها[٢] المخمل المطرَّز بالزركش، وعلى أكفالِها العبي[٣] الحرير المثمنة، وفيها العبي المزركشة بالذهب، وفيها بالكَنابيش الزَّركش، والكَنابيش المثلَّثة بالزَّركش والرِّيش واللؤلؤ، وكلّها باللُّجم المسقَّطة[٤] بالذَّهب والفّضة، والبَذْلات المينة[٥]، والبَذْلات الذَّهب الثَّقيلة، ومن وراء الجنائب المذكورة ثلاثة الآف فَرَس سَاقها جُشاراً[٦]، ثمّ عددٌ كبير من العَجل التي تجرّها الأبقار وعليها الآتُ الحصار، مِنْ مكاحل النَّفط الكبار ومدافع النّفط المهولة، والمناجيق العظيمة ونحو ذلك. ثُمَّ خرجت خِزَانةُ السِّلاح ـ أَعني الزَّردخاناه ـ عَلى أكثر مِنْ ألفِ جَمَل تحمل القَرْقلات، والخُوَذ، والزّرديَّات، والجواشن[٧]، والنُّشّاب، والرِّماح، والسيّوف وغير ذلك.

ثمّ خَرجَتْ خزَانةُ المال في الصّناديق المغطَّاة بالحرير الملوَّن، وفيها زيادة على أربعمائة ألف دينار، وجميع الطُّبّال والزُّمَّار ـ مماليكه مشتراواته ـ بالكَلَفتَّات، وعليهم طَطريَّات[٨] صفر، وغالبهم قد ناهز الحلم، بأشكالٍ بديعة من الحسن، وقد تَعلموا صِناعةَ ضربِ الطبل والزَّمر وأتقنوه إلى الغاية، وهذا شيء لم يفعله ملك قبله.

ثمَّ خرج حَريمُ السّلطان في سبع محَفَّات قَدْ غُشّيَت بالحرير المخمل

---

(١) أي الغالية الثمن.

(٢) المياثر: جمع ميثرة، وهي كهيئة المرفقة تتخذ للسرج كالصُفَّة، أو هي فراش صغير يحشى بقطن أو صوف يجعله الراكب تحته على الرمال والسروج. وهي تسمى عند العامة: الطرّاحة. وتسمى في مصر بالشلتة. (معجم متن اللغة: وثر).

(٣) جمع عباءة.

(٤) أي المعشقة بالذهب، وتسمى أيضاً المكفّتة.

(٥) البذلات المينة: هي المحلاّة بالمينَ وهوجوهر الزجاج، وطلاء تغشى به المعادن وغيرها. (المعجم الوسيط: وَنَ).

(٦) سيقت جشاراً أي سيقت مباشرة، على حالها، من مرعاها.

(٧) الجواشن هي الدروع.

(٨) الططريات: جمع ططريّة، ويقال تترية. وهي لباس مثل القفطان يخالف القفطان التركي في كون جانب صدره اليسار يلفّ فوق الجانب اليمين بعكس التركي. (الملابس المملوكية: ٢١).

الملوَّن، ما خلا محفة الأخت فإنها غشِّيت بالزركش، كونها كانت خوند الكُبرَى صاحبة القاعة(١)، ومِنْ ورائهم نحو الثلاثين حملاً من المحاير(٢) المغشَّاة بالحرير والجوخ.

ثمَّ خَرَج المطبخُ السّلطانيّ، وقد ساق الرُّعيان برسمه ثمانيةً وعشرين ألف رأْس من الغنمِ الضَّأْن، وكثيراً مِنَ البقر والجامُوس لحلْبِ ألبانها، فبلغَتْ عدَّةُ الجمال التي صَحبت(٣) السلّطان إلى ثلاثةٍ وعشرين ألف جَمَل، وهذا شيء كثيرٌ إلى الغاية.

ثمَّ سارَ السلطانُ من القَاهرة حتى نَزَل بمخّيمهِ من الرَّيدانيّة تجاه مسجد التِّبن. وهذه تجْريدَة السلطانِ الملكِ النَّاصر السَّابعةُ إلى البلاد الشَّاميّة، وهي التي قتل فيها حسبما يأتي ذكره. وهذه التجاريد خلاف تجريدة السّعيديّة التي انكسرَ فيها الملكُ النَّاصِرُ من الأمراء وعاد إلى الدِّيار المصرية، ولم يصل إلى قَطيا؛ عَلَى أنّه تكلَّف فيها إلى جُمَل مسْتكثرة، وذَهَبَ لهُ من الأثقال والقُماش والسّلاح أضعاف مَا تكلَّفه في النَّفقةِ وغيرها. وكانَتْ تجريدتُه الأولى إلى قتال الأمير تَنَم الحسنيّ الظَّاهريّ نائب الشَّام في سنة اثنتينِ وثمانمائة.

وَتجريدتُه الثانيةُ لِقتال تَيمُورلنك في سنة ثلاث وثمانمائة.

والثالثةُ لِقتال جَكَم مِنْ عَوض في سَنةٍ تِسْع وثمانمائة بعد وَاقعة السَّعيدية.

والرابعة في سنة عشر وثمانمائة، التي مَسكَ فيها الأمير شيْخاً المحمُوديَّ نائبَ الشّام والأتابَك يَشْبُك الشّعبَانيّ، وَحبسهَمُا بقلعة دمِشق، وأطلقهُما مَنْطُوق نَائب قلعة دِمَشْق.

والخامسة في محرّم سنة اثنتيْ عشرة وثمانمائة، وهي التي حَصر فيها شيخاً ونَوْرُوزاً بصَرْخد.

(١) أي تسكن قاعة العواميد.

(٢) المحاير: جمع محارة، وهي شبه الهودج.

(٣) في الأصل: «صحبة». وما أثبتناه عن هامش طبعة كاليفورنيا.

والسادسة سنة ثلاث عَشرةَ وثمانمائة، وهي التي حَصرَ فيها أيضاً شيخاً ونَوْروزاً بقلعة الكَرك.

والتجريدة السابعة هذه.

فجملة تجاريده ثماني سَفرات بواقعة السعيدية ــ انتهى.

ثمّ خَرَجَ الخليفةُ المستعينُ بالله أبو الفضل العبَّاس، والقضاةُ الأربعةُ، وهم: قاضي القضاة جلال الدين عبد الرحمن البُلْقِينيّ الشّافعيّ، وقاضي القضاة ناصرُ الدين محمّد بن العَدِيم الحنفيّ، وقاضي القضاة المالكيّ[(١)]، وقاضي القضاة الحنبليّ[(٢)]، ونزل الجميعُ بالرّيْدَانيّة. وتَرَدَّدَ السّلطانُ في مُدَّة إقَامَتِهِ بالرّيْدَانيّة إلى التُّربة التي أَنْشَأَها عَلَى قَبْر أبيه بالصّحْراء خارِجَ بَابِ النّصر، وباتَ بها ليالِيَ، ونَحَرَ بها ضحاياه. وجعَلَ الأميرَ يَلْبُغَا الناصريّ نائبَ الغَيْبة بالقاهرة، وجعَلَ في باب السّلسلة الأميرَ أَلْطُنْبُغَا العثمانيّ، وبقلعةِ الجَبَل الأميرَ أَسَنْبُغَا الزَّردكَاش شادّ الشّراب خاناه، وزوجَ أخته خَوَنْد بَيْرَم، وَوَلّى نيابةَ القلعة للأمير شاهين الرّوميّ عوضاً عن كَمَشْبُغَا الجماليّ، وبعث كَمَشْبُغَا الجماليّ صحبة حريمه، وقدَّمَهُم بين يديه بمَرْحَلة.

ثمّ رحلَ السّلطانُ من تُربة أبيه قُبَيْل الغُرُوب من يوم الجمعة ثاني عشر ذي الحجّة من سنة أربع عشرة وثمانمائة، لطالع اختارهُ لهُ الشيخ بُرْهَانُ الدين إبراهيم بن زُقاعة. وقد حَزَرَ ابن زُقاعة وقت ركوبه، وعوّقَ السّلطانَ عن الركوب ــ والعساكرُ واقفة ــ حتى دَخَلَ الوقتُ الذي اختارهُ له، فأمَره فيه بالرّكوب، فَرَكِبَ السّلطانُ وسارَ يريدُ البلادَ الشّامية، ونَزَلَ بمخيّمه من الرّيْدَانِيّة، وفي ظَنّه أنّه منصورٌ على أعدَائِه، لِعِظَمِ عساكره، ولِطالِعِ اختارَه له ابن زُقاعة، فكانت عليه

(١) هو قاضي القضاة شمس الدين محمد بن علي بن معبد المقدسي المعروف بالمدني. توفي سنة ٨١٩هـ. (الضوء اللامع: ٦/٤٥٧).

(٢) هو قاضي القضاة مجد الدين سالم بن سالم بن أحمد المقدسي ثم القاهري الحنبلي. تولى القضاء سنة ٨٠٣هـ وبقي قاضياً نحو خمس عشرة سنة. وتوفي سنة ٨٢٦هـ. (الضوء اللامع: ٣/٢٤١).

أيْشَمَ(١) السّفرات، فَلَعَمْري هَلْ رَجَعَ الشيخ بُرهان الدين بن زُقاعة المذكور بعد ذلك عَنْ مَعْرِفَةِ هذا العِلْم أم استمرّ على دَعْوَاه؟!.

وأنا أتعجّبُ منْ وَقاحَة أَرْبَاب هذا الشّأن حيثُ يَقَعُ لهم مثلُ هذا الغَلَطِ الفاحِشِ وأمثاله، ثم يعودون إلى الكلام فيه والعمل به ــ انتهى.

ثمّ اسْتَقَلَّ السّلطانُ بالمَسِير في سَحَرِ يوم السبت ثالث عشر ذي الحجّة.

وفي هذا الشّهر انْتكَسَ الوالدُ ثالث مَرَّة، وَلَزِمَ الفراشَ إلى أن مات حَسبَما يأتي ذكرُه.

وأمّا السّلطانُ الملكُ الناصر فإنّه قَبْلَ المسير حذَّرَ عسكرَه من الرّحيل قَبْلَ النّفير، فَبَلَغَهُ وهو بالرّيْدانِيّة أنَّ طائفةً رَحَلَت، فَرَكِبَ بنفسه وقَبَض على واحدٍ ووَسّطَه، ونَصَبَ مَشْنَقَةً، فما وصلَ إلى غَزّة حتى قَتَل عدّةً من الغِلْمان، من أجل الرّحيل قَبْل النّفير، فَتَشاءَم الناسُ بهذه السَّفْرة.

ثمّ سارَ حتى نَزَلَ مدينةَ غَزَّة، فوسّط بها تسعةَ عشر نَفَراً من المماليك الظاهريّة، وهو لا يَعْقِلُ من شدةِ السُّكْر. وعَقِيبَ ذلك بَلَغَهُ أنَّ الأمراء الذين بالجَالِيشِ تَوَجَّهُوا بأَجْمَعِهِم إلى شيخٍ ونَوْرُوزٍ. وكان من خَبَرِهم أنَّهُم لَمَّا وَصلُوا إلى دِمَشْق، دَخلُوا إلى الوَالِدِ، وَقَدْ ثَقُلَ في الضعْف، وسَلَّمُوا عليه، وأَخْبَرَهُ بَكْتَمُر جِلِّق وطُوغَان أنهما بِمَنْ معَهُما يُرِيدُون التّوجّه إلى شيخٍ ونَوْرُوزٍ؛ فَرَجَّعَهُم الوالدُ عن ذلك، فَذَكَرُوا لَهُ أعْذَاراً فَسَكَتَ عنهم. فَقَامُوا عنه وخَرَجُوا بأَجْمعهم وتَوَجَّهُوا إلى شيخٍ ونَوْرُوزٍ ــ ما خَلاَ شَاهِين الزَّردكاش ــ فإنّه لم يُوَافِقْهُم على الذّهابِ، فَمَسَكُوه وذَهَبُوا به إلى شَيْخٍ ونَوْرُوز.

ولمّا بَلَغَ الملكَ الناصر ذلك، رَكِبَ وسارَ من غَزَّة مِجُداً في طَلَبِهِم، وقَدْ نَفَرَتْ منهُ القلوبُ، حتى نَزَلَ بالكُسْوة في يوم الثلاثاء سَلْخَ ذي الحجّة، فأَلْبَسَ مَنْ مَعه من العساكر السّلاح ورتّبَهُم بِنَفْسِه.

---

(١) أي أشام.

ثمّ سارَ بهم قاصِداً دِمشقَ حتى دَخلَها من يوْمِهِ وقتَ الزّوال، وقد خَرَج أعيانُ دِمَشْقَ وعَوامُّها لتلقّيه وللفُرْجَة عليه، وزُيِّنت لِقُدُومِهِ دِمَشْقُ. ونَزَلَ بالقلعة بعد أن نَزَل عند الوالدِ بدارِ السّعادة وسَلَّمَ عليه، وأمَرَ زَوْجَتَه خَوْند [فاطمة][1] بالإقامة عند الوالِد.

ثمّ أصْبَحَ يوم الأربعاء أوَّل محرّم سنة خمس عشرة وثمانمائة خَلَعَ على القاضِي شهاب الدين أحمد بن الكُشك وأعادَهُ إلى قضاء الحنَفِيّة بدِمَشْق.

ثمّ شَفَعَ الوالدُ في القاضِي ناصر الدين محمّد بن البارزيّ، فَطَلَبه السّلطانُ بدَارِ السّعادَةِ وأطْلَقه منْ سِجْنِه بقلعة دِمَشْق.

ثمّ أفْرَجَ السّلطان أيضاً عن الأمير نُكْبَاي الحاجب، وكان الوالدُ قبضَ عليه وحَبَسَه.

ثمّ دَخلَ السّلطانُ للوالدِ واستشاره في الملأ من النّاسِ فيما يَفْعلُ مع هؤلاء الأمراء العُصاةِ، فقال له الوالدُ: «يا خَوْند تذبح في سنتِك خمسمائة نفس، وتَتَجَرَّدُ في سَنَتِك؟! فرسُك الذي تَحْتَك عاصٍ عليك»، فقال له الملكُ الناصِرُ: «الكلام في الفائت فائتٌ، أيْش تُشِيرُ عليَّ الآن؟» فقالَ: «عِنْدِي رَأيٌ أقُولُه، إنْ فَعلَهُ السّلطانُ انْصلَحَ به حالُه»، قالَ: «وما هو؟» قال: «تَرْجِعُ منْ هُنا إلى مِصْر، فمَنْ كانَ لَهُ إليكَ ميْلٌ عادَ صُحْبَتَك، ومَنْ كانَ قَدْ دَاخَلَهُ الرُّعْبُ مِنْكَ فهو يُفَارِقُكَ منْ هُنا ويَتَوَجَّهُ إلى القَوْم، فإذَا دَخلْتَ إلى مِصْرَ نَادِ بالأمان، وكُفَّ عن قَتْلِ مَماليكِ أبيكَ وغيرهم، وأغْدِق عليهم بالإحْسان، وأكْثِر إليهم مِنَ الاعْتِذَار فيما وَقَعَ مِنْكَ في حقِّ غَيْرِهم، واسْلُك مَعَهُم قَرائِنَ تَدُلُّ عَلَى صَفْوِ النّيّة؛ فبهذا تَطْمَئِنُّ قلوبُ رَعِيّتِك، ويعودون لِطاعَتك. فإذا صارَ مَعَك منهم ألفُ مَمْلُوكٍ قَهَرْتَ بهم جميعَ أعدائِكَ، لِما شاعَ منْ إقدامِكَ وشَجاعَتِك، ولِعِظَم ما في قلبِ أعْدائك من الرُّعب منك. وأيْضاً فإنَّ هؤلاء الأمراء العُصاة قد كَثُرُوا إلى الغاية، فالبلادُ الشّاميّة لا تقُومُ بأمْرهم، فإمّا أن يَقَعَ بينهم الخُلْفُ على البِلاد فَيفْترِقُوا، وإمّا أن يتّفِقُوا

(١) إضافة مستفادة مما سبق ذكره.

ويَجْتمِعوا على قِتالِك ويأْتُوك إلى مِصْر، فاخرُجْ إليهم وَالْقَهُم برأْسِ الرَّمْل، فإن انتصَرْتَ عليهم فافعلْ ما بَدَا لك، وإنْ كانت الأخرى فاخرُجْ إلى البلاد؛ فمِنْ قَرَا يُوسف صاحب العِرَاق إلى والي قَطْياً في طَاعتِك، فما عنْدِي غيرُ هذا».
فاسْتَحْسن جميعُ عسكرِهِ هذا الرأْيَ إلاّ هُوَ؛ فإنَّهُ لم يُعْجِبه، وسَكَت طَويلاً، ثمّ رَفَعَ رأْسَهُ وقال: «يا أَطَا[1]، أناَ قَتلْتُ هذهِ الخلائق لِتُعظِّمَ حُرْمَتي، فإذا رَجعْتُ منْ هُنا أَيْش يبقى لِي حُرْمَة؟ وأنَا أعْرَفُ بحال هؤلاء مِنْ غَيْرِي. واللهِ ما صِفَتُهُم قُدَّامي إلاّ كالصَّيْد المجْرُوح، واللهِ إذاَ بَقِيَ معي عشرةُ مماليك قاتَلْتُهم بهم، ولا أَطْلُبُ إلاّ أنْ يَثْبُتوا ويقِفوا، ويقاتلوني حتى أنتصف منهم». فقال له الوالدُ: «اعلَمْ أنّهم الآن يُقَاتِلُونَك».

ثمَّ طَلَبَنا الملكُ النَّاصِرُ [أنا وإخوتي] فأحضرُونا بين يَدَيْه، وكُنَّا سِتّةَ ذُكُور، فقبّلْنا يَدَه ـ وأنا أصغَرُ الجميع ـ فسَألَ عَنْ أسمائِنا، فَقِيلَ له ذلك. ثمّ تَكَلَّمَ الأتابَك دَمُرْدَاش المحمّديّ عَنْ لِسانِ الوَالِدِ بالوَصِيّة عَلَيْنا، فقال [السّلطان]: «هؤلاء أولادِي وأصْهارِي وإخوَتِي، ما هذه الوَصِيّة في حَقِّهم!» كلّ ذلك والوالدُ ساكِتٌ قد أَسْنَدَهُ مماليكُهُ لا يَتَكَلّم. فلَمّا قامَ الملكُ النَّاصرُ قالَ الوالدُ: «أَوْدَعْتُ أَوْلادِي إلى اللهِ تعالى، واسْتَعَنْتُ بِهِ في أمْرهِم»، فَنَفَعَنا ذلك غاية النَّفْع ـ ولله الحمْد ـ مع ما أُخِذَ لنا منَ الأمْوَال التي لا تَدْخُلُ تَحْتَ حَصْر عند هَزِيمَةِ الملك النَّاصر منَ الأمراء، ودُخُولِهِ إلى دِمَشْق.

ثمَّ خرَجَ السّلطانُ الملكُ الناصرُ منْ دِمَشْقَ بعساكِرِه في يوم الاثنين سادس المحرّم، ونزل بَرْزَة. ثمَّ رحل منها يريد محاربة الأمراء، ونزل حَسْيا بالقرب من حِمْص، فبلغه رحيلُ القوم من قَارَا إلى جهة بَعْلَبَك، فتَرَكَ أثقالَه بِحَسْيَا وساقَ في أثرِهم إلى بَعْلَبَك، فوجَدَهم قد توَجَّهوا إلى البقاع، فقَصَدَهم، فمضَوْا نحوَ الصُّبَيْبَة، فتَبِعَهُم حتى نَزَلُوا باللَّجُون، فساقَ خلفهم وهو سَكْرَان لا يعقِل، فما وصل إلى اللّجُون حتى تَقَطَّعَت عساكِرُه عنه منْ شِدَّةِ السَّوْق، ولم يبْقَ معهُ غيرُ مَنْ ثَبَتَ على سَوْقِه، وهم أَقَلّ مِمَّن تأَخَّر.

(١) أطا: كلمة تركية. بمعنى الوالد.

وكانَ قد وصلَ وَقْتَ العصرِ من يوم الاثنين ثالث عشر المحرّم من سنة خمس عشرة وثمانمائة، فوجَدَ الأمراء قد نَزَلُوا باللّجون وأَرَاحوا، وفي ظنّهم أنّه يَتَمَهَّلُ ليلتَهُ ويَلْقاهم منَ الغَدِ، فإِذَا جَنَّهُم الليلُ سارُوا بأَجمعهِم منْ وَادِي عَارَة إلى جهة الرّملة، وسَلكُوا البرّيّة عائدين إلى حَلَب، وليْسَ في عَزْمِهِم أنْ يُقاتلوه أبداً، لا سيّما الأمير شيخ فإنّه لا يُريدُ مُلاقَاته بوَجه منَ الوُجوُه. فحَال وُصُولِ الملكِ النّاصر إلى اللّجون أشارَ عَلَيْه الأتَابَكُ دَمُرْدَاش المحمديّ أنْ يُريحَ خَيْلَه وعَساكِرَهُ تِلْكَ اللَّيْلَة، ويقاتِلَهُم منَ الغد؛ فأجابه السّلطان بأنّهم يَفِرُّون اللّيلة، فقَالَ له دَمُرْدَاش المذكور: «إلى أين بقوا[١] يتوجهّوا يا مَوْلَانا السّلطان بعدَ وقُوعِ العَيْنِ في العَيْنِ؟ يا مَوْلَانا السّلطان مماليكُك في جَهْدٍ وتَعَبٍ منَ السَّوْق، والخيولُ كَلَّت، والعساكرُ مُنْقَطِعَةٌ»، فَلَم يَلْتَفِت إلَى كلاَمِه، وحَرَّكَ فَرَسَهَ ودَقّ بزُخمته على طَبْلِهِ، وسارَ نحوَ القَوْمِ، وحمَلَ عليهم بنَفْسِهِ منْ فَوْرِه حال وصوله، فارتضَمَتْ[٢] طائفةٌ من مماليكه في وَحْلٍ كانَ هُناك.

ثمّ قَبْلَ اللّقاء خَرَج الأميرُ قُجَق أحدُ أُمراء الألـوف بطلبـهِ منْ مماليكـه وعَسكره، وَذهَبَ إلى الأمراء، وتداوَلَ ذلكَ مِن المماليك الظّاهرية واحداً بعد واحدٍ، والملك الناصرُ لا يَلتفِت إليهم، ويُشّجعُ مَنْ بَقي معهُ حتى التَقـاَهُم وصدَمهم صَدْمةً هائلة، قُتلَ فيها مِنْ عسكـره الأمير مُقبِـلٌ الرّوميّ أحـدُ أُمَراء الألوف، الذي زوّجه الملكُ النّاصر بأُخته ــ زَوجة الأمير نَوْروز ــ ثمّ قُتِل أحدُ خَواصّه مِنَ الأمراء [وهو] الأمير أَلْطُنْبُغَا شقَل. وَتَقَهْقَر عسكَرُه مـع قِلّتهم، فانهَزَمَ السّلطانُ عندَ ذلك، بعد أنْ قاتلَ بنفسه، وساَقَ يُريدُ دِمَشْق ــ وكَان الرّأْيُ توجُّههُ إلى مِصْر ــ وتَبعهُ سوُدُون الجلَب، وقَرْقماس ابن أخي دَمُرداش، ففاَتهُما الملكُ النّاصرُ ومضَى إلى دِمَشْق. وأَحاطَ القَوْمُ بالخليفة المستَعين بالله، وَفتح الدّين

---

(١) كذا. وهو تعبير عامي. ومراده: إلى أين يستطيعون الذهاب والفرار بعد الآن وقد بات الفريقان متقابلين.

(٢) في السلوك: «ارتطمت»، وهو الأنسب. يقال: ارتطم في الطين أي وقع فيه فتخبّط. وارتطم عليه الأمر: سدّت عليه مذاهبه ولم يقدر على الخروج منه إلا بمشقّة. هذا علماً أن فعل «رضم» يفيد الثقل والثبات في المكان.

فتح الله كاتب السِّر، وناظر الجيش بَدْر الدين حسن بن نصر الله، وناظر الخاصّ ابن أبي شاكر، وَاستولْوا عَلى جَميع أَثْقَال الملك النّاصر وأُمرائِه.

وَامتدّتْ أيدِي أصحاب الأمراء إلى النهبِ والأسْر في أصحاب الملك النّاصر، وما غربت الشمسُ حَتى انتصرَ الأمراء وقَوِي أمرُهم. وأذّن المغربُ، فَتَقَدَّم إمامُ الأمير شَيْخ، شهابُ الدين أحمد [بن حسن بن][1] الأذرعي وصلّى بهم المغربَ، وقرأ في الرّكعةِ الأولى بعد الفاتحة:

«وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُم قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُون فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتخطَّفَكمُ الناسُ فَآواكُم وأيّدكم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِنَ الطَّيِّباتِ لَعَلَّكُم تَشْكُرُونَ»[2].

فوَقَعت هذه الآيةُ الموْقعَ الحسَنَ، كَوْنهم كانُوا في خَوْفٍ وجَزَعٍ، وَصارُوا إلى الأمْنِ والتّحكم. وَباتوا تِلْكَ اللّيلة بمخَيماتهم، وهي ليلة الثلاثاء. وأَصبحَ الأمراء وَليس فيهم مَنْ يُرجَعُ إليه، بلْ كلُّ وَاحِدٍ منهم يقولُ: أنا رئيسُ القَوْم وكبيرُهم؛ فَنادَى شيخٌ بأنّه الأميرُ الكبيرُ، ورَسَم بما شاء، ونادى نوروز أيضاً بأنه الأمير الكبير، ورسم بما أراد، ونادى سُودُون المحمَّديّ بأنَّهُ الأميرُ الكبيرُ، وقد استَوْلى على الإسطَبْل السُّلطَانيّ بما فيه لنفسه، ونادَى بَكْتَمُر جِلّق بأنَّهُ الأمير الكبير.

قال الشيخُ تقيّ الدين المقريزيّ ــ رحمه الله: «حَدَّثني[3] فتحُ الله كاتب السرّ قال: بَعث إليَّ الأمير شيخٌ ونوْروزٌ، قالا لي: أُكتُب بما جَرى إلى الدِّيار المصرِّية، وأَعلِم الأمراء به، فقال لهما: مَن السُّلْطَان الذي أكتب عِنهُ؟... فأطْرَقَ كلُّ منهما سَاعةً ثم قالا: ابن أُسْتَاذِنا ما هُو هنَا حَتى نسلطنه ــ يُريدانِ الأمير فَرَج ابن الملك النّاصر فرَج.

فلمَّا رَأى انقطاعهما قال: الرأْي أن يَتقدَّم كلُّ مِنكما إلى موقّعه بأَنْ يكتب عنهُ إلى الأمرَاء بمصر كِتاباً بصورة الحال، ويأمرهم بحفظ القَلعةِ والمدينَة،

(١) زيادة عن السلوك.
(٢) سورة الأنفال. الآية: ٢٦.
(٣) أورد المقريزي هذا الخبر في السلوك دون سند إلى فتح الله كاتب السرّ.

ويعِدهم بالخير، ثمَّ يكتب الخليفةُ كذلك. فوَقع هذا منُهما الموقِعَ الحسَن، وكتب كلُّ منهما كتاباً، ونُدِب قُجْقارُ القَرْدميّ لحمل الكُتب، وَجهِّز إلى مِصر، فمضَى مِنْ يَوْمِهِ. ونُودِي بالرَّحيل في يوم الأربعاء خامس عشرِه، وَلَيْس عِندهم خَبرٌ عن الملك النَّاصر وَلا أينَ ذَهَب ــ انتهى.

قلتُ: وأما الملكُ النَّاصرُ، فإنُه لمَّا انكَسر سارَ نحو دِمَشق حَتى دَخلَها ليلة الأربعاء في ثلاثة نَفر، وَنزَل بالقلعَة وسأل عَن الوالِد فَقيل لهِ مُحتَضرٌ.

وَماتَ الوالد في يوم الخميس سادِس عشر المحرّم، وَدفن مِن يوْمِهِ بُترْبة الأمير تَنَم الحسنيّ نائب الشَّام، خارج دِمشق بميدان الحصى(١).

وَأمَّـا الملكُ الناصـرُ فإنـهُ أصبح يومَ الأربعـاء استدعى القضـاة والأعيانَ وَوَعدهم بكلِّ خير، وَحثَّهم على نُصرته والقيام مَعهُ، فانْقادُوا لهُ؛ فأخذَ في تدبير أُموره، وتلاحَقت به عساكرُه شيئاً بعد شيء.

ثمَّ قدِمَ عليه الأتابَك دَمُرداش، فأصبحَ خَلَعَ عليهِ في عَصْر يوم الخميس سادس عشر المحرّم بولايته نيابة دِمشْق ــ بعدَ مَوت الوالِدِ ــ رحمه الله.

وَأخذَ السلْطاَن في الاستعداد، وَأخرجَ الأموال، ثمَّ استولى على جميـع ما للوالد من خَيْلٍ وَجِمال وقُماش وَزرَدْخاناه(٢) وَمَالٍ، من كونه وَصيّاً، وأيضاً وكيلَ زوْجتِهِ؛ فكانَ من جملة مَا أخذَه نحو الألف فرَس ما بينَ مَراكيب وجُشار(٣)، واستخدم جميـع مماليك الوالد المشتروَات ومماليك الخدمة، وكانوا أيضاً نحو الألف مملوك، وخلعَ على طُوغان دَوَادار الوالد باستقرارِه على تقدمة ألف بدِمشق على عادَتِه، وعلى أرْغُون شاه شادّ شرَاب خاناته باستِقراره على إمرْةِ طَبلخَاناه

(١) ميدان الحصى: يقع قبلي دمشق، وهو أصغر من الميدان الأخضر الذي يقع غربيها، ويمتد على أرض حصباء ولهذا سمي بميدان الحصى.

(٢) الزردخاناه هي دار السلاح. وهنا بمعنى السلاح.

(٣) أي الأفراس الصغار التي لم تركب بعد، وما زالت مسرحة في المرعى.

وكذلك رأس نوبة، فكلّموه فيما أُخذ للوالد من الخيُول والقماش، فوعدهم برد ما أُخذ وأضْعافِه.

ثمَّ أحضر السّلطانُ الأموالَ وَصبَّها بين يديْهِ ؛ فأشارَ عليه دَمُرْداش بالخروج إلى حَلَب فلم يوافقه، وأبـى إلا الإقامة في دمشق، فأشار عليهِ ثانياً بالعَوْد إلى الدِّيار المصرية فلم يرض، وأقام بدِمشْق، وكان رأي دَمُرْداش فيه غايةُ الجودة، فإنَّ جميـع أُمراء التركمان كانت مـع الملك الناصر مثل قَرايُلُك(١)، وابن قَرمان، وبَني دُلْغادِر وغيرهم، فَحُبِّبَ إليه الإقامةُ بدمشق لأمْرٍ سَبق في القِدم(٢). وَلمّا أخرج السّلْطَانُ الأموال أتاه الناس مِنْ كلِّ فـجّ من التُّركمان والعُرْبان والعَشير وغيرهم، فكتب أسماءهم وأنْفَق عليهم وقوَّاهُم بالسلاح، وأنْزل كلّ طائفةٍ منهم بموضـعٍ يحفظه؛ فكان عدّة مَنْ استخدمَهُ من المشاةِ زيادةً على ألف رجل. وحَصَّن القلعة بالمناجيق والمدافـع الكبار؛ وَجعَل بين كلّ شرفَتْين من شرفات سور المـدينة جَنوِيّة(٣)، ومِنْ وَرائها الرّماة بالسّهام الخلَنْج(٤)، والأسهم الخطائية(٥)، ونصب على كلّ بُرْجٍ من أبْراج السور شيطانياً(٦) يُرمْى به الحجارة.

وَأتقن تحصين القلعةِ بحيث إنه لم يبْقَ سَبيـلٌ للتوصّـل إليها بـوجهٍ من الوجُوه.

ثُمَّ خلـعَ عَلى نُكْبـاي الحاجب بِنيـابةِ حَمـاة. ثمَّ رَكِب قاضِي القضَـاة

---

(١) راجع ص ٢٤، حاشية (١).

(٢) أي لأمر قدّره الله.

(٣) هذا اللفظ استعمل بعدة معانٍ: فهو يعني أحياناً النقّالة أو المركب التي تستعمل لنقل الجرحى. ويعني أيضاً ما يُحتمى خلفه من متاريس ودرقات. واستعمل أيضاً بمعنى الأوتار أو الأسياخ المدبّبة التي تحول دون عبور السور. والمعنيان الأخيران يصلحان هنا. (عن معجم دوزي: Supp.Dict.Ar.).

(٤) لعلّ المراد بها تلك السهام المصنوعة من خشب الخليج، وهو خشب صلب تتخذ منه الأواني. (انظر لسان العرب: خليج).

(٥) هي الأسهم العظام التي يرمي بها عن قسي عظام. (صبح الأعشى: ٢/١٤٤).

(٦) أي منجنيقاً شيطانياً، وهو نوع من المنجنيقات الضخمة.

جَلالُ الدين البُلقيني، ومعهُ بقيّةُ قضاة مصر ودمشْق، وجماعةٌ مِنْ أرْباب الدّوْلة، ونُودي بين أَيديهم عَنْ لِسانِ السلطان أنه قَدْ أبطلَ المكُـوسَ، وأزال المظَالم «فادْعوا له»؛ فعَظُم ميْلُ الشّاميّين إليه، وتَعصبُوا له، وصارَ غالبهم مِنْ حِزبه، وغنّوا عَنْ لسانه:

«أنا سُلطانٌ ابنُ سُلطان وأنْتَ يا شيـخُ أمير»

وأكْثرُوا من الدّعاء له وَالوقيعة في شَيـخٍ ونَوْرُوزٍ، ووَعدُوه القتالَ معه حتى الممات.

واستمرّ ذلك إلى بُكرةِ يوم السَّبت ثامن عَشر المحرّم، فنزل الأمراءُ عَلى قُبة يَلْبُغـا خـارج دمشق، فنَـدب السُّلطان عسكـراً فتـوجّهـوا إلى القُبَيْبـات، فبـرز لهم سُودُون المحمَّدي، وسُودُون الجلب، واقتتلوا حَتّى تقهقر السّلطانيّـة منهم مرّتين، ثمّ انصرف الفريقان.

وفي يوم الأحد تاسـع عشر المحرّم ارتحل الأمراء عن قبةِ يلبُغَا، ونزلوا غربـيّ دمشق من جهةِ الميدان، ووقفُوا من جهة القلعة إلى خارج البلد، فتراموا بالنّشَّاب نهارهم وبالنّفط، فاحترق ما عند باب الفراديس من الأسواق. فلمّا كان الغدُ من يوم الاثنين عشرين المحرّم اجتمـع الأمراء للحصار، فوقفوا شرقيّ البلد وقبليه، ثم كرُّوا راجعين ونزلوا ناحية القنوات[١] إلى يوم الأربعاء ثاني عشرينه. ووقـع القتالُ من شرقيّ البلد، ونزل الأمير نَوْرُوز بدار الطعم[٢]، وامتدّت أصحابُه إلى العُقيبة[٣]، ونزل طائفةٌ بالصالحيَّة والمزّة، ونزل شيـخٌ بدار غرس الدين خليل أستادار الوالد تجاه جامـع كريم الدين الذي بطرف القُبَيْبات ومعه الخليفةُ وكاتبُ

---

(١) القنوات: أحد الأنهار السبعة المتفرعة من نهر بردى، وهو ونهر بانياس يشقان دمشق ومسلطان على دورها، والقنوات ينقسم في المدينة ويجري في قنوات مدفونة في الأرض (صبح الأعشى: ٤/٩٥).

(٢) دار الطعم: وكانت بمثابة الوكالة بالديار المصرية، ولها مشد يوليه نائب دمشق من بين أمراء العشرات، أو مقدمي الحلقة والأجناد (صبح الأعشى: ٤/١٨٧).

(٣) العقيبة: قرية من ضواحي دمشق (معجم البلدان).

السرّ فتح الله، ونزل بَكْتَمُر جِلّق وقَرْقَماس ــ سيِّدي الكبير ــ في جماعةٍ من جهة بَساتين مُعين الدين[(١)] ومنعُوا الميرة عن الملك الناصر، وقطعُوا نهر دمشق؛ ففقد الماء من البلد، وتعطلّت الحمّامات، وغُلّقت الأسواق.

واشتدّ الأمر على أهل دمشق، واقتتلوا قتالاً شديداً، وتراموا بالسّهام والنُّفُوط، فاحترق عدّةُ حوانيت بدمشق. وكثرت الجراحاتُ في أصحاب الأمراء من الشّاميّين، وأنكاهم السلطانية بالرّمي من أعلى السُّور، وعظُم الأمر، وكَلّوا من القتال.

ثم إن الأمير شيخاً أرسل إلى شهاب الدين الحسبانيّ[(٢)]، والباعوني[(٣)]، وقاضي القضاة ناصر الدين بن العديم الحنفيّ قاضي قضاة الدّيار المصرية ــ وكان قد انقطع بالشِّلبية[(٤)] لمرض به ــ فأحضر شيخُ الثلاثة وأنزلهم عنده. ثم لحق ناصرُ الدّين بن البارزِيّ، وصدرُ الدِّين الأدميّ الحنفي قاضي قضاة دمشق بالأمير شيخ.

ولما بلغ الملك الناصر توجُّه ابن العديم إلى شيخ أرسل خَلْفَ مُحّب الدِّين بن الشّحنة قاضي حلب وولاّه قضاء الحنفيّة بالديار المصرية عوضه.

ثم في يوم الجمعة رابع عشرينه أحضر الأمير شيخُ الأمير بلاط الأعرج شادّ الشّراب خاناه ــ وكان ممن قُبضَ عليه بعد انهزام الملك الناصر ــ ووسّطه. ثم أحضر أيضاً الأمير بلاط أمير علم[(٥)] ــ وكان ممّن قُبض عليه أيضاً يوم الواقعة، من

(١) بساتين معين الدين: وتنسب إلى معين الدين أنر بن عبد الله الطغتكي صاحب دمشق (الأعلاق الخطيرة ١١٩، ١٥٩).

(٢) هو شهاب الدين أحمد بن إسماعيل بن خليفة قاضي قضاة الشافعية بدمشق. توفي سنة ٨١٥هـ. (الضوء اللامع: ٢٣٧/١).

(٣) هو شهاب الدين أحمد بن ناصر بن خليفة الباعوني ــ نسبة إلى باعون بالقرب من عجلون ــ المتوفى سنة ٨١٦هـ. (الضوء اللامع: ٢٣١/٢).

(٤) هي المدرسة الشبلية بدمشق ــ راجع فهرس الأماكن.

(٥) أميرعلم: صاحب هذه الوظيفة هو الذي يتولى أمر الأعلام السلطانية والطبلخاناه. ويكون عادة أمير عشرة. (صبح الأعشى: ٢٢/٤، ٤٥٦/٥).

أجل أنّه كان يتولّى ذبح خشُداشيّته من المماليك الظّاهريّة ــ فلما حُمل للتوسيط صاح: «يا ظاهريّة! الجيرة! أنا خشُداشُكم!» قالوا له: «الآن أنت خُشْدَاشنَا، وأيّام الذبح كُنت عَدُوّنا!!» فلم يقم إليه أحدٌ.

وفي يوم السبت خامس عشرين المحرّم، خلع الخليفةُ المستعين بالله الملكَ الناصر فرج من السّلطنة، واتّفق الأمراء على إقامة الخليفة المستعين بالله المذكور في السلطنة لتستقيم بسلطنته الأحوالُ، وتنفذ الكلمةُ، وتجتمع الناسُ على سلطان. وثبت خلعُ الملكِ الناصر على القضاة، وأجمعوا على إقامة الخليفة سلطاناً، فامتنع الخليفةُ من ذلك غاية الامتناع، وخاف ألّا يتم لهُ ذلك فيهلك، وصمم على الامتناع، وخاف من الملك الناصر خوفاً شديداً. فلما عجز عنه الأمراء دَبّرُوا عليه حيلةً، وطلبُوا الأمير ناصر الدين محمد بن مبارك شاه الطّازيّ ــ وهو أخو الخليفة المستعين بالله لأمه ــ وندبوه بأن يركب ومعه ورقةٌ تتضمن مثالب الملك الناصر ومعايبه، وأن الخليفة قد خلعه من الملك وعزله من السّلطنة، ولا يحلّ لأحد مُعاونته ولا مُساعدته.

فلما بلغ الخليفةَ ذلك لامَ أخاه ناصر الدين بن مبارك شاه المذكور على ذلك، وأيس الخليفةُ عند ذلك من انصلاح الملك النّاصر له، فأذعن لهم حينئذٍ بأن يتسلطن؛ فبايعوه بأجمعهم، وحلفُوا له بالأيمان المغلّظة والعُهود على الوفاء له وعلى القيام بنُصْرته ولزُوم طاعته.

وتم أمرُه على ما يأتي ذكرُه في أوائل ترجمته من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

وأما الملكُ الناصرِ، فإنّه لمّا تسلطن الخليفةُ، وخلع هو من الملك، نفرَ النّاس عنه، وصاروا حزبين: حزباً يرى أن مخالفة الخليفة كفرٌ، والناصر قد عزل من الملك، فمن قاتل معه فقد عصي الله ورسُوله، وحزباً يرى أن القتال مع الملك الناصر واجبٌ، وأنه باقٍ على سلطنته، ومن قاتله إنما هو باغٍ عليه وخارجٌ عن طاعته.

ومن حينئذٍ أخذ أمرُ الملك الناصر في إدبار، إلى أن قُتِل في ليلة السبت سادس عشر صفر من سنة خمس عشرة وثمانمائة بالبرج من قلعة دمشق بعدما حوصر أياماً، كما سيأتي ذكره مفصلاً في ترجمة المستعين بالله، إلى أن حُبس بقلعة دمشق.

وخبرُه: أنه لما حبس بقلعة دمشق ــ بعد أُمورٍ يأتي ذكرُها في سلطنة المستعين وأقام محبوساً بالبرج إلى ليلة السبت سادس عشر صفر المذكور ــ دخل عليه ثلاثة نفرٍ [هم]: الأمير ناصرُ الدين محمد بن مبارك شاه الطازيّ أخو الخليفة المستعين بالله لأمه، وآخرُ من ثقات شيخ، وآخر من أصحاب نَوْرُوز، ومعهم رجلان من المشاعليّة(١)، فعندما رآهم الملكُ الناصر فرج قام إليهم فزعاً، وعرف فيما جاؤوا، ودافع عن نفسه، وضرب أحد الرجلين بالمدوّرة(٢) صرعه. ثم قام الرجُل هو ورفيقه ومشوا عليه وبأيديهم السكاكين، ولا زالوا يضربونه بالسكاكين المذكورة وهو يعاركهم بيديه، وليس عنده ما يدفع عن نفسه به، حتى صرعاه، بعد ما أثخنا جراحَه في خمسة مواضع من بدنه. وتقدّم إليه بعض صبيان المشاعلية(٣) فخنقه وقام عنه؛ فتحرك الملك الناصر، فعاد إليه وخنقه ثانياً حتى قوي عنده أنه مات، فتحرّك، فعاد إليه ثالثاً وخنقه، وفرى أوداجَه بخنْجرٍ كان معه، وسلبه ما عليه من الثياب؛ ثم سُحب برجليه حتى أُلقي على مزبلةٍ مُرتفعةٍ من الأرض تحت السّماء، وهو عاري البدن، يسترُ عورته وبعض فخذيه سراويلُه، وعيناه مفتوحتان، والنّاسُ تمرُّ به ما بين أميرٍ وفقيرٍ ومملوكٍ وحُر، قد صرَف الله قلوبهم عن دفنهِ ومواراته. وبقيت الغلمانُ والعبيدُ والأوباشُ تعبثُ بلحيته وبدنه.

---

(١) راجع الجزء ١٢، ص ٢٨٨، حاشية (٢).

(٢) ورد هذا اللفظ بأكثر من معنى في هذا الكتاب. فهو يعني أحياناً خيمة السلطان الكبيرة المستديرة، ويعني أحياناً مائدة السلطان، وأحياناً يعني مقعد السلطان يرتفع قليلاً عن الأرض. ولعل المعنى الأخير هو المراد هنا ــ انظر فهرس المصطلحات.

(٣) في السلوك للمقريزي وبدائع الزهور لابن إياس: «بعض صبيان الفداوية». وقد سبق للمؤلف أن ذكر ــ برواية عن أخته خوند فاطمة زوجة الناصر فرج ــ أن الذي باشر قتله هو بعض الفداوية من الإسماعيلية.

واستمر على المزبلة المذكورة طول نهار السبت المذكور. فلما كان الليلُ من ليلة الأحد حمله بعضُ أهل دمشق وغسلَهُ وكفّنه، ودفنه بمقبرة باب الفراديس احتساباً لله تعالى، بموضعٍ يُعرفُ بمرج الدحداح، ولم تكن جنازته مشهودة، ولا عُرف من تولّى غسله ومُواراته.

قلتُ: وما وقَع للملك الناصر من قتله وإلقائه على المزبلة مما يدلّ على قلة مروءة القوم، وعدم حفظهم ومُراعاتهم لسوابق نعمه عليهم، ولحُقوق تربية والده الملك الظاهر برقوق عليهم. ونفرضُ أنه أساء لهم وأراد قتلهم، وكان مُجازاته عن ذلك بالقتل، وهو غايةُ المجازاة، فكان الأليق بعد قتله إخفاء أمره ومُوارَاته، كما فعل غيرُهم بمن تقدّم من الملوك، فإنه قد حصل مقصودهُم بقتله وزيادةً. حتى إن الذي ــ والعياذُ بالله تعالى ــ يقعُ في الكفر تُضرب عنقُه ثم يؤخذُ ويُدفن؛ وأيضاً فمراعاةُ السّلطنة وناموس الملك مطلوبٌ من كلّ واحد، والملوكُ لهم غيرةٌ على الملوك، ولو كان بينهم العَداوةُ والخصومة. وقد رأيتُ في تاريخ الإسلام في ترجمة الخليفة محمد المهديّ بن الرشيد هارون العبَّاسيّ أنه سأل بعض جُلسائه عن أحوال الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان الأمويّ، فقال له بعضُ من حضَر: وما السُّؤال عنه يا أمير المؤمنين؟! كان رجُلًا فاسقاً زنديقاً». فلما سمعَ الخليفةُ المهديّ كلامه نهره وقال له: «صَهْ، خلافةُ الله أجلّ أن يجعلها في زنديق»، وأقامه من مجلسه.

وكان الوليدُ كما قال الرَّجل، غير أن المهدي غار على منصب الخلافة، فقال ذلك مع علمه بحال الوليد. فلعمري أين فعلُ هؤلاء من قول المهديّ؟! مع أن خلفاء بني العبَّاس كانوا أشدّ بغضاً لخلفاء بني أُميَّة من بُغْض هؤلاء للملك الناصر، غير أنّ العُقول تتفاوت وتتفاضل، والأفعال تدُلُّ على شيم الفاعل ــ انتهى.

ومات الملكُ الناصرُ وله من العُمر أربعٌ وعشرون سنة وثمانية أشهر وأيام، فكانت مدةُ ملكه من يوم مات أبوه الملكُ الظاهر بَرْقوق إلى أن خُلعَ بأخيه الملك المنصور عبد العزيز ــ حسبما تقدم ذكره ــ ستُّ سنين وخمسة أشهرٍ وأحد

عشر يوماً، وخُلع من السّلطنة بأخيه المذكور سبعين يوماً، ومن يوم أُعيد إلى السلطنة بعد خلع أخيه المذكور في يوم السبت خامس جمادى الآخرة من سنة ثمان وثمانمائة إلى يوم خلعه المستعينُ بالله من السلطنة في يوم السبت خامس عشرين المحرّم من سنة خمس عشرة وثمانمائة ستُّ سنين وعشرة أشهر سواء.

فجميع مُدة سلطنته الأولى والثانية ــ سوى أيّام خلعه ــ ثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً.

وكان الملكُ الناصر من أشجع الملوك وأفرسها وأكرمها، وأكثرها احتمالاً، وأصبرها على العُصاة من أُمرائه.

حدّثني بعضُ أعيان المماليك الظاهريّة أن الملك الناصر(١) ما قتل أحداً من الظاهرية ولا غيرهم حتى ركب عليه وآذاه غيرَ مرّة وهو يعفو عنه؛ وتصديقُ ذلك أنه لما قبض على الأمير شيخ والأتابك يشبُك الشعباني بدمشق في سنة عشر [وثمانمائة] وحبسهما بقلعة دمشق كان يمكنه قتلهما، فإن ذلك كان بعد ما حارباه في واقعة السعيدية وكسراهُ أقبح كسرة؛ وأما شيخ فإنه كان تكرَّر عصيانه عليه قبل ذلك غير مرَّة. وقد رأينا من جاء بعده من الملوك إذا ركب عليه أحدٌ مرّةً واحدةً وظفر به لم يُبقه؛ والكلامُ في بيان ذلك من وُجوه عديدة يطولُ الشَّرح فيه، وليس تحت ذلك فائدة.

ولم أرد بما قلتهُ التعصبَ للملك الناصر المذكور؛ فإنه أخذ مالنا وجميع موجود الوالد وتركنا فُقراء ــ يعلمُ ذلك كلُّ أحد ــ غير أن الحق يُقال على أي وجه كان.

وكان صفتُه شاباً معتدل القامة، أشقر، لهُ لثغةٌ في لسانه بالسِّين، غير أنّه كان أفرس ملوك التُّرك بعد الملك الأشرف خليل بن قلاون بلا مُدافعة.

(١) في الأصل: «أنه». والتعديل للتوضيح.

قُلتُ: ولنذكر هنا من مقالة الشيخ تقيّ الدين المقريزي في حقه من المساوىء نبذةً برمتها، وللنَّاظر فيها التأمل قال:

«وكان الناصر أشأم ملوك الإسلام؛ فإنّه خرَّب بسوء تدبيره جميع أراضي مصر وبلاد الشّام من حيث يصُبّ النيل إلى مجرى الفرات، وطرق الطاغيةُ تَيْمُور بلاد الشَّام في سنة ثلاثٍ وثمانمائة، وخرّب حلب وحماة وبعلبكّ ودمشق، حتى صارت دمشق كوماً ليس بها دار. وقتل من أهل الشام ما لا يُحصى عدده[١]. . . وطرق ديار مصر الغلاءُ من سنة ست وثمانمائة، فبذل أُمراء دولته جُهدهم في ارتفاع الأسعار، بخزنهم الغلال وبيعهم لها بالسعر الكثير. ثم زيادة أطيان أراضي مصر حتى عظُمت [كلفة[٢] ما تُخرجه الأرض]. وأفسدوا مع ذلك النُّقود بإبطال السكّة الإسلامية من الذهب، والمعاملة بالدنانير المشخَّصة[٣] التي هي ضرب النّصارى. ورفعوا سعر الذّهب حتى بلغ إلى مائتين وأربعين [درهماً] كلّ مثقال، بعد ما كان بعشرين درهماً، ومكّسوا[٤] كل شيء. وأُهمل عملُ الجسور بأراضي مصر، وأُلزم النّاس أن يقوموا عنها بالأموال التي[٥] تجبى منهم. وأكثر وزراؤه من رمي البضائع على التجار ونحوهم بأغلى الأثمان، (وكلّ ذلك من سعد الدين بن غراب، وجمال الدين يوسف الأستادار وغيرهما؛ فكانا يأخذان الحقّ والباطل ويأتيان له به لئلا يعزلهم من وظائفهم. ثم ماتوا، فتم هو على ذلك يطلب المال من المباشرين فيسدون بالظلم، فخربت البلادُ لذلك، وفشا أخذ أموال الناس)[٦]. هذا مع تواتُر الفتن واستمرارها بالشَّام ومصر، وتكرار سفره إلى البلاد الشَّامية،

---

(١) الكاتب ينقل عن المقريزي باختصار. قارن بالسلوك: ٨١٥/٤ وما بعدها.

(٢) في الأصل: «كلفته». والتعديل والزيادة عن السلوك.

(٣) المشخّصة هي الدنانير الفرنسية (الإفرنتية) أو الجنويّة التي يكون على أحد وجهيها صورة الملك التي ضربت في عهده.

(٤) هذه العبارة غير واردة في السلوك. وعبارة السلوك: «وعكسوا الحقائق فصيّروا الفلوس ــ التي لم تكن في قديم الدهر ولا حديثه نقداً رايجاً ــ هي التي يُنسب إليها ثمن المبيعات وقيم الأعمال، وأخذت غلة نواحي مصر مغارم تُجبى من الفلاحين في كل سنة، وأهمل. . . الخ».

(٥) في السلوك: «بأموال تُجبى منهم».

(٦) ما وضعناه بين هلالين غير وارد في نصّ المقريزي.

فما من سفرةٍ سافر إليها إلاّ ويُنفقُ فيها أموالاً عظيمة، زيادةً على ألف ألف دينار، يجبيها من دماء أهل مصر ومُهجهم. ثم يتقدَّم إلى الشام فيخرِّب الديار ويستأصل الأموال ويُدمِّر القرى. ثم يعود وقد تأكدت أسبابُ الفتنة، وعادت أعظم ما كانت؛ فخربت الإسكندرية، وبلادُ البُحيرة، وأكثرُ الشرقيَّة، ومعظم الغربية، [والجيزية][(١)]، وتدمرت بلادُ الفيُّوم، وعمّ الخرابُ بلاد الصعيد، بحيثُ بطل منها زيادةً على أربعين خطبة [كانت تُقام في يوم الجمعة][(٢)]. ودثر ثغرُ أُسْوان، وكان من أعظم ثغُور المسلمين، وخرب من القاهرة وأملاكها وظواهرها زيادةً عن نصفها. ومات من أهل مصر في الغلاء والوباء نحو ثلثي النَّاس. وقتل في الفتن بمصر مدّة أيامه خلائق لا تدخل تحت حصر، مع مُجاهرته بالفسوق، من شرب الخمر، وإتيان الفواحش، والتجرُّؤ العظيم على الله جلت قُدرته.

ومن العجيب أنه لما وُلد كان قد أقبلَ يَلْبُغَا الناصريّ بعساكر الشّام لينزع أباه الملكَ الظاهر برْقُوق من الملك ــ وهو في غاية الاضطراب من ذلك ــ فعندما بشر به قيل له: «ما تسميه؟»... قال: «بُلْغاق» ــ يعني فتنة ــ وهي كلمة تُركيَّة. فقُبض على أبيه الملك الظّاهر وسجن بالكرك ــ كما تقدّم ذكره [وهو لم يُسَمَّ][(١)].

فلما عاد [برقوق] إلى الملك عرُض عليه فسمَّاه فرجاً، ولم يُسمّه أحدٌ لذلك اليوم إلاّ بُلْغاق، وهو في الحقيقة ما كان إلاّ فتنة، أقامه الله ــ سبحانه وتعالى ــ نقمةً على الناس ليُذيقهم بعض الذي عملوا.

ومن عجيب الاتّفاق أن حُروف اسمه «ف ر ج» عددُها ثلاثة وثمانون ومائتان وهي عددُ جركس[(٣)]، وكان فناء طائفة الجركس على يديه. فإن حُروفها تفنى إذا أُسقطت بحروف اسمه».

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) زيادة عن السلوك. والإشارة إلى خراب المساجد التي تقام بها الجمع.

(٣) وذلك لأن التقدير في حساب الجمل كما يلي:

ف ر ج = ٨٠ + ٢٠٠ + ٣ =٢٨٣

ج ر ك س = ٣+ ٢٠٠ + ٢٠+ ٦٠ =٢٨٣

قلتُ(١): كيف كان فناء الجركس على يديه، وهم إلى الآن ملوكُ زماننا وسلاطينها؟!. فهذا هو الخباط(٢) بعينه!. وإن كان يعني الذين قتلهم، فهو قتل من كلِّ طائفةٍ ـ انتهى.

قال(٣): وكانت وفاتُه عن أربع وعشرين سنة وثمانية أشهر وأيّام. (وكل هذه الأمور من سُوء تدبير مماليك أبيه معه والفتنة في بعضهم البعض؛ وهم الذين جَسّرُوه على المظالم، وعلى قتل بعضهم، فاستمرّ على الظلم والقتل إلى أن كان من أمره ما كان) ـ انتهى كلام(٤) المقريزي بتمامه وكماله.

قلتُ: وكان يمكنني أن أُجيب عن كل ما ذكره المقريزيّ ـ غير إسرافه على نفسه ـ غير أني أضربت عن ذلك خشية الإطالة والملل. على أني موافِقهُ على أنْ الزمان يصلحُ ويفسدُ بسلطانه وأرباب دولته، ولكن البلاء قديم وحديث ـ انتهى.

وخلَّف الملكُ الناصر عشرة أولادٍ ـ فيما أظنّ ـ ثلاثة ذكور وسبع(٥) إناث. فالذكور: فرج، ومحمد، وخليل، والإناث: سُتيتَه التي زَوَّجها لبَكْتَمُر جِلّق، وعائشة، وآسية، وزينب، وشقراء، وهاجر، ورحب، والجميع أمّهاتهم أمُّ أولادٍ مُولّداتٌ، ما عدا عائشة وشقراء ـ والله أعلم.

السنة الأولى من سلطنة الملك الناصر فرج بن برقوق الثانية على مصر

وهي سنة ثمان وثمانمائة: على أن أخاه الملك المنصور عبد العزيز حكم منها سبعين يوماً.

فيها أمسك السلطانُ الملك الناصر الأتابك بيبرس ابن عمته، والأمير سُودُون المارْدانيَّ الدوَّادار الكبير بعد عوده إلى الملك ـ حسبما تقدَّم ذكره.

---

(١) أي المؤلف.

(٢) الخباط: داء كالجنون.

(٣) أي المقريزي.

(٤) ما وضعناه بين هلالين زاده أبو المحاسن على كلام المقريزي ـ وإذا تأملنا فيه قليلاً نجده لا ينسجم مع تقييم المقريزي للناصر فرج.

(٥) في بدائع الزهور: «ثلاثة صبيان وأربع بنات» ـ وذكر من البنات: شقراء، آسية، زينب، هاجر.

وفيها تُوُفِّيَ الشيخ علاء الدين عليّ بن محمد بن عليّ بن عصفور المالكي، شيخ الكتَّاب بالديار المصرية في يوم الاثنين رابع عشرين شهر رجب. كان أحد موقعي الدست بالقاهرة وكان يجيد الخط المنسوب بسائر الأقلام وكان ابن عصفورٍ هذا هو الذي كتب عهد الملك المنصور عبد العزيز بالسلطنة، ومات بعد مُدَّةٍ يسيرة، فقال فيه بعض الأدباء. [السريع]

قد نسخ الكتاب من بعده عُصفورُ لما طار للخلدِ
مذ كتب العهد قضى نحبهُ وكان منه آخر العهد

وتُوُفِّيَ الخليفة أمير المؤمنين المتوكل على الله أبو عبد الله محمد ابن الخليفة المعتصم بالله أبي بكر ابن الخليفة المستكفي بالله سليمان بن الحاكم بأمر الله أحمد بن الحسن بن أبي بكر بن عليّ بن الحسين ابن الخليفة الراشد بالله منصور بن المسترشد بالله الفضل بن المستظهر بالله أحمد بن المقتدي بالله عبد الله ابن الأمير ذخيرة الدين محمد ابن الخليفة القائم بأمر الله عبد الله بن القادر بالله أحمد بن المقتفي بالله إبراهيم بن المقتدر بالله جعفر بن المعتضد بالله أحمد ابن الأمير الموفَّق طلحة ابن الخليفة المتوكل على الله جعفر بن المعتصم بالله محمد بن الرشيد بالله هارون بن المهدي محمد ابن الخليفة أبي جعفر عبد الله المنصور بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس الهاشميّ العباسيّ المصريّ، يوم الثلاثاء ثامن شهر رجب، ودُفن بالمشهد النَّفيسي خارج القاهرة.

بويع المتوكل بالخلافة بعد موت أبيه بعهدٍ منه إليه، في يوم سابع جمادى الآخرة سنة ثلاثٍ وستِّين وسبعمائة، وتمَّ أمره، إلى أن خلعه أينبك البدري في ثالث صفر سنة تسع وسبعين وسبعمائة بزكرياء بن إبراهيم. ثم أعيد في عشرين شهر ربيع الأول منها، فاستمرَّ إلى أن خلعه الملكُ الظاهر برقوق في أوّل شهر رجب سنة خمس وثمانين وسبعمائة بعمر بن إبراهيم، ولقِّب بالواثق. ثم أعاده في عشرين شهر ربيع الأول سنة إحدى وتسعين وسبعمائة، فاستمر في الخلافة إلى أن مات. وتولَّى الخلافة بعده ابنه المستعين بالله العباس.

قلتُ: ولا نعلم خليفةً تخلَّف من أولاده لصلبه خمسةٌ غير المتوكل هذا، وهم: المستعين العباس، ثم المعتضد داود، ثم المستكفي سليمان ــ وهما أشقَّاء ــ ثم القائم بأمر الله حمزة ــ وهو شقيق المستعين بالله المتقدم ذكره ــ ثم المستنجد بالله يوسف، خليفة زماننا هذا، عامله الله باللطف.

وتُوُفِّي قاضي القضاة وليُّ الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن(١) المعروف بابن خلدون الحضرميّ الإشبيليّ المالكيّ قاضي قضاة الديار المصرية بها، في يوم الأربعاء خامس عشرين شهر رمضان فجاءةً. وقد ولي القضاء غير مرة. ومولده في يوم الأربعاء أوَّل شهر رمضان سنة إثنتين وثلاثين وسبعمائة، بمدينة تونس. وكان إماماً عالماً بارعاً في فنون من العلوم، وله نظمٌ ونثرٌ، وقد استوعبنا ترجمته في «المنهل الصَّافي»، وذكرنا قدومه إلى القاهرة، ومشايخه وغير ذلك. ومن شعره من قصيدة: [الكامل]

أسرَفْنَ في هجري [وفي](٢) تعذيبي وَأطلْنَ(٣) موقفَ عَبْرتي ونحيبي
وَأبيْنَ يومَ البَيْن وَقفة ساعةٍ لِوداع مشغوف(٤) الفؤادِ كئيبِ

وتُوُفِّي القاضي الأمير سعدُ الدين إبراهيم بن عبد الرزَّاق بن غراب في ليلة الخميس تاسع عشر شهر رمضان ــ ولم يبلغ من العمر ثلاثين سنة ــ بعد مرضٍ طويل. وكان وَلِي نظر الخاصّ في دولة الملك الظاهر بَرْقوق، ثم الوزَر، ونظر الجيش، وكتابة السر، والاستادارِيَّة في دولة الملك الناصر فرج الأولى. ثم صار في سلطنته الثانية أمير مائة ومقدّم ألف بالديار المصرية، وأمير مجلس، ولبس الكَلَفْتاة وتقلد بالسيف، وحضر الخدمة السّلطانية مرَّة واحدةً، ونزل إلى داره فلزم

(١) في الضوء اللامع عبد الرحيم.
(٢) زيادة عن الضوء اللامع.
(٣) في الأصل: «وأطلقن». وما أثبتناه عن الضوء اللامع.
(٤) في الأصل: «مشقوق». وما أثبتناه عن الضوء اللامع.

الفراش إلى أن مات. وكان له مكارم وأفضالٌ وهمَّة عاليةٌ، لم يُسمع بمثلها في عصره، مع عدم ظلمه بالنسبة إلى غيره من أبناء جنسه(١).

وأما سفك الدماء فلم يدخل فيه البتة، وقد اقتدى جمالُ الدين يوسف البيريّ طريقه في المكارم والتّحشُّم، غير أنه أمعن في سفك الدماء حتى تجاوز الحدَّ ـ عليه من الله ما يستحقه ـ وكان أصلُ سعد الدين هذا من أولاد الكتبة الأقباط بالإسكندرية، ثم اتصل بخدمة الأمير محمود بن عليّ الأستادار، واختص به حتى صار عارفاً بجميع أحواله، ثم بسفارته ولي نظر الخاص عوضاً عن سعد الدين بن أبي الفرج بن تاج الدين موسى، في يوم الخميس تاسع عشر ذي الحجة سنة ثمانٍ وتسعين وسبعمائة، وعمره إذ ذاك دون العشرين سنة. ولما استفحل أمره أخذ في المرافعة في أُستاذه محمود المذكور في الباطن، ولا زال يسعى في ذلك حتى كان زوال نعمة محمود المذكور على يديه. ثم ترقّى بعد ذلك حتى كان من أمره ما كان، فلم يُعدّ له من المساوىء غير مرافعته في محمود المذكور لا غير.

وتُوُفِّي الشيخُ الإمام الأديب زينُ الدين طاهر بن الشيخ بدر الدين حسن(٢) بن حبيب الحلبي الموقِّع الكاتب، في ليلة سادس عشر ذي القعدة. وكان أديباً شاعراً مكثراً، ومن شعره: [دوبيت]

أفدى رشاً ما مرَّ بي أو خطرا كالغصن رشيقْ
إلّا لقيتُ(٣) في هواه خطرا باللّحْظ رشيقْ
والسّالفُ والوجيه(٤) عقلي قَمرا آسٌ وشقيقْ
مذْ أسفر وجههُ يحاكي قمرا للبدر شقيقْ

(١) أي الأقباط.
(٢) أورد السخاوي نسبه باختلاف عما هنا. انظر الضوء اللامع: ٥/٤.
(٣) في الأصل: «إلا ولقيت». وبه لا يستقيم الوزن.
(٤) كذا بالأصل. والوزن غير مستقيم. كما أن المعنى غير واضح.

وله أيضاً في الملك الظاهر لما أمسك مِنطاشاً[١]. [السريـع]

الـمـلـك الـظـاهـر فـي عـزّه أذَلَّ مـن ضـلّ ومـن طـاشـا
وردَّ فـي قـبـضـتـهِ طـائـعـاً نعيـراً[٢] الـعـاصي ومـنـطـاشـاً

وتُوُفِّي الوزيرُ الصاحب تاج الدين عبدُ الله ابن الوزير الصاحب سعد الدين ابن البقريّ القبطي المصري تحت العُقوبة، في ليلة الإثنين ثامن عشرين ذي القعدة.

وتُوُفِّي الأميرُ سيف الدين قاني باي بن عبد الله العلائي الظاهري، أحد أمراء الألوف بالديار المصرية بها، في ليلة الأحد حادي عشرين شوّال، بعد مرضٍ طويل. وكان يُعرف بالغطاس لكثرة هُروبه واختفائه. وكان من شرار القوم، كثير الفتن. وهو أحدُ من كان سبباً لأخذ تيمورلنك مدينة دمشق، لأنه اتفق مع جماعة من الأمراء والخاصّكية، وعاد الجميع إلى مصر لِيُسلطنوا الشيخ لاجين الجندي الجركسيَّ، فخاف من بقي من الأمراء أن يتم لهم ذلك، وأخذوا السلطان الملك الناصر فرجاً وخرجوا من دمشق على حين غفلةٍ، وساروا في أثرهم حتى أدركوهم بمدينة غزة، وتركوا دمشق مأكلةً لتيمُور.

قلتُ: الدّالُّ على الخير كفاعله؛ فهو شريكٌ لتَيْمُور فيما اقتحمه من سفك الدِّماء وغيره.

وتُوُفِّيَ الأمير سيفُ الدين بلاط بن عبد الله السعدي، أحد أُمراء الطبلخانات بالديار المصرية ــ بطّالاً بها ــ في رابع عشرين جمادى الأولى. وكان ساكناً عاقلاً.

وتُوُفِّي الأمير سيفُ الدين جَقْمَق بن عبد الله الصفوي، حاجبُ حجاب دمشق

---

(١) هو الأمير سيف الدين تمربغا بن عبد الله الأفضلي المعروف بمنطاش. وقد قاد تمرداً في بلاد الشام ضد الظاهر برقوق، وطال تمرّده وعرف بفتنة منطاش ــ راجع ترجمة الظاهر برقوق.

(٢) هو أمير عرب آل مهنّا الذي تحالف مع منطاش ــ راجع أيضاً ترجمة الظاهر برقوق.

ـ قتيلاً ـ في حادي عشر شهر ربيع الآخر؛ ضرب الأميرُ شيخٌ المحمودي عنقَه؛ وكان من قدماء الأمراء. ولي حجوبيّة حلب في دولة الملك الظاهر برقوق، ثم ولي نيابة ملطية، ثم تنقل في عدة ولاياتٍ، إلى أن ولي حجوبية دمشق. ووقَع بينه وبين الأمير شيخ وحشةٌ، حتى كان من أمره ما كان.

وتُوُفِّي الأمير سيفُ الدين شيخ بن عبد الله السّليمانيّ الظاهريّ المعروف بالمُسَرْطَن، في حادي عشر شهر ربيع الآخر خارجَ دمشق، بعد أن صار أمير مائة ومقدّم ألفٍ بديار مصر، ثم نائب صفد، ثم نائبَ طرابلس، ووقَع له أمورٌ.

وشيخٌ هذا، هو ثاني من سُمِّي بهذا الاسم واشتهر؛ والأوّل شيخ الصفويّ الخاصكيّ المقدمُ ذكرُه، والثالثُ هو شيخٌ المحموديّ الملكُ المؤيدُ ـ انتهى.

وتُوُفِّي الوزيرُ الصاحبُ تاجُ الدين عبدُ الرزاق بن أبي الفرج بن نقولا الأرمنيّ الملكيّ في رابع شهر ربيع الآخر، بعدما وَليَ عدَّة وظائف. كان أوّلاً صيرفياً بقطيا، ثم صار كاتباً بها، ثم ولي نظرها، ثم إستقرّ وزيراً بالدِّيار المصرية، ثم أستاداراً، ثم ولي كشف الوجه البحري.

قال المقريزي:

كان أولاً يُسمى بالمعلم(١)، ثم سمِّي بالقاضي(٢)، ثم نُعت بالصاحب(٣)،

---

(١) المعلم: لقب كان يطلق على أرباب الصناعات والحرف. وما زال هذا اللقب يستعمل حتى اليوم في مصر وبعض بلاد الشام بنفس المعنى.

(٢) القاضي: يطلق في الأصل على العالم الذي يتصدّى للقضاء. إلا أنه استعمل كلقب فخري في أواخر العصر الفاطمي وعصر الأيوبيين والمماليك حين أطلق على الكتّاب والعلماء وموظفي الدولة من المدنيين عموماً، سواء أكانوا متصدرين لوظيفة القضاء أم لغيرها. (الألقاب الإسلامية: ٤٢٤؛ وصبح الأعشى: ٥/٤٥١ و٦/٢٣).

(٣) الصاحب: من ألقاب الوزراء المدنيين اختصّوا به دون العسكريين. على أن كتّاب الإنشاء بالممالك الشامية كانوا يلقبون العلماء من قضاة القضاة ومن في معناهم بذلك اللقب، واستمر ذلك حتى القرن التاسع للهجرة. هذا بخلاف كتاب الديار المصرية الذين كانوا يقصرون استعماله على الوزراء دون غيرهم. (انظر صبح الأعشى: ٦/١٧ ـ ١٨؛ وخطط المقريزي: ٢/٢٢٣؛ والألقاب الإسلامية: ٣٦٧).

ثم بالأمير، ثم بملك الأمراء[١]، كلٌّ ذلك في مدَّةٍ يسيرةٍ من السنين ـ انتهى.

وتُوُفِّيَ الطاغيةُ تَيْمُورلَنْك كوْركان، وقد تقدَّم نسبة في ترجمة الملك الناصر فرج الأولى، على اختلافٍ كبيرٍ في نسبه.

مات في ليلة الأربعاء تاسع عشر شعبان في هذه السنة ـ وقيل في الماضية ـ وهو نازلٌ بضواحي أُتْرار[٢] بالقرب من آهنكران؛ ومعنى «آهنكران» باللغة العربية «الحدَّادون»، و«آهنكر»: الحداد، و«كوركان» معناه صهر الملوك، و«لنك» هو الأعرج باللغة العجميَّة. انتهى.

وكان سببُ موته أنَّه خرج من بلاده لأخذ بلاد الصِّين ـ وقد انقضى فصلُ الصيف ودخل الخريفُ ـ وكتب إلى عساكره أن يأخذوا الأهبةَ لمدة أربع سنين؛ فاستعدوا لذلك، وأتوه من كل جهة، وصُنع لهُ خمسمائة عجلةٍ لحمل أثقاله. ثم خرج من سَمَرْقَنْد في شهر رجب، وقد اشتد البردُ، ونزل على سيحون وهو جامد، فعبرهُ ومرَّ سائراً؛ فأرسل الله عليه من عذابه جبالاً من الثلج التي لم يُعهد بمثلها مع قُوةِ البردِ الشديد، فلم يبق أحد من عساكره حتى امتلأت آذانهُم وعيونهُم وخياشيمهم، وآذانُ دوابهم وأعينها من الثلج، إلى أن كادت أرواحهم تذهب. ثم اشتدت تلك الرياحُ، وملأ الثلجُ جميعَ الأرض ـ مع سعتها ـ فهلكت بهائمهُم. وجمد كثيرٌ من الناس، وتساقطوا عن خيولهم موتاً. وجاء بعقب هذا الثَّلج والرِّيح أمطارٌ كالبحار، وتَيْمور مع ذلك لا يرقُّ لأحد، ولا يبالي بما نزل بالناس، بل يجدُّ في السَّير؛ فما أن وصل تَيْمور إلى مدينة أُترار حتى هلكَ خلقٌ كثيرٌ من قوَّة سيره.

---

(١) ملك الأمراء: من الألقاب التي اصطلح عليها لكفّال الممالك من نواب السلطنة كأكابر النواب بالممالك الشامية ومن في معناهم، وذلك لأنه يقوم مقام الملك في التصرّف والتنفيذ، والأمراء في خدمته كخدمة السلطان. وأكثر ما يُخاطَب به النواب في المكاتبات، وذلك مختصّ بغير المخاطبات السلطانية، فإن السلطان لا يخاطب أحداً منهم بذلك. (صبح الأعشى: ٥/٤٥٥).

(٢) أترار: تقع على ضفة سيحون (سرداريا اليوم في الاتحاد السوفييتي) الشرقية. وكان اسمها باراب أو فاراب، وإليها يُنسب أبو النصر الفارابي. (بلدان الخلافة الشرقية: ٥٢٨، ودائرة المعارف الإسلامية: ٢/٥٥).

ثمَّ أمرَ تَيْمُور أنْ يُستقطرَ لهُ الخمر حتى يَسْتعمله بأدويةٍ حارَّةٍ وأفاويه لدفع البرْد وتقوية الحرارة، فعُمل له ما أرَاد منْ ذلك. فشرَعَ تَيْمُور يستعمله ولا يسألُ عن أخبار عساكره وما هم فيه، إلى أن أثَّرت حرارةُ ذلك وأخذت في إحْراق كبده وأمْعائِه فالتهب مزاجه حتى ضَعُفَ بدنه، وهو يتَجلدُ ويسيرُ السَّيرَ السَّريع، وأطبَّاؤه يعالجونه بتدبير مِزَاجه إلى أن صاروا يضعونَ الثلج على بطنه، لعظم ما به مِن التلهُّب، وهو مطروحٌ مدة ثلاثة أيام. فتِلفتْ كبده، وصار يضطرب، وَلوْنهُ يحمرُّ، ونساؤه وخواصُّه في صُراخ، إلى أن هلك إلى لعْنة الله وسُخطِه، فلبسوا عليه المسوح. ومات ولم يكُنْ معهُ أحد من أولاده سوى حَفيده سلْطان خليل ابن ميران شاه بن تَيْمور، وسلطان حسين ابن أخته، فأرادا كِتمان موته، فلمْ يخف ذلك على الناس؛ فتسلطنَ خَليل المذكور بعد جده تَيْمور، وبذَل الأموال، وعادَ إلى سَمَرْقَنْد برمَّة جدهِ تيْمور. فخَرَجَ النَّاس إلى لِقائهِ لابسِينَ المسوح بأسرهم، وهم يبْكون ويصرخون. ودَخلَ وَرِمَّةُ تَيْمور بين يَديه في تابوت أبنوس، والملوكُ والأمراء وكافة النَّاس مشاةً بين يدَيْهِ، وقد كشفوا رؤوسهم وعليهم المسوح، إلى أنْ دَفنوه على حفيده محمد سلطان بمدرستِه، وأُقيم عليه العزاء أيَّاماً، وقُرئت عنده الختمات، وفُرِّقت الصّدقَات، ومُدّت الحلاواتُ والأسْمِطة بتلك الهِمَم العظيمةِ، ونُشرت أقْمِشته على قبرِه، وعلّقوا سلاحه وأمتِعته على الحيطان حوالَي قبْره، وكلّها ما بينَ مُرصع ومكللٍ ومُزَرْكشٍ، في تِلك القُبّة العظيمة، وعلّقتْ بالقُبّة المذكورة قناديلُ الذَّهب والفضةً، منْ جملتها قنديلٌ منْ ذهبٍ زنَته أَرْبعةُ الآفٍ مثقالٍ ــ وهو رطلٌ بالسَّمرْقَنْديّ، وعشرةُ أرطالٍ بالدِّمشقيّ، وأرْبعونَ رِطلاً بالمصريّ ــ وفُرشت المدْرسة بالبسط الحرير والدِّيباج.

ثمَّ نقلتْ رِمَّتهُ إلى تابوتٍ منْ فولاذٍ عُملَ بشيراز، وهو على قبْرِه إلى الآن، وتُحمَلُ إليه النُّذورة[1] مِنْ الأعمال البعيدة، ويُقْصد قبره للزِّيارة والتَّبرك به، ويأتي قبرَه منْ له حاجةٌ ويدعو عنده.

(١) كذا في الأصل: والمراد: النذور، جمع نَذْر.

وإذا مرَّ على هذه المدْرسة أميرٌ أوْجليلٌ خضعَ ونزل عن فرسه إجلالاً لقبره، لمَا له في صدورهم من الهيبة.

وكان تَيْمور طويل القامة، كبير الجبهة، عظيم الهامة، شديد القوَّة، أبْيض اللَّوْن مُشْرباً بحمرة، عريض الأكتاف، غليظَ الأصابع، مسترسل اللَحية، أشلَّ اليد، أعرج اليمنى، تتوقَّد عيْناه، جهير الصَّوت، لا يهابُ الموت، قد بلغَ الثمانين، وهو مُتمتِّعٌ بحواسهِ وقوَّته.

وكان يكره المزاح ويبغض الكذَّاب، قليل الميل إلى اللهو، على أنَّه كان يُعجِبه الصوت الحسن. وكان نَقْش خاتمه «رستي. رستي» ومعناه: «صدقت. نجوْت». وكان له فراساتٌ عجيبةٌ، وسعْدٌ عظيمٌ، وحظٌ زائدٌ في رعيته. وكان له عزْمٌ ثابتٌ، وفهْمٌ دقيقٌ، محجاجاً سريع الإدْراك، متيِّقظاً يفهمُ الرَّمز ويُدْرك اللَّمحة، ولا يخفى عليه تلبيس ملبِّسٍ. وكان إذا عزم على شيءٍ لا ينثني عنه، لئَلا ينسب إلى قلة الثبات. وكان يقال له صاحبُ قِران الأقاليم السبعة، وقَهْرمان[1] الماء والطين، وقاهر الملوك والسّلاطين. وكان مُغرماً بسماع التّاريخ وقصص الأنبياء عليهم السّلام ليْلاً ونهاراً، حتى صار ـ لكثرة سماعه للتّاريخ ـ يردُّ على القارىء إذا غلط فيها. وكان يحبُّ العلم والعلماء، ويقرِّب السّادة الأشراف، ويدنى أرْباب الفنون والصَّنائع.

وكانَ انبساطه بهيْبة ووقار، وكانَ يباحث أهلَ العلم ويُنصف في بحثه، ويبغضُ الشُّعراء والمضحكين، ويَعتمدُ على أقْوال الأطِّباء والمنجمين، حتى إنَّه كان لا يتحرَّك بحركةٍ إلا باخْتيار فلكيٍّ. وكان يُلازم لَعِبَ الشِّطرنج ـ وقد خرجنا عن المقصودِ في التَّطويل في ترجمة تَيْمور المذكور، استطراداً لِكثرةِ الفائدة، وقد استوعبنا أحواله مُستوْفاةً في «المنهل الصَّافي» فلينظر هنَاك ـ انتهى.

(١) قهرمان: فارسي معرب وهو أمين الملك ووكيله الخاص بتدبير دخله وخرجه (المعجم الوسيط). والمراد أنه مدبِّر الماء والطين، وهما من عناصر التكوين الأساسية التي اصطلح على أنها أربعة: الماء، والهواء، والنار، والطين (التراب). والتلقيب على هذا النحو يتخذ منحى تأليهياً ـ وكان من ألقاب تيمور لنك أيضاً «صاحب الزمان». (الألقاب الإسلامية: ٣٧٢).

أَمْر النِّيل في هذه السَّنة: الماء القديم ذراعان سواء. مبلغُ الزِّيادة ثمانية عشر ذراعاً وثلاثة وعشرون إصبعاً.

السنة الثانية من سلطنة الملك الناصر فرج بن برقوق الثانية على مصر

وهي سنة تسع وثمانمائة.

فيها تُوُفِّيَ الشَّريف بدر الدِّين حسن بن محمد بن حسن الحسنيُّ العلويّ النَّسابة، شيخُ خانقاة بِيبرس، في ليلة السَّبت سادس عشر شوال عن سبع وثمانين سنة.

وتُوُفِّيَ الشيْخُ الإمام العالم بدرُ الدِّين أحمد بن محمد الطُّنبُذيُّ الشافعيُّ، في حادي عشرين شهر رَبيع الأول. وكانَ من أعيان الفُقهاء الشافعية، معدوداً من العلماء الأذكياء، غيْر أنَّه كان مُسرفاً على نفسه، يميلُ إلى اللذَّات التي تهواها النفوس، والتَّهتكات.

قلت: وهو من النوادر على قوْل الحافظ الذهبيِّ؛ فإنه قال: النوادرُ ثلاثةٌ: «شريفٌ سُنّي(١)، ومُحدِّث صوُفيٌّ، وعالم مُتهَتك».

وتُوُفِّيَ الشيخُ الإمامُ العالِم العَلامةُ زادة الخُرزبانيُّ العَجميُّ الحنفيّ، شيخُ الشيوخِ بخَانقاة شَيْخُون، في يوم الأَحد آخر ذي القِعدَة، ودُفن مِنْ يومه بخانقاة شيخون. وكان من أَعيانِ السّادة الحَنفيّة، ولهُ اليدُ الطولى في العلوم العَقليـة والأدبّيات، علاّمة زَمانه في ذلك. استَدْعاه الملكُ الظاهر برْقوق مِنْ بغداد إلى الدّيار المصْرية لعظم صيته. وقَدِم القاَهرةَ وتَصدّى للإقراءِ والتّدريس سنينَ عَدِيدة، وانْتفـع به عامّة الطلبة من كلّ مذهب ــ رحمه الله تعالى. وهو غيـرُ زادة والد الشيـخ مُحبّ الدين الإمام ابن مولانا زادة، وقد تقَدّم ذِكْر ذلكَ في حدود سَنَة تسعين وسبعمائة، واسمه أحمد، وشُهـرته زادة. أمّـا زادة هذا فـإنّ اسمه زادة لا غير.

(١) أي أنه من عادة السادة الأشراف أن يكونوا شيعة علويين تبعاً لمذهب أنسابهم. والاستثناء النادر أن يكون الشريف سنياً على أحد مذاهب السنّة الأربعة، كما هي الحال في الشيخ زادة الخرزباني الآتي ذكره.

وتُوُفِّيَ الأمير ركنُ الدين عمرُ بن قايماز الأستادار، في يوم الاثنين أوَّل شهر رجب. وقد تنقَّل في عدّة وظائف [هي]: شَدُّ الدّواوين، والوَزر، والأستاداريّة ــ غيرَ مرَّة. وهو صاحبُ السَّبيل خارجَ الحُسيْنيَّة، الذي جـدّده زين الدين يحيى الأستادار في زماننا هذا.

وتُوُفِّيَ ملكُ العَرب سيفُ الدِّين نُعير[1] بن حيّار بن مُهنَّا. قتلهُ الأميرُ جَكم منْ عَوض نائِبُ حلَب بقلْعة حَلَب، بَعْد أنْ أمسَكه وسجَنَهُ. وكان من أجلِّ ملوكِ العَرب؛ وقد تقدّم ذكْرُه في عِدّة مواضـعَ منْ هذا التّاريـخ.

وتُوُفِّيَ الأمير ناصرُ الدِّين محمد بنُ سُنقر البكجريّ، أستادار السُّلطان، في جمادى الآخرة بحلَب. وبيْتُ ابن سُنقر بيْتٌ معروفٌ بالرياسة والتَّحشم.

وتُوُفِّيَ قاضي القضاة علاء الدِّين عَليّ ابن قاضي القُضاة بهاء الدِّينِ أبـي البَقاء محمد بنُ عبد البَرّ السُّبْكي الشافعيّ، قاضي قضاة دِمشق، في ليلةِ الأحدِ ثاني عشر شهر ربيـع الآخر بدمشق.

وتـوُفِّيَ الشيـخُ شهابُ الـدين أبو العبَّـاس أحمد بنُ محمـد بن الجـواشنيّ الحنفيّ بدمشق، في ليلة الأحد سادس عشر جُمادى الآخرة.

وتوُفِّيَ الشيـخُ محمد بن أحمد بن محمد المعروفُ بابن فُهَيْد المغربـيّ، في يوم الإثنين رابـع عشرين جمادى الآخرة. وكان للناسِ فيه اعتقاد، وكان له تنسّكٌ وعبِادة. وصحبَ الشيـخَ عبد الله اليَافعيّ وخدمهُ مدةً بمكة. ثمّ قدمَ القَاهرةَ، وصحِبَ الأميرَ طَشْتَمُر العلائيّ الدّوادار في أيَّام الأشرفِ شعبان، فنوَّه طَشْتَمُر بذكرهِ حتى صار يُعدّ منَ الأعيان الأغنياء إلى أن مات.

وتـوُفيَ قاضي القضـاة زيْنُ الدين أبـو هريـرة عبـدُ الـرحمن بن يـوسف بن أحمد بن الحسن بن سليمان بن فَزارة بن بدْر بن محمد بن يُوسف الكَفري ــ بِفَتح الكاف ــ الحنفيّ قـاضي قضـاة دِمشق ثمَّ الدِّيار المصْريَّة، في ثالث شهر ربيع

(١) واسمه محمد بن حيّار بن مهنا بن مانع بن حديثة.

الآخر. ومَوْلِدُه في سَنة خَمسين وسَبعمائة. وَأحضَر عَلَى محمد بن إسْمَاعيل بن الخباز، وسمع على بشْر بن إبراهيم بن محمود البعلبكيّ، وتفَقّه بعلماء عَصْره حتى برَع في الفْقه والأصلَيْن والعربية، وشاركَ في عدّة فُنون، وأفتى ودَرَّس، وتولّى قضاء دِمشق هو وأبوه وأخوه وجدّه. ثم قدِم القَاهرة في سنة ثلاث وثمانمائة أو بعدها بِيسير، ووَلي قضاء الدّيار المصرية، وحُمدتْ سيرته إلى أنْ مات ـ رحمه الله تعالى.

أمْرُ النِّيل في هذه السَّنة: الماء القديمُ ذراعان ونصف. مبلغُ الزيادة تسعة عشر ذراعاً ونصف.

السنة الثالثة من سلطنة الملك الناصر فرج بن برقوق الثانية على مصر

وهي سنة عشر وثمانمائة.

فيها تجرّد السلطان إلى البلاد الشامية سفرته الرّابعة التي أمسَك فيها الأمير شيْخاً المحموديّ، والأتابَك يَشْبُك الشَّعبانيّ، ثم فرَّا من سجن قلعة دمشق حسبمَا تقدم.

وفيها تُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين سُودُون بن عبد الله الظاهريّ المعروف بالطَّيَّار، أميرُ سلاح، في ليلة الثلاثاء ثامن عشرين شوَّال، وحضَر السّلطانُ الملكُ النَّاصرُ الصلاة عليه بمصلاة المؤمني. وكانَ مشكُورَ السيرة، شجاعاً يُندبُ للمهمَّات، ولهُ محبةٌ في أَهل العلم والصلاح. وسُمِّي بالطيّار لأنه خرَج مِنْ دِيار مِصر في ليلة مَوكبٍ وَوَصَل إلى دمشق، ثمّ عاد إلى مِصر في ليلة موكب آخر على خَيْل البريد، ومعهُ دواداره الأميرُ أَسَنْبُغَا الطَّيَّاري؛ وهذا السَّيرُ لم يُسمع بمثله فيما مضى من الأعصْار منْ أنه يَقْطع ثمانين بريداً في نحو أربعة أيَّام. وهذا الخبر مُستفاضٌ بين النَّاس يعرفه كل أحد؛ غير أنني لم أسْأَل عنْ ذلكَ من الأمير أَسَنْبُغَا الطَّيَّاريّ المذكور تهاوُناً حتى مات، غير أنّ وَلدهُ الشهابي أحمد أخبرني بذلك هو وغيرُه ـ انتهى.

وتُوُفِّيَ الشيخُ الإمَامُ العالم العلاّمة فريدُ عصْره سيفُ الدين يوسف

ابن محمد بن عيسى السيراميّ العَجميّ الحنفيّ شيخ الشيوخ بالمدرسة الظاهرية البرْقوقيّة ببيْن القصرين، في ليلة السبت حادي عشرين شهر ربيع الأوّل بالقَاهرة. وكان مَنْشؤه بتبريز، وأقامَ بها حتى طرقها تَيْمُورلنك، فخرَج منها وسار إلى حلَب وأقام بها إلى أن استدعاه الملك الظّاهر برْقوق، وقرّره في مشيخة مَدرسة البرقوقية ببين القصرين بعد وفاة العّلامة علاء الدين السيرَاميّ في سنة تسعين وسبعمائة، فدام بها إلى أنْ مَات في هذه السّنة. وتولى المشيخة بعده ولدُه العّلامة نظام الدين يحيى، الآتي ذكر وفاته في سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة.

وتُوُفّيَ الأميرُ سيف الدين شاهين بن عبد الله الظاهريّ، أحد مقدمي الألوف بالديار المصرية ــ المعروف بقصقا بن قصير ــ في ليلة الجمعة ثامن ذي القعدة. وكان من أشرار القوم القائمين في الفِتن، وفرح السلطانُ بموته.

وتُوُفّيَ الأميرَ الطواشيّ زينُ الدين مُقبِلُ بن عبد الله [الظّاهري المعروف] بالروميّ، زمَام الدّار السلطانيّ، في يوم السبت أوّل ذي الحجة، وترك مَالاً كثيراً. وهو صاَحِب المدرسة بخط البندقيِّين من القاهرة، ويُقَام بها خطبة وجُمعة.

وتُوُفّيَ شمسُ الدّين محمد الشّاذليّ الإسكندريّ مُحتسب القاهرة ومصر في يوم الجمعة ثاني صفر.

قالَ الشيخُ تقي الدين المقريزيّ: وكان عَارياً من العلوم، كان خُرْدَفوشِيًّا[1] بالإسكندرية فترّقى بالبذل والبَرْطيل ــ انتهى.

وتُوُفّيَ الأمير ناصر الدين محمد ابن الأمير جمال الدين محمود الأستادار ــ قتيلاً ــ بِالقَاهرة. وكان من جُملة أُمَرَاء الطبلخانَات في حيَاةِ والدِه، وَولِي نِيابة الإسكندريَّة، ثمَّ نُكِب مع والده، وصُودر، وأُطلقَ بَعْد مُدَّةٍ إلى أن اختفى بَعْد

(١) الخردفوشي والخردجي: هو تاجر الأدوات المعدنية القديمة، أو بائع الأشياء الدقيقة الصنع. وتجمع على خردفوشيّة وخردجيّة. وهي من الفارسية «خردة» وتعني الشيء الصغير، والشيء غير الهام، والشيء الدقيق اللطيف. ويستعملها الترك بالإضافة إلى هذه الاستعمالات اسماً للأدوات المعدنية القديمة. (معجم دوزي ــ وتأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل: ٨٧).

وقعةِ علي باي لأمْر أوْجَب ذلك. وهَرب إلى الشام، وأقامَ به مُدَّة. ثمَّ قَدِمَ إلى القَاهرة مُتنكِّراً، فَدُلَّ عليه، فأخِذَ وقُتل وكانَ غير مشْكور السِّيرة.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سَيفُ الدين سُودون بنُ عبد الله الحمزاوي الظاهري الدَّوادَار الكبير بسيْفِ الشَّرْع بالقَاهرة. وكانَ أصله من ممـاليك الملك الـظَّاهر بـرْقُوق وخاصكيته، ثمَّ تَرَّقى بعد مَوْته إلى أنْ وَلِيَ نيابَة صَفَد بعد أُمُورٍ وَقَعَتْ له بمصر، فَدَام بصفَد مُدّة إلى أنْ طُلب إلى مصر. واستَقَرَّ خازنداراً، ثمّ شَادّ الشـراب خانَاة، ثمّ صَار دَوادَاراً كبيراً بعْد خُروج الملكِ النّاصر فرج من بيْته وعوْدِه إلى الملك، عوضاً عن سُودُون المارِداني؛ ودَامَ على ذلك إلى أن خرَج الملكُ الناصر إلى البلادِ الشَّامية وعاد، فتخلف عنه سودون الحمزاوي هذا مُغَاضباً له. ودَامَ بالبلاد الشّاميّة إلى أن قدِمَ غَزَّة هُووجماعة من الأمراء. وطرَقهم الأميرُ شيـخٌ المحموديُّ، فوَاقُعوه، فقُتلَ إينَالُ بَاي بنُ قُجْماس وغيرُه من الأمراء، وُقبض على سوُدُون هَذا بعد أنْ قُلِعتْ عينُه. وسَجنَهُ شيْـخٌ، إلى أنْ تَجرَّدَ الملكُ النَّاصِر إلى الشَّام أخَذَه وعادَ به إلى مصر، وطلَبَ القضاةَ وأثبتَ عِندهم إراقة دَمِه لِقتله إنساناً ظلماً؛ فقُتل في شهر ربيـع الآخر، وقُتل معه دَوادَاره بَرْبُغا. وسُودُون الحمزاوي هذَا هو أستَاذ الأمير قاني باي الحمزاوي نائِب دِمشق الآن.

ثمَّ قتلَ السلطانُ جماعةً من الأمراء ممن كـان قبض عليهم وهم: الأميرُ آقبردي، والأمير جُمَق، والأميرُ أسَنْباي التركماني، والأمير أسَنْباي أمير آخور؛ وقد تقدّمَ ذكرُ قتل الجميـع في ترجمة الملك الناصر، غير أنَّناَ نذكُرُهم هنا ثانياً كَوْنَ هذا المحل مَظِنَّة الكَشْف عن ذلك.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سَيْفُ الدين مَنْطُوق نائب قلعة دِمَشْق، قتيلاً. وسَبَبُ قتلِهِ أنَّ الملكَ الناصرَ لمّا أمْسك شيخاً ويَشْبُك وحَبَسَهُما عنده بقلعـة دمشق، أطْلَقهما [منطوق]، ونَزَل الجميـعُ إلى مدينة دِمَشْق؛ فاختفَى شيـخٌ بالمدينة وخرجَ مَنْطُوقٌ هذا ويَشْبُك. فنَدَب إليهم الملكُ الناصرُ الأميرَ بَيْغوت، فلحِق بَيْغوتُ مَنْطوقاً هذا لِثقَلِ بَدنِه، وفرّ يَشبُك، فقَطـع بَيْغوتُ رأسَه وحملَه إلى الملكِ الناصر.

وفيها أيضاً قُتِلَ الأتابك يَشْبُك الشَّعبانِيّ، والأمير جَرْكَس القاسِميّ المُصارع؛ قتلهما الأمير نوروز الحافظي على بعلبك في شهر ربيع الآخر. وقد مرت كيفية قتلَهما مُفصَّلةً في ترجمة الملكِ النّاصر فلا حاجة للتكرار هنا ثانياً. وكلّ منهما قدْ مرَّ ذِكْره في ترجمة الملكِ النّاصر في غيْر موْضع، وأيْضاً ففي شُهْرَتِهما ما يُغني عن ذكرهما. انتهى.

أَمْرُ النّيل في هذه السنة: الماء القديم ثلاثة أذرع ونصف. مَبْلَغُ الزّيادة تسعة عشر ذراعاً وعشْرَةُ أصابع.

السنة الرابعة من سلطنة الملك الناصر فرج بن برقوق الثانية على مصر

وهي سنة إحدى عشرة وثمانمائة.

فيها تُوُفِّي قاضي القضاة كمالُ الدين أبو حفص عُمَر بن إبراهيم بن محمد الحلبيّ الحنفي ابن أبي جَرادة، المعروفُ بابن العَديم، قاضي قضاة حَلب ثمَّ الدّيار المصريّة بها ــ وهو قاض ــ في ليلة السبت ثاني عشر جمادى الآخرة. ومولِدُه بحَلَب في سنة إحدى وسبعين وسبعمائة. ودُفن بالحُوش المجاوِر لتُرْبة طَشْتَمُر حمّص أخضر بالصّحراء. وتَوَلّى القضاءَ من بعدِه ابنُه قاضي القضاة ناصرُ الدين محمد بِسِفارة الوالد، لكونه كان مُتزوِّجاً بإحدى أخواتي[1]. وكان القاضي كمالُ الدّين المذكُورُ رئيساً عالماً فاضلاً حَشِماً، وجيهاً عند الملوك وقُوراً، وله مكارِم وأفْضال. وقَدْ ثَلَبَهُ الشيخ تقيُّ الدّين المَقْرِيزِيّ بأمورٍ هو بري عنْها، لأمرٍ كان بينَهما ــ عفَى الله عنهما.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدّين يَلْبُغا بن عبد الله السَّالميّ الظاهري الأستادار ــ خنقاً ــ بعد عصر يوم الجمعة بسجن الإسكندرية. قال المقريزي: «وكان مخلطاً، خلط العمل الصالح بالعمل السّيّىء» وساق حكاياته في عدة أسطر، وقد

(١) هي أخت المؤلف الشقيقة، وتدعى بيرم. توفيت سنة ٨٢٦هـ. وقد تزوجت بالقاضي الحنفي ناصر الدين بن العديم المشار إليه والذي توفي عنها سنة ٨١٩هـ. فتزوجت بعده بالقاضي الشافعي جلال الدين البلقيني الذي توفي سنة ٨٢٤هـ. وفي كنف أخته تلك وزوجيها تربّى وتعلم أبو المحاسن وذلك بعد موت والده الأمير تغري بردي نائب الشام.

ذكرنا معنى كلامه وأزيد في حق السالميّ في تَرْجَمة الملكِ الظَّاهر برقوق، ثمّ في ترجمة الملك النّاصر مُفصَّلاً إلى يوْمِ وفـاتِه، وفي ذلـك كِفايـةٌ عن الإعادة. وهو مِمَّن قتلَه جمالُ الدّين الأسْتادار. وكان يَلْبُغا المذكورُ له همّةٌ عالية، ومعرِفَةٌ تامّة، وعقْلٌ وتدْبيرٌ، مـعَ دِينٍ وعبادةٍ هائلَةٍ، وعِفَّةٍ عن المُنْكَرات والفُرُوج. وقدْ وَلِيَ الأسْتاداريّة غيرَ مرّة، ونفذ الأمورَ على أعْظم وجهٍ وأتمّ حُرمةٍ، حسبَما تقدَّم ذِكره.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدّين بَشْباي بن عبد الله من باكِي الظَّاهريّ رأس نَوْبة النّوب في ليلة الأربعاء رابـع عشرين جُمادى الآخرة، ودُفِنَ بالقَرافة. وهو أحد أعيان المماليك الظّاهريّة الخاصكيّة، وترقّى مِنْ بعده إلى أن صارَ حاجباً بدِمشْق، ثُمَّ حاجباً ثانياً بمِصْر، ثمّ وَلِي حُجوبيّة الحُجَّاب بها، ثمّ نُقِل إلى رأس نَوْبة النُّوب. وكان مِنْ أعيان الأمراء وأكابر المماليك الظّاهرية، غير أنّ المقريزيّ لمّا ذَكر وفاتَه قال: وكان ظالِماً غشوماً غَيرَ مشْكُورِ السِّيرَة ـ انتهى.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين أرِسْطاي بن عبد الله [الظاهري] رأسُ نَوْبة النّوب ـ كان ـ ثمَّ نائبُ إسكندريّة بها، في نصف شهر ربيـع الآخر. وكان جليل القَدْر، عاقِلاً سيوساً. طالَت أيّامُه في السعادة، إلّا أنه كان يرتفـع ثُمَّ ينْحطُّ، وقَـع له ذلك غير مرّة.

وتُوُفِّيَ الأميرُ الكبيرُ ركنُ الدين بِيبَرْس بن عبد الله، وابن أُختِ الملكِ الظَّاهر برقوق ـ قتيلاً ـ بسجن الإسكندريّة؛ وقُتل معه الأمير سُودون المارْدانيّ الدّوَادار الكبير، والأميرُ بَيْغوت نائب الشّامِ ـ كانَ. وقدْ مرَّ من ذكر هؤلاء الثّلاثة نبذةٌ كبيرة تُعرَفُ منها أحوالُهم لا سِيمّا عند خلـع الملك النّاصر فرج وسَلْطنةِ أخيه المنصور عبد العزيز.

وتُوُفِّيَ الشّريفُ ثابت بن نُعَير بن منصور بن جَمَّاز بن شِيحة الحُسيْنيّ، أميرُ المدينة النبوِيّة ـ عَلَى ساِكنها أفْضلُ الصَّلاَةِ والسلام ـ في صفَر. وتولّى إمْرَة المدينة من بعده أخوه عَجْلان بنُ نُعْير.

وتـُوُفِّيَ الوزيـرُ الصّاحب فخـرُ الدّين مـاجد ـ ويُسمّى أيضـاً محمد ـ بن

عبد الرَّزَّاق بن غُراب في عشر ذي الحجّة ـ مقتولاً ـ بيدِ جمالِ الدين الأُسْتادار. وكانَ فخرُ الدّين هذا أَسَنَّ من سَعْدِ الدين أخيه، غيْر أنّ سعدَ الدين كان نوعاً وهذا نوعٌ آخر: كان فيه حِدّةُ مِزاج، وشراسةُ خلُق، بِضدِّ ما كان في أخيه سَعدِ الدين. وكان يَلْثَغُ بالجِيم، يجعلُها زاياً، فكان إذا طلَب أحداً يقول: «جِبُّوا إليّ» ويُكرِّرُها، وهو يبدِّل الجيمَ بالزَّاي، فتضْحكُ الناس من ذلك أوْقاتاً. وقد تنقَّلَ في عدّة وظائف كالْوَزَر، ونظرِ الجيْش، والخاصّ فيما أظنّ.

وتُوُفِّيَ الأديب شمسُ الدين محمد بن إبراهيم بن بَرَكة العَبْدَليّ الدِّمَشْقيّ الشّهير بالمُزَيِّن، الشاعر المشهور، في شعبان. ومَوْلدُه في سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة بدِمَشْق. قال لي غير واحدٍ من أصحابهِ: كان شيْخاً ظريفاً فاضلاً أديباً، معاشراً للأكابر والأعيْان، ورأى الشَّيخ جمال الدين محمد بن نُباتة، وابنَ الورْديّ، والصَّفَدِيّ وغيرَهم. وكان له شِعْرٌ رائق، من ذلك: أنْشَدنا الشيخ جمالُ الدين عبد الله الدِّمَشْقِيّ قال: أنْشَدني الأديب شَمْسُ الدين المُزَيّن منْ لَفْظِه لِنفْسه: [الوافر]

تَقُولُ مِخَدّتِي لَمَّا اضْطَجَعْنَا … وَوَسَّدَنِي حَبِيبُ القَلْبِ زَنْدَه
قَصدْتُم عِنْد طِيبِ الوَصْلِ هَجْرِي … خُذُونِي تَحْتَ رَأْسِكُمُ مِخَدَّه

وله في دَوَاة: [السريع]

أَنا دَوَاةٌ يضحكُ الجُودُ مِنْ … بُكَا يَرَاعِي جَلَّ مَنْ قَدْ بَرَاهُ
دُلّوا عَلَى جُودِيَ مَنْ مَسَّهُ … دَاءٌ مِنَ الفَقْرِ فإنّي دَوَاهُ

قلت: وهذا يشبه قولَ القائل، ولم أدر مَن السَّابق لهذا المعنى: [السريع]

هَذِي دَوَاةٌ لِلْعَطَا والسَّخا … ومَنْبعُ الخَيْرِ وبَحْرُ الحَياه
قَدْ فَتَحتْ فاهَا وقَالَتْ لَنا … مَنْ مَسَّهُ الفَقْرُ فإنِّي دَوَاه

أمْرُ النيل في هذه السنة: الماء القديم أربعةُ أذرع سواءً مبلغ الزِّيادة سبعة عشر ذراعاً وإصْبَعٌ واحد.

السنة الخامسة من سلطنة الملك الناصر فرج بن برقوق الثانية على مصر

وهي سنة اثنتي عشرة وثمانمائة.

فيها تجرَّدَ الملكُ النّاصر إلى البلاد الشامية تجريدَته الخامسة التي حصر فيها الأمير شَيْخاً ورفْقتَه بصَرْخَد.

وفيها كانت قَتْلَةُ جمال الدين يوسف بن أحمد بن محمد بن أحمد بن جعفر بن قاسم البِيريّ البَجاسيّ الأسْتادار، في ليلة الثلاثاء حادي عشر جُمادى الآخرة، بَعْدما أُخِذ منه نيِّفٌ على أَلْفِ أَلْفِ دينار في أيّام مصادرتِه، وهو تحْتَ العقوبة على نفذات[١] متفرِّقة. وقد تقدم ذكر مسْكِه في ترجمة الملكِ الناصر فرج عند قدومِهِ منَ الشّام بمدينة بُلْبَيْس. وكان ظالماً جبَّاراً سفَّاكاً للدِّماء مِقْداماً. وكان أعورَ قصيراً دميماً كرِه المنْظر. وكان أوّلاً يَتـزيّا بزيِّ الفُقهاء، ثمَّ تزيَّا بزيّ الجُند، وخدم بلاصيًّا[٢] [عند الشيخ علي كاشف، ثمَّ عند غيره][٣]، ولا زال يترقَّى حتى كان مِنْ أمره ما كان. وهو أحد مَنْ كان سبباً لخراب البلاد، منْ كثْرةِ ما قتل من مشايخ العربان وأرباب الأدْراك[٤]، واستولى على أموالهم. وأمّا من قتله مَنَ الكتَّاب والأعيْان فلا يُحْصى ذلك كثرةً، وحسابه على الله تعالى.

وتُوُفِّيَ الشيخُ الإمامُ العالم العلاّمة نصْرُ الله بن أحمد بن محمد بن عمر الشُّشْتَريّ البغداديّ الحنبليّ مدرس المدرسة الظاهرية ــ بَرْقوق ــ بالقاهرة في حادي عِشرين صَفر. وكان إماماً عالمِاً فقيهاً مُحدِّثاً. أَفتَى ودرَّس سنين ببغداد، ثمَّ بالقاهرة. وهو والدُ قاضي القضاة عالمِ زماننا محبِّ الدين أحمد بنِ نصر الله الآتي ذكره في محله إن شاء الله تعالى.

---

(١) المراد: على دفعات متفرقة. واللفظ عامي، ولا يزال مستعملاً بهذا المعنى إلى اليوم. ويقال أيضاً: «نفدة» بالدال المهملة.

(٢) راجع ص٥٧ من هذا الجزء، حاشية (١).

(٣) زيادة عن المنهل الصافي للمؤلف.

(٤) أرباب الأدراك: هم الجند أو الخفراء الذين يكلفون بحراسة الدرك. والدرك هو مكان معينّ تكون حراسته بالتناوب. (انظر صبح الأعشى: ١٢/٤٦٤).

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين آقْباي بن عبد الله الطُّرُنْطائِيّ الظاهريّ رأسُ نوبةِ الأمراء، المعروف بآقباي الحاجب ـ لِطولِ مُكْثِه في الحُجوبيَّة ـ في ليلة الأربعاء سابع عشر جُمادى الآخرة. ونزَل السّلطانُ الملك النّاصر إلى دارِه، ثمَّ تقدَّم راكباً إلى مُصلاّةِ المؤْمِنِيّ فصلَّى عليه، ثمَّ شَهد دفنَه. وترك آقْبايُ مالاً كثيراً، أخذ الملكُ النَّاصر غالبَه. وكان آقبايُ المذكور عاقلاً، سَيوساً عفيفاً عن المنكرات، إلاَّ أنَّه كان بخيلاً شَرِهاً في جَمْع المال.

وتُوُفِّيَ الأمير سيْفُ الدين طُوخُ بنُ عبد الله [الظاهري] الخازِندار، وهو أميرُ مجلس، في آخر جُمادى الآخرة بالقاهرة ــ والعامَّة تُسَمِّي طوخ هذا «طُوق الخازِنْدار». وكان من أعيْانِ الأمراء، وله الكلمةُ في الدَّوْلة.

وتُوُفِّي الأميرُ سيفُ الدين بَلَاط بنُ عبد الله، أحدُ مقدّمي الألوف بالدِّيار المصريّة، مقتولاً بالإسكندرية. لَمْ أقِفْ له على ترجمة[1] ولم أعْرِف مِنْ حالهِ شيئاً غير ما ذكَرْتُ.

وتُوُفِّيَ السَّيِّدُ الشَّريفُ جمَّاز بن هبة الله بن جمَّاز بن منصور الحُسَيْنِيّ أميرُ المدينة النَّبوِيَّة ــ مقتولاً ــ في جُمادى الآخرة بالفلاة، وهو في عَشْرِ السِّتين. وكان وَلِيَ إمْرَةَ المدينة ثلاث مِرار، آخِرها في سنة خَمْسٍ وثمانمائة.

وتُوُفِّي الشيخُ شمسُ الدين محمد بن عبد الله بن أبي بكر القليوبيّ الشَّافعيّ شيخ شيوخ خانقاة سِرْياقوس ــ بها ــ في يوم الخميس ثاني عشرين جمادى الأولى. وكان فقيهاً فاضلاً، وله مشاركةٌ في فنون.

وتوفِّي السَّيد الشريفُ أحمد بن ثُقبة بن رُميثة بن أبي نُميّ الحسنيّ المكيّ بمكة في المحرم. وكان الشريفُ عنان بن مُغامس في ولايته الأولى على مكة أشركه

(١) ترجم له السخاوي في الضوء اللامع: ٣/١٨ ترجمة قصيرة مبتورة. قال: «بلاط بن عبد الله القجماسي سيف الدين أمير مجلس. سمع على الغماري في سنة ٨٠٢هـ بعض البخاري، وأثبت البقاعي اسمه في شيوخه. مات في.» كذا!

معه، ثم وقَـع له أمورٌ حتى مات وهو مكحول[١]. وكان ابنُ أخته الشريفُ محمد بنُ عجلان، وكُبَيْش بن عجلان قد خافا منه فأكحلاه، وقُتِل ابن أُخته المذكور بعد ثلاثة أشهر، وكُبَيْش المذكور بعد ستة أشهر.

وتُوفِّي أمير زة[٢] محمد بن أمير زة عُمر شيخ ابن الطاغيـة تَيْمُورلَنْك في المحرم ــ مقتولاً ــ على يد بعض وُزرائه. وكان مشكور السيرة، وقام من بعده بمملكة جغتاي[٣] أخوه أمير زة إسكندر شاه بن عمر شيـخ بن تَيْمورلنـك. ومن غريب الاتّفاق أن إسكندر شاه المذكور، لمَّا ملك بعد قتل أخيه محمد المُقدَّم ذكرُه أحضر من كان عمل على قتله، ووبخهُ في الملأ، فأجابه الرجلُ بأن قال: «وما عملتُ معك إلا خيراً؛ لولا قتلتُه ما نابَكَ المُلك» فأسرعَ إسكندر شاه بقتله خوفاً من أن يتهمه أحدٌ بقتل أخيه المذكور في الباطن.

أمرُ النيل في هذه السنة: الماء القديمُ خمسةُ أذرُع سواء، مبلـغُ الزّيادة عشرون ذراعاً سواء.

السنة السادسة من سلطنة الملك الناصر فرج بن برقوق الثانية على مصر

وهي سنة ثلاثة عشرة وثمانمائة.

فيها كان الطاعون بالديار المصريّة، ومات منه عدة كبيرة من الناس.

وفيها تَجَرَّدَ السّلطانُ الملكُ الناصرُ إلى البلاد الشّامية تجريدته السادسة، وحاصر شيخاً ونَوْرُوزاً بالكرك بعد أن وصل فيها إلى أُبُلُسْتَيْن وعاد.

وفيها استقرَّ الوالدُ في نيابة الشام ثالثَ مرَّة، واستقرَّ شيـخٌ في نيابة حلب، ونَوْرُوز في نيابة طرابلس.

---

(١) الكحل: عقوبة، وهي أن يُحَمّى المرود على النار ويُمّر به بين جفني الشخص المعاقَب، فيذهب بصره. (المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك: ١٠٠).

(٢) في معجم زامباور: «پيرمحمد بن عمر شيخ» ــ وجاء في دائرة المعارف الإسلامية أن الاسم المركب بيري محمد» كان مألوفاً حتى القرن السادس عشر الميلادي، وهوقريب من معنى «محيي الدين». (دائرة المعارف: ٩/١٠).

(٣) اقتصر حكم پير محمد من مملكة الجغتاي على فارس وسجستان. (معجم زامباور).

وفيها تُوُفِّي الرئيسُ مجد الدين عبد الغني بنُ الهيصم، ناظر الخواص الشريفة بالديار المصرية في ليلة الأربعاء العشرين من شعبان بعد قدومه من دمشق بأيام وهو والد الصاحب أمين الدين إبراهيم بن الهيصم وأخو الصّاحب تاج الدين عبد الرزّاق الآتي ذكرهما في محلهما.

وتُوُفِّي الأميرُ سيفُ الدين قُجَاجُق بن عبد الله [الظاهري] الدَّوادار الكبير، في سادس المحرّم، ودُفن بتُربته التي أنشأها بالصحراء. وكان من أصاغر خاصّكية الملك الظاهر برقوق ومماليكه، وترقى في الدولة الناصرية حتى ولي الدّوادارية الكُبرى بعد الأمير سودُون الحمزاويّ. وكان مليح الشكل، لم يُشهر بشجاعةٍ ولا إقدام. ولهذا المعنى، ولعدم شرِّه رقّاه الملك الناصرُ واختص به. حضر مرَّة عند جمال الدين البيريّ الأستادار، وكان بينهُما صحبة أكيدةٌ، وكان بإحدى عيني جمال الدين خَللٌ، فجلس قُجاجقُ بعد أن سلمَّ على جمال الدين من جهة عينه الذَّاهبة، واشتغل جمالُ الدين بمباشرته بسرعة لأجل قُجاجُق المذكور، وأخذ يكتب على القصص ويرميها ليُنْهي أمره، فأخذ قُجاجُق قصةً منها ورمَّل عليها، فعرف أصحابُ جمال الدين ما فعله قُجاجُق المذكور، فقام إليه وأهوى على يده ليقبّلها ثم قدَّم له تقدمةً هائلة. وتكلَّم الناس بهذه الحكاية، فصار من هو أجنبي عن الرياسة ومُداخلة الملُوك، وعديمُ المعرفة برُتب أرباب الوظائف يقول: «كان قُجاجُق يُرمِّلُ على جمال الدين» وكيف ذلك والدّوادار الكبير لا يُرمِّل على السُّلطان، وإنما يُرمِّل على كتابة السلطان رأسُ نوبة النّوب؟! وفي هذا كفاية. وبالجملة فإن هذه الحكاية تدل على أن قُجاجُق كان ساقط المروءة، لأن قَرْدَم الخازندار كان أنزل رُتبةً من قُجاجُق ولم يدخل إلى جمال الدين ولم يسأله حاجةً في عُمره، وعجز جمال الدين في ترضّيه، فلم يرض ولم يدخل إليه؛ فأين هذا من ذاك؟! ــ انتهى.

وتُوُفِّي قاضي القضاة تقيُّ الدين عبد الرحمن بن تاج الرياسة محمد بن عبد الناصر المحليّ الدّميريّ الزُّبيريّ الشافعيّ في يوم الأحد أوَّل شهر رمضان. ومولدهُ في سنة أربع وثلاثين وسبعمائة. ولي قضاء الديار المصرية بعد الصدر

المُناويّ نحو ثلاث سنين، وحسُنت سيرتُه لمعرفته بالشروط والأحكام، ولعفته أيضاً عن كل قبيح. وكان نشأ ببلده بالزُّبيريات من قُرى الغربية من أعمال القاهرة، وسلك النواحي، وطلب العلم، وسمع على أبي الفتح الميدوميّ وغيره، وقرأ على أبيه القراءات وغيره، وتفقّه بجماعة. ثم قَدِم القاهرة، وتزوَّج بابنة قاضي القضاة مُوفّق الدين عبد الله الحنبليّ، وباشر توقيع الحُكم مدَّة طويلة. ثم ناب في الحُكم عن القضاة بالقاهرة دهراً، وعلا سنّه، وعُرف بالديانة والصّيانة، إلى أن طلبه الملكُ الظاهر برقوق في يوم الخميس ثالث عشرين جمادى الأولى سنة تسع وتسعين وسبعمائة على حين غفلة، وفوّض إليه قضاء القضاة الشافعية عوضاً عن المُناويّ بحكم عزله. ودام في القضاء حتى صُرف أيضاً بالمُناويّ في شهر رجب سنة إحدى وثمانمائة، فلزم المذكور داره، وترك ركوب البغلة وصار يمشي في الطُّرقات، وطرح الاحتشام إلى أن مات ــ رحمه الله ــ ودفن بتربة الصُّوفية خارج القاهرة.

وتُوُفِّي ملكُ الروم سليمان بن أبي يزيد بن عثمان مقتولاً. وملكَ بعده أخوه موسى الجزيرة الرُّومية وأعمالها، وملك محمد بن عثمان العِزْنة[1] الخضراء وأعمالها، ويقال لها بالرُّومية بُرْصا.

وتُوُفِّي الأميرُ زين الدين قَرَاجا بن عبد الله الظاهريّ الدوادار الكبير بمنزلة الصالحية ــ مُتوجهاً مع السلطان الملك الناصر إلى دمشق ــ في يوم الأربعاء ثالث عشر شهر ربيع الآخر، ودفن بها. وكان أصلُه من خاصّكيّة الملك الظاهر برقوق، ثم صار بَجْمَقْدَاراً[2]، وعُرف بقَرَاجا البَجْمَقْدار. ثم تأمَّر في الدولة الناصرية ــ فرج ــ وترقى حتى صار شاد الشراب خاناه. ثم ولي الدوادارية الكبرى بعد موت قُجاجُق، فلم تطُلْ مُدَّتُه فيها، ولزم الفراش إلى أن خرج صُحبة السّلطان في محفةٍ ومات بالصالحية. وكان أميراً عاقلاً ساكناً مشكور السيرة.

(١) كذا بالأصل. وفي السلوك: «القرية الخضراء».

(٢) هو الذي يحمل نعل السلطان أو الأمير. ــ راجع فهرس المصطلحات.

وتُوُفِّي شمس الدين محمد بن عبد الخالق المُناوي، المعروف ببدنة وبالطَّويل أيضاً، في شهر رجب، بعدما وَلِي حسبة القاهرة، ووكالة بيت المال، ونظر الكُسوة، ونظر الأوقاف ــ الجميع بالسعي والبذل. وكان عارياً من العلم.

وتُوفِّي الأمير سيفُ الدين قَرَاتَنبك بن عبد الله الظاهريّ الحاجب، أحد أُمراء الطَّبلخانات بالديار المصرية ــ بها ــ في أوّل شوَّال. وكان ممن ترقَّى في الدولة الناصرية في أيام الفتن.

وتُوُفِّي القان غياثُ الدين أحمد ابن الشيخ أويس ابن الشيخ حسن ابن الشيخ حُسين بن آقبُغَا بن إيلكان، صاحبُ بغداد والعراق ــ مقتولاً ــ في ليلة الأحد آخر شهر ربيع الآخر. وكان أول سلطنته بعد وفاة أبيه في صفر سنة أربع وثمانين وسبعمائة. وقد نُكب في مُلكه غير مرّة، وقَدِمَ القاهرة في دولة الملك الظاهر بَرْقُوق. وقد تقدّم ذكرُ قدُومه إلى القاهرة، وتلقِّي الملك الظاهر له، وأيضاً ذكرُ خُروجه وسفر السلطان معُه إلى البلاد الشّامية، كلّ ذلك في ترجمة الملك الظّاهر برْقُوق الثانية، فلينظر هُناك(١) فإن فيه مُلحاً. ثم إنّ السلطان أحمد هذا قَدِمَ إلى دمشق ثانياً في الدولة النّاصريّة ــ فرج ــ فقبض عليه الأميرُ شيخٌ المحموديّ نائب الشّام وحبسهُ بقلعة دمشق مُدّة إلى أن أطلقه وعاد إلى بلاده. ووقع له أُمورٌ حكيناها في ترجمته في تاريخنا «المنهل الصّافي والمستوفى بعد الوافي» مُفصلاً إلى أن مات.

وكان القان أحمدُ هذا ملكاً جليلاً شُجاعاً كريماً، فصيحاً باللُّغات الثلاث: العربية والعجمية والتركية، وينظِمُ فيها الشعر الحسن. وكان يُحبُّ اللهو والطَّرب، ويُحسن تأدِّي الموسيقى إلى الغاية، ولهُ فيه أيضاً التصانيف اللطيفة. غير أنه كان مُسرفاً على نفسه جداً، سفّاكاً للدماء، مُنعكفاً على المعاصي ــ سامحهُ الله تعالى. ومما يُنسبُ إليه من الشِّعر باللغة العربية قوله ــ رحمه الله ــ في محموم:
[الكامل]

(١) راجع الجزء ١٢/٤٣ ــ ٥٨.

خُمَّـاك مـا قـربت جِمَـاكَ لعلةٍ إلّا تـرُومُ وَتَشْتـهي مـا أشْتـهي
لو لم تكُنْ مشغوفةً بكَ في الهوى مـا عـانَقتـك وقبَّلتْ فـاكَ الشهي

أمرُ النيل في هذه السنة:

أمرُ النيل في هذه السنة: الماءُ القديمُ سبعةُ أذرع سواء. مبلـغُ الزيادة تسعة عشر ذراعاً وأحد وعشرون إصبعاً.

☆ ☆ ☆

السنة السابعة من سلطنة الملك الناصر فرج بن برقوق الثانية على مصر

وهي سنة أربـع عشرة وثمانمائة.

فيها تجرد السّلطانُ إلى البلاد الشّامية تجريدته السابعة، وهي التي قُتل فيها في أوائل سنة خمس عشرة وثمانمائة ــ حسبما تقدّم ذكرُه.

وفيها قُتل الأمير سيفُ الدين تِمْراز بن عبد الله النّاصري الـظاهريّ نـائبُ السّلطنة بالدّيار المصرية بسجنه بثغر الإسكندرية. وكان من أجلّ الأمراء. كان تركي الجنس، اشتراه الملك الظاهرُ برقوق وهو أتابك، ورَقّاه بعد سلطنته حتى جعله أمير مائة ومقدّم ألف بالدّيار المصرية. ثم حُبس بعد عزله بثغر الإسكندرية مُدَّةً، ثمّ أطلق، وصارَ على عادته أمير مائة ومقدّم ألف. وولي نيابة الغيبة لما خرج السلطانُ لقتال تَيْمُور. ثم استقرَّ بعد ذلك أمير مجلس. وانضم على الأتابك يشبُك الشعباني، وحُبس معه ثانياً. ثم أُطلق واستقر أمير سلاح. ثم خرج مع يشبُك أيضاً إلى البلاد الشاميّة وواقـع السّلطان بالسعيدية. ثم أُعيد إلى رُتبته أيضاً بمصر مُدّة. ثم استقرّ في نيابة السلطنة بالديار المصرية، مُدّة طويلة. ثم فرّ من السلطان في ليلة بيسان وتوجّه إلى الأمير شيـخ ونَوْرُوز فدام عندهما مُدةً. ثم عاد إلى طاعة الملك الناصر، بعد أُمور حكيناها في ترجمة الملك الناصر، فأكرمه الملكُ الناصرُ وأعاده إلى رتبته مُدّة. ثم قبضَ عليه وحَبسه بثغر الإسكندرية إلى أن أراد السلطانُ السفر إلى البلاد الشامية فأمر بقتله، فقُتل بالإسكندرية. وكان

تِمْرازُ رأساً في لعب الرُّمح. ونسبته بالناصري لتاجره الذي جلبه الخواجا ناصر الدين. وقيل إنّ الملك المؤيّد شيخاً قال يوماً: إن كان الملك الناصر فرج يدخل الجنة فيدخُلها بقتل تِمْراز، فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: لأن تِمْراز عصي على الملك الناصر غير مرَّة وهو يُقابله بالإحسان ويترضّاه بكل ما يمكن حتى خلع عليه باستقراره في نيابة السّلطنة بالدِّيار المصرية؛ كل ذلك حتى يثبت على طاعته، فلم يثبت تمراز بعد ذلك إلا نحو السنة أو أكثر؛ وفرّ من الملك الناصر في ليلة بيسان، وقدِم علينا ووافقنا على الخروج على السلطان، فقلتُ في نفسي: وما عسى أن أفعل معه وقد ترك نيابة السلطنة لأجلي؟ فلم أجد بُدّاً من أن أُجلِسهُ مكاني وأكون في خدمته، ففعلتُ ذلك، فأبى وأقسم إلا أن يكون من جملة أصحابي. ودام معنا مُدَّة طويلةً، ثم تركنا وعاد إلى طاعة الملك النَّاصر، فتلقَّاه الملكُ الناصر وأنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف. وقد تفكر في نفسه أنه كان ولاه نيابة السلطنة فما قنع بذلك، فبماذا يُرضيه الآن؟ فلم يجد بُداً من القبض عليه وقتله، فكان هذا جزاءه ــ انتهى.

وفيها قُتل أيضاً الأميرُ سيفُ الدين خير بك بن عبد الله الظاهري نائبُ غزة، ثم أحد مقدمي الألوف بالديار المصرية، بثغر الإسكندرية في تاسع شوَّال. وقد مرّ من ذكره ما يُعرف به أحواله. على أنه كان من أوساط الأمراء الظاهرية.

وفيها أيضاً قُتل الأميرُ سيفُ الدين جانم [بن عبد الله] من حسن شاه الظاهريّ نائب طرابلس، ثم أمير مجلس ــ على سمنود؛ قتله الأمير طوغان الحسني الدَّوادار بأمر الملك الناصر حسبما تقدم ذكرهُ مُفصلاً في ترجمة الملك الناصر. وكان شجاعاً مقداماً كريماً(١)، معدُوداً من أعيان الأمراء ــ رحمه الله تعالى.

وفيها قُتل الأمير سيفُ الدين يشبُك بن عبد الله الموساويّ الظاهريّ،

---

(١) قال عنه المقريزي: «وكان من شرار الخلق المفسدين في الأرض». وكثيراً ما نلاحظ مثل هذا التناقض بين المؤرخين في تقييم الأشخاص الذين يترجمان لهم. كما وأننا نلاحظ ميلاً واضحاً لدى ابن تغري بردي إلى امتداح من يترجم له، حتى وإن كان هذا على فساد ظاهر فإنه لايني يلتمس له الأعذار وينقّب فيه عن حسنة يمتدحها.

[المعروف بـ](١)الأفقم، أحدُ مقدّمي الألوف بالديار المصرية، بعد أن ولي عدّة أعمال. وكان كثير الشّرور، مُحبّاً لإثارة الفتن، لا يثبت على حالة مع الظلم والعسف.

وفيها قُتل الأمير سيفُ الدين قَرْدَم بن عبد الله الخازندار الظاهريّ، أحدُ مقدمي الألوف بالديار المصرية، والخازندار الكبير بثغر الإسكندرية؛ وهو صاحب التربة بباب القرافة.

وفيها قُتل الأمير سيف الدين قاني بك بن عبد الله الظاهري، رأس نوبة النّوب بثغر الإسكندرية. وكان من أصاغر المماليك الظاهرية، رقّاهُ الملك الناصر، فلم يسلم من شرِّه، فقبض عليه وحبسه مُدّة ثم قتله. وكان من سيئات الزمان جهلاً وظلماً وفسقاً.

وفيها قُتل أيضاً بسيف الملك الناصر فرج بن برقوق ـ صاحب الترجمة ـ من المماليك الظاهرية وغيرهم ستمائة وثلاثون رجلاً ـ قالهُ المقريزي(٢).

وفيها تُوُفِّي الأميرُ علاء الدين آقْبُغا بن عبد الله القُديديّ، دوادار الأتابك يشبُك، ثم دوادار السلطان، في ليلة ثالث عشر شوّال. وكان خصيصاً عند السلطان الملك الناصر، وتزوّج الملك الناصرُ بابنته. وكان لديه معرفة وعقل بحسب الحال.

وتُوُفِّي الأميرُ الشريف علاء الدين علي محمد البغدادي، ثم الإخميميّ. ولي نيابة ثغر دمياط، ثمّ الوزر بالديار المصرية.

وتُوُفِّي الطَّواشيّ زينُ الدين فيرُوز بن عبد الله الرّومي في يوم الأربعاء تاسع شهر رجب. وكان فَيْرُوز المذكور خصيصاً عند أُستاذه الملك النّاصر.

---

(١) زيادة عما سبق في هذا الجزء.

(٢) أضاف المقريزي: «وطّأ الملك الناصر بقتلهم لمن بعده سلطانه».

وكان شرع فيرُوزُ قبل موته في بناء مدرسته بخط الغرابليين[١] داخل بابي زُويلة، ووقف عليها عدّة أوقاف، فمات قبل فراغها، فدفنه السلطانُ بحوش التربة الظاهرية. وأخذ الملكُ الناصر ما وقفهُ من المصارف على الفقهاء والأيتام وغيرهم، وأقرّه على التربة الظاهرية المذكورة بالصحراء.

ثم أنعم السلطانُ بالمدرسة المذكورة على الأمير الكبير دَمُرْدَاش المحمدي فهدمها دَمُرْداش وشرع في بنائها قَيْساريّة. وقبل أن تكمل خرج دَمُرداش في صُحبة السلطان إلى التجريدة، فقُتل الملكُ الناصرُ، ثم قُتل دَمُرداش المذكور أيضاً بعد مُدّة، فاستولى عبدُ الباسط بن خليل الدمشقيّ ناظرُ الخزانة على القَيْساريّة المذكورة وكملها وجعل بأعلاها ربعاً، وهي سُوقُ الباسطية[٢] الآن.

قلتُ: وهي إلى الآن مدرسة على نيّة فَيْرُوز وله أجرُها، وقيسارّية على زعم من جعلها قيساريّة وعليه وِزرُها.

وتُوُفِّي الأديبُ الفاضلُ البارعُ المفتن أبو الفضل عبد الرحمن بن أحمد بن أبي الوفاء الشاذليّ المالكيّ ـ غريقاً ببحر النيل بين الروضة ومصر ـ في يوم تاسُوعاء، وغرق معه جمال الدين [ابن قاضي القضاة ناصر الدين أحمد][٣] بن التّنسيّ المالكيّ. ومات أبو الفضل المذكور وهو في عُنْفُوان شبيبته، وكان شاعراً بارعاً بليغاً. وهو أشعرُ بني الوفاء بلا مدافعة، وله ديوان شعر، وشعرهُ في غاية الحسن.

ومن شعره، وهو من اختراعاته البديعة ـ رحمهُ الله تعالى وعفا عنه: [الطويل]

عَلَى وَجْنَتَيْه جَنَّةٌ ذاتُ بَهْجَة تَرَى لِعُيونِ النَّاس فِيها تزَاحُما
حَمَى وَرْدَ خَدَّيْه حُماةُ عِذَارِهِ فَيا حُسنَ رَيْحَانِ الخُدُودِ حَمى حِمى

(١) خط الغرابليين: ويعرف اليوم بشارع المناخلية والسكرية. وكان يعرف قديماً بخط الغرابليين والمناخليين، لأنه كان فيه حوانيت تعمل بها مناخل الدقيق والغرابيل. (خطط علي مبارك: ٢/١٣٠).
(٢) ذكرها المقريزي باسم «قيسارية عبد الباسط» ـ انظر الخطط: ٩١/٢.
(٣) زيادة عن المنهل الصافي.

وله مضمّناً: [الوافر]

وَخِـلٍّ سُمْتُـه صَفْعـاً بمـالٍ فقـالَ تـوازَعُـوهُ يـا صحـابي
إذا الحِمْـل الثَّقِيـلُ تَـوَازَعتْـهُ أكُفُّ القَوْم هـان على الـرِّقاب

وله في مُزيِّن: [المجتثّ]

حِبِّي المُزَيِّنُ وَافَى بَعْدَ البعادِ بِنَشْطَه
وَفَشَّ دُمَّلَ قلبي بِكاسِ رَاحٍ وَبَطّه

وله، وهو في غاية الحسن والظرف: [الرمل]

عَبْدُكَ الصَّبُّ المُعَنّى عَرَفَ الفَقْرَ وَذاقَه
فَلَكَمْ فَاخَرَ مُحْتا جاً شَكى فَقْراً وَفَاقَهْ

وله أيضاً: [الكامل]

في لَيْلِ شَعْرٍ أوْ بصُبْحِ جَبِينِ ما زالَ حِينَ يُضِلُّني يهْدِيني
هُوَ بي خَبيرٌ مِثْلِ ما أنّي بـه فَسلُوهُ عَنّي أو فَعَنْهُ سَلُوني
لا تَملُك العُذّالُ مِنّي في الهوى من سَلوَةٍ عنهُ ولا تلْوِيني
يا دولةَ الأشواق خلِّي دينهم وفي حُكم الهوَى لي دِيني
أشكوُ فَيشكُو ما شكاهُ حنِينُه فيفي حَنينُهُما ببعض حنيني
لمَّا جُننتُ عليه سلسَلَني الهوى لا تَعجبُوا لتَسلْسُلِ المجنُونِ
بحواجب وسوالف وضفائر كالياء أو كالواو أو كالسين
طالبت مرشَفَهُ المَليَّ فقالَ قُمْ واستوف ذا المكتوب فوق جَبيني
حاربت يا جيشَ المَحاسن مُهْجَتي وَكَسْرتَ قلبي عَنْوَةً بكَمِينِ

وقد ذكرنا من مقطعاته نبذة غير ذلك في ترجمته في «المنهل الصافي» ـ رحمه الله تعالى.

أمر النيل في هذه السنة: الماء القديمُ ستَّة أذرع وثمانيةُ أصابع. مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعاً واثنان وعشرون إصبعاً ـ والله أعلم.

ذكر سلطنة الخليفة المستعين[١] بالله العباس على مصر

السلطانُ أميرُ المؤمنين المستعين بالله أبو الفضل العباس ابن الخليفة المتوكل على الله أبي عبد الله محمد ابن الخليفة المعتصم بالله أبي بكر ابن الخليفة المستكفي بالله أبي الربيع سليمان ابن الخليفة الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد بن الحسن بن أبي بكر بن علي بن الحسين ــ وهؤلاء غيرُ خلفاء ــ ابن الخليفة الراشد بالله منصور ابن الخليفة المسترشد بالله الفضل ابن الخليفة المستظهر بالله أحمد ابن الخليفة المقتدي بالله عبد الله ابن الأمير ذخيرة الدين محمد ابن الخليفة القائم بأمر الله عبد الله ابن الخليفة القادر بالله أحمد ابن الخليفة المقتفي بالله إبراهيم ابن الخليفة المقتدر بالله جعفر ابن الخليفة المعتضد بالله أبي العباس أحمد ابن الأمير الموفق طلحة ابن الخليفة المتوكل على الله جعفر ابن الخليفة المعتصم بالله محمد ابن الخليفة الرشيد بالله هارون ابن الخليفة المهديّ بالله محمد ابن الخليفة أبي جعفر عبد الله المنصور ابن الإمام محمد ابن الإمام عليّ بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، العباسيّ الهاشميّ المصريّ، الخليفةُ، ثم سلطانُ الدِّيار المصريّة.

ولي الخلافة بعد موت أبيه في يوم الإثنين مستهل شعبان سنة ثمان وثمانمائة، وذلك بعد وفاة أبيه المتوكل بأربعة أيام. واستمرّ في الخلافة إلى أن تجرد صحبة الملك الناصر فرج إلى البلاد الشامية في أواخر سنة أربع عشرة

---

(١) ترجمته وأخباره في: السلوك: ٢١٤/٤؛ وبدائع الزهور: ٣١١/٣؛ وإنباء الغمر: ٦١/٧ وما بعدها؛ ونزهة النفوس والأبدان: ٣١١/٢؛ والضوء اللامع: ١٩/٤؛ وشذرات الذهب: ٢٠٣/٧.

وثمانمائة. ووقَع المصاف بين الملك الناصر المذكور وبين الأمراء: الأمير شيخ المحمودي، والأمير نَوْرُوز الحافظيّ بمن معهم، وانكسر الناصر وانحاز إلى دمشق. واستولى الأمراء على الخليفة هذا، واستفحل أمرهم، وقدموا إلى دمشق وحَصَرُوا الناصر بها، بعد أمورٍ ذكرناها مُفصّلةً في أواخر ترجمة الملك الناصر المذكور.

ثم اتفق الأمراء على إقامة الخليفة هذا في السلطنة، عوضاً عن الملك الناصر فرج المذكور، لتجتمع الكلمةُ في رجل واحد، ويجدوا بذلك سبيلاً لقتال الملك الناصر وانفلال الناس عنه. وأرسلوا إليه فتح الله كاتب السرّ، فكلّمهُ في ذلك وهو على ظاهر دمشق، والملكُ الناصرُ داخلها، فأبى الخليفة المذكور أن يقبل ذلك، وصمّمَ على عدم القبول. فألحّ عليه فتحُ الله في ذلك وتَلطّفَ به، فلم يزدد إلا تمنُّعاً؛ كل ذلك خوفاً من الملك الناصر. فلما رأى فتح الله شدّة تمنّعه، وعدم موافقته، رجع إلى الأمراء وأعلمهم بذلك وقال لهم: «لا يمكن قبوله أبداً مما رأيتُ من تمنعه، فاعملوا عليه حيلة حتى يقبل». فدبّروا عليه حيلة من أنهم أرسلوا خلف أخيه لأمه الأمير ناصر الدين محمد بن مبارك شاه الطازيّ، وأعطوه ورقةً تتضمنُ القدح في الملك الناصر، وفي تعداد أفعاله ومساوئه، وندبوا ناصر الدين المذكور بعد أن أوعدوه بإمرة طبلخاناه، ودوادارية السلطان، حتى ركب فرساً من غير علم الخليفة، ونُودي أمامه: «إن الخليفة قد خلع السلطان الملك الناصر من السلطنة، ولا يحلُّ لأحدٍ متابعته ولا القيام بنصرته»، وقُرِئتِ الورقةُ على الناس.

وبلغ الخليفةَ المستعين بالله ذلك، فقامت قيامته، وعظُم عليه ذلك إلى الغاية، وتحقق عند ذلك أن الملك الناصر إذا ظفر به لا يُبقيه. ودخل عليه فتحُ الله بعد ذلك ثانياً وكلمه في السلطنة، فقبل على شروطٍ عديدة شرطها على الأمراء، فقبلوا جميع الشروط. وفرح الأمراء بذلك وبايعوه بأجمعهم، وقبّلوا يده، وحلَفُوا له على الطاعة والوفاء بالأيمان المغلّظة التي لا يمكن التورية فيها.

ثم نصبوا له كُرْسياً خارج باب الدار تجاه جامع كريم الدين(١)، وجلس فوقه وعليه خِلعةٌ سوداء خليفتيَّة، أخذوها من الجامع المذكور من ثياب الخطيب، ووقفوا بين يديه على مراتبهم، الجميع ما عدا الأمير نَوْرُوز الحافظيّ، فإنه لم يقدر على الحضور لاشتغاله بحفظ الجهة التي هو فيها لحصار الملك الناصر فرج، غير أنه يعلم بالخبر، وعنده من السُّرور لذلك ما لا مزيد عليه.

ثم قبَّلت الأمراء الأرض بين يديه على العادة؛ وكان ذلك في آخر الساعة الخامسة من نهار السبت الخامس والعشرين من مُحرم سنة خمس عشرة وثمانمائة، والطّالع بُرْجُ الأسد.

وفي الحال عند تمام أمره تقدَّم الأمير بَكْتَمُر جِلِّق فخلع عليه بنيابة دمشق عوضاً عن دَمُرْداش المحمّديّ، فإنه كان الملكُ الناصرُ قد ولّاهُ نيابة دمشق ــ بعد كسرته ــ عوضاً عن الوالد ــ رحمه الله ــ بحكم وفاته.

وخلع على سيّدي الكبير قَرْقَماس ــ ابن أخي دمرداش المذكور ــ باستقراره في نيابة حلب، عوضاً عن الأمير شيخ المحموديّ.

وخلع على سُودُون الجلب باستقراره في نيابة طرابلس عوضاً عن الأمير نَوْرُوز الحافظيّ.

ثم ركب أميرُ المؤمنين، وهو السلطان، وبين يديه جميع الأمراء، ونادى منادٍ: «إن الملك الناصر فرج بن بَرْقوق خُلع من السلطنة بالخليفة أمير المؤمنين المستعين بالله، ولا يحلُّ لأحد بعد ذلك مساعدته ولا القيام بنُصرته، ومن حضر إلى الخليفة من جماعته فهو آمنٌ على نفسه وماله. وقد أمهلكُم أميرُ المؤمنين في المجيء إليه إلى يوم الخميس».

وسار أميرُ المؤمنين بعساكره إلى قريب المصليّ(٢)، ثم عاد ونزل بمكانه.

---

(١) هو جامع كريم الدين الخلاطي، ويقع خارج المدينة من جهة باب السلامة (الأعلاق الخطيرة: ١٦٥).

(٢) المصلي: أي جامع المصلي، ويقع قبلي دمشق من خارج محلة ميدان الحصا أنشأه العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب في شهور سنة ٦٠٦هـ. (الأعلاق الخطيرة: ٨٦، ٨٧).

ثم أمر فنودي بذلك أيضاً في الناحية الشَّرقية من دمشق؛ وعند سماع هذه المُناداة انحلت أهلُ دمشق عن الملك الناصر، وخافوا عاقبة مُخالفة أمير المؤمنين في الدنيا والآخرة.

ثم كتب أميرُ المؤمنين إلى أُمراء مصر باجتماع الكلمة على طاعته، وأنه خلع الملك الناصر من المُلك وتسلطن عِوَضه، وأنه أبطل المُكُوسَ والمظالم من سائر أعماله، وبعث بذلك على يد الأمير كُزُل العجميّ.

ثم مات الأميرُ سُكب، الدّوادار الثاني، من سهمٍ أصابه؛ وكان ممن خامر على الملك الناصر وأتى الأمراء في واقعة اللجّون.

ثم خلع أميرُ المؤمنين على القاضي شهاب الدين أحمد الباعونيّ، واستقرَّ به قاضي قُضاة الشّافعية بالدّيار المصرية عِوَضاً عن قاضي القضاة جلال الدين عبد الرحمن البُلقينيّ، بحكم تخلُّفه بمدينة دمشق عند الملك الناصر فرج. هذا كُلُّه والقتالُ عمَّالٌ في كل يوم، والجراحات فاشيةٌ في عسكر الأُمراء من عظم الرَّمي عليهم من أسوار المدينة من الناصريّة.

ومات الأميرُ يشبُك [بن عبد الله] العثماني [الظاهري] أيضاً خارج دمشق من سهمٍ أصابه في يوم الجمعة أوّل صفر، وصلّى عليه الأميرُ شيخُ المحمودي.

وأما الملكُ الناصرُ، فهو مع هذا كله يفرِّق الأموال، ويستدعي المُقاتلة ويستحثُّهم على نُصرته.

وخلَع [الناصر] على فخر الدين ماجد بن المزوّق ناظر الإسطبل باستقراره في كتابة سِرّ مصر عِوَضاً عن فتح الله.

ثم ولّى الوزيرَ سعدَ الدين إبراهيم بن البَشِيريّ نظَر الخاصّ عوَضاً عن بدر الدين حسن بن نصر الله الفُوِّيّ. وبينما هو في ذلك وصلت إلى الملكِ الناصر أُمراء التُّرْكُمان: قَرَايُلُك وغيره من نُوَّاب القِلَاع بسبب النَّجْدَة، فنُودِيَ بعسكر أمير المؤمنين باستعداد العَوَام لِقِتال المذكورين، «فإنّهم مُقَدِّمةُ تَيْمُورلَنْك وجالِيشُه».

واجتمع الأمراء والمماليك، وحَلَفوا بأَجْمعِهم يميناً مُغَلَّظاً لأمير المؤمنين بأنَّهم يَلْزَمون طاعتَه، ويأْتمرون بأمرِه، وأنَّهم رضوا بأنَّه الحاكم عليهم، وأنّه يَسْتبِدُّ بالأمور منْ غير مراجعةِ أحد، وأنهم لا يُسَلْطِنُون أحداً غيره طول حياته.

ثمّ قَبَّل الجميعُ الأرضَ بين يديه، وصار الجميع طَوْعاً لأميرِ المؤمنين المستعين بالله، فمشى بذلك حالُهم على قتال الملكِ الناصر. ولولا الخليفة ما انْتَظم لهم أمرٌ؛ لعظم مَيْلِ التُّرْكُمان والعامّة للمَلكِ الناصر.

ثمّ توجَّه فتْحُ الله للأمير نَوْرُوز بدار الطُّعْم ـ حَيْث هو نازلٌ ـ فحلَّفَهُ على ذلك، وقبَّل الأرض لأميرِ المؤمنين، وأَظْهر من الفَرحِ والسرور مالاَ مَزِيدَ عليه باسْتِبدَاد الخليفة بالأمْر، وقال: «حينئذ اسْتقامَ [لنا][١] الأمْرُ». وسَأل نَوْرُوز فتحَ الله المذكور أنْ يُقبِّل الأرض بين يدَي أميرِ المؤمنين نيابةً عنه، وسألَه في أنْ ينْفَرِد بالتَّدْبير ولا يُشاركهُ فيه الأميرُ شَيْخ، ولا هو ولا غيرُه؛ يريدُ بذلك كَفَّ الأمير شَيْخ عنِ التَّحَكُّم.

هذا والقِتالُ عَمَّال في كلِّ يوم، وقرَاءَةُ المَحْضَر الذي أثْبَتوه على الملكِ النّاصِر على الشَّامِيِّين، وفيه قَوَادِحُ في الدين تُوجبُ إراقةَ دمِه، وشَهد في المَحْضر نحو خمسمائة نَفْس، وثبَت ذلك على قاضي القضاة ناصر الدين بن العَدِيم الحنفيّ، وحَكَم بإراقة دمِه.

ثمّ بلغَ شيْخاً أنَّ الملكَ الناصرَ عزَم على إحْراق ناحِية قصر حجّاج[٢] حتى يصيرَ فضاءً، ثمّ يَركب بنفسِه ويُوَاقِعُ القَوْمَ هناك بمن يأتيه من التُّرْكُمان وبِمنْ عنده. فبادر شيخٌ وركب بعد صلاة الجُمْعة بأميرِ المؤمنين ومعه العساكر، وسار

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) قصر حجاج. ويقع بظاهر دمشق عند باب الجابية وهو محلة كبيرة ينسب إلى حجاج بن عبد الملك ابن مروان (معجم البلدان).

من طريق القُبَيْبات ونزل بأرض الثابتيّة[١]. وقاتل الملكَ الناصرَ في ذلك اليوم أشدّ قتال إلى أنْ مضى منَ الليل جانب. وكَثُر منَ الشّامِيِّين الرَّمْيُ بالنِّفْط عليهم، فاحترق سوقُ خانَ السّلطان وما حوْلَه.

وحَمَلت السّلطانيّة على الشَّيْخِيّة حملةً عظيمة هزَموهم فيها، وتفرَّقوا فِرَقاً، وثبَت شيخٌ في جماعة قليلة بعد ما كان انْهزَم هو أيضاً إلى قريب الشُّوَيكة[٢]. ثمّ تكاثر الشَّيْخِيَّةُ وانْضَمَّ عليهم جماعةٌ منَ الأمراء، فحمَل شيخٌ بنفسه بهم حملةً واحدةً أخذ فيها القَنَوات، ففرَّ مَنْ كان هناك منَ التُّرْكُمان والرُّماة وغيرهم.

وكان الأتَابك دَمرْداش المحمّدي نازِلاً عند باب الميدان تجاه القلعة، فلَمَّا بلغه ذلك ركب وتوجَّه إلى الملكِ الناصر وهو جالسٌ تحْت القُبّة فوْق باب النَّصْر[٣]، وسأله أنْ ينْدب معه طائفةً كبيرةً منَ المماليك السّلْطانيّة، ليتَوَجَّه بهم إلى قتالِ شَيْخٍ، فإنَّه قَدْ وَصَل إلى طرف القَنَوات، وسَهَّل أخذه على السّلطان، فنادَى الملكُ الناصر لمنْ هناك منَ المماليك وغيرهم بالتَّوَجُّه مع دَمرْداش، فلم يُجِبه منهم أحدٌ.

ثمَّ كرَّر السّلطانُ عليهم الأمْرَ غير مَرّة حتى أجابه بعضُهم جواباً فيه جفاء وخشونةُ ألْفَاظٍ، معناه أنّهم ملّوا من طولِ القتال، وضجروا من شِدَّة الحِصار.

وبينما هم في ذلك، إذ اخْتَبَطَ العَسكَرُ السّلطانيّ وكثُر الصُّراخُ فيهم بأنَّ الأمير نَوْرُوزاً قَدْ كَبَسهُم؛ فسارعوا بأَجْمعِهم وعَبَرُوا من باب النَّصر إلى داخل مدينة دمَشْق، وتفرَّقوا في خرائبها بحَيْث إنّه لم يَبق بين يدَي السّلطان أحدٌ، فوَلّى دَمُرداش عائِداً إلى مَوْضِعِه، وقَدْ مَلك شيخٌ وأصحابُه الميدانَ والإسطبل.

---

(١) في طبعة كاليفورنيا: «القابتية». واختلفت الأصول الأخرى فرسمته «النابتية» و«التابتية». والتصحيح عن السلوك والدارس في تاريخ المدارس. ــ والثابتية: محلّة بدمشق خارج باب الجابية، وكان بها بستان يعرف بالسنبوسكي. (الدارس: ١/٣٠٣).

(٢) الشويكة: من ضواحي دمشق، وبقربها مقابر الحميرية. (الدارس: ١/١٩٣). وهي غير الشويكة التي بالقرب من القدس.

(٣) باب النصر: هو باب في الجهة الغربية من سور دمشق، وقد أزيل عند فتح سوق الحميدية ــ راجع فهرس الأماكن.

فبَعث دَمُرداش إلى السّلطان مع بعض ثِقاتِه بأنَّ الأمْرَ قدْ فات، وأنَّ أمْرَ العدوّ قَوِيّ، وأمْرَ السّلطان أخذَ في إدْبار، والرأيُ أنْ يَلْحَقَ السّلطان بحَلَب ما دامَ في الأمر نَفَسٌ.

فلَمَّا سَمِع الملكُ الناصرُ ذلك قام من مَجْلِسه وترك الشَّمعْة تَقِدُ حتى لا يَقعَ الطّمعُ فيه بأنّه ولّى، ويُوهِم الناسَ أنّه ثابتٌ مقيمٌ على القِتال. ثمّ دخل إلى حرَمِه وجهَّزَ مالَه، وأطال في تعبِئة مالِه وقُماشِه، فلم يخْرُج حتى مَضَى أكْثَرُ الليل، والأتابَكُ دَمُرداش واقِفٌ ينْتظِرُه. فلمّا رأى دَمُرداش أنّ الملكَ الناصِرَ لا يُوافقُه على الخُروج إلى حَلَب، خرج هو بخواصّه ونَجا بنفسه، وسار إلى حَلَبَ وترك السُّلْطان.

ثمّ خامَرَ الأميرُ سُنْقُر الرّوميّ عَلَى الملكِ الناصر، وأتَى أميرَ المؤمنين وبطَّلَ طُبولَ السّلطان والرّماة.

ثمّ خرجَ الملكُ الناصر من حرَمِه بماله، وأمر غِلْمانَه فحَملت الأموالَ على البِغال لِيَسير بهم إلى حَلَب، فعارضه الأميرُ أرْغُون منْ بَشْبُغَا الأميرُ آخور الكبير وغيرُه، ورغَّبوه في الإقامة بدِمَشْق، وقالُوا له: «الجماعةُ مَماليكُ أبيكَ لا يُوَصِّلُون إليكَ سوءًا أبداً». ولا زَالُوا به حتى طَلَع الفجر؛ فعِند ذلك ركب الملكُ الناصرُ بهم، ودار على سورِ المدِينة فلَم يجِد أحداً ممّن كان أعَدَّهُ للرَّمْي، فعادَ ووَقف على فرسِه ساعةً، ثمَّ طَلَع إلى القلعة والتَجَأ بها بمن معَه ــ وقد أشْحنَها ــ وترك مدينة دِمَشْق. وبَلَغ أميرَ المؤمنين والأمراء ذلك، فركِب شيخٌ بمنْ معه إلى باب النصر، وركِب نَوْرُوز بمنْ معه إلى نحو باب تُوما، ونصَبَ شيخٌ السَّلالم حتى طلَع بعضُ أصحابه، ونزل إلى مدينة دِمَشْق وفتَح باب النصر، وأحْرَق باب الجابِيَة. ودخل شيخٌ من باب النصر، وأخذَ مدينةَ دِمَشْق، ونزل بدارِ السّعادة، وذلك في يوم السبت تاسع صَفَر، بعد ما قَاتل الملك الناصر نحو العشرين يوماً، قُتل فيها من الطائفتين خَلائقُ لا تُحْصَى، ووقَع النَّهْبُ في أموال السّلطان وعساكره، وامتَدّت أيدي الشَّيخيّة وغيرهم إلى النّهب، فمَا عَفُّوا وَلا كفّوا.

وركبَ أميرُ المؤمنين ونزلَ بدارٍ في طرف ظَواهِر دِمَشْق، وتحوَّل شيخُ إلى الإسطبل، وأنزَل الأمير بَكْتَمُر جِلّق بدار السّعادة، كونه قَدْ وُلّي نيابة دِمَشْق قبلَ تاريخه.

هذا والسَّلْطَانِيّة ترْمي عليهم من أعلى القلعة بالسّهَام والنّفوط يومهم كلّه، وبَاتَوا ليلةَ الأحدِ على ذلك. فلمّا كانَ يومُ الأحدِ عاشر صفر المذكور بعث الملِكُ النّاصر بالأمير أَسَنْدَمُر أمير آخور في الصلح، وتردّد بينهم غيرَ مَرّة حتى انعقد الصلحُ بينهم. وحَلف الأمراء جميعهم وكُتبت نسخة اليمين، ووضعوا خطوطهم في النّسخة المذكورة، وكتب أميرُ المؤمنين أيضاً خطه فيها. وصعدَ بها أسَنْدَمُر المذكور إلى القلعة ومعه الأمير نَاصِرُ الدين محمد بن مبَارك شَاه الطّازيّ ــ أخو الخليفة المستعين بالله لأمه ــ ودَخلا على الملك النّاصِر وكلّماه في ذلِك، وطالَ الكلامُ بينهم فلم يُعجب الملكَ النّاصِر ذلك.

وتَردّدت الرّسلُ بينهم غير مرّة بغير طائل. وأمرَ الملكُ النّاصِر أصحابَه بالرّمي عليهم، فعاَد الرّمي من أعلى القلعْة بالمدَافع والسّهام. وركب الأمراء واحتاطوا بالقلعة، فأرسَل الملكُ النّاصرُ يسأل بالكفِّ عنه، فضايَقُوا القَلعةَ خَشيَة أنْ يفرّ السّلطانُ منها إلى جِهة حَلب. ومشَت الرسُل أيضاً بينهم ثانياً. وأضرَّ الملكَ النّاصرَ التّضييقُ والغَلبةُ إلى أن أذعن إلى الصلح، وحَلفوا له ألّا يوصِّلوا إليهِ مكروهاً، ويؤمِّنوهُ على نَفسِه، وأن يستمرَّ الخليفةُ سُلطاناً. وقيل غير ذلك [وهو] أنه ينزل إليهم، ويتشاور الأمراء فيمن يكون سلطاناً، فإنْ طلبَهُ المماليكُ فهو سُلطانٌ على حالِه، وإن لم يطلبُوه فيكونُ الخليفةُ، ويكون هو مَخلوعاً يَسكنُ بعض الثغور مُحتفظاً به.

ومَحصولُ الحكاية أنّه نزل إليهم في ليلةِ الإثنين حادي عَشر صَفر، ومَعهُ أوْلادُه يحملهم ويُحمَلون معه، وهو ماشٍ من باب القلعةِ إلى الإسطبل والنّاسُ تنظرُه. وكان الأميرُ شيخُ نازلًا بالإسطبل المذكور، فعندما عاينهُ شيْخٌ قامَ إليه وتلقّاهُ وقبل الأرض بيْنَ يديْه، وأجلسه بصدر المجلس، وجَلس بالبُعْد عنْه وسكَّنَ رَوْعه؛ ثمَّ تركهُ بعد ساعةٍ وانصرَفَ عنهُ، فأقام الملكُ النّاصِرُ بمكانه إلى يوم الثلاثاء ثاني صفر.

فَجُمِع الأمراء والفقهَاء والعلماء المصريّون والشّاميّون بدار السعادة بين يدي أمير المؤمنين ـ وقَدْ تحوّل إليها وسكنها ـ وتكلموا في أمر الملك النّاصر والمحضَر المكتَّب في حَقه، فأفتوْا بإراقةِ دمه شَرْعاً. فأخذَ في ليلة الأربعَاء مِنَ الإسطبل، وطُلع به إلى قلعة دمشق، وحَبسوهُ بِها في موضع وَحْدَه، وقد ضُيِّق عليه وأُفرِدَ من خَدمه، فأقَام على ذلك إلى ليلة السَّبت سادس عشر صفَر، وقُتل حسبما ذكرْناهُ في أواخر ترْجمته مُفصلاً، بعد اختلافٍ كبير وقَع في أمره بين الأمراء:

فكان رأْيُ شيخ إبقاءَهُ محبُوساً بثغر الإسكندرية، وإرساله إليها مع الأمير طُوغَان الحسنيّ الدَّوادار. وكان رأْيُ نَوْرُوز قتله، وَقَام نَوْرُوز وبكتمر جِلّق في قتله قياماً بذلاً فيه جهدهُما. وكان الأميرُ يَشْبُك بن أزدَمُر أيضاً ممن امتنع من قتله، وشنَّع ذلك على نَوْرُوز، وأشارَ عليهِ ببقائه، واحتجّ بالأيمان التي حُلفت له.

واختلفَ القوْمُ في ذَلكَ، فقَوِي أمرُ نَوْروز وَبَكْتَمُر بالخليفة المستعين بالله، فإنهُ كان أيضاً اجتهد هو وفتحُ الله كاتِب السرّ في قتلهِ، وحَمَلا القضاةَ والفقهاء على الكتابة بإرَاقةِ دَمه بعد أنْ توقّفُوا عن ذلك، حتى تجرّد قاضي القضاة نَاصرُ الدين محمد بن العديم الحنفيّ لذلكَ، وكافح مَنْ خَالفه من الفقَهاء بعدم قتلهِ بقوّة الخليفة ونَوْرُوز وبَكْتَمُر وفتح الله، ثمَّ أَشهد على نفسهِ أنه حَكم بِقتله شَرْعاً، فأمضي قوْلَهُ وقتل [الناصر].

وكان قصدُ شَيخ إبقَاءه، يخوِّف بهِ نَوْرُوزاً إن حَصل مخالفة(١)، وأيْضاً وقفَ على يمينه وخَاف سوء عاقبة الأيْمَان والعُهود، وأيضاً لمَا سبَق لوالِدِه عليه مِنَ الحقوق السّالفة، وقال: «هو ـ يعني الملك النَّاصِر ـ قد ظَفِرَ بنا وأبقانا غير مرّة؛ ونحنُ مماليكه، فكيف نحنُ نظفرُ به مرّة واحدةً نقتله فيهَا، ويشَاع ذلك عند ملوك الأقطَار، فيقبُحُ ذلك علينا إلى الغَاية!»

(١) أي إن حصل خلاف بين نوروز وشيخ. فقد كان كل واحد منهما ـ بالرغم من تحالفهما ـ يضمر للآخر شراً، ويطمح للتفرّد بالسلطة.

قلتُ: ولذلك ملّكهُ اللهُ على المسلمين، وحكّمهُ فيمن خَالفهُ في ذلك حَتى أفنَاهم عَلَى السيْف في أَسرَع وقتٍ وأقل مدة «وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعِبِيدِ»(١) ــ انتهى.

وبعد أنْ قُتِل الملكُ الناصر، مشَت الأحوال، وأمِنَ الناسُ، ونُوديَ فيهم بالأمان. واتَّفق الحالُ على أنّ الأميرَ شيخاً ونَوْرُوزاً يسيران إلى مصر صُحبةَ أمير المؤمنين المُستعين بالله، ويكونان في خدمتِه، وأنْ يكون الأميرُ شَيخٌ أميراً كبيراً أتابَك العساكر بالديار المصرية، ويكون نَوْرُوز أتابَك رأس نَوْبة الأمراء، ويكون إقْطاعُهم بالسّويّة، وأنْ يَسْكُنَ شيخٌ باب السِّلْسِلَة، ويَسكن نَوْرُوز بيتَ قَوْصون تجاه باب السِّلْسِلَة بالرُّمَيْلَة.

وكَتَب نَوْرُوز إلى القاهرة بتَجْدِيد عمارة البيْتِ المذكور، وأنْ يُضْرَب عليه رَنْك(٢) نَوْرُوز.

وصارَ نَوْرُوز يرْكبُ من دارِه إلى تحْتِ قلعة دِمَشْق، فيَرْكب شيخٌ أيضاً مِنَ الإسطبل حيث هو نازلٌ ويخرج إليه، ويسيران تحت قلعةِ دِمَشْق بمَوْكِبِهما ومعهما سائر الأمراء، ثمّ يَدْخلان إلى دارِ السّعادة إلى خدْمة أميرِ المؤمنين، فيجلسُ شيخٌ عن يمينه، ويجلسُ نَوْرُوز عن يساره، ويقفُ طُوغانُ الحسنيّ الدّوادار على عادته، ويقعُدُ الأمراء بمنازلهم يميناً وشِمالاً على عادة المْوكب(٣) السّلطانيّ، ويقرأ(٤) [ناظر] الجيش، [ما يتعلّق بالإقطاعات] ثمّ يَقرأ كاتبُ السّرّ القصصَ، ويُمَدُّ السِّمَاطُ، ثمّ يَنْفَضُّ الموْكِب(٥).

---

(١) سورة فصّلت ــ الآية: ٤٦

(٢) الرَّنْك: الشعار الذي يتّخذه السلطان أو الأمير لنفسه، ويرسم على باب بيته وعلى كافة أمتعته وآلاته الحربية. وكان من عادة كل أمير كبير أو صغير أن يتخذ رنكاً يناسب الإمارة التي يعينّ عليها، فيكون رنك الدوادار الدواة والمقلمة، ويكون رنك الأمير آخور نعلة الفرس، ورنك السلاح دار القوس.
(انظر صبح الأعشى: ٦١/٤ ــ ٦٢؛ والتعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ١٩٣ ــ ١٩٤).

(٣) كذا. ولعل الصواب: «المجلس السلطاني».

(٤) في الأصل: «ويقرّ الجيش» ــ وما أثبتناه والزيادة يناسبان السياق وما جاء في زبدة كشف الممالك: ٨٧ لخليل بن شاهين الظاهري.

(٥) لعلّ الصواب: «المجلس».

كلّ ذلك وشيـخٌ ونَوْرُوز قلوبُهما مُتنافرَةٌ بعضُها من بعض، والناسُ يترقّبون وُقوعَ فِتْنةٍ بينهما، إلى أن خَدَع شيـخٌ نَوْرُوزاً بأنْ قال له: «أنا قَصْدِي أنْ أكون بدِمَشْق، ويضاف إليَّ منَ العَريش إلى الفُرات، وأنت تتوجّه مـع الخليفةِ أتابَكاً بالديار المصرية ومعَك الأمير بَكْتَمُر جِلّق وغيرُه منَ الأمراء».

ولَمْ يَكُن لقَوْله حقيقة، غيْر أنّه قَصد بذلك حِيلةً على نَوْرُوز، فيقولُ نَوْرُوز: أنت تتوجَّه إلى مِصر، وأنا أكونُ نائب الشّام؛ وكان ذلك على ما سنذْكُرُه.

فاسْتَشار نَوْروز أصْحابَه في ذلك فقالوا له بأَجمعهم: «الرأيُ والمصلحةُ تَوَجُّهُكَ إلى الديار المصرية، ولوكُنْتَ من جُملَةِ مقدّمي الألُوف بها، لا سِيّما تكونُ أتابَكَ العساكر ومالِكَ زِمام مصر»، فقال لهم: «إنْ أقام شيـخٌ بالبلاد الشّامية ــ مـع سِعةِ تحكّمه في البلاد ــ يصيرُ له شَوْكَةٌ عظيمة ويُتْعِبُني فيما بعد؛ ولوكان في مصر خيرٌ ما تركها هو وأرادَ نيابة الشام، والمصلَحةُ توجّههُ إلى مصر، وأكونُ أنا حاكِمَ البلاد الشامية من العريش إلى الفُـرات»، فراجعـوه في ذلك فـأَبَـى إلّا ما أراد.

وأصْبـح لَمّا حضر الخدمة بين يَدَي الخليفةِ على العادة في يوم الإثنين خامس عشرين صفر من سنة خمس عشرة وثمانمائة فاتَحَهُ الأمير شيـخٌ في ذلك، فبادَرهُ الأميرُ نوْرُوز: «أنت تتوَجّهُ إلى مِصر، وأنا أكونُ نائباً بدِمَشْق. فَخَلَـع عليه أميرُ المؤمنين في الحالِ باسْتِقْرارِه في نيابة الشام كلِّه، وأن يُوَلِّيَ بجميـع البلاد مَنْ شاءَ من أصحابه.

وانفضَّ المَوكبُ وقد نال الأميرُ شيـخٌ غَرَضَه، وانْفرد بتدبيرِ المملكةِ وحدَه من غيرِ شريك. وكان ظنُّ الأميرِ نَوْرُوز أنَّ شيخاً لا يَستْقِيمُ له أمرٌ مـع بَكْتَمُر جِلِّق، ويَلْبُغا الناصريّ نائب الغَيْبة بمصر، وطُوغان الحسنيّ الدّوادار، وسَيِّدي الكبير قَرْقَماس، وأنَّ الذي يَبقَى معه مِنَ الأمراء بالبلاد الشـامية جميعُهم في طاَعتهِ، مثل يَشْبُك بن أزْدَمُر، وطُوخ، وقمِش وغيـرهم، فجاء حسـابُ الدَّهْـرِ بخلافِ ما ظَنَّ.

ثُمَّ فوّض أميرُ المؤمنين إلى الأميرِ نَوْرُوز كفالَة الشّام جميعه: دِمَشْق، وحَلَب، وطَرَابُلُس، وحَمَاة، وصفَد، وغَزة، وجَعل له أنْ يُعيِّن الأمريَّات والإقطاعات لِمَنْ يُريدُه ويختارُه، وأنْ يُوَلِّيَ نوّابَ القِلاع الشّاميّة والسّواحل وغيرها لمنْ أرادَ من غيرِ مُراجعةٍ في ذلك، غيرَ أنه يُطالعُ الخليفة بمنْ يَسْتقِرُّ به في شيءٍ من ذلك ليجهِّز إليه تشريفاً.

وعَزَل بَكْتَمُر جِلِّق عن نيابة دِمَشْق بعد أنْ حَكَمها نحو الشَّهرين عن الخليفة، ورسم له أنْ يتوجَّه أمير مائة ومقدّم ألف بالديار المصرية على أحسن الإقطاعات.

ثمّ خَلَع الخليفةُ على مُوَقِّع الأمير نَوْرُوز ناصرِ الدين محمد بن محمد البَصْروِيّ باسْتِقْرارِهِ كاتب سِرّ دِمَشْق، عِوضاً عن صدر الدين عليّ بن الأدَمِيّ.

ثمّ خَلع الخليفةُ على قاضي القضاة جلالِ الدين عبد الرحمن البُلْقينيّ بإعادته إلى قضاء الشّافعية بالديار المصرية، عوضاً عن الباعُونيّ الذي كان وَلّاهُ الملكُ الناصر، فكانت ولايةُ الباعونيّ نحو الشهرين، ولم يدخل فيها القاهرة.

ثمّ كتَب الخليفةُ إلى [مَنْ في] البلاد الشامية وغيرِها من التُرْكُمان والعُرْبان والعَشير، وجَعَل افْتِتاح الكُتُب: «مِنْ عبد الله وَوَلِيّه، الإمام المستعين بالله، وخليفةِ ربِّ العالمين، وابنِ عمّ سيد المرْسلين، المُفْتَرَض طاعتُه على الخَلْق أجمعين، أعزّ الله ببقائهِ الدين».

ثمّ كتَب الخليفةُ إلى الديار المصرية بإطلاق الأمراء المسجونين بالإسكندرية، وأنّ الأميرَ أسَنْبُغَا الزَّردكاش يُسلِّم قلعة الجبل إلى الأميرِ يَلْبُغا الناصريّ، ففعل أَسَنْبُغَا الزَّردكاش ذلك. وقَدِم الأمراء من سجن الإسكندرية إلى القاهرة وهم: إينَال الصّصلاني، وسُودون الأَسَنْدَمُرِيّ الأميرُ آخور الثاني، وكَمَشْبُغا الفِيسيّ، وجانِبك الصّوفيّ، وتاجُ الدين عبد الرزّاق بن الهَيْصَم الأستادار.

ثمَّ تَهيَّأ أمير المؤمنين وخرج معه الأمير شيخ وجميع العساكر من دِمَشْق، في يوم السبت ثامن شهر ربيع الأوّل، نحو الديار المصرية.

ثمَّ خرج بعدهم نَوْرُوز في سادس عَشْرِه إلى حَلب ليُمهِّد أمورها.

ثمّ رَسم الأمير نَوْرُوز أنْ يُضرب بدِمَشْق دَراهِمُ نصفُها فضّةٌ ونصفُها نُحاسٌ، فضربت وتعامَل الناس بها(١).

وسار أميرُ المؤمنين بعساكره حتّى دخل إلى الديار المِصريّة(٢) في يوم الثلاثاء ثاني شهر ربيع الآخر، وطلعَ إلى القلْعة بعدما شقّ القاهرة، وخرج من باب زويلة إلى الصليبة إلى القلعة، وقد زُيِّنت القاهِرةُ أحْسَنَ زينة. فنزَلَ الخليفةُ بالقصر من قَلْعَة الجبل على عادةِ السّلاطين، ونزلَ الأميرُ شيخٌ بباب السلسلة من الإِسْطَبْل السّلطانيّ. ولم يَخْلَع الخليفةُ عَلَى أَحَدٍ على جَارِي العوَائِد. وكانَ الأميرُ شيخٌ يظنّ أنّ الخليفةَ يتوجّهُ إلى دارِهِ بالقُرْبِ مِنَ المَشْهد النّفيسيِّ على عادَتِهِ أوّلاً، فلما طَلَعَ إلى القَلْعَة، تحقّقَ الأميرُ شيخ منه أنَّه يريدُ أن يسيرَ على

(١) أشار المقريزي إلى سبب هذا التدبير الجديد بأن الدراهم السابقة التي بأيدي الناس كانت مغشوشة، وقد فسدت بحيث لم يكن يوجد فيها ـ إذا سبكت ـ شيء من الفضة، أي أنها تكاد تكون نحاساً خالصاً. ـ انظر السلوك: ٤/٢٤٥.

(٢) ولما دخل المستعين إلى الديار المصرية، وهو يجمع إلى الخلافة السلطنة، عمل شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني قصيدة في امتداح الخليفة والاحتفاء به، معبراً ـ كما نرى ـ عن رغبة المصريين في التخلّص من تسلّط الترك المماليك على الخلافة، ومن الظلم الذي ألحقوه بالناس خاصة أهل الشرع والمتعممين منهم. ومما قال فيها:

الملك فينا ثابت الأساس ... بالمستعين العادل العباسِ
رجعت مكانة آل عم المصطفى ... لمحلّها من بعد طول تَناسِ
فالحمد لله المعزّ لدينه ... من بعد ما قد كان في إبلاسِ
وأزال ظلماً عمّ كلّ معمّم ... من سائر الأنواع والأجناس
بالخاذل المدعوّ ضد فعاله ... بالناصر المتناقض الأساس
لا تنكروا للمستعين رئاسةً ... في الملك من بعد الجحود الناسي

ـ انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي: ٥٠٦ ـ ٥٠٨

والواضح أن ابن حجر كان يعلم أن عودة السلطة إلى كنف الخلافة كانت عودة استثنائية في ذلك الظرف ولم تكن تملك حظاً كبيراً في الثبات والاستمرار، فأشار إلى ذلك بقوله «لا تنكروا للمستعين رئاسة...».

وبالفعل فقد انقلب المماليك بسرعة على هذا الوضع الجديد، واستولى شيخ على السلطنة متذرعاً باضطراب أحوال البلاد «وأن الوقت يحتاج لإقامة سلطان تركي له سطوة يقمع أهل الفساد وتنصلح الأحوال على يده» على حدّ تعبير ابن إياس: بدائع الزهور: ٣١٢.

طريقِ السلاطين ويترُكَ طريقَ الخلفاءِ؛ فأخذَ شيخٌ يكِيدُه بأشياء، مِنها أنّه صارَ يبطّل المَواكِبَ السّلطانيّة ويعمَلُ المَوكِبَ عنده، ويعتذر عن ذلك بأنّ القَوْم عقيبَ سَفَرٍ وتعبٍ ليس لهم طاقة على لزُومِ المواكب الآن إلى أنْ يَجِدُوا في نُفُوسِهم قوةً ونشاطاً. وصارَ تِرْدَادُ جميع أربابِ الدَّولةِ إلى بابِ الأميرِ شَيْخٍ، فاتّضَعَ أمْرُ الخليفة.

ثُمَّ أمسكَ الأمير شيخٌ الأميرَ أَسَنْبُغا الزَّردكَاش، واستَفتَى في قَتْلِهِ ـ لِقَتْلِهِ الأميرَ قاني باي في غيبةِ الملك النَّاصر ـ فأفتوا بقتلِهِ وحكمُوا به. ثمَّ أمسك الأميرُ شيخُ حَطَط البَكْلَمُشِي، وصَرْغَتْمُش القَلَمْطاوِيّ، وهما من أمراء العَشَرات من خَواصّ الملكِ الناصر. ثمّ قبضَ على الأمير أَرْغُون من بَشْبُغَا الأمير آخور الكبير، وعلى الأمير سودُون الأسَنْدُمُرِيّ، وعلى كَمَشْبغَا الفِيسِيّ، وكانا قدِما مِن سجنِ الإسكندرية بمدّة أيام ـ حسبما تقدّم ذكره ـ ونفى كَمَشْبُغَا الفيسيّ إلى دمياط.

ثمّ خَلَع الأمير شيخٌ على الأمير خليل التّبْرِيزِيّ الدّشاريّ باسْتِقْرَارِه في نيابة الإسكندرية عوضاً عن قُطْلُوبُغَا الخليليّ بعد موته.

ثمّ في ثامن شهر ربيع الآخر، عمل الأمير شيخٌ المَوْكِبَ عند الخليفة بالقَصْرِ السّلطانيّ على العادَة، وحضَرَ شيخٌ هو وسائرُ الأمراء الموكِب. وخَلَع الخليفةُ على الأمير شيخ باسْتِقْرارِهِ أتابَك العساكر بالدّيار المِصْريّة ـ وكانت شاغِرَةً منذُ قُبِض على الملكِ الناصر وفرَّ الأتَابَك دَمُرْداش المحمّديّ إلى حلَب. ثمّ فَوَّض الخليفةُ إلى شيخٍ جميعَ الأمور، وأنهُ يُوَلِّي ويَعْزِلُ من غير مُرَاجَعةٍ، وأشهدَ عليهِ بذلك بعد أن تَوَقَّفَ الخليفةُ عن ذلك أياماً حتى أذْعَن على رَغْمِهِ.

ثمّ خلعَ الخليفةُ على الأمير شاهِين الأفْرَم على عادتِهِ أميرَ سلاح، وعَلى يَلْبُغا الناصريّ باستقْرَارِهِ أميرَ مجلس، وعلى الأمير إينَال الصصلاني باستِقْرَارِهِ حاجِب الحُجَّاب عوضاً عن يَلْبُغَا الناصريّ، وعلى سودُون الأشقر باستِقْرَارِهِ رأسَ نوبة النّوب عوضاً عن سُنْقُر الرُّوميّ، وعلى الأمير أَلْطُنْبُغَا العثمانيّ بنيابة غَزَّة عوضاً عن سُودُون من عبدِ الرحمن، ونزلَ الجميعُ في خِدْمةِ الأمير شيخ، ثمّ توجهوا إلى دُورِهم.

ثم في تاسعهِ عَرَضَ الأميرُ شيخُ المماليك السّلطانيّة، وفرَّقَ عليهم الإقْطاعَات الشّاغِرَة عن الناصرية بحَسب ما يختارُه، وأنعمَ على جماعةٍ من مماليكه بإمريّات، ما بين طَبْلَخَانَات وعشَرات.

ثمَّ خلعَ الأميرُ شيخُ على دواداره جَقْمَقْ الأرْغُون شَاوِيّ واستقَرَّ به دوادار الخليفة، حتى لا يتمكنَ الخليفةُ من شيءٍ يعملُه؛ وكان دواداره قبل ذلك أخوه ناصر الدين محمد بن مبارك شاه الطازيّ بإمْرَة طبلخاناه، فصار جَقْمَق كالدّوادار الثاني له، وفي الحقيقة تَرْسِيماً[١] عليه. فعندَ ذلك صارَ للخليفة الاسمُ في السّلطنة لا غير، وما عدا ذلك متعلقٌ بالأمير شيخ. وصارَ الخليفةُ مُسْتَوْحِشاً بعيالِهِ في تلكَ القصورِ الواسعة بقلعة الجَبَل، وضاقَ صدرُه مِن عدم تِرْدَادِ الناس إليه، وندمَ على دخولِهِ في هذا الأمر حيث لا ينفعه النّدَم، وصار لا يمكنه الكلامُ لِعَدَمِ من يقوم بنُصْرَتِهِ من الأمراء وغيرهم، فسكَتَ على مضَض.

ثم إنَّ الأميرَ شيخاً خلَعَ على الأمير قَانِي باي المحمّدي، وعلى الأمير سُودُون من عبد الرحمن ــ المعزول عن نيابة غَزّة ــ خِلَعَ الرِّضى من غير وظيفة. ثمَّ خلعَ على سعدِ الدين إبراهيم بن البشيريّ باسْتِقْرَارِهِ وزيراً على عادته، وخلَعَ على بدر الدين حسنَ بن نصر الله الفوّي باستقرارِهِ في نظر الجيش على عادته، وخلع على تقي الدين عبد الوهاب بن أبي شاكر باستقراره ناظرَ الخاصّ على عادته، ثمّ خلعَ على التّاج بن سِيفَا الشّوبَكِيّ القَازَانِيّ باسْتِقْرَارِهِ والي القاهرة عوضاً عن أَرْسَلَان، فعُدّ ذلك من أول سيّئات الأميرِ شيخ، وعَظُمَ ذلك على أعيان الدَّولة لعدم أهْلِيّة التّاج المذكور لذلك. ثمّ في ثامن شهر ربيع الآخر المذكور أخْرَجَ الأميرُ شيخ عدة بلادٍ من أوقاف الملكِ النّاصر فرج الموقوفة المحبسة، منها قرية مُنْبَابَة بالجيزة تجاه بولاق، وكان أوقَفَها الملكُ الناصرُ على التّرْبة الظّاهريّة، وناحية دَنْديل[٢]، وكانت أيضاً [موقوفة] على التّربة المذكورة، وأخرجَ عدة رِزَقٍ كثيرةٍ، [وهي] التي كانَ الناصرُ أخرجها وأوقفها في سلطنته.

---

(١) الترسيم: الحجز.

(٢) من قرى كورة البوصيرية. (معجم البلدان).

ثمّ تاسع عَشْرِهِ خَلَعَ الأتابَكُ شيخٌ على القضاة الأربعة وباستمرارهم، وخَلعَ على بَدْرِ الدين حسن بن مُحِبّ الدين الطَّرَابُلُسِيّ أستادار الأمير شيخ باسْتِقْرَارِهِ أستادار العالية، فنزلَ ابنُ مُحبّ الدين إلى دارِهِ وجميعُ أرباب الدولة في خدمتِهِ.

ثمّ في ثاني عشرينه استقرَّ شهابُ الدين أحمدُ الصَّفَدِيُّ مُوَقِّعُ الأمير شيخ في نظرِ البِيمارِسْتَان المَنْصُورِيّ عوضاً عن كاتب السرّ فتح الله، ومعها نظرُ الأحْبَاس عوضاً عن تاج الدين عبد الوهاب بن نصر الله، وخُلعَ على القاضي ناصرِ الدين محمّد بن البارِزِيّ باستقرارهِ موقّع الأمير الكبير شيخ عوضاً عن الشّهاب الصفَدِيّ المُقدّم ذكره.

وأما الأميرُ نَوْرُوزُ الحافظيّ، فإنه استولى على حَلَب، وهربَ منها الأميرُ دَمُرْدَاش المحمّديّ، وخَلعَ على يَشْبُك بن أَزْدَمُر بنيابتها، وخلعَ على الأمير طُوخ بنيابة طَرَابُلُس، وفرّق الإقطاعات والإمَريّات على أصحابه ومماليكه كيف يختارُ من غير مُعانِدٍ؛ غير أنه ندم على قُعَادِهِ بالبلاد الشامية غايةَ الندمِ في الباطنِ لا سيما لمَّا بلغهُ من أمرِ شيخ وعظمتِهِ بمصر ما بلغَهُ.

ثم في يوم الخميس سادس عشر جمادى الأولى، قُرِىء تَقْليدُ الأمير الكبير شيخ نظام المُلْك بأن الخليفةَ فَوَّض إليه ما وراء سَرير الخِلافة؛ فعند ذلك جلس الأتابَكُ شيخٌ بالحرّاقة من الإسْطَبْل السلطاني، وبين يديه القضاة وأرباب الدولة من أعيان الأمراء والمباشرين وغيرهم، وقَرَأ كاتِبُ السِّرِّ عليه القِصَص كما يقرؤها بين يَدي السّلطان. وتَلاشى أمْرُ الخليفة حتى صار كعادته أيام خلافته، غيرَ أنه في التَّرسِيم مَحْجوب عَمَّا يُرِيدُه.

ثُمّ في رابع عشرين جُمادَى الأولى المذكورة استَقرَّ القاضي صدر الدين عليّ بن الأدَمِيّ قاضي قضاة الحنفيّة بالديار المصرية بعد عزل قاضي القضاة ناصر الدين محمد بن العديم عنها. ثم أرسل الأتابَك شيخٌ دواداره الأميرَ جَقْمَق الأرغون شاوِيّ إلى البلاد الشَّاميّة ومعه تقاليدُ النواب الخليفتيّةُ باستمرارهم على عادتهم بما قرر الأمير نَوْرُوز بِرِضاه.

ثم في يوم الخميس ثامن جُمَادَى الآخرة، مات الأمير بَكْتَمُر جِلِّق من مرض تمادَى به نحو الشهرين؛ أصله من عَقرب لَسَعَتْه وهو قادم صحبة الخليفة والعساكر إلى الدِّيار المصرية بالرَّمل، فاشتد ألمه منها وأخذته الحُمَّى، ثم خرج من سيِّء إلى سيِّء إلى أن مات. فنزل الأتابَكُ شيخ راكباً وجميعُ الأمراء الخاصِّكيّة مُشاة حتى صَلَّى عليه بمصَلَّاة المؤمني من تحت القلعة، وعاد إلى باب السلسلة من غير أن يشهد دَفْنَه، وهو في غاية السُّرور، وقد صفا له الوقتُ بموت بَكْتَمُر المذكور، فإنّه كانَ عليه أشد من نَوْرُوز. وصَرَّح شيخ بعد موته بما كان يَسْتَكْتِمه من الوُثُوب على الأمراء، وخَلا لـه الجوُّ. ولَمَّا بلغ نَوْرُوزاً موتُه كـاد أن يهلك، وعَلم بما سيكون من أمر شيخ.

ثم استقر القاضي ناصر الدين بن البارزيّ مُوَقِّع الأتابَك شيخ بقراءة القصص على مخدومه الأتابَك شيخ، فانْحَطّ بذلك قدرُ فتح الدين فتح الله كاتب السر، وصار في وظيفته كالمعْزُول عنها، وقَلَّ تِرْدَادُ الناس إليه، وكثر تِرْدَادُهم إلى باب القاضي ناصر الدين بن البارِزيّ لقضاء حَوَائجهم.

ولما عَظُمَ أمْرُ الأتَابَك شيخ بعد موت بَكْتَمُر، ورأى أن الجوَّ قد خَلا له وما ثَمَّ مانع من سَلْطَنَتِه، طلب الأمراء وكَلَّمَهُم في ذلك، فأجاب الجميع بالسَّمْع والطَّاعة ــ طَوْعاً وكَرْهاً ــ واتفقوا عَلى سَلْطَنَتِه.

فلما كان يومُ الاثنين مستهل شعبان، وعُمِل المَوْكبُ عِنده على عادته بالإسطبل السلطانيّ، واجتمع القضاة الأربعة، قام فتح الله كاتبُ السر على قَدَمَيْه في الملأ وقال لِمَنْ حضر: «إن الأحْوال ضائقة، ولم يعهد أهل نواحي مصر اسم خليفة، ولا تستقيم الأمور إلا بأن يقوم سُلْطَانٌ على العادة»[1]، ودعاهم إلى

---

(١) أي على العادة في أن يكون السلطان تركياً والخليفة عباسياً. وقد أشار ابن إياس إلى ذلك بوضوح فقال: «ــ ثم إن الأتابكي شيخ بدا له أن يتسلطن ويخلع الخليفة العباس من السلطنة، فعند ذلك أحضر القضاة الأربعة وسائر الأمراء، وكتب محضراً بأن عربان الشرقية والغربية قد خرجوا من الطاعة، وكثر الفساد في البرّ والبحر، واضطربت الأحوال، وأن الوقت محتاج لإقامة سلطان تركي له سطوة يقمع أهل الفساد وتنصلح الأحوال على يده، فعند ذلك خلعوا الخليفة العباس من السلطنة ولم يخلعوه من الخلافة، فبايع الأتابكيُّ شيخ بالسلطنة» ــ بدائع الزهور: ٣١٢.

الأتابَك شيخ المحموديّ. فقال شيخٌ المذكور: «هذا لا يَتمُّ إلا برضاء الجماعة»، فقال مَن حضر بلسان واحد: «نحن راضون بالأمير الكبير». فمَدّ قاضي القضاة جلال الدين عبد الرحمن البُلْقِينيُّ يده وبايعه، فلم يختلف عليه اثنان. وخُلِع الخليفة المُستَعِين بالله العبّاس منَ السلطنة بغير رضاه.

وبعد سلطنة الملك المؤيد شيخ وجُلُوسِه على كُرْسِي المُلْكِ ـ حَسْبَمَا يَأتي ذِكْرُه بعد أن نذكر بقية ترجمة الغباس هذا ـ بَعَثَ إليه[1] القُضاة ليسلّموا عليه، ويُشْهِدوا عليه أنه فوّض إلى الأمير شيخ السلطنة على العادة؛ فَدَخَلُوا إليه وكَلَّمُوه في ذلك، فتَوَقَّف في الإشهاد عَلَيه بتفويض السلطنة تَوَقُّفاً كبيراً، ثُمَّ اشْتَرَطَ في أن يؤذَنَ له في النُّزُول مِنَ القَلْعَة إلى دَاره، وأَنْ يَحْلف له السلطانُ بأنَّه يُنَاصِحُهُ سِرّاً وجَهْراً، ويكون سِلْماً لمَنْ سالَمَه وحَرْباً لِمَنْ حاربه. فعاد القضاة إلى السلطان وردّوا الخَبَرَ عليه، وحَسَّنوا له العبارة في القول، فأجاب: «يُمَهَّلُ علينا أياماً في النزول إلى داره، ثم يُرْسَمُ له بالنزول». فأعادوا عليه الجواب بذلك وشَهِدوا عليه، وتوجهوا إلى حال سبيلهم.

وأقام الخليفة بقلعة الجبل محتفظاً به على عادته أوّلاً خليفة إلى ما يأتي ذِكْرُه. فكانت مُدَّة سلْطَنته من يوم جلس سلطاناً خارج دِمَشْق إلى يَوْمِ خَلْعِه يوم الاثنين أوَّل شَعْبان، سبعة أشهر وخمسة أيام. وأقام المستعين بقلعة الجبل إلى أن خُلِع مِنَ الخلافة أيضاً بأخيه المُعْتِضد داود بغير رضاه، كما وَقَعَ في خلعه من السلطنة، وكان ذلك في ذي الحجة سنة ست عشرة وثمانمائة. ودام مَخْلوعاً بقلعة الجبل في دار بالقلعة مدّة، ثم نُقِل إلى بُرْج بالقلعة إلى يوم عيد النَّحْر من سنة تسع عشرة وثمانمائة، فأنْزِل من القلعة نهاراً إلى ساحل النيل على فَرَس، وصحبته أولاد الملك الناصر فرج وهم: فرج، ومحمد، وخليل، وتوجّه معهم الأمير كُزُل الأرغون شاوِيّ [إلى الإسكندريّة][2]. فَدَام الخليفة المستعين هذا

(١) أي إلى الخليفة المستعين.

(٢) زيادة لتمام السياق.

مسجوناً بإسكندرية إلى أن نقلَهُ الملك الأشرف بَرْسباي إلى قاعةٍ بثَغْر الإسكندرية، فدام بها إلى أن تُوُفِّي بالطَّاعون في يوم الأربعاء لعشرين بَقَيْن من جمادى الأولى سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة، ولم يبلغ الأربعين سنة من العُمر. ومات وهو في زعمِه أنه مُسْتَمِرٌ على الخلافة، وأنه لم يُخْلَع بطريق شرعي، وعَهِدَ من بَعْدِه بالخلافة لِوَلده يحيى. فلمّا مات المعتَضدُ داود في يوم الأحد رابع شهر ربيع الأول من سنة خمس وأربعين وثمانمائة، تكلّم يحيى المذكور في الخلافة، وسَعَى سَعْياً عظيماً، فلم يَتِمَّ له ذلك، والله أعلم، والحمد لله على كلّ حال .

ذكر سلطنة الملك المؤيد شيخ(١) المحمودي على مصر

السلطان الملك المؤيد أبو النصر سيف الدين شيخ بن عبد الله المحمودي الظاهريّ؛ وهو السلطانُ الثامن والعشرون من ملوك التُّرْك بالديار المصريّة، والرابع من الجراكسة وأولادهم.

أَصْله من مماليك الملك الظَّاهر بَرْقُوق، اشتراهُ من أستاذه الخواجا محمود شاه البَرْزيّ في سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة، وبَرْقُوقُ يوم ذاك أتابك العساكر بالديار المصريّة قبل سلطنته بنحو السنتين، وكان عمرُ شيخ المذكور يوم اشتراه الملكُ الظاهرُ نحو اثنتي عشرة سنة تخميناً. وجعله بَرقوق من جُملة مماليكه، ثم أعتقه بعد سلطنته، ورَقّاه إلى أن جعله خاصّكيّاً ثم ساقياً(٢) في سلطنته الثانية. وغضب عليه الملك الظاهرُ بَرْقُوق غير مرّة، وضربه ضرباً مُبرحاً، لانهماكه في السّكر، وعزّره وهو لا يرجع عمّا هو فيه. كلُّ ذلك وهو في رتبته وخصوصيَّته عند أستاذه، إلى أن أنعم عليه الملك الظاهر بإمرة عشرة، ثم نقله إلى طبلخاناه(٣)، ثم خلع عليه باستقراره أمير حاج المحمل في سنة إحدى

(١) ترجمته وأخباره في: السلوك: ٢٤٣/٤ وما بعدها؛ ونزهة النفوس والأبدان: ٣١٧/٢؛ وإنباء الغمر: ٧٠/٧ وما بعدها؛ وبدائع الزهور: ٣١٣؛ والضوء اللامع: ٣٠٨/٣؛ وشذرات الذهب: ١٦٤/٧؛ والأعلام: ١٨٢/٣.

(٢) الساقي: هو الذي يتولى تقديم الشراب للسلطان، ويمدّ السماط، ويقطع اللحم. (صبح الأعشى: ٤٥٤/٥).

(٣) أي إمرة أربعين. وكان الأمراء أرباب السيوف في دولة المماليك على أربع طبقات:
الطبقة الأولى: أمراء المئين مقدّمو الألوف. ويكون في خدمة الواحد منهم مائة مملوك، ويكون في الحرب مقدّماً على الف من أجناد الحلقة. ومن هذه الطبقة يكون أكابر أرباب الوظائف والنواب.
الطبقة الثانية: أمراء الطبلخاناه: ويكون الواحد منهم مقدماً على عدد من الأجناد يتراوح بين الأربعين

وثمانمائة، فسار بالحج، وعاد، وقد مات أستاذه الملك الظاهر بَرْقُوق، فأنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرّية عوضاً عن الأمير بَجَاس النَّوْرُوزيّ بحكم لزوم بَجَاس دَاره لكبر سنّه. ثم استقرَّ بعد وقعة تنم الحسني في سنة اثنتين وثمانمائة في نيابة طرابلس عِوَضاً عن يُوُنس بَلْطَا بحُكم القبض عليه، فدام على نيابة طرابلس إلى أن أُسر في واقعة تَيْمُور مع من أُسر من النوّاب. ثم أطلق وعاد إلى الديار المصرية، وأقام بها مُدَّةً، ثم أُعيد إلى نيابة طرابلس ثانياً، ثم نُقل بعد مُدّة إلى نيابة دمشق. ثم وَقَعت تلك الفِتَنُ وثارت الحروب بين الأمراء الظاهريَّة، ثم بينهم وبين ابن أستاذهم الملك الناصر فرج، وقد مَرَّ ذكر ذلك كلّه مُستوفياً في ترجمة الملك الناصر وليس لذكره ههنا ثانياً محلّ. ولا زال شيخُ المذكور يُدَبِّرُ والأقدارُ تُساعِدُه إلى أن استولى على المُلك بعد القبض على الملك الناصر فرج وقتله.

وقَدِمَ إلى الديار المصرية وسكن الحرَّاقة من باب السلسلة، وصار الخليفة المستعين بالله في قبضته وتحت أوامره حتى أجمعَ الناسُ قاطبةً على سلطنته، وأجمعوا على توليته.

فلما حان يومُ الاثنين مُسْتَهَلَّ شعبان حضر القضاةُ وأعيانُ الأمراء وجميعُ العساكر وطلعُوا إلى باب السِّلْسِلَة. وتقدَّم قاضي القضاة جلالُ الدين البُلْقِيني

= والثمانين، ولا يقلّ عن الأربعين. ومن هذه الطبقة يكون أرباب الوظائف والكشاف بالأعمال وأكابر الولاة.

الطبقة الثالثة: أمراء العشرات. وفي خدمة الواحد منهم عشرة أجناد. وربما زاد العدد إلى عشرين أو ثلاثين فيقال: أمير عشرين أو أمير ثلاثين. ومع ذلك يبقى الأمير من هذه الطبقة معدوداً في أمراء العشرات. ومنهم يكون صغار الولاة ونحوهم من أرباب الوظائف.

الطبقة الرابعة: أمراء الخمسات. وهم كأكابر الأجناد، وعددهم قليل. وهؤلاء الأمراء معظمهم من أبناء الأمراء المقدّمين أو الطبلخانات تقديراً لخدمات آبائهم.

وبعد هذه الطبقات الأربع من الأمراء يأتي الأجناد. وهذا التقسيم لم يكن متعلقاً فقط بقيادة الجيوش وتولي وظائف الدولة، وإنما كان يرتبط به أيضاً توزيع الرواتب والجرايات والإقطاعات لكل واحد حسب رتبته.

انظر صبح الأعشى: ١٥/٤، وخطط المقريزي: ٢١٥/٢، وزبدة كشف الممالك: ١١١ ــ ١٢٠.

وبايعه بالسّلطنة. ثم قام الأميرُ شيخ من مجلسهِ ودخل مبيتَ الحَرّاقة بباب السِّلسلة، وخرج وعليه خلعةُ السَّلطنة السوداء الخَلِيفتي(١) على العادة، وركب فرس النَّوبة بشعار السَّلطنة، والأمراءُ وأربابُ الدّولة مشاةٌ بين يديه، والقبَّة والطير(٢) على رأسه حتى طلع إلى القلعة ونزل ودخل إلى القصر السُّلطاني، وجلس على تخت المُلك، وقبّلت الأمراءُ الأرض بين يديه، ودقت البشائر. ثم نُودي بالقاهرة ومصر باسمه وسلطنته. وخلع على القضاة والأمراء ومن لهُ عادةٌ في ذلك اليوم.

وتم أمرُه إلى يوم الاثنين ثامن شعبان جلس السُّلطانُ الملكُ المؤيَّد بدار العدل(٣)، وعُملَ الموكبُ على العادة. وخلع على الأمير يَلْبُغا النَّاصريِّ أمير مجلس باستقراره أتابكَ العساكر بديار مصر عوضاً عن الملك المؤيّد شيخ المذكور. ثم خلع على الأمير شاهين الأفرم باستمراره أمير سلاح على عادته، وعلى الأمير قاني باي المحمدي باستقراره أمير آخور كبيراً ـ وكانت شاغرة من يوم أُمسك الأمير أرْغُون من بَشْبُغا ـ وعلى الأمير طُوغان الحسني الدَّوادار الكبير باستمراره على عادته، وعلى الأمير سُودُون الأشقر رأس نوبة النُّوب باستمراره على عادته، وعلى الأمير إينال الصصلاني حاجب الحجاب باستمراره على وظيفته. ثم خلع على القضاة وعلى جميع أرباب الوظائف بأسرها. ثم خلع على الأمير طَربَاي الظاهريّ بتوجهه إلى البلاد الشامية مُبشراً بسلطنته، فتوجَّه إلى دمشق؛ وقبل وصوله إليها كان بلغ الأمير نَوْرُوز الحافظيّ الخبرُ، وأمسك جَقْمَق الأرْغُون شاويّ الدّوادار بعد قدومه من طرابلس إلى دمشق، فلما قَدِمَ طربايُ على نَوْرُوز المذكور، وعرفه بسلطنة الملك المؤيَّد، أنكر ذلك ولم يقبله ولا تحرك من مجلسه ولا مس المرسُوم الشَّريف بيده، وأطلق لسانه في حقِّ الملك المؤيَّد، وردّ

---

(١) الخلعة الخليفتي: وتسمى أيضاً السواد الخليفتي، نسبة إلى السواد الذي كان شعار الخلفاء العباسيين. وهي عمامة سوداء مدورة قدر ذراع تسمى التكفيفة أو الناعورة. وقد تكون لها قرون طوال، وتكون في مقام التاج. (نظم دولة سلاطين المماليك، للدكتور عبد المنعم ماجد: ١/٣٧).

(٢) يراد بها المظلّة. ـ راجع فهرس المصطلحات.

(٣) دار العدل أو الإيوان الكبير بالقلعة. ـ راجع فهرس الأماكن.

الأميرَ طَرَباي إلى الديار المصرية بجوابٍ خشنٍ إلى الغاية، خاطب فيه الملكَ المؤيَّدَ كما كان يخاطبه أوّلاً قبل سلطنته من غير أن يعترف له بالسلطنة. وكان حُضُورُ طَرَباي إلى القاهرة عائداً إليها من دمشق في يوم الثلاثاء أوَّل شهر رمضان من سنة خمس عشرة وثمانمائة، وكان الذي قَدِمَ صحبة طَرَباي من عند الأمير نَوْرُوز إلى القاهرة الأمير بَكْتَمُر السيفيّ تَغْري بردي، أعني أحد مماليك الوالد، وكان من جُملة أمراء الطبلخانات بدمشق؛ وكان قبل خروجه من دمشق أوصاهُ الأميرُ نَوْرُوز أنه لا يُقَبِّلُ الأرضَ بين يدي الملك المُؤيَّد، فلما وصل إلى الديار المصرية وحضر بين يدي السلطان أمرهُ أربابُ الدّولة بتقبيل الأرض فأبى وقال: «مُرسلي أمرني بعدم تقبيل الأرض»، فاستشاط الملك المؤيَّد غضباً وكاد أن يأمُرَ بضرب رقبته حتى شفع فيه من حضر من الأمراء، ثم قبَّلَ الأرض.

ثم في سابع عشر شهر رمضان المذكور أرسل الملك المُؤيَّدُ الشيخ شرف الدين بن التِّبَّاني الحنفيّ رسُولاً إلى الأمير نَوْرُوز ليترضاه، ويُكلِّمه في الطَّاعة له وعدم المخالفة؛ وسافر ابنُ التِّبَّانيّ إلى جهة الشام.

ثم في تاسع شوّال أمسك السلطانُ الملك المؤيد شيخ الأميرَ سُودُون المحمدي المعروف بتلي أي مجنُون، وقيَّده وأرسله إلى سجن الإسكندرية. ثم أمسك فتح الله كاتب السِّرِّ، واحتاط على موجُوده وصادره، فضُرب فتحُ الله المذكور وعُوقب أشدَّ عقوبة حتى تقرر عليه خمسون ألف دينار.

ثم في ثالث عشر شوّال استقرَّ القاضي ناصر الدين بن البارزيّ في كتابه السِّرِّ الشريف بالديار المصرية عوضاً عن فتح الله المذكور.

هذا، والأميرُ نَوْرُوز قد استدعى جميع النُّواب بالبلاد الشاميَّة، فحضر إليه الأميرُ يشبُك بن أزدمُر نائب حلب، والأمير طُوخ نائب طرابلس، والأمير قمش نائب حماة، وابن دُلْغَادِر، وتغري بَرْدى ابن أخي دَمُرْدَاش المدعو سَيِّدي الصَّغِير، فخرج الأمير نَوْرُوز إلى ملاقاتهم، والتقاهم وأكرمهُم، وعاد بهم إلى دمشق. وجمع القضاة والأعيان، واستفتاهم في سلطنة الملك المؤيد وحبسِهِ للخليفة وما أشبه ذلك، فلم يَتَكلَّم أحدٌ بشيء، وانفضَّ المجلسُ بغير طائل.

وأنعمَ نَوْرُوز على النّوّاب المذكورين في يوم واحد بأربعين ألف دينار، ثم رسم لهم بالتوجّه إلى محل ولاياتهم إلى أن يبعث يطلبهم.

وقَدِمَ عليه ابنُ التُّبّاني فمنعه من الاجتماع مع الناس، واحتفظ به بعد أن كلمه فلم يؤثِّر فيه الكلامُ. وأخذ الأمير نَوْرُوز في تقوية أمورِهِ واستعداده لقتال الملك المؤيّد شيخ، وطلب التُّركُمان، وأكثر من استخدام المماليك وما أشبه ذلك.

وبلغ الملكَ المؤيّد شيخاً ذلك فخلع في ثالث ذي الحجة من السنة على الأمير قَرْقَمَاس ابن أخي دَمُرْدَاش المدعو سيّدي الكبير باستقراره في نيابة دمشق عوضاً عن الأمير نَوْرُوز الحافظيّ. وعند خروجه قَدِمَ الخبرُ بمفارقة أخيه الأمير تَغْرِي بَرْدي سيّدي الصغير لِنَوْرُوز وقُدُومِه إلى صفد داخلًا في طاعة الملك المؤيّد شيخ، وكانت صَفَدُ في حُكم الملك المؤيَّد، فدقَّت البشائر بالديار المصرية لذلك.

وبينما الملك المؤيَّد في الاستعداد لقتال نَوْرُوز ثار عليه مرض المفاصل حتى لَزِم الفراش منه عدَّة أيام وتعطَّلَ فيها عن المواكب السلطانية.

وأما قَرْقَمَاس سيّدي الكبير فانه وصل إلى غزة، وسار منها في تاسع صفر وتوجَّه إلى صفد واجتمع بأخيه تَغْري بَرْدي سيّدي الصغير، وخرج في أثرهما الأميرُ أَلْطُنْبُغَا العثماني نائب غَزَّة، والجميعُ متوجِّهُون لقتال الأمير نَوْرُوز ـ وقد خرج نَوْرُوز إلى جهة حلب ـ ليأخذوا دِمَشْق في غيبة الأمير نَوْرُوز، فَبَلَغهم عَوْدُ نَوْرُوز من حلب إلى دمشق، فأقاموا بالرّملة.

ثمّ قَدِمَ على السلطان آقبُغا بجواب الأمير دَمُرْدَاش المحمدي ونوّاب القلاع بطاعتهم أجمعين للسلطان الملك المؤيّد، وصحبته أيضاً قاصدُ الأمير عُثمان بن طُرْعَلِي المعروف بِقَرَايُلُك[1]، فخلع السلطان عليهما، وكتب جوابهما بالشكر والثناء.

(١) سبق التعريف به وضبط الاسم. راجع فهرس الأعلام.

ثم في أوّل شهر ربيع الآخر قبض السلطان على الأمير قَصْرُوَه من تِمْراز الظاهريّ، وقيّده وأرسله إلى سجن الإسكندرية. وشرع الأميرُ نَوْرُوز كلما أرسل إلى الملك المؤيّد كتاباً يخاطبه فيه بمولانا، ويفتتحه بالإمامي المستعيني(١)، فيعظُمُ ذلك على الملك المؤيَّد إلى الغاية.

ولما بلغ نَوْرُوز قدومُ قَرْقَماس بمن معه إلى الرَّملة سار لحربه، وخرج من دمشق بعساكره. فلما بلغ قَرْقَماس وأخاه ذلك عادا بمن معهما إلى جهة الديار المصرية عجزاً عن مقاومته حتى نزلا بالصالحية.

وأما الملك المؤيَّد فإنه لما كان رابع جمادى الأولى أوفى النيلُ ستة عشر ذراعاً، فركبَ الملكُ المؤيَّدُ في قلعة الجبل، ونزل في موكب عظيم حتى عدَّى النيلَ وخلَّق المقياس على العادة، وركب الحراقة لفتح خليج السَّد؛ فأنشده شاعرُه وأحدُ ندمائه الشيخُ تقي الدين أبو بكر بن حجَّة الحموي الحنفي يخاطبه: [الطويل]

أيـا ملِكـاً بـالله أضحَى مُؤيّـداً ... ومُنْتَصِباً في مُلْكِهِ نَصْبَ تَمْييـز
كَسَرْت بِمسْرَى نِيلَ مِصْرَ وتَنْقَضِي ... ــ وَحَقِّكَ ــ بَعْدَ الكسْرِ أيَّامُ نورُوز

فحسُن ذلك ببال السلطان الملك المؤيَّد إلى الغاية. ثم ركب الملك المؤيَّد وعاد إلى القلعة. وأصبح أمسك الوزير ابن البشيري، وناظر الخاص ابن أبي شاكر، وخلع على الصاحب تاج الدين عبد الرزاق بن الهَيْصَم باستقراره وزيراً عوضاً عن ابن البشيري، فعاد تاجُ الدين إلى لبس الكُتَّاب(٢) ــ فإنه كان تزيَّا بزيِّ الجند لمَّا استقرَّ أستاداراً بعد مسك جمال الدين في الدولة الناصرية ــ وتسلم ابن البشيريّ. وخلع [السلطان] على الصاحب بدر الدين حسن بن نصرالله ناظر الجيش باستقراره في نظر الخاص عوضاً عن ابن أبي شاكر، وخلع على

(١) إشارة إلى استمراره على ولائه للمستعين.

(٢) هذه إشارة إلى أنه عيِّن وزيراً صاحب قلم. وكان الوزراء على نوعين: وزير صاحب سيف، ووزير صاحب قلم. وكانت رتبة الوزير من أرباب السيوف تعلو على رتبة الوزير من أرباب الأقلام. وزيّ الكتّاب وأرباب الأقلام كان العمامة ومتعلّقاتها.

علم الدين داود بن الكُوَيْز باستقراره ناظر الجيش عوضاً عن ابن نصر الله المذكور. ثم خلع السلطانُ على الأمير سُودُون الأشقر رأس نوبة النُّوب باستقراره أميرَ مجلس ــ وكانت شاغرة عن الأمير يَلْبُغا الناصري ــ وخلع على الأمير جاني بك الصُّوفِّي باستقراره رأس نوبة النُّوب عوضاً عن سُودُون الأشقر. وكان جاني بك الصُّوفي قَدِمَ هو والأميرُ أَلْطُنْبُغا العثماني نائب غزة، وتَغْري بَرْدي سيّدي الصغير، وأخوه قَرْقَماس سيدي الكبير المتولِّي نيابة دمشق، فأقام الأخوان ــ أعني قَرْقَماس وتَغْري بَرْدِي ــ على قطيا، ودخل جاني بك الصُّوفي و[أَلْطُنْبُغا] العثماني إلى القاهرة.

ثم في سادس عشر جمادى الأولى المذكور أُشيع بالقاهرة رُكُوب الأمير طُوغان الحسني الدوادار على السلطان ومعه عدّةٌ من الأمراء والمماليك السُّلطانية. وكان طُوغان قد اتَّفق مع جماعة على ذلك، ولمَّا كان الليل انتظر طُوغان أن أحداً يأتيه ممن اتَّفق معه فلم يأته أحدٌ، حتى قرب الفجر، وقد لبس السلاح وألبس مماليكه؛ فعند ذلك قام وتسحَّب في مملوكين واختفى. وأصبح الناسُ يوم الثلاثاء سابع عشر جمادى الأولى والأسواقُ مُغلقةٌ والناسُ تترقَّبُ وقوع فتنة. فنادى السلطانُ بالأمان، وأنَّ من أحضر طُوغان المذكور فَلَهُ ما عليه مع خُبْز[1] في الحلقة. ودام ذلك إلى ليلة الجمعة عشرينه، فوُجد طُوغان بمدينة مصر، فأُخذَ وحُمل إلى القلعة، وقيِّد وأُرسل إلى الإسكندرية صُحبة الأمير طُوغان أمير آخور الملك المؤيد.

(١) الخبز هو الاقطاع. والحلقة كانت عبارة عن فئة من الأجناد مكوّنة من محترفي الجندية من مماليك السلاطين السابقين وأولادهم. وهي أقرب الفئات إلى نظام الجيش الثابت في العصور الحديثة. وكانت مرتباتها من ديوان الجيش. وبالإضافة إلى أجناد الحلقة كان الجيش المملوكي يضم فئة المماليك السلطانية، وهم مشتريات السلطان وأجلابه (ومن بينهم الخاصّكية) وما يتبقى عنده من مماليك من سبقه في السلطنة (ومن بين هؤلاء القرانيص)، ثم فئة مماليك الأمراء وهم يتبعون أمراءهم مباشرة. ــ انظر: G.Demombynes:La Syrie à L'èpoque des MamLouks, P.xxx, Paris 1922. والظاهر أن تكوين جند الحلقة لم يتّسم بالثبات على امتداد عصر المماليك فكان يضم عدداً من أرباب الصنائع ورجال الدين. ويرى البعض أن أجناد الحلقة كانوا أساساً من الأحرار وليس المماليك وأنهم كانوا قوى محليّة متطوّعة أشبه ما يكون بالميليشيا ــ راجع فهرس المصطلحات.

ثم أصبح السلطانُ من الغد أمسك الأميرَ سُودُون الأشقر أمير مجلس والأمير كَمَشْبُغا العِيسَاوِيَّ أمير شكار[١]، وأحد مقدّمي الألوف، وقُيِّدَا وحُمِلا إلى الإسكندرية صُحبة الأمير بَرْسِبْاي الدُّقْماقي، أعني الملك الأشرف الآتي ذكره في محله إن شاء الله تعالى.

ثم بعد يومين وسَّطَ السلطانُ أربعة، أحدهُم الأمير مُغُلْبَاي نائب القُدس من جهة الأمير نَوْرُوز؛ وكان قَرْقَمَاس سيِّدي الكبير قد قبض عليه وأرسله مع اثنين أُخر إلى السلطان، فوسط السلطانُ الثلاثة وآخر من جهة طُوغان الدَّوادار.

ثم في يوم الاثنين ثامن عشرينه أنعم السلطانُ بإقطاع طوغان على الأمير إينال الصَّصْلاني، وأنعم بإقطاع سُودُون الأشقر على الأمير تَنِبَك البَجَاسيّ نائب الكَرَكَ ـ كان ـ ثم خلع على الصَّصْلاني باستقراره أميرَ مجلس عوضاً عن سُودُون الأشقر أيضاً، وخلع على الأمير قُجَق أيضاً باستقراره حاجب الحجَّاب عوضاً عن الصَّصْلاني، وخلع على شاهين الأفرم أمير سلاح خلعة الرضى، لأنه كان اتُّهِمَ بممالأة طُوغان، ثم خلع السلطان على مملوكه الأمير جانِبَك الدَّوادار الثاني وأحد أمراء الطَّبلخانات باستقراره دَوَادَاراً كبيراً عوضاً عن طُوغان الحسني، وخلع على الأمير جرباش كبّاشة باستقراره أمير جاندار.

ثم في يوم الاثنين سلخ جمادى الأولى خلع السلطانُ على فخر الدين عبد الغني ابن الوزير تاج الدين عبد الرزاق بن أبي الفرج كاشف الشرقية والغربية باستقراره أستاداراً عوضاً عن بدر الدين بن محب الدين، وخلع على بدر الدين المذكور باستقراره مُشيرَ الدولة[٢].

ثم في يوم الأربعاء سادس شهر رجب قَدِمَ الأمير جار قُطلو أتَابَك دِمشق إلى الديار المصرية فاراً من نَوْرُوز وداخلا في طاعة الملك المؤيد، فخلع عليه السلطانُ وأكرمه.

---

(١) هو الذي يتولى أمر الجوارح السلطانية من طيور الصيد وغيرها. ـ راجع فهرس المصطلحات.

(٢) هو كبير أمراء المشورة. ـ راجع فهرس المصطلحات.

وفي ثامن شهر رجب كان مهمٌّ[١] الأمير صارم الدين إبراهيم ابن السلطان الملك المؤيد على بنت السلطان الملك الناصر فرج، وهي التي كان تزوجها بَكْتمُر جِلّق في حياة والدها.

ثم قدم الأمير أَلْطُنْبُغَا القَرْمَشيّ الظاهري نائب صفد إلى القاهرة في ثامن عشر شهر رجب باستدعاء، وقد استقرّ عوضه في نيابة صفد الأمير قرقماس ابن أخي دَمُرْدَاش، وعُزِل عن نيابة الشام، كونه لم يتمكن من دخول دمشق لأجل الأمير نَوْرُوز الحافظيّ. وكان قَرقُماس المذكور من يوم ولي نيابة دمشق، وخرج من القاهرة ليتوجه إلى الشام، صار يترددُ بين غَزَّة والرّملة؛ فلما طال عليه الأمرُ ولّاه الملكُ المؤيد نيابة صفد، واستقرَّ أخُوه تَغْري بَرْدي سيدي الصغير في نيابة غَزَّة عوضاً عن أَلْطُنْبُغَا العثماني، وعندما دخل قَرْقماس إلى صفد قصده الأميرُ نَوْرُوز، فأراد قَرْقماس أن يطلع إلى قلعة صفد مع أخيه تَغْرِي بَرْدي فلم يتمكن منها هو ولا أخوه، فعاد إلى الرملة. ولا زال قرقماس بالرَّملة إلى أن طال عليه الأمرُ، قصد القاهرة حتى دخلها في يوم ثامن عشر شعبان، فأكرمه السلطانُ وأنعم عليه، وأقام أخوه تَغْرِي بَرْدي على قطيا. وهذا كان دأبُهم أنهم الثلاثة لا يجتمعون عند[٢] ملك: أعني دَمُرْداش وأولاد أخيه قَرْقماس وتغْري بَرْدي، فدام قَرْقَماسُ بديار مصر وهو آمنٌ على نفسه كون عمه الأمير دَمُرْدَاش المحمدي في البلاد الحلبيَّة.

وأما أمر دَمُرْدَاش المذكور فإنه لما أخذ حلب قصده الأميرُ نَوْرُوز في أوَّل صفر وسار من دِمشق بعساكره حتى نزل حماة في تاسع صفر. فلما بلغ دَمُرداش ذلك خرج من حلب في حادي عشر صفر ومعه الأمير بُرْدُبَك أتابَك حلب والأمير شاهين الأَيْدُكاري حاجب حجّاب حلب، والأمير أَرْدُبْغا الرشيدي، والأمير جَرْبُغا، وغيرهم

---

(١) يستعمل المؤلف هذا التعبير عادة للدلالة على الاحتفال بإحدى المناسبات كعقد القران أو الطهور أو الاحتفاء بأحدهم.

(٢) في الأصل: «تجتمع».

من عساكر حلب، ونزل دَمُرْداش بهم على العمق[١]، فحضر إليه الأمير كُردي بن كَنْدَر[٢] وأخوه عمر وأولاده أوْزَر، ودخل الأمير نَوْرُوز إلى حلب في ثالث عشر صفر بعدما تلقّاه الأميرُ آقْبُغا جركس نائب القلعة بالمفاتيح. فولّى نَوْرُوز الأمير طُوخاً نيابة حلب عوضاً عن يشبُك بن أزْدَمُر برغبة يَشبُك عنها لأمرٍ اقتضى ذلك، وولّى الأمير يَشبُك الساقي الأعرج نيابة قلعة حلب، وولّى عمر بن الهيدباني حجوبية حلب، وولّى الأمير قمش نيابة طرابلس.

ثم خرج نَوْرُوز من حلب في تاسع عشر صفر عائداً إلى نحو دمشق، ومعه الأمير يشبُك بن أزْدمُر، فقدم دمشق في سادس عشرين صفر المذكور. وبعد خروج نَوْرُوز من حلب قصدها الأميرُ دَمُرْداش المقدم ذكره حتى نزل على بانْقُوسا[٣] في يوم سادس عشرين صفر أيضاً، فخرج إليه طُوخ بمن معه من أصحاب نَوْرُوز وقاتلوه قتالاً شديداً إلى ليلة ثامن عشرين صفر فقدِمَ عليه الخبرُ بأن الأمير عجل بن نُعَير قد أقبل لمحاربته نُصْرَةً للأمير نَوْرُوز، فلم يثبت دَمُرداش لعجزه عن مقاومته، ورحل بمن معه من ليلته إلى العمق، ثم سار إلى أعزاز[٤] فأقام بها.

فلما كان عاشر شهر ربيع الأوّل بعث طوخ نائبُ حلب عسكراً إلى سرمين[٥] وبها آق بَلاَط دَوَادار دِمُرداش المذكور فكبسوه، فثار عليهم هو وشاهين الأيْدُكاري ومن معهما من التّراكمين وقاتلوهم وأسروا منهم جماعة كثيرة وبعثوا بهم

---

(١) العمق، بفتح أوله وسكون ثانيه: كورة بنواحي حلب. أما العُمَق، بضم أوله وفتح ثانيه، فهو موضع على جادة الطريق إلى مكة بين معدن بني سليم وذات عرق. والعامة تقول «العمق» بضمتين، وهو خطأ. (معجم البلدان).

(٢) هو كردي بن كندر الشهير بكردبك التركماني، أمير التركمان بالعمق من أعمال حلب. شنق تحت قلعة حلب سنة ٨٢٤هـ. (الضوء اللامع: ٦/٢٢٧).

(٣) بانقوسا: جبل في ظاهر حلب من جهة الشمال. (معجم البلدان).

(٤) أعزاز، ويقال عزاز: شمالي حلب، بينها يوم. (معجم البلدان).

(٥) سرمين: مدينة في الغرب من حلب، على نحو مرحلتين صغيرتين منها. (صبح الأعشى: ٤/١٢٦).

إلى الأمير دَمُرداش، فسجن دَمُرداش أعيانهم في قلعة بَغْراص(١) وجدع أناسِيَ أكثرهم، وأطلقهم عُرَاةً، وقتل بعضهم.

فلما بلغ طُوخ الخبرُ ركب من حلب ومعه الأميرُ قمش نائب طرابلس، وسار إلى تلِّ باشر(٢)، وقد نزل عليه العجلُ بن نعير، فسأله طوخ أن يسير معهما لحرب دَمُرداش، فأنعم(٣) بذلك ثم تأخر عنهما قليلاً؛ فبلغهما أنه اتّفق مع دُمرداش على مسكهما، فاستعدا له وترقّباه حتى ركب إليهما في نفرٍ قليل ونزل عندهما ودعاهما إلى ضيافته وألحَّ عليهما في ذلك، فثارا به ومعهم جماعةٌ من أصحابهما فقتلوه بسيوفهم في رابع عشرين شهر ربيع الأول، ودخلا من فورهما عائدين إلى حلب. وكتبا بالخبر إلى نَوْرُوز وطلبا منه نجدةً؛ فإن حسين بن نعير قد جمع العرب ونزل على دَمُرداش فسار به دَمُرداش إلى حلب وحصرها. وصعد طوخ وقمش إلى قلعة حلب واشتدَّ القتالُ بينهم إلى أن انهزم دَمُرداش وعاد إلى جهة العمق. وشاورَ [دَمُرْداش] أصحابه فيما يفعل، وتحير في أمره بين أن ينتمي إلى نَوْرُوز ويصير معه على رأيه ـ وكان قد بعث إليه بألف دينار ودعاه إليه ـ وبين أن يقدم على السلطان الملك المؤيد شيخ؛ فأشار عليه جُلُّ أصحابه بالانتماء إلى نَوْرُوز إلا آق بَلَاط دَواداره فإنه أشار عليه بالقدوم على السلطان، فسأله دَمُرداش عن ابن أخيه قَرْقَماس وعن تَغْري بَرْدي فقال: «قَرْقَماس في صفد وتَغْري بَرْدي في غزة»، وكان ذلك بدسيسة دسَّها الملكُ المؤيدُ لآق بَلَاط المذكور، فمال عند ذلك دَمُرداش إلى كلامه، وركب البحرَ حتى خرج من الطينة(٤) وقَدِمَ إلى القاهرة في أول شهر رمضان، فأكرمه السلطانُ وخلع عليه.

ولما قدم دَمُرْداش إلى القاهرة وجد قَرْقَماس بها وتَغْرِي بَرْدي بالصَّالحية،

---

(١) بغراص، ويقال بغراس: قلعة شمالي حلب، على نحو أربع مراحل منها. (صبح الأعشى: ٤/١٢٢).

(٢) تلّ باشر: حصن شمالي حلب على مرحلتين منها بالقرب من عينتاب. (صبح الأعشى: ٤/١٢٧).

(٣) أنْعَم له: قال له نعم.

(٤) الطينة: مدينة قديمة كانت موجودة بقرب الموضع الذي بنيت فيه مدينة بور سعيد على البحر الأبيض المتوسط. (خطط علي مبارك: ١٨/١٣٤ ـ ١٣٥).

فَنَدِمَ على قدومه وقال لابن أخيه قَرْقَماس: «ما هذه العملة؟ أنت تقول إنك بصفد فألقاك بمصر»، فقال قَرْقَماس: «ومن أي شيء تخاف يا عمّ؟ هذا يمكنه القبض علينا ومثلُ نَوْرُوز يخاصمه؟! إذا أمسكَنا بمن يلقي نَوْرُوز ويقاتله؟ والله ما أظنك إلا قد كبرت ولم يبق فيك بقية إلا لتعبئة العساكر لا غير»، فقال له دَمُرْدَاش: «سوف تَنْظُر». واستمرّ دَمُرْداش وقَرْقَماس بالقاهرة إلى يوم سابع شهر رمضان المذكور عيَّن السلطان جماعةً من الأمراء لِكَبْس عُرْبَان الشرقيّة، وهم: سُودُون القاضي، وقَجْقَار القَرْدَمِيّ، وآقْبَرْدِي المِنْقار المؤيَّدي رأس نَوْبَة، ويشبُك المؤيَّدي شادّ الشّراب خَانَاه، وأسرَّ إليهم السلطانُ في الباطن بالتوجّه إلى تَغْرِي بَرْدِي المدعو سيِّدي الصغير ابن أخي دَمُرْدَاش، والقبض عليه، وحَملِهِ مقيَّداً إلى القاهرة، وكان تَغْرِي بَرْدي المذكور نازلاً بالصّالحية، فساروا في ليلة السبت ثامنه. وأصبح السلطانُ في آخر يوم السبت المذكور استدعى الأمراء للفطر عنده، ومَدَّ لهم سماطاً عظيماً، فأكلوا معه وتبسّطوا. فلما رُفِع السِّماط قام السلطانُ من مجلسه إلى داخل، وأمر بالقبض على دَمُرْداش المحمدي وعلى ابن أخيه قَرْقماس وقَيَّدَهُما وبعثهما من ليلته إلى الإسكندرية فَسُجِنَا بها. وبعد يوم حضر الأمراءُ ومعهم تَغْرِي بَرْدي سيّدي الصغير مُقيداً ـ وكان الملك يَكْرَهُه، فإنه لم يزل في أيام عصيانه مُبايناً له ـ فحبسه بالبُرج بقلعة الجبل، ثم سجد المؤيد شكراً لله الذي ظفَّره بهؤلاء الثلاثة الذين كان الملك الناصر [فرج] عجز عنهم، ثم قال: «الآن بقيتُ سلطاناً».

وبقي تغْري بَرْدي المذكور مسجوناً بالبُرج إلى أن قُتل ذبحاً في ليلة عيد الفطر، وقُطعت رأسُه وعُلِّقت على الميدان.

ثم خلع السلطانُ على الأمير قاني باي المحمدي الأمير آخُور باستقراره في نيابة دمشق عوضاً عن نَوْرُوز الحافظيّ، وخلع على الأمير أَلْطُنْبُغَا القَرْمَشيّ المعزول عن نيابة صفد باستقراره أمير آخور كبيراً عوضاً عن قاني باي المذكور، وخلع على الأمير إينال الصَّصْلاني أمير مجلس باستقراره في نيابة حلب، وخلع على الأمير سُودُون قراصُقْل باستقراره في نيابة غَزَّة عوضاً عن تَغْرِي بَرْدي سيّدي الصغير.

ثم خلع السلطان على قاضي القضاة ناصر الدين بن العديم الحنفي بعوده إلى قضاء القضاة بالديار المصرية بعد موت قاضي القضاة صدر الدين علي بن الأدميّ الدِّمشقي.

ثم في ثامن شوال خلع السلطان علي بدر الدين بن محب الدين المشير باستقراره في نيابة الإسكندرية بعد عزل خليل التِّبريزيّ الدُّشَاريّ.

ثم عدَّى السلطانُ ـ في يوم الخميس ثالث ذي القعدة ـ إلى بر الجيزة إلى وسيم[(١)] حيث مربط خيوله، وأقام به إلى يوم الاثنين حادي عشرينه. وطلع إلى القلعة ونصب جاليش السفر عن الطَّبلخاناه السلطانية؛ ليتوجّه السلطانُ لقتال نَوْرُوز. وأخذ السلطانُ في الاستعداد هو وأمراؤه وعساكره حتى خرج في آخر ذي القعدة الأميرُ إينال الصَّصْلاني نائب حلب وسُودُون قراصُقل نائب غزَّة إلى الرَّيدانيّة خارج القاهرة، ثم خرج الأميرُ قاني باي المحمدي نائب الشام في يوم الخميس سادس عشر ذي الحجّة ونزل أيضاً بالرَّيدانيّة.

وفي يوم الخميس المذكور خُلع[(٢)] المستعينُ بالله العباسُ من الخلافة واستقرَّ فيها أخوهُ المعتضد داود؛ وقد تقدَّم ذكرُ ذلك في ترجمة المستعين المذكور.

ثم شرع السلطانُ في النَّفقة على المماليك السلطانية لكل واحد مائة دينار ناصرية[(٣)]. ثم رحل قاني باي نائبُ الشام من الرَّيْدَانيّة.

---

(١) وسيم، ويقال: أوسيم ـ راجع فهرس الأماكن.

(٢) ذكر المقريزي أن السلطان استدعى القضاة في هذا اليوم وداود بن المتوكل وخلع عليه فقط ولم تقع مبايعة. (السلوك: ٢٧٤/٤). وذكر ابن حجر أن المبايعة تمّت في اليوم التالي أي الجمعة سابع عشر ذي الحجة. (إنباء الغمر: ١١٥/٧).

(٣) الدينار الناصري: نسبة إلى الناصر فرج بن برقوق. وكان نقش وجه الدينار: «ضُرب بالقاهرة سنة ست ـ السلطان الملك الناصر أبو السعادات فرج ابن الشهيد الملك الظاهر أبو سعيد برقوق». ونقش ظهره: «لا إله إلا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله». (النظم الاقطاعية لإبراهيم طرخان: ص ٥٣٤) ـ قال المقريزي: وهو من الذهب، وزنة كل دينار منه تسعة عشر قيراطاً من أربعة وعشرين. وذهبه دون الحايف (أي أن عياره دون الحد المطلوب) وبلغ كل دينار منه إلى مائتي درهم وعشرة دراهم. (السلوك: ٣٠٦/٤).

وفي ثامن عشرينه غضب السلطانُ على الوزير تاج الدين عبد الـرّزّاق بن الهيصم، وضربه وبالـغ في إهانته، ثم رضي عنه وخلـع عليه خلعة الرِّضى. ثم في سابـع عشرينه نُصب خامُ(١) السلطان بالرَّيدانيّة.

قـال المقريـزي رحمه الله: وفي هـذا الشهـر قَـدِمَ الأميـر فخـر الـدين ابن أبـي الفرج من بلاد الصعيد، في ثالث عشرينه، بخيـلٍ وجمالٍ وأبقـارٍ وأغنامٍ كثيرة جداً، وقد جمـع المـال من الذَّهب وحُليِّ النِّسـاء [مـع السلاح والغلال](٢) وغير ذلك من العبيد والإماء والحرائر اللاتي اسْتَرَقَّهُن. ثم وَهَب منهنّ وباع باقيهنّ؛ وذلك أنه عمل في بلاد الصعيد كما يعمل رؤوس المناسر(٣) إذا هم هَجَمُوا ليلاً على القرية [وتمكّنوا بها](٢)؛ فإنه كان ينزل ليلاً بالبلد فَيَنْهَبُ جميـع ما فيها من غلال وحيوان، وسلب النساء حليّهن وكسوتهن بحيث لا يسيـر عنها لغيرها حتى يتركها عُريانة(٤)، فَخَربت ــ بهذا الفعل ــ بلادُ الصَّعيد تخريباً يُخشى من سوء عاقبته. فلما قَدِمَ إلى القاهرة شرع في رمي(٥) الأصناف المذكورة على الناس من أهل المدينة وسكَّان الريف وذلك بأغلى الأثمان، ويحتاج من ابْتُلِيَ بشيء من ذلك أن يتكلف لأعوانه من الرُّسُل ونحوهم شيئاً كثيراً [سوى ما عليه من ثمن ما رمي عليه](٢) ــ انتهى كلام المقريزي.

ثم إن السلطان الملك المؤيّد لما كان يوم الاثنين رابـع محرم سنة سبـع عشرة وثمانمائة ركب من قلعة الجبل بأُمرائه وعساكره بعد طُلُوع الفجر، وسار حتى نزل بمخيَّمه من الرَّيْدَانيّة خارج القاهرة من غير تطليب(٦). ثم خرجت الأطلابُ والعساكر في أثناء النهار بعد أن خلـع على الأمير أَلْطُنْبُغَا العثماني بنيابة

---

(١) في إنباء الغمر: «الخيام السلطاني». والمراد واحد.
(٢) زيادة عن السلوك للمقريزي.
(٣) المناسر هم قطّاع الطرق.
(٤) عبارة المقريزي: «حتى يتركها أوحش من بطن حمار».
(٥) أي عرض الأصناف تلك على الناس وإلزامهم بشرائها.
(٦) أي من غير ترتيب الأطلاب وتسييرها. والأطلاب فرق من المماليك، تكون كل منها مختصّة بأمير. وللسلطان طلبه الخاص. ــ راجع أيضاً فهرس المصطلحات.

الغيبة، وأنزله بباب السِّلسلة، وجعل بقلعة الجبل بُرْدُبَك قصقاً، وجعل بباب السِّتارة من قلعة الجبل صُوماي الحسنيّ، وجعل الحُكمَ بين الناس للأمير قُجَق الشَّعبانيّ حاجب الحجَّاب. ثم رحل الأمير يَلبُغَا النَّاصريّ أتابك العساكر جاليشاً(١) بمن معه من الأمراء في يوم الجمعة ثامنه. ثم استقلّ السلطان ببقيّة عساكره من الرِّيدانية في يوم السبت تاسعه، وسار حتى نزل بغَزَّة في يوم الثلاثاء تاسع عشر المحرّم، وأقام بها أيّاماً إلى أن رحل منها في تاسع عشرينه. وسار على هِينتِهِ(٢) حتى نزل على قُبَّة يَلْبُغَا خارج دمشق في يوم الأحد ثامن صفر من سنة سبع عشرة المذكورة. ولم يخرج نَوْرُوز لقتاله، فحمد الله ــ المؤيدُ ــ على ذلك، وعلم ضعف أمره؛ فإنه لو كان فيه قوة كان التقاهُ من أثناء طريقه.

وكان سير الملك المؤيّد على هِينتِهِ حتى يبلُغَ نَوْرُوز خبرُه ويطلع إليه فَيَلْقاه في الفلا(٣)؛ فلما تأخر نَوْرُوز عن الطلوع اطمأنّ الملكُ المؤيد لذلك وقوي بأسُه. غير أن نَوْرُوز حصَّن مدينة دمشق وقلعتها وتهيّأ لقتاله، فأقام السلطانُ بقُبَّة يَلبُغَا أيَّاماً، ثم رحل منها ونزل بطرف القُبيبات. وكان السلطان في طُولِ طريقه إلى دمشق يطلُب موقعي(٤) أكابر أمرائه خفية ويأمرهم أن يكتبوا على لسان مخاديمهم إلى نوروز «أننا بأجمعنا معك، وغرضُنا كُلُّه عندك»، ويُكثر [واحدهم] من الوقيعة في الملك المؤيد، ثم يقول في الكتاب: «وإنك لا تخرُج من دمشق، وأقم مكانك، فإننا جميعاً نفرُّ من المؤيد ونأتيك»، ثم يضع من نفسه ويرفع أمر نَوْرُوز ويعدّ محاسنه ويذكر مساوىء نفسه؛ فمشى ذلك على نَوْرُوز وانخدع له، مع ما كان حسّن له أيضاً بعضُ أصحابه في عدم الخروج والقتال؛ أرادوا بذلك ضجر الملك المؤيد وعوده إلى الديار المصرية بغير طائل حتى يستفحل أمرُهم بعوده، فكان مراد الله غير ما أرادوا.

---

(١) أي مقدمة وطليعة للجيش. ــ راجع أيضاً فهرس المصطلحات.

(٢) أي سار على رِسْله.

(٣) في إنباء الغمر: «وكان سبب تباطئه في السير الاحتراز على نفسه من أعدائه وممن معه».

(٤) الموقّع: هو الذي يكتب المكاتبات والولايات في ديوان الإنشاء السلطاني أو لدى أمير. (صبح الأعشى: ٤٦٥/٥) ــ راجع أيضاً فهرس المصطلحات: كاتب الدرج، وكاتب الدَّست.

ثم أرسل السلطانُ الملك المؤيد قاضي القضاة مجد الدين سالم الحنبلي إلى الأمير نَوْروز في طلب الصُّلح، فامتنع نَوْروز من ذلك وأبى إلا الحرب والقتال؛ وكان ذلك أيضاً خديعة من الملك المؤيد. وعندما نزل الملك المؤيدُ بطرف القُبيبات خرج إليه عساكر نَوْرُوز، فَنَدب إليهم السلطانُ جماعةً كبيرة من عسكره، فخرجوا إليهم وقاتلوهم قتالاً شديداً، فانكسر عسكر نَوْروز وعاد إلى دمشق. فركب نَوْروز في الحال وطلع إلى قلعة دمشق وامتنع بها. فركب الملك المؤيد في سادس عشرينه ونزل بالميدان يحاصر قلعة دمشق.

ولما قيل للمؤيد إن نَوْروز طلع إلى قلعة دمشق لم يحمل الناقل له على الصِّدق، وأرسل من يثقُ به، فعاد عليه الخبرُ بطلوعه إليها. فعند ذلك تعجَّب غاية العجب، فسأله بعضُ خواصِّه عن ذلك فقال: «ما كنتُ أظن أن نَوْرُوز يطلع القلعة وينحصرُ فيها أبداً، لما سمعتُه منه لما دخل الملكُ الناصرُ إلى قلعة دمشق؛ وهو أنه لما بلغنا أن الناصر دخل إلى قلعة دمشق قال نَوْرُوز: ظفرنا به وعزَّةِ الله! فقلت: وكيف ذلك؟ فقال: الشخصُ لا يدخل القلعة ويمتنع بها إلا إذا كان خلفه نجدةٌ، أو أخصامُه لا يمكنهم محاصرته إلا مُدَّةً يسيرة ثم يرحلون عنه، وهذا ليس له نجدة، ونحن لو أقمنا على حصاره سنين لا نذهبُ إلا به فهو مأخوذٌ لا محالة. فبقي هذا الكلامُ في ذهني، وتحققت أنه متى حصل له خلل توجَّه إلى بلاد التُّركمان. ويُتعبني أمرُه لعلمي به أنه لا يدخل إلى القلعة ــ بعد ما سَمِعْتُ منه ذلك ــ أبداً؛ فأنساه الله ما قاله في حقِّ الناصر، وحَسُن بباله الامتناعُ بالقلعة حتى طَلَعها، فلهذا تعجَّبْتُ.

وأخذ المؤيد في محاصرته، واستدامَ الحربُ بينهم أيَّاماً كثيرة في كل يوم حتى قُتِلَ من الطائفتين خلائق. فلمَّا طال الأمر في القتال، أخذ أمرُ الأمير نَوْروز في إدبار، وصار أمرُ الملك المؤيد في استظهار.

فلما وقع ذلك وطالَ القتالُ على النَّوْروزيَّة سئموا من القتال، وشرعوا يُسْمِعُون نَوْروز الكلام الخشن. وهدمت المؤيديَّةُ طَارِمَة(١) دمشق. كلُّ ذلك

والقتالُ عمَّال في كل يوم ليلاً ونهاراً والرَّميُ مُسْتَدامٌ من القلعة بالمناجيق ومكاحل النَّفط. وطالَ الأمرُ على الأمير نَوْروز حتى أرسل الأمير قمش إلى الملك المؤيد في طلب الصُلح، وترددت الرسلُ بينهم غير مرّة حتى انبرم الصُّلحُ بينهم بعد أن حلف الملكُ المؤيدُ لنَوْروز بالأيمان المغلَّظة. وكان الذي تولى تحليف الملك المؤيد كاتبُ سرّه القاضي ناصر الدين محمد بن البارِزِيّ.

حَكَى لي القاضي كمالُ الدين ابن القاضي ناصر الدين محمد بن البارِزِيّ كاتبُ السِّرّ الشَّريف من لفظه ـ رحمه الله ـ قال: قال لي الوالدُ: أخذتُ في تحليف الملك المؤيد بحضرة رسُل الأمير نَوْروز، والقضاة قد حضروا أيضاً، فشرعتُ ألحنُ في اليمين عامداً في عدّة كلمات حتى خرج معنى اليمين عن مقصُود نَوْروز، فالتفت القاضي ناصر الدين محمد بن العديم الحنفيّ ـ وكان فيه خفَّة ـ وقال للقاضي الشافعي: كأنَّ القاضي ناصر الدين بن البارِزِيّ ليس له مُمارسة بالعربية والنَّحو، فإنه يلحن لحناً فاحشاً، فسكَّتَهُ البُلْقِينيّ لوقته».

قلت: وكان هذا اليمين بحضرة جماعةٍ من فُقَهاء التُّرك من أصحاب نَوْروز، فلم يفطن أحدٌ منهم لذلك لِعَدم مُمارستهم لهذه العلوم، وإنما جلُّ مقصود الواحد منهم [أن] يقرأ مقدمةً في الفقه ويحلّها على شيخ من الفقهاء أهل الفُروع، فعند ذلك يقول: أنا صرتُ فقيهاً! وليته يسكتُ بعد ذلك، ولكنه يعيب[٢] أيضاً على ما عدا الفقه من العلوم، فهذا هو الجَهْل بعينه ـ انتهى.

ثم عادت رسُل نَوْروز إليه بصورة الحلف، فقرأه عليه بعض من عنده من الفقهاء من تلك المقُولة[٣]، وعرَّفه أن هذا اليمين ما بعده شيء، فاطمأن لذلك. ونزل من قلعة دمشق بمن معه من الأمراء والأعيان في يوم حادي عشرين ربيع

---

(١) المراد طارمة قلعة دمشق. والطارمة: بيت من خشب كالقبّة ـ دخيل معرب. وأطلقه مجمع اللغة العربية بالقاهرة على الكشك للاستظلال، أو الكنّ كما يشاهد في الحدائق، وما ينصب للحّراس أو الخفر أو نحو ذلك؛ وهو بالفرنسية Kiosque. (معجم متن اللغة).

(٢) كذا. ولعل الصواب: «يعنّى».

(٣) أي فقهاء الترك الجهلة، الذين لم يستطيعوا فهم حيلة شيخ.

الآخر بعد ما قاتل الملك المؤيّد نحواً من خمسة وعشرين يوماً أو أزيد ، ومشى حتى دخل على الملك المؤيّد. فلمّا رآه الملك المؤيَّد قام له، فعند ذلك قبّل نَوْروز الأرض، وأراد أن يُقبِّل يده فمنعه الملك المؤيد من ذلك. وقعد الأمير نَوْروز بإزائه، وتحته أصحابه من الأمراء، وهم: الأمير يشبُك بن أزدمُر، وطُوخ، وقمش، وبَرْسبُغا، وإينال الرَّجبيّ وغيرهم، والمجلس مشحونٌ بالأمراء والقضاة والعساكر السلطانية. فقال القضاةُ: «والله هذا يومٌ مباركٌ بالصلح وبحقن الدِّماء بين المسلمين»، فقال القاضي ناصر الدين بن البارِزِيّ كاتب السِّرّ: «نهارٌ مباركٌ لو تمَّ ذلك»، فقال الملك المؤيد: «ولِمَ لا يتمُّ وقد حلفنا له وحلف لنا؟» فقال القاضي ناصر الدين للقضاة: «يا قضاة، هل صَحّ يمينُ السلطان؟» فقال قاضي القضاة جلال الدين البُلْقيني: «لا والله لم يصادف غرضَ المحلِّف». فعند ذلك أمرَ الملك المؤيد بالقبض على الأمير نَوْروز ورفقته، فقُبِض في الحال على الجميع، وقُيِّدُوا وسجِنُوا بمكانٍ من الإسطبل إلى أن قُتل الأمير نَوْروز من ليلته، وحُملت رأسه إلى الديار المصرية على يد الأمير جَربَاش، فوصلت القاهرة في يوم الخميس مستهلّ جمادى الأولى، وعُلِّقَت على باب زُويلة[1]، ودُقت البشائر، وزُيِّنَت القاهرة لذلك.

ثم أخذ الملكُ المؤيّد في إصلاح أمر مدينة دِمَشق، ومهّد أحوالها. ثم خرج منها في ثامن جمادى الأولى يُريُد حلب حتى قَدِمها بعساكره، وأقام بها إلى آخر الشهر المذكور. ثم سار منها في أول جمادى الآخرة إلى أبُلُسْتَين، ودخل إلى مَلَطْيَة واستناب بها الأمير كُزُل. ثم عاد إلى حلب، وخلع على نائبها الأمير إينال الصَّصْلاني باستمراره. ثم خلع على الأمير تنبك البَجَاسيّ باستقراره في نيابة حماة، وعلى الأمير سُودون من عبد الرحمن باستقراره في نيابة طرابُلُس، وعلى الأمير جانبك الحمزاوي بنيابة قلعة الرّوم[2] بعد ما قتل نائبها الأمير طُوغان.

ثم خرج السلطانُ من حلب، وعاد إلى دمشق، فقدمها في ثالث شهر

(١) في نزهة النفوس: «وعلّقوه في باب الدرج».

(٢) وتسمى أيضاً قلعة المسلمين، وهي غربي الفرات. ــ راجع فهرس الأماكن.

رجب، وخلـع على نائبها الأمير قاني باي المحمدي باستمراره. ثم خرج السلطانُ من دمشق بأمرائه وعساكره في أول شعبان بعد ما مهَّد أمور البلاد الشاميّة، ووطَّن التُّركمان والعُربان وخلـع عليهم، وسار حتى دخل القُدس في ثاني عشر شعبان فزاره. ثم خرج منه وتوجّه إلى غزَّة حتى قَدِمها، وخلـع على الأمير طرباي الظّاهري بنيابة غزَّة. ثم خرج منها عائداً إلى الدِّيار المصرية حتى نزل على خانقاه سِرْياقُوس يوم الخميس رابـع عشرين شعبان، فأقام هناك بقيَّة الشهر، وعمل بها أوقاتاً طيِّبة، وأنعم فيها على الفُقهاء والصُّوفية بمال جزيل؛ وكان يحضُر السمْاع بنفسه، وتقومُ الصُّوفيّة تتراقص وتتواجد بين يديه، والقوّال يقول وهو يسمعه ويكرّرُ منه ما يعجبه من الأشعار الرقيقة. ودخل حمام الخانقاه المذكورة غير مرَّة. وخرج الناسُ لتلقِّيه إلى خانقاه سِرْياقُوس المذكورة حتى صار طريقُها في تلك الأيام كالشّارع الأعظم(١)، لممّر الناس فيه ليلاً ونهاراً.

ودام السلطانُ هناك إلى يوم سلـخ شعبان: ركب من الخانقاه بخواصِّه، وسار حتى نزل بالرِّيدانيّة تجاه مسجد التِّبن، وبات حتى أصبح في يوم الخميس أول شهر رمضان: ركب وسار إلى القلعة حتى طلـع إليها، فكان لقدومه القاهرة يومٌ مشهودٌ، ودقت البشائر لوصوله.

وعندما استقرَّ به الجلوس انتقض عليه ألمُ رجليه من ضربان المفاصل، ولزم الفراش، وانقطـع بداخل الدُّور السلطانية من القلعة. ثم أخرج السلطان في ثامن شهر رمضان الأمير جرباش كبَّاشة بطَّالاً إلى القُدس الشريف، ورسم أيضاً بإخراج الأمير أرغُون من بَشْبُغا أمير آخور ــ كان ــ في الدولة الناصرية إلى القُدْس بطالاً. ثم خلـع السلطان على الأمير أَلْطُنْبُغَا العثماني باستقراره أتابك العساكر بالديار المصرية بعد موت الأمير يَلْبُغا الناصري.

ثم نصَل(٢) السلطانُ من مرضه، وركب من قلعة الجبل يوم عاشر شهر

(١) الشارع الأعظم: وهو شارع القاهرة الأعظم، وكان يعرف بقصبة القاهرة. وكان يمتد من باب الفتوح إلى باب زويلة. ويسمى حالياً شارع المعز لدين الله الفاطمي.

(٢) في بعض الأصول «فَصَل». والمراد واضح.

رمضان، وشقَّ القاهرة، ثم عاد إلى القلعة، ورسم بهدم الزِّينة ــ وكان ركُوبُه لرؤيتها ــ فَهُدِمت.

ثم في ثاني عشره أمسك الأمير قُجق الشعباني حاجب الحجاب، والأمير بَيْبُغا المظفَّري، والأمير تَمَانْ تَمُر أرق، وقُيِّدُوا وحملوا إلى ثغر الإسكندرية فحبسوا بها؛ والثلاثة جنسهم تَتَرٌ، ومُسَفِّرُهم الأمير صُوماي الحَسنِيّ. وبعد أن توجّه بهم صوماي المذكور إلى الإسكندرية كُتِبَ باستقراره في نيابتها، وعزل بدر الدين بن محب الدين عنها.

ثم خلع السلطان على سُودون القاضي باستقراره حاجب الحجَّاب بديار مصر عوضاً عن قُجق الشعباني، وعلى الأمير قَجْقار القَرْدميّ باستقراره أمير مجلس عوضاً عن بَيْبُغا المظفَّري، وعلى الأمير جاني بك الصُّوفي رأس نوبة النُّوب باستقراره أمير سلاح بعد موت شاهين الأفرم، وخلع على الأمير كُزُل العجمي حاجب الحجاب ــ كان ــ في دولة الملك الناصر باستقراره أمير جَانْدَار عوضاً عن الأمير جَرباش كَبَّاشة، ثم خلع على الأمير تنبك العلائي الظاهري المعروف بميق باستقراره رأس نوبة النُّوب عوضاً عن جانِبَك الصوفي، وخلع على الأمير آقباي المؤيدي الخازندار باستقراره دَوَاداراً كبيراً بعد موت الأمير جانِبَك المؤيدي.

ثم أُعيد ابنُ محب الدين المعزول عن نيابة الإسكندرية إلى وظيفة الأستادارية في يوم الاثنين سادس عشرين شهر رمضان بعد فرار فخر الدين عبد الغني بن أبي الفرج إلى بَغْدَاد.

وخبر فخر الدين المذكور أنه لما خرج من الديار المصرية إلى البلاد الشامية صحبة السُّلطان، ووصل إلى حَمَاة، داخله الخوفُ من السلطان، فهرب في أوائل شهر رجب إلى جهة بَغْدَاد، فسدّ ناظرُ ديوان المُفرد تقيّ الدين عبد الوهاب بن أبي شاكر الأستادارية في هذه المدّة إلى أن ولي ابنُ محبّ الدين.

وفي شهر رمضان المذكور أفرج السلطان عن الأمير كَمَشْبُغَا العيساويّ من سجن الإسكندرية، وقَدِم القاهرة، ونُقل الأميرُ سُودون الأَسَنْدَمُريّ، والأمير قَصْرُوه من تِمْرَاز، والأمير شاهين الزَّرْدْكاش، والأمير كَمَشْبُغَا الفيسيّ إلى ثغر دمياط.

وفي أواخر ذي الحجَّة قدم مبشِّرُ الحاج وأخبر بأن الأمير جَقْمَق الأرغُون شاويَّ الدَّوَادار الثاني أمير الحاج وقَع بينه وبين أشراف مكَّة وقعةٌ في خامس ذي الحجة. وخبرُ ذلك أن جَقْمَق المذكور ضَرَب أحد عبيد مكة وحبسه، لكونه يحمل السلاح في الحرم الشريف، وكان قد منع من ذلك، فثارت بسبب ذلك فتنةٌ انْتُهِكَ فيها حرمةُ المسجد الحرام، ودخلت الخيل إليه عليها المقاتلة من قواد مكة لحرب الأمير جقمق وأدخل جقمق أيضاً خيله إلى المسجد الحرام، فباتت به [تَرُوث](١) وأوقد(٢) مشاعِلَه بالحرم، وأمر بتسمير أبواب الحرم فَسُمِّرت كلُّها إلا ثلاثة أبواب ليمتنع من يأتيه. فمشت الناسُ بينهم في الصُّلح، وأطلق جَقْمَق المضروب، فسكتت الفتنة من الغد بعدما قُتل جماعةٌ؛ ولم يحج أكثر أهل مكة في هذه السنة من الخوف.

ثم قدم الخبر أيضاً على الملك المؤيد في هذا الشهر بأن الأمير يَغْمُور بن بَهادُر الدُّكريّ(٣) [من أمراء التركمان](١) مات هو وولده في يوم واحد بالطاعون في أول ذي القعدة، وأن قَرا يوسف بن قرا محمد صاحب العراق انعقد بينه وبين القان شاه رُخّ بن تَيْمورلَنْك صُلْحٌ، وتصاهرا، فشَقَّ ذلك على الملك المؤيد.

وفي أثناء ذلك قَدِم عليه الخبرُ بأن الأمير محمد بن عثمان صاحب الرّوم كانت بينه وبين محمد بك بن قَرَمان وقعةٌ عظيمة انهزم فيها ابن قَرَمان ونجا بنفسه. كل ذلك والسلطان في سَرْحَة البُحيرة بتَرُّوجَة(٤) إلى أن قَدِمَ إلى الديار المصرية في يوم الخميس ثاني المحرم من سنة ثماني عشره وثمانمائة بعدما قرّر على من قابله من مشايخ البُحيرة أربعين ألف دينار؛ وكانت مُدّة غيبة السلطان بالبحيرة ستّين يوماً.

ثم في عاشر المحرم أفرج السلطانُ عن الأمير بَيْبُغا المظفري أمير مجلس، وتَمانْ تَمُرْ أرق اليُوسفي من سجن الإسكندرية.

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) في الأصل: «أوقدت». وما أثبتناه عن حاشية السلوك.

(٣) كذا أيضاً في إنباء الغمر والضوء اللامع. وفي السلوك: «الذكري» بالذال المعجمة.

(٤) تَرّوجة: قرية اندثرت في القرن التاسع الهجري، ومكانها اليوم كوم تَرّوجة. ـــ راجع فهرس الأماكن.

ثم قدم كتاب فخر الدين بن أبي الفرج من بَغْدَاد أنه مُقيم من بالمدرسة المستنصرية[١]، وسأل العَفْوَ عنه فأُجيبَ إلى ذلك، وكُتِبَ له أمانٌ. ثم أمر السلطان بقتل الأمراء الذين بسجن الإسكندرية، فقتلوا بأجمعهم في يوم السبت ثامن عشر المحرم، وهم: الأتَابَك دَمُرْداش المحمدي بعد أن قتل ابن أخيه قَرْقَماس بمدَّة، والأمير طُوغَانُ الحسني الدَّوادار، والأمير سُودون تِلِّي المحمدي، والأمير أَسَنْبُغَا الزَّرَدكاش والجميع معدودون من الملوك، وأقيم عزاؤهم بالقاهرة في يوم خامس عشرينه، فكان ذلك اليوم من الأيام المَهُولة من مُرور الجَوارِي المَسْبِيَّات الحاسرات بشوارع القاهرة، ومعهم الملاهي والدُّفوف.

هذا وقد ابتدأ الطاعون بالقاهرة.

ثم في ثامن صفر ركب السلطان من قلعة الجبل وسار إلى نحو مُنية مطر، المعروفة الآن بالمطرية خارج القاهرة، وعاد إلى القاهرة من باب النَّصر، ونزل بالمدرسة الناصرية المعروفة الآن بالجمالية[٢] برَحبة باب العيد، ثم ركب منها وعبر إلى بيت الأستادار بدر الدين بن محب الدين فأكل عنده السِّماط، ومَضى إلى قلعة الجبل.

وفي ثامن[٣] عشر صفر خلع على القاضي علاء الدين علي بن محمود بن أبي بكر بن مُغْلى الحنبلي الحَمويّ باستقراره قاضي قضاة الحنابلة بالديار المصرية، بعد عزل قاضي القضاة مجد الدين سالم.

وفي يوم السبت عاشر[٤] صفر المذكور ابتدأ السلطانُ بعمل السد بين

---

(١) المدرسة المستنصرية: ببغداد على شاطىء دجلة. بناها المستنصر بالله العباسي سنة ٦٣١هـ فيما يلي دار الخلافة من جهة الشمال. (في التراث العربي: ص ٥٥، ١١٤).

(٢) المدرسة الجمالية: أنشأها جمال الدين الأستادار، ثم لما نكبه الناصر فرج بن برقوق حولها إلى ملكه وكتب اسمه عليها. وفي عهد شيخ المحمودي أعيدت إلى ما كانت عليه. (انظر خطط المقريزي: ٢/ ٤٠، ٤٢).

(٣) في السلوك وإنباء الغمر: «ثاني عشر».

(٤) في السلوك وإنباء الغمر: «وفي صفر» دون تعيين اليوم وتاريخه.

الجامع الجديد الناصري وبين جزيرة الرَّوضة، وندب لحفره الأمير كُزُل العجمي الأجْرُود أمير جَانْدَار، فنزل كُزُل المذكور وعلَّق مائةً وخمسين رأساً من البقر لتجرف الرمال، وعملت أيَّاماً. ثم ندب السلطانُ الأمير سُودون القاضي حاجب الحجاب لهذا العمل، فَنَزل هو أيضاً واهتم غاية الاهتمام، ودام العملُ بقيّة صفر وشهر ربيع الأول.

وفيه أمر السلطان بمَسْك شاهين الأيدُ كاريّ حاجب حلب، فأُمسك وسُجن بقلعة حلب. وفيه خلع السلطانُ على الأمير طُوغان أمير آخور الملك المؤيد أيّام إمرته باستقراره في نيابة صفد، وحمل له التشريف بنيابة صفد يشبُك الخاصَّكّي.

وفيه قَدِمَ كتابُ الأمير إينال الصَّصْلاني نائب حلب يُخبر أن أحمد بن رمضان أخذ مدينة طَرَطُوس عنوة في ثالث عشر المحرم من هذه السنة بعد أن حاصرها سبعة أشهر، وأنّه سلمها إلى ابنه إبراهيم بعد ما نَهَبَها وسَبى أهلها. وقد كانت طَرَسوس من نحو اثنتي عشرة سنة يُخْطَبُ بها لتيمور، فأعاد ابنُ رمضان الخطبة بها باسم السلطان.

وأما الحفير فإنه مُستَمِرٌّ، وسُودُون القاضي يستحثُّ العمال فيه، إلى أن كان أول شهر ربيع الآخر فركب السلطانُ الملك المؤيّد من قلعة الجبل في أمرائه وسائر خَوَاصِّه، وسار إلى حيث العمل، فَنَزَل هناك في خيمة نُصِبَت له بين الرَّوضة ومصر. ونُودي بخروج الناس للعمل في الحَفِير المذكور، وكُتِبَت حَوانِيتُ الأسواق، فخرج الناس طوائف طوائف مع كل طائفة الطبول والزُّمُور، وأقبلوا إلى العمل، ونَقلُوا التُّراب والرَّمل من غير أن يُكَلَّف أحدٌ منهم فوق طاقته. ثم رسم السلطانُ لجميع العساكر من الأمراء والخاصّكيّة ولجميع أرباب الدولة وأتباعهم فعملوا. ثم ركب السلطان بعد عصر اليوم المذكور ووقف حتى فرض على كُلٍّ من الأمراء حَفْرَ قطعةٍ عيَّنَها له، ثم عاد إلى القلعة بعد أن مدّ هناك أسمطة جليلة وحلوات وفواكه كثيرة. واستمرَّ العملُ والنداء في كل يوم لأهل الأسواق وغيرهم للعمل في الحفر. ثم ركب الأمير ألطُنْبُغا القَرْمَشِي الأمير آخور الكبير ومعه جميع مماليكه وعامَّةُ أهلِ الإسطبل السُّلطاني وصوفية المدرسة الظاهرية الرقُوقيَّة وأرباب

وظائفها، لكونهم تحت نظره، ومضوا بأجمعهم إلى العمل في الحفر المذكور فعملوا فيه، وقد اجتمع هناك خلائق لا تُحصى، للفرجة، من الرجال والنساء والصبيان. وتولىَّ أَلْطُنْبُغا القَرْمَشِيّ القيام بما فرض عليه حَفْرُه بنفسه، فدام في العمل طول نهاره.

ثم في عاشره جمع الأميرُ الكبير أَلْطُنْبُغا العُثماني جميع مماليكه ومن يَلُوذُ به وألزم كلَّ من هو ساكن في البيوت والدكاكين الجارية في وقف البيمارَسْتان المنصوري بأن يخرجوا معه ــ من أنهم تحت نظره ــ وأخرج معه أيضاً جميع أرباب وظائف البيمَارسْتَان المذكور، ثم أخرج سكان جزيرة الفيل[١] ــ فإنها في وقف البِيمَارسْتَان[٢] ــ وتوجَّه بهم الجميع إلى العمل في الحَفِير، وعمل نهاره فيما فُرِضَ عليه حفره. ثم وقع ذلك لجميع الأمراء واحداً بعد واحد، وتتابعوا في العمل وكل أمير يأخذُ معه جميعَ جيرانه ومن يقرُبُ سكنه من داره، فلم يبق أحدٌ من العوامّ إلا وخرج لهذا العمل.

ثم خرج علم الدين داود بن الكُوَيْز ناظر الجيش، والصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله ناظر الخاص، وبدر الدين حسن بن محبّ الدين الأستادار، ومع كل منهم طائفةٌ من أهل القاهرة وجميع غلمانه وأتباعه ومن يلوذ به وينتسب إليه. ثم أخرج والي القاهرة جميعَ اليهود والنصارى. وكَثُرَ النداء في كل يوم بالقاهرة على أصناف الناس بخروجهم للعمل. ثم خرج القاضي ناصر الدين محمد بن البَارِزِيّ كاتب السِّرِّ الشريف ومعه جميعُ مماليكه وحواشيه وغلمانه،

---

(١) جزيرة الفيل: وسط النيل تجاه ناحية منية الشيرج. وهذه الجزيرة لم تكن ظاهرة في أيام الدولة الفاطمية، ولكن بعد ذلك حدث أن انكسر مركب كبير في النيل يعرف باسم الفيل وترك في مكانه فربا عليه الرمل وانطرد عنه الماء فصارت جزيرة فيما بين منية الشيرج وأرض الطبّالة سماها الناس جزيرة ثم مع مرور الزمن اتسعت أرض هذه الجزيرة حتى زرعت في أيام الناصر صلاح الدين الأيوبي. ولما بنى المنصور قلاوون البيمارستان المنصوري الكبير بخط بين القصرين سنة ٦٨٣هـ جعل أكثر أراضي هذه الجزيرة وقفاً على البيمارستان، فغرس الناس بها الغروس وسكنها المزارعون. (انظر خطط المقريزي: ٢/١٨٥، ٤٠٦).

(٢) أي البيمارستان المنصوري ــ راجع الحاشية السابقة، وخطط المقريزي: ٢/٤٠٦.

وأخرج معه البَريديَّة والمُوقِّعين بأتباعهم، فعملوا نهارهم. هذا والمنادي ينادي في كل يوم على العامة بالعمل، فخرجوا وخلت أسواقُ القاهرة وظواهرها من الباعة، وغُلِّقت القَيَاسر، والمنادي ينادي في كل يوم بالتهديد لمن تأخر عن الحفر، حتى إنه نُودي في بعض الأيام: «من فتح دُكاناً شُنِقَ»، فتوقَّفت أحوالُ الناس.

وفي هذه الأيّام خلع السلطانُ على الأمير بَيْبُغَا المظفري باستقراره أتابَكَ دمشق، وخلع على جرباش كبَّاشة باستقراره حاجب حجّاب حلب؛ وكلاهما كان قدم من سجن الإسكندرية قبل تاريخه.

وفيه أيضاً نُقل الأميرُ طُوغان أميرُ آخور المؤيَّد من نيابة صفد إلى حجوبية دمشق عوضاً عن الأمير خليل التِّبريزيّ الدُّشاري، ونُقِل خليل المذكور إلى نيابة صفد عِوَضاً عن طُوغان المذكور، وحمل له التقليد والتَّشريف الأمير إينال الشَّيخي الأرغزي.

واستهل جمادى الأولى والناس في جهدٍ وبلاء من العمل في الحفر، حتى إن المقام الصّارمي[١] إبراهيم ابن السلطان الملك المؤيد نزل من القلعة في يوم سابعه ومعه جميع مماليكه وحواشيه وأتباعه، وتوجّه حتى عمل في الحفر بنفسه، وصنَّفت العامةُ في هذا الحفير غناء كثيراً وعدّة بلاليق[٢].

وبينما الناسُ في العمل أدركتهم زيادةُ النيل. وكان هذا الحفير وعمل الجسر ليمنع الماء من المُرور تحت الجزيرة الوسطى[٣]، ويجري من تحت المنشية من

---

(١) أي إن لقبه كان «صارم الدين». والمقام: هو أرفع الألقاب الأصول في عصر المماليك، وكان يطلق خاصة على السلاطين وأبنائهم. (الألقاب الإسلامية: ٤٨٢ ــ ٤٨٧).

(٢) البلاليق: واحدها بليق؛ وهو نوع من المواليا. وفي دوزي أنه أغنية شعبية هزلية. وقال الجبرتي نقلاً عن كتاب للشيخ حسن شمّة: «إن الشيخ حسن كتب مقامة في نسب الشيخ محمد الحفناوي جعلها مشتملة على سائر الفنون الشعرية كالموشح والدوبيت وكان وكان ــ والمواليا بأنواعه الثلاثة: القرقياء والبليق والمكفر» ــ انظر تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل: ص ٤٤.

(٣) الجزيرة الوسطى: هي جزيرة أروى. وسميت بالوسطى لأنها فيما بين الروضة وبولاق، وفيما بين برّ القاهرة وبرّ الجيزة. وقد انحسر عنها الماء بعد سنة ٧٠٠هـ. (خطط المقريزي: ٢/١٨٦).

على موردة الجبس[١] بحريّ جزيرة الوسطى كما كان قديماً في الزمان الماضي[٢]، فأبى الله سبحانه وتعالى إلا ما أراده على ما سنذكره في محلّه.

ثم في اليوم المذكور، أعني سابع جمادى الأولى، خلع السلطانُ على الأمير الكبير أَلْطُنْبُغَا العثماني باستقراره في نيابة دمشق عوضاً عن قاني باي المحمدي ــ وكان بلغ السلطان عن جميع النُّواب بالبلاد الشامية أنهم في عزم الخروج عن الطاعة فلم يظهر لذلك أثر ــ وأرسل الأمير جُلُبَّان أمير آخور بطلب قاني باي المذكور من دمشق ليستقرّ أتابكاً بالدِّيار المصرية عوضاً عن أَلْطُنْبُغَا العثماني، وانتظر السلطانُ ما يأتي به الجواب.

ثم خلع السلطان على الأمير آقْبَرْدِي المؤيَّدي المنقار باستقراره في نيابة الإسكندرية عوضاً عن صُومَاي الحسني.

ثم في جمادى الآخرة من هذه السنة حُفِرَ أساسُ الجامع المؤيَّدي داخل باب زُويلة. وكان أصل موضع الجامع المذكور ــ أعني موضع باب الجامع والشّبابيك وموضع المحراب ــ قيسارية الأمير سنقر الأشقر[٣] المقدم ذكره في ترجمة الملك المنصور قلاوون، وكانت مقابلة لقيسارية الفاضل[٤] وحمّامه، فاستبدلها الملكُ المؤيّد وأخذها، ثم أخذ خزانة شمائل ودوراً وحارات وقاعات

---

(١) موردة الجبس: كانت ضمن بستان الخشاب في القسم الغربي منه، وهو المطل على شاطىء النيل، ويشمل حالياً منطقة جاردن سيتي، وكانت الموردة في الجهة الجنوبية منه ــ حيث يوجد حالياً كوبري القصر العيني ــ وكان مكانه قنطرة الفخر وموردة البلاط والموردة المذكورة. (النجوم الزاهرة، ١٤/٣٠، حاشية، طبعة الهيئة المصرية العامة).

(٢) أوضح المقريزي بشكل دقيق ومفصّل خط سير النيل في أيامه، وما كان عليه سابقاً، في تلك المنطقة التي أمر المؤيد شيخ بعمل الحفر فيها. كما بينّ الأضرار الناجمة عن تراكم الرمال ما بين الجامع الجديد الناصري خارج مدينة مصر وبين جامع الخطيري في بولاق. ــ انظر السلوك: ٤/٣٠٢ ــ ٣٠٤.

(٣) انظر خطط المقريزي: ٢/٨٥ ــ ٨٦.

(٤) تنسب هذه القيسارية للقاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني قاضي السلطان صلاح الدين الأيوبي وكاتبه ووزيره المتوفى سنة ٥٩٦هـ. ــ انظر خطط المقريزي: ٢/٨٩ وخطط علي مبارك: ٦/٦٩.

كثيرة تخرج عن الحدّ، حتى أضرَّ ذلك بحال جماعة كثيرة، وشرع في هدم الجميع من شهر ربيع الأوّل إلى يوم تاريخه حتى رمي الأساس، وشَرَعُوا في بنائها.

وتهيّأ الأمير أَلْطُنْبُغَا العثماني حتى خرج من القاهرة قاصداً محلّ كفالته بدمشق في سادس جُمادى الآخرة، ونزل بالرِّيدانيّة خارج القاهرة، فقدم الخبر على السلطان بخروج قاني باي نائب الشّام عن الطاعة، وأنه سوَّف برسول السلطان من يوم إلى يوم إلى أن تهيأ وركب وقاتل أمراء دمشق وهزمهم إلى صفد، وملك دمشق ـ حسبما نذكره بعد ذكر عصيان النُّواب ـ فعظُمَ ذلك على الملك المؤيّد.

ثم في أثناء ذلك ورد الخبرُ بخروج الأمير طَرَبَاي نائب غَزَّة عن الطَّاعة وتوجّهه إلى الأمير قاني باي المحمدي نائب دمشق، فعند ذلك ندب السلطانُ الأمير يشبُك المؤيديّ المُشد[١] ومعه مائةُ مملوك من المماليك السلطانيّة، وبعثه نجدةً للأمير أَلْطُنْبُغَا العثماني. ثم ورد الخبرُ ثالثاً بعصيان الأمير تنبك البجاسيّ نائب حماة وموافقته لقاني باي المذكور، وكذلك الأمير إينال الصَّصْلاني نائب حلب ومعه جماعة من أعيان أمراء حلب. ثم ورد الخبر أيضاً بعصيان الأمير سُودُون من عبد الرحمن نائب طرابلس والأمير جانِبَك الحمزاويّ نائب قلعة الرّوم. ولما بلغ الملكَ المؤيَّدَ هذا الخبرُ استعدّ للخروج إلى قتالهم بنفسه.

وأما أمر الحفر والجسر الذي عُمل فإنه لما قويت زيادةُ النيل وتراكمت عليه الأمواج خرق منه جانباً ثم أتى على جميعه وأخذه كأنه لم يكن؛ وراح تعبُ النّاس وما فعلوه من غير طائل.

وأما ما وعدنا بذكره من أمر قاني باي المحمدي نائب دمشق: فإنه لما توجَّه إليه الأمير جُلُبَّان أمير آخور بطلبه أظهر الامتثال وأخذ ينقل حريمه إلى بيت أستاداره غرس الدين خليل، ثم طلع بنفسه إلى البيت المذكور وهو بطرف القُبَيْبات على أنه متوجِّهٌ إلى مصر.

(١) المشدّ أو الشادّ، ووظيفته الشدّ، وهي نوع من التفتيش والمراقبة. ـ راجع فهرس المصطلحات.

فلما كان في سادس جمادى الآخرة ركب الأمير بَيْبُغا المظفري أتابك دمشق، وناصر الدين محمد بن إبراهيم بن مَنْجَك، وجُلُبَّان الأمير آخور المقدّم ذكره وأرْغُون شاه، ويشبُك الأيْتَمُشيّ في جماعة أُخر من أمراء دمشق يسيرون بسُوق خيل دمشق، فبلغهم أن يلبُغا كماج كاشف القبلية حضر في عسكر إلى قريب داريًّا[1]، وأن خلفه من جماعته طائفةٌ كبيرة، وأن قاني باي خرج إليه وتحالفا على العصيان، ثم عاد قاني باي إلى بيت غرس الدين المذكور. فاستعد المذكورون ولبسوا آلة الحرب، ونادوا لأجناد دمشق وأمرائها بالحضور، وزحفُوا إلى نحو قاني باي. فخرج إليهم قاني باي بمماليكه وبمن انضم معه من أصاغر الأمراء وقاتلهم من بُكرة النهار إلى العصر حتى هزمهم، ومرّوا على وجوههم إلى جهة صفد. ودخل قانِي بَاي وملك مدينة دمشق، ونزل بدار العدل من باب الجابية، ورمى على القلعة بالمدافع، وأحرق جملون[2] دار السعادة، فرماه أيضاً من القلعة بالمناجيق والمدافع، فانتقل إلى خان السلطان وبات بمخيَّمه وهو يحاصر القلعة. ثم أتاه النواب المقدم ذكرهم، فنزل تَنِبَك البَجَاسِيّ نائب حماة على باب الفرج، ونزل طَرَبَاي نائبُ غزَّة على باب آخر، ونزل على باب الجديد تَنِبَك دَوَادَار قاني بَاي، ودَامُوا على ذلك مُدّةً، وهم يستعدّون. وقد ترك [قاني باي] أمرَ القلعة إلى أن بلغه وصولُ العسكر وسار هو والأمراءُ من دمشق.

وكان الأمير أَلْطُنْبُغَا العثماني بمن معه من أمراء دِمَشْق والعَشِير[3] والعُرْبَان ونائب صَفَد قد توجّه من بلاد المَرْج إلى جرود[4]، فجدّ العسكرُ في السير حتى وافوا الأميرَ قانِي باي قد رَحَل من بَرْزة[5]، فَنَزَلُوا هم على بَرْزة، وتقدّم منهم طائفةٌ فأخذوا من ساقته أغناماً وغيرها، وتقاتلوا مع أطْراف قاني باي، فجرح

(١) داريًّا: قرية من قرى غوطة دمشق.

(٢) الجملون: لفظ عامي معناه السقف المحدب المستطيل فإن كان مستديراً فهو القبّة. (السلوك: ٢/٤٩٥، حاشية).

(٣) العشير: هم العشائر من البدو.

(٤) جرود: قرية بإقليم معلولا من أعمال غوطة دمشق. (معجم البلدان).

(٥) بَرْزَة: قرية بغوطة دمشق (معجم البلدان).

الأمير أحمد بن تنم صهر الملك المؤيد في يده بنشابة أصابته، وجرح معه جماعة أخر، ثم عادوا إلى أَلْطُنْبُغَا العثماني. وسارَ قاني بأي حتى نزل بسَلَمْيَة(١) في سلخه، ثم رحل إلى حَمَاة، ثم رحل منها واجتمع بالأمير إينَال الصَّصْلاني نائب حَلَب، واتَّفقُوا جميعاً على التوجّه إلى جهة العَمْق(٢) لما بلغهم قدُوم السلطان الملك المؤيّد لقتالهم. وسيَّرُوا أثقالهم، فنادى نائبُ قلعة حَلَب بالنَّفِير العام، فأتاهُ جُلُّ أهل حَلَب، ونزل هو بمن عنده من العسكر الحَلَبي وقاتل إينَالَ وعساكره فلم يثبتوا، وخَرَج قاني بَاي وإينَالُ إلى خان طُومَان، وتخطَّفَ العامّةُ بعضَ أثقالهم، وأقاموا هناك إلى أن قاتلوا الملكَ المؤيّد حسبما يأتي ذكره.

وأما السلطان الملك المؤيّد فإنه لمّا كان ثاني عشرين جمادى الآخرة خلع على الأمير مُشْتَرَك(٣) القاسِميّ الظاهريّ باستقراره في نيابة غَزَّة عوضاً عن طَرَبَاي. ثم في سابع عشرينه خلع على الأمير أَلْطُنْبُغَا القَرْمَشيّ الأمير آخور باستقراره أتَابك العساكر بالديار المصرية عوضاً عن أَلْطُنْبُغا العُثْمَاني نائب دِمَشْق.

ثم في سلخه خلع على الأمير تَنِبك العَلاَئِيّ الظاهري المعروف بميق رأس نوبة النُّوب(٤) باستقراره أمير آخور عوضاً عن أَلْطُنْبُغَا القَرْمَشي.

ثم في رابع شهر رجب خلع السلطان على سُودُون القاضي حاجب الحجّاب باستقراره رأس نَوْبة النُّوَب عوضاً عن تَنِبَك مِيق، وخَلَع على سُودُون قَرَاصُقل واستقرَّ حاجب الحجاب عوضاً عن سُودُون القاضي.

وفي حادي عشرة سار الأمير آقْبَاي المؤيَّدي الدَّوَادَار على مائتي مملوك نجدةً ثانية لنائب الشّام أَلْطُنْبُغَا العثماني.

---

(١) سلمية: بلدة من عمل حمص. (صبح الأعشى: ٤/١١٤).

(٢) راجع ص١٦٦، حاشية (١).

(٣) في الضوء اللامع وإنباء الغمر أن صواب اسمه ــ على ما قيل ــ هو «أجترك» بالهمزة، ولكن الذي اشتهر بين العامة هو «مشترك». وفي المنهل الصافي لأبي المحاسن أن صواب اسمه «مجترك» وهو اسم جركسي.

(٤) يثبت بوبر في طبعة كاليفورنيا هذه الوظيفة باسم «رأس نوبة النواب» وهو خطأ. ــ انظر فهرس المصطلحات.

وفي ذلك اليوم دار المحمل على العادة في كل سنة.

ثم في يوم ثاني عشر شهر رجب المذكور قدم الأمير ناصر الدين محمد بن إبراهيم بن مَنْجَك من دِمَشْق فاراً من قانِي بَاي نائب الشام، فارتجت القاهرة بسفر السُّلْطَان إلى البلاد الشَّاميّة، وعظم الاهتمام للسفر.

ثم في رابع عشرة أمْسَك السلطانُ الأميرَ جانِبَك الصّوفي أمير سلاح وقيَّده وسجنه بالبُرْج بقلعة الجبل. ثم رسم السلطانُ للأمراء بالتأهّب للسفر، وأخذَ في عرض المماليك السلطانية وتعيين من يختاره للسّفر، فعيَّن من المماليك السلطانية مقدارَ النّصْف منهم، فإنه أراد السفر مُخِفّاً لأن الوقت كان فصل الشتاء والديار المصرية مُغْلِيَة الأسعار إلى الغاية.

ثم في ثامن عشره أنْفَق السلطانُ نفقات السفر، وأعطى كلَّ مملوك ثلاثين ديناراً إفْرنْتِيَّة[١]، وتسعين نصفاً فضةً مؤيَّدية[٢]، وفرَّق عليهم الجِمَال.

ثم في تاسع عشره أَمْسَك [السلطان] الوزيرَ تاج الدين عبد الرّزّاق بن الهَيْصَم وضربه بالمقارع، وأُحِيطَ بحاشيته وأتباعه وأُلْزِمَه بحمل مال كثير.

(١) الدينار الإفرنتي ــ ويقال له الإفرنجي، والمشخّص: وهي عملة ذهبية كانت تجلب من بلاد الإفرنج. وقال القلقشندي إنها «مشخّصة، على أحد وجهيها صورة الملك الذي تضرب في زمنه، وعلى الوجه الآخر صورتا بطرس وبولس الحواريين ــ ويعبر عنها بالإفرنتية، جمع إفرنتي، وأصله إفرنسي» قال: «ويعبَّر عنها بالدوكات إذا كانت من ضرب البندقية، وذلك أن الملك عندهم اسمه دوك ــ». (صبح الأعشى: ٤٣٧/٣) وهذه الدنانير الإفرنجية كان يقال لها البندقية، والدوكات، إذا كانت من ضرب مدينة البندقية. وإذا كان الدينار الإفرنجي من ضرب فلورنسا فكان يقال له الأفلوري. وقال المقريزي بأن هذا الصنف من الدنانير عرف في القاهرة من حدود سنة ٧٩٠هـ وكثر حتى صار نقداً رائجاً. غير أن الناس قصّوه حتى خفّ وزنه ــ وضرب كثير من الناس على شكله، وتسامح الناس في أخذه ــ فراج بينهم ووقع فيه اختلاف كبير، فكان يقال: هذا تركي، وهذا خارج الدار، وهذا ناقص الوزن، وهذا ليس بجيّد العيار، فيجعل بإزاء كل عيب حصة من المال تنقص من صرفه. (السلوك: ٣٠٥/٤).

(٢) المراد بذلك أنصاف الدراهم الفضّية التي أمر بضربها المؤيد شيخ. وكان المؤيد شيخ قد أمر بضرب دنانير ذهبية ودراهم فضية سمّيت المؤيدية. كما أمر بضرب أنصاف وأرباع دراهم فضيّة واستكثر منها. (انظر السلوك: ٣٠٤/٤ ــ ٣٠٨، وفيه تفصيلات وافية عن أنواع العملات الذهبية والفضيّة التي كانت رائجة من ذلك الوقت).

ثم في حادي عشرينه خلع السلطانُ على علم الدين أبي كُمّ باستقراره في وظيفة نظر الدَّوْلة ليسد مُهِمّات الدَّوْلة مُدّة غيبةِ السلطان(١).

ثم في يوم الجمعة ثاني عشرين شهر رجب المذكور ركب السلطانُ بعد صلاة الجمعة من قلعة الجبل بأمرائه وعساكره المعيَّنين صحبته للسفر حتى نزل بمخيّمه بالرَّيْدَانِية خارج القاهرة، وخلع على الأمير طَطَر واستقرّ به نائب الغَيْبَة بديار مصر وأنزله بباب السّلسلة، وخلع على الأمير سُودون قَرَاصُقْل حاجب الحجاب وجعله مُقِيماً بالقاهرة للحكم بين الناس، وخَلع على الأمير قُطْلُوبُغَا التَّنَمِيَّ وأنزله بقلعة الجبَل. وبات السلطانُ تلك الليلة بالرَّيْدَانية، وسافر من الغد يُرِيدُ البلادَ الشاميّة، ومعه الخليفةُ وقاضي القضاة ناصر الدين محمد بن العديم الحنفي لا غَيْر.

وسار السلطان حتى وصل إلى غزة في تاسع عشرين شهر رجب المذكور، وسار منها في نهاره. وكان قد خرج الأمير قَانِي بَاَي من دِمَشْق في سابع عشرينه حسبما ذكرناه، ودخل الأمير أَلْطُنْبُغَا العثماني إلى دِمَشْق في ثاني شعبان، وقُرِيء تقليدُه، وكان لدخوله دِمَشق يوماً مشهوداً. وسار السلطانُ مجدًّا من غَزّة حتى دخل دِمَشْق في يوم الجمعة سادس شعبان؛ ثم خرج من دِمَشْق بعد يومين في أثر القوم، وقدّم بين يديه الأميرَ آقْبَاي الدّوَادَار في عسكر من الأمراء وَغيرهم كالجاليش، فسارَ آقْبَاي المذكور أمام السلطان والسلطان خلفه إلى أن وصل آقْبَاي قريباً من تَلّ(٢) السلطان، ونزل السلطانُ على سَرْمِين، وقد أجهدهم التّعَب من قُوّة السّير وشدِةّ البَرْد. فلما بلغ قانِي بَاَي وإينَال الصّصْلاني وغيرهما من الأمراء مجيء آقْبَاي، خرجوا إليه بمن معهم من العساكر، ولقوا آقْبَاي بمن معه من الأمراء والعساكر وقاتلوه، فثبت لهم ساعةً ثم انهزم أقبح هزيمة، وقبضوا عليه وعلى الأمير بَرْسباي الدُّقمَاقِي ـ أعني الملك الأشرف الآتي ذكره ـ وعلى الأمير

(١) الذي يقوم بهذه المهمات مدة غيبة السلطان يكون عادة «نائب الغيبة». ـ وعن ناظر الدولة انظر فهرس المصطلحات.

(٢) تلّ السلطان: موضع بينه وبين مدينة حلب مرحلة. (مراصد الاطلاع).

طُوغان دَوَادَار الوَالد، وهو أحد مقدّمي الألوف بـدِمَشْق، وعلى جماعـة كبيرة، وتمزقت عساكرهم وانتُهِبَتْ. وأتى خبرُ كَسْرَة الأمير آقْبَاي للسلطان فتخوَّف وهمَّ بالرُّجوع إلى دِمَشْق وجَبُنَ عن ملاقاتهم، لقّلة عساكره، حتى شجّعه بعضُ الأمراء وأرباب الدولة، وهوّنُوا عليه أمرَ القوم، فركِبَ بعساكره من سَرْمين، وأدركهم وقد استفحلَ أمرُهم؛ فعندمَا سَمِعوا بمجيء السلطان انْهَزَمُوا ولم يَثْبُتُوا، ووَلّوا الأدبار من غير قِتَال، خذْلانًا من الله تعالى لأمرٍ سَبَق. فعند ذلك اقتحمَ السلطانيَّة عساكر قَاني بَاي، وقُبِضَ على الأمير إينَال الصَّصْلاني نائب حَلَب، وعلى الأمير تَمَان تَمُر اليوسفي المعروف بأرق أتابَك حَلَب، وعلى الأمير جَرِباش كبّاشَة حاجب حجّاب حَلَب، وفرّ قاني باي واختفى.

أما سُودُون من عبد الرحمن نائب طَرَابُلُس، وتَنِبَك البَجَاسيّ نائب حَمَاة، وطَرَبَاي نائب غزّة، وجانِبَك الحمزاويّ نائب قلعة الرُّوم، والأمير مُوسى الكَرْكَرِيّ أتابَك طَرابُلُس وغيرهم [فقد] ساروا على حميَّة إلى جهة الشّرق قاصدين قَرَا يُوسف صاحب بَغْداد وتِبْرِيز.

ثم ركب الملك المؤيّد ودخل إلى حَلَب في يوم الخميس رابـع عشر شهر رجَب وظَفَر بقَانِي بَاي في اليوم الثالث من الوقعة، فقيَّدَه. ثم طلبهم الجميـع، فلمـا مثَلوا بين يدي السلطان قـال لهم السلطان: «قـد وقـع مـا وقـع! فـالآن أصْدِقُونِي: مَنْ كان اتّفَق معكم من الأمراء؟ فشَرَعَ قانِي بَاي يَعُدُّ جماعةً، فنهره إينالُ الصَّصْلَاني وقال: «يَكْذِبُ يا مَوْلانَا السلطان! أنا أكبر أصحابه فلم يَذْكُرْ لِي واحِداً من هؤلاء في مُدَّة هذه الأيّام؛ وكان يُمْكِنُه أنّه يَكْذِب عَلَيَّ وعلى غَيري بأن معه جماعةً من المِصْرِيِّين ليُقَوِّيَ بذلك قلوبَ أصحابه، فلم يذكر لنا شيئاً من ذلك؛ فكل ما قاله في حَقِّ الأمراء زُورٌ وبهتان». ثم الْتَفت إينالُ إلى قَانِي بَاي وقال له: «بتنميق كذبك تريدُ تَخْلُص مِنَ سيف هذا! هَيْهَات! ليس هذا مِمَّنْ يعفو عن الذَّنب». ثم تكلّم إينالُ المذكورُ بكلام طويل مـع السّلطان معناه «أننا خَرَجْنَا عليك نُرِيدُ قَتْلك، فافْعَلْ الآن ما بَدَا لك». فعند ذلك أمرَ بهم الملكُ المؤيّد، فَرُدُّوا إلى أماكنهم وقُتِلُوا ــ من يَوْمِهم ــ الأربعة: قانِي بَاي، وإينَال، وتمانْ تَمُر

أرق، وجَرِبَاش كبَّاشَه، وحُمِلَت رؤوسهم إلى الديار المصرية على يد الأمير يَشْبُك[١] شاد الشَّرَابْخَاناه، فرفعوا على الرِّمَاح ونُودِيَ عليهم بالقاهرة: «هذا جزاء من خامر على السلطان، وأطاع الشيطان، وعصى الرحمن». ثم عُلِّقُوا على باب زُوَيْلة أيَّاماً، ثم حملوا إلى الإسكندرية فَطِيفَ بهم أيضاً هناك، ثم أعِيدَت الرُّؤوس إلى القاهرة وسُلِّمَت إلى أهاليها.

ثم خلع السلطانُ على الأمير آقْبَاي المؤيّدي الدَّوَادار بنيابة حَلَب عِوَضاً عن إينَال الصَّصْلَاني، وعلى الأمير يَشْبُك شادّ الشَّرَابْخَاناه بنيابة طَرَابُلُس عِوَضاً عن سُودُون من عبد الرحمن، وعلى الأمير جَارْقُطْلُو بنيابة حَمَاة عوضاً عن إِنْيِهِ[٢] تِنِبَك البجاسي.

وأخذ السلطانُ في تمهيد أمور حَلب مُدّةً، ثم خرج منها عائداً إلى جهة الشام حتى نزل بحَمَاة، وعزَمَ على الإقامة بها حتى ينفصل فصل الشتاء. فأقام بها أيَّاماً حتى بلغه عن القاهرة غُلُوُّ الأسعار واضطرابُ الناس بالديار المصرية لغيبة السلطان، وفتنة العُربان، فخرج من حماة وعاد حتى قَدِمَ إلى دمَشْق وأمْسَك بها سُودون القاضي رأس نَوْبَة النُّوَب، وخلع على الأمير بُرْدُبَك قَصْقا واستقر به عوضه رأس نَوْبَة النُّوَب، وسجن سُودون القاضي بدمشق.

ثم خرج السلطان منها يريد الديار المصرية إلى أن قاربها فنزل المقامُ الصارمي إبراهيم ابن السلطان من قلعة الجبل، وسار إلى لقاء والده ومعه الأمير كُزُل العجمي أمير جاندار، وسُودون قَرَاصُقَل حاجب الحجاب في عِدَّةٍ من المماليك السلطانية حتى التقاهُ، وعاد صحبته حتى نزل السلطانُ على السَّماسم[٣] شمالي خانقاه سِرْياقُوس في يوم الخميس رابع عشر ذي الحجة من سنة ثماني عشرة وثمانمائة.

(١) في الأصل هنا: «تنبك». والتصحيح عما تقدّم ذكره للمؤلف في هذا الجزء.

(٢) الإنيّ: هو المملوك الصغير الذي يتعهّده مملوك كبير فيكون الصغير إنْياً له. راجع فهرس المصطلحات.

(٣) السماسم والصماصم: ترعة كانت تسقي أراضي الشرقية قبل حفر خليج أبي المنجا. (خطط المقريزي: ١/٤٨٧).

وركب في الليلة المذكورة إلى أن نزل بخانقاه سِرْياقُوس، وعمل بها مجتمعاً بالقراء والصُّوفية، وجمع فيه نحو عشر جُوَق من أعيان القُرّاء، وعِدّة من المُنْشِدِين أصحاب الأصوات الطيّبة، ومدّ لهم أسْمِطة جليلة. ثم بعد فَراغ القرّاء والمنشدين أُقِيمَ السَّماعُ في طول الليل، ورقصت أكابرُ الفقراء الظُّرفاء وجماعةٌ من أعيان نُدَمائِه بين يديه الليلَ كله نَوْبةً، وهو جالس معهم كأحدهم، هذا وأنواع الأطعمة والحَلاَوَات تُمَدُّ شيئاً بعد شيء بكثرة، والسُّقَاة تَطُوفُ على الحاضرين بالمشروب من السّكَّر المذاب، فكانت ليلة تُعَدّ من الليالي الملوكية لم يُعْمَل بعدها مثلُها. ثم أنعم على القرَّاء والمنشدين بمائة ألف درهم. وركب بُكْرَة يوم السبت سادس عشر ذي الحجة المذكورة من الخانقاه حتى نزل بطرف الرَّيْدَانِيَّة، فأقام بها ساعة، ثم رَكِبَ وشَقَّ القاهرة حتى طلع إلى القلعة من يومه، وقد زُيِّنَت له القاهرة أَحْسَن زينة، فكان لقدومه إلى الديار المصرية يوماً من الأيّام المشهودة.

وبعد طلوعه إلى القلعة أصبح من الغد نادى بالقاهرة بالأمان، «وأن الأسعار بيد الله تعالى، فلا يتزاحم أحد على الأفران». ثم تصدّى السلطان بنفسه للنظر في الأسعار(١). وعمل مُعَدَّل القمح، وقد بَلَغ سعرُ الإردب منه أزيد من ستمائة درهم إن وُجِد، والإردب الشعير إلى أربعمائة درهم، فانحطَّ السِّعْرُ لذلك قليلاً، وسَكَن رَوْعُ الناس، لكون السلطان ينظر في مصالحهم. قلت: هذا من واجبات العمل؛ ولعل الله سبحانه وتعالى أن يغفر للمؤيّد ذنوبه بهذه الفعلة؛ فإن ذلك هو المطلوب من الملوك، وهو حُسْنُ النظر في أحوال رعيتهم ــ انتهى.

ثم في يوم الاثنين خامس عشرينه خلع السلطانُ على الأمير جَقْمَق الأرْغُون شاَوِيّ الدَّوادار الثاني باستقراره دَوَادَاراً كبيراً عوضاً عن الأمير آقْبَاي المؤيّدي المنقول إلى نيابة حَلَب، وخلع على الأمير يَشْبُك الجَكَمِيّ باستقرارة دَوَادَاراً ثانياً عوضاً عن جَقْمَق.

---

(١) انظر تفصيل ذلك الغلاء وأسبابه في السلوك للمقريزي: ٤/ ٣٣٠ ــ ٣٣٧.

قلت: وكان الدَّوادار الثاني يوم ذاك لا يحكُم بين الناس، وليس على بابه نُقبَاء، وكذلك الرَّأس نَوبة الثاني؛ وأوّل من حكم ممن وَلي هذه الوظيفة قَرْقَمَاس الشَّعْباني، وممن وليَ رأس نوبة ثاني آقبِرْدِي المِنْقار ــ انتهى.

ثم أمرَ السلطانُ الملك المؤيد بالنداء بمنع المعاملة بالدنانير الناصرية، وقد تَزَايد سعرُ الذَّهب حتى بلغ المثقالُ الذهبُ إلى مائتين وستين(١) درهماً والناصري إلى مائتين وعشرة، فرسم السلطان بأن يكون سعر المثقال الذهب بمائتين وخمسين والإفْرنتي بمائتين وثلاثين، وأن تنقص(٢) الناصرية ويدفع فيها من حساب مائة وثمانين درهماً الدينار.

ثم في أوّل محرم سنة تسع عشرة وثمانمائة دفع السلطانُ للطَّوَاشيّ فارس الخازندار مبلغاً كبيراً وأمَرَه أن ينزل إلى القاهرة ويفرِّقَه في الجوامع والمدارس والخوانِق، فتوسَّع الناسُ بذلك، وكَثُرَ الدعاءُ له. ثم فرَّق مبلغاً كبيراً أيضاً على الفقراء والمساكين، فأقلّ ما نابَ الواحدَ من المساكين خمسة مؤيدية فضة عنها خمسة وأربعون درهماً، فشمل برُّه عِدّةَ طوائف من الفقراء والضُّعَفاء والأرامل وغيرهم، فكان جملة ما فرَّقه في هذه النوبة الأخيرة أربعة آلاف دينار، فوقع تفرقةُ هذا المال من الفقراء موقعاً عظيماً.

هذا والغلاء يتزايد بالقاهرة وضواحيها، والسلطانُ مجتهدٌ في إصلاح الأمر لا يَفْتُر عن ذلك، وأرسل الطواشيّ مَرْجانَ الهنديّ الخازندار إلى الوَجْه القبلي بمالٍ كثير ليشتري منه القمح ويرسله إلى القاهرة تَوْسِعَةً على الناس. ثم أخذ السلطان في النظر في أحوال الرَّعيَّة بنفسه وماله، حتى إنه لم يَدَعْ لمحتَسِب القاهرة في ذلك أمْراً، فمشىَ الحالُ بذلك، وردّ رَمَقَ الناس ــ سامحه الله تعالى وأسكنه الجنة.

ثم في أوّل صفر من سنة تسع عشرة المذكورة أَمرَ السلطانُ بعزل جميع

(١) في السلوك للمقريزي: «مائتين وثمانين».
(٢) عبارة السلوك: «وأن يقصّ الناصري، ويدفع فيه من حساب مائة وثمانين، ولا يتعامل به».

نُوَّاب القضاة الأربعة، وكان عدتهم يومئذ مائة وستة وثمانين قاضياً بالقاهرة سوى من النواحي، وصمم السلطان على أن كل قاض يكون له ثلاثة نواب لا غير، هؤلاء كفاية للقاهرة وزيادة.

قلت: وما كان أَحسن هذا لو دَامَ أَو استمرَّ، وقد تَضَاعَفَ هذا البلاء في زماننا حتى خرج عن الحدِّ، وصار لكل قاضٍ عِدَّةٌ كبيرة من النّوّاب ــ انتهى.

ثم فَشاَ الطاعونُ في هذا الشهر بالقاهرة. وَوَقَعَ الاهتمامُ في عمارة الجامع المؤيِّدِيّ بالقرب من باب زُوَيْلة، وكان قبل ذلك عمله على التراخي.

ثمّ تكلّم أَربابُ الدولة مع السلطان في عَوْدِ نُوَّاب القضاة، وأَمعنوا في ذلك، ووعدوا بمال كبير، فرسَمَ السلطانُ بجمْع القضاةِ الثلاثة، وكان قاضي القضاة علاءُ الدين بن مُغْلي الحَنْبليّ مُسافراً بحماَة، وتكلّمَ معهم فيما رَسَم به، وصَمَّمَ عَلَى ذلك ــ رحمه الله. [هذا] وأَربابُ وظائفه الظّلَمَة البلاصِيَّة[1] تُمْعِنُ في الكلام معه في ذلك، ولا زالوا به بعد أَن خَوَّفُوه بوُقُوف حال الناس من قِلَّة النوّاب، وأشياء غير ذلك، إلى أن استقرّ الحالُ عَلَى أن يكون نُوَّاب القاضي الشافعي عشرة، ونُوّاب القاضي الحنفي خمسة، ونُوّاب القاضي المالكي أربعة؛ وانفضَّ المجلسُ عَلَى هذا بعد أن عَجزَ مُبَاشِرُو الدَّوْلة في أن يسمحَ بأكثر من ذلك. وبعد خُروج القضاة من المجلس ضَمِنَ لهم بعضُ أعيان الدَّوْلة من المباشرين الظّلَمة العَوَاتِيَة ــ عليه من الله ما يستحقّه ــ بِرَدِّ جماعةٍ أُخَر بعد حين. هذا والناسُ في غاية السُّرور بما حصل من منع القضاة للحكم بين الناس.

ثم خَلَعَ السلطانُ عَلَى الأمير قُطْلوبُغَا باستقراره في نيابة الإسكندرية عوضاً عن آقبَرْدِي المِنْقار بحكم عزله، وكان قطلوبغا هذا ممن أنعم عليه الأمير تمربغا الأفضلي المدعو مِنْطاش بإمْرَةِ مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية، ثم أخرج الملك الظاهر بَرْقوق إقطاعه وجَعَله بطّالاً سنين طويلة حتى افتقر وطال خموله، واحتاج إلى السؤال، إلى أن طلبه الملك المؤيّد من داره وولاّه نيابة الإسكندرية من غير سؤال.

(١) أي الذين يأخذون مال الرعية ظلمًا وبدون وجه مشروع.

قلت: وهذه كانت عادةُ ملوك السَّلف أَنْ يقيموا من حطِّهُ الدهْرُ، وينتشلوا ذوي البُيُوتات من الرُّؤساَء وأرباب الكمالاَت. وقد ذهب ذلك كلّه وصار لا يترقّى في الدُّول إلا من يبذل المال، ولو كان من أَوْباش السُّوقة لِشَرَهِ الملوكِ في جَمْع الأموال ــ ولله دَرُّ المتنبي حيث يقول: [الطويل]

ومَنْ يُنْفِق الساعاتِ في جَمْع ماله   مخافةَ فَقْرٍ فالذِي فَعَل الفَقْرُ

حدَّثني بعضُ من حَضَرَ قُطْلُوبغَا المذكور لمَّا طلبَهُ المؤيّد ليستقرَّ به في نيابة الإسكندرية، [قال]: فعند حضوره قال له السلطان: أُوَلِّيك نيابة الإسكندرية. فمسك قُطْلُوبغَا المذكورُ لحيته البيضاء وقال: يا مولانا السلطان أنا لا أصلحُ لذلك، وإنما أريدُ شِبَعَ بطني وبطن عيالي ــ يظُن أن السلطان يهزأ به ــ فقال له السلطانُ: لا والله إنما كلامي عَلَى حقيقته. ثم طلب له التّشريف وأفاضه عليه، وأمدّه بالخيل والقماش ــ انتهى.

ثم في ثاني عشر شهر ربيع الأوَّل أمسكَ السلطانُ الأستادار بدر الدين حسن بن مُحب الدين بعد أن أوسعَهُ سَبّاً، وعَوَّقه نهارَه بقلعة الجبل حتى شفع فيه الأمير جَقْمَق الدَّوَادَار على أن يحمل ثلاثمائة ألف دينار، فأخذه جَقمَق ونزل به إلى داره. ثم أرسل السلطان تشريفاً إلى فخر الدين عبد الغني بن أبي الفرج وهو كاشف الوجه البحري باستقراره أستاداراً عِوَضاً عن ابن محب الدين المقدَّم ذكره، ثم تقرَّرَ الحالُ على ابن محب الدين أنه يحملُ مائة ألف دينار وخمسين ألف دينار بعد ما عُوقِبَ وعُصِرَ في بيت الأمير جَقْمَق عَصْراً شديداً، ثم نقل من بيت جَقْمَق إلى بيت فخر الدين بن أبي الفرج، فتسلمه فخرُ الدين المذكور عندما حضر إلى القاهرة.

هذا وقد ارتفع الطاعون بالديار المصرية، وظهر بالبلاد الشاميّة.

ثم في سابع جمادى الآخرة من سنة تسع عشرة المقدّم ذكرها أمرَ السلطانُ أن الخطباء إذا أرادوا الدّعاء للسلطان على المِنْبَر في يوم الجمعة [أن] ينزلوا درجة ثم يدعوا للسلطان حتى لا يكون ذكر السلطان في الموضع الذي يُذْكَر فيه اسمُ

الله عزَّ وجَلَّ واسمُ نبيّه صلى الله عليه وسلم، تواضعاً لله تعالى، ففعل الخطباء ذلك، وحَسُنَ هذا ببال الناس إلى الغاية، وعُـدَّت هذه الفعلةُ من حسنـاته ـ رحمه الله.

ثم تكرَّرت صدقاتُ السلطان في هذه السنة مِرَاراً عـديدة على نقـدات متفرقة.

هذا وقد ألزم السلطانُ مباشري الدّولة بالرّخام الجيّد لأجل جامعه؛ فطُلِبَ الرّخام من كل جهة، حتى أُخِذ من البيوت والقاعات والأماكن التي بالمفترجات. ومن يومئذ عَزَّ الرخامُ بالديار المصرية لكثرة ما احتاجه الجـامـعُ المذكـور من الرّخام، لكبره وسعته، وهو أحسن جامـع بُنِيَ بالقاهرة في الزَّخْرَفَةِ والرّخام لا في خشونة العمل والإمكان، وقد اشتمل ذلك جميعه في مـدرسة السلطان حسن بالرُّمَيْلَةِ، ثم في مدرسة الملك الظاهر بَـرْقُوق بِبَيْن القَصْـرَين. ولم يُعَبْ على الملك المؤيد في شيء من بناء هذا الجامـع إلا أَخذه باب مدرسة السّلطان حَسَن والتَّنُورَ الذي كان به ـ وكان اشتراهما السلطانُ حسن بخمسمائة دينار، وكـان يمكن الملك المؤيد أن يصنـع أحسنَ منهما لعُلوِّ هِمَّتِهِ ـ فإن في ذلك نقص مروءة وقلة أدب من جهات عديدة.

وكان وَعَدَنِي بعضُ أعيان المماليك المؤيديَّة أنه إن طالت يَدُه في التحكُّم أن يصنَـع باباً وتنوراً للجامـع المؤيّدي المذكور أحسن منهما، ثم يردهما إلى مكانهما من مدرسة السلطان حسن، فقبضَهُ الله قبل ذلك ـ رحمه الله تعالى. وكان نقل هذا الباب والتَّنور من مدرسة السلطان حسن إلى مدرسة الملك المؤيد في يوم الخميس سابـع عشرين شوال من السنة المذكورة.

ثم بدا للسلطان الملك المؤيد السفرُ إلى البلاد الشاميَّة، لِمَا اقتضاه رأيه، وعُلِّق جالِيشُ السَّفر في يوم الاثنين خامس المحرّم من سنة عشرين وثمانمائة؛ وهذه سفرةُ الملك المؤيد شيـخ الثالثة إلى البلاد الشامية من يوم تسلطن: فالأولى في سنة سبـع عشرة وثمانمائة لقتال الأمير نَوْرُوز الحافِظِيِّ نائب الشام، والثانية في

سنة ثماني عشرة [وثمانمائة] لقتال الأمير قَانِي بَاي المحمدي نائب الشام، وهذه سفرته الثالثة.

وتجهّز السلطان للسفر، وأَمَرَ أمراءَه وعساكره بالتَّجْهيز. فلما كان خامس عشر المحرم جلس السلطانُ لتفرقة النّفَقَات، فحَمَلَ إلى كل من أمراء الألوف أَلْفَيْ دينار، وأعطى لكلِّ مملوك من المماليك السلطانية ثمانية وأربعين ديناراً صَرْفُها يوم ذاك عشرة الآف درهم.

وبينما السلطان يتهيّأ للسفر قَدِمَ عليه الخبرُ في ثالث عشرين المحرّم بوصول الأمير آقْبَاي المؤيدي نائب حَلَب إلى قَطْيَا في ثماني هُجُن، فكثُرَت الأقوالُ في مجيئه على هذه الهيئة. ورسَمَ السلطانُ بتلقّيه، فسار إليه الأمراءُ وأربابُ الدولة إلى خانقاه سِرْياقوس، وجهّز له السلطانُ فرساً بسرج ذهب وكُنْبُوش[1] زَرْكَش، وكامِليّة مُخْمَل بفَرْو سَمُّور بمقلب سَمُّور. وقدِم آقْبَايُ المذكور من الغَدِ في يوم السبت رابع عشرين المحرم، فلامَهُ السلطانُ ووبّخَهُ وعنّفَهُ على حضوره إلى القاهرة في هذه المُدَّة اليسيرة على هذا الوَجْه من غير أمرٍ يستحِقُّ ذلك، فإنه سارَ من حَلَب إلى مِصر في أقل من عشرة أيام؛ فاعتذر آقْبَايْ أنَّ ما أحوَجَه لذلك ما أشِيعَ عنه في عَزْم الخروج عن الطاعة، ثم استغفَرَ مِمّا وقع منه، فخلع عليه السلطانُ باستقراره في نيابة دِمَشْق عِوَضاً عن الأمير أَلْطُنْبُغَا العثماني. ورَسَم السلطانُ للأمير آقْبُغَا التِّمْرَازِيّ أمير آخُور ثاني بالتوجُّه إلى الشام ليقْبِضَ على أَلْطُنْبُغَا العثماني ويودعه بسجن قلعة دِمَشْق، والحَوْطَة على مَوْجُودِه. ثم خلع السلطان على الأمير قَجْقَار القَرْدَامِيّ أمير سلاح باستقراره في نيابة حلب عوضاً عن آقباي المذكور، وأنعم السلطان بإقطاع قَجْقار على الأمير بَيْبُغا المظفري أمير مجلس.

ثم خرجت مُدَوَّرة[2] السلطان إلى الرَّيْدانية خارج القاهرة، ودخل المحمل في

---

(١) الكنبوش: البرذعة. والكاملية: ثوب ضيّق الأكمام يلبس فوق القباء. ـــ انظر فهرس المصطلحات.

(٢) مدوّرة السلطان: هي خيمته الكبيرة التي ترافقه في أسفاره. ولها معان أخرى، راجع فهرس المصطلحات.

ذلك اليوم إلى القاهرة صُحْبة أمير حاج المحمل الأمير أَزْدَمُر من علِي جان المعروف بأَزْدَمُر شَايَا.

ثم في خامس عشرين المحرم المذكور ركب السلطان من قلعة الجبَل بأمرائه وعساكره ونزل بمخيَّمه بالرَّيْدانية خارج القاهرة تجاه مسجد التبن، وخلع على الشيخ شمس الدين محمد بن يعقوب التباني باستقراره في حسبة القاهرة، وعُزِل عنها مَنْكلي بُغا العجمي الحاجب.

ثم في سابع عشرينه خلع السلطان على الأمير آقْبَاي نائب الشام خِلْعة السفر، وسافر من يومه جريدةً[١] على الخيل. ثم خلع السلطان على الأمير طُوغان أمير آخُور السلطان قديماً باستقراره في نيابة الغَيْبة، وعلى الأمير أَزْدَمُر من على جان المعروف شَايَا المقدم ذكره بنيابة قلعة الجبل، وأقرّ عدّة أمراء أخر بالديار المصرية. ثم خلع السلطان على الأمير قَجْقَار القَرْدَميّ نائب حَلَب خلعة السفر، وسار أيضاً من يومه. ثم تقدّم جاليشُ السلطان أمامه فيه جماعة من الأمراء، ومقدَّم الجميع ولدُه المقام الصَّارِميّ إبراهيم.

ثم سار السلطان ببقية عساكره من الرَّيْدَانِيّة في يوم الثلاثاء رابع صفر يُرِيدُ البلاد الشّامية، وصحبته الخليفة والقضاة الأربعة، ومعه أيضاً من ورد عليه من القُصَّاد في السنة الخالية، وهم جماعة: قاصدُ قَرَايوسف صاحب بَغْدَاد وغيرها من العراق، وقاصدُ سليمان بن عثمان صاحب الرّوم، وقاصدُ بير عمر صاحب أَرْزَنْكان، وقاصد ابن رمضان. وتأخر بالقاهرة الأستادار فخر الدين بن أبي الفرج، والصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله ناظر الخواص.

ورسم طُوغانُ نائبُ الغَيْبَة بأمر السلطان بهدم البيوت التي فوق البُرْج المجاورة لباب الفتوح[٢] من القاهرة ليعمل ذلك سجناً لأرباب الجرائم عوضاً عن خزانة

(١) أي سافراً مخفاً مسرعاً دون حمل أثقال.

(٢) كان هناك بابان باسم باب الفتوح. الأول أنشأه جوهر المعزّي الفاطمي، وكان برأس حارة بهاء الدين من قبليها دون جدار الجامع الحاكمي. أما الباب الثاني المعروف بهذا الاسم في القرن التاسع الهجري فقد أنشأه أمير الجيوش بدر الجمالي دون الباب الأول. (خطط المقريزي: ١/٣٨١).

شَمائِل التي كانت موضع المدرسة المؤيّدية، وسمي هذا السجن بالمَقْشَرَة[١].

وأما السلطان فإنه سار حتى دخل دِمَشْق في أوّل شهر ربيع الأول بعد أن مات الأمير آقْبَرْدي المؤيدي المِنْقَار أحد مقدَّمي الألوف بطريق دِمَشْق، وكان خرج من القاهرة مريضاً في محفَّة، وأنعم السلطان بإقطاعه على الأمير سُودون القاضي بعد أن أخرجه من السجن.

ثم كتب الأمير طُوغان نائبُ الغيبة يعرّف السلطان بمَوْت فَرَج ابن الملك الناصر فرج في يوم الجمعة سادس عشرين شهر ربيع الأول مسجوناً بثغر الإسكندرية، وقد ناهز الاحتلام. وبموته انْكَسَرَت حدَّة المماليك الظاهرية والناصرية؛ وكان في كل قليل يكثُرُ الكلامُ بأن المماليك الظاهرية يثورون وينصِّبُونَه في السلطنة، وكانوا لا يزالون يتربَّصُون الدوائر لأجل ذلك، فبطل عزمهم بموته.

وأقام السلطان بدِمَشْق أيّاماً، ثم خرج منها يريدُ حَلَب، وسار حتى وصل تَلَّ السلطان؛ فتقدَّم وصَفَّ الأطلابَ بنفسه ــ وكان إمَاماً في هذا الشأن، ومعرفة تعبئة للعساكر ــ فرتَّب أطلابَ الأمراء أوّلاً كل واحد في منزلته، وليس ذلك بمنزلته في الجلوس بين يدي السلطان، وإنما بحسب وظيفته؛ فإنّ لكل صاحب وظيفة منزلة يمشي طُلْبُه فيها أمام طُلْب السلطان ــ أَخَذْتُ أنا هذا العلم عن آقْبُغَا التِّمْرَازِيّ وعن السَّيفي طُرُنْطَاي الظاهِرِيّ شادِّ القَصر السلطاني ــ انتهى.

ثم سار السلطانُ أمام طُلْبِهِ في يوم السبت حادي عشرين شهر ربيع الأوّل عند انشقاق الفجر، ومرّ بطُلْبِه من ظاهر حَلَب ومعه جميع الأمراء بأَطْلَابهم حتى نَزَل بالمسطبة الظاهرية في المُخَيَّم. ومرّ من داخل مدينة حَلَب نائبُ الشام، ونائبُ طَرَابُلُس، ونائبُ حَمَاة، ونائبُ صَفَد، ونائبُ غَزَّة، وعِدَّةٌ كبيرة من التُّرْكُمَان والعُرْبَان حتى خرجوا من الباب الآخر، فهال الناسَ هذه الرُّؤية الغَرِيبَةُ، من كثرة

(١) وسمي بذلك لأنه كان موضعاً يقشر فيه القمح. وكان من أضيق السجون وأشنعها، يقاسي فيه المسجونون من الغمّ والكرب ما لا يوصف. (خطط علي مبارك: ٢/٧٦).

العساكر التي قَدِمَت حلب من ظاهرها وباطنها، وأقامَ السلطانُ بمخيّمه بالمسطبة أيّاماً ينتظر عَوْدَ القصّاد الذين وجَّهَهُم للأطراف.

ثم في يوم الاثنين ثالث عشرين شهر ربيع الأوّل جَلَسَ السلطانُ بالمَيْدَان وعمل به الموكب السُّلْطَانِي، وحضره نُوَّابُ البلاد الشَّامِيَّة والعساكرُ المصرية؛ فجَلَسَ عن يمين السلطان الأتَابَك أَلْطُنْبُغَا القَرْمَشِيّ، وتحته آقْبَاي المُؤَيَّدِي نائب الشام، ثم بَيْبُغَا المظفري أمير مجلس، ثم يَشْبُك المؤيّدي نائب طَرَابُلُس، ثم جماعةٌ كلٌّ واحد في رتبته، وجلس عن يسار السلطان ولدُه المقام الصَّارِمِيّ إبراهيم، ثم قَجْقَار القَرْدَمِيّ نائب حلب، ثم تَنِبَك العلائي مِيق الأمير آخُور الكبير، ثم جَارْقُطْلُو نائب حَمَاة، ثم بُرْدْبَك قَصْقَا رأس نَوْبَة النُّوَب، ثم الأمير طَطَر، ثم جماعة أُخَر كلٌّ واحد في منزلته.

ثم عيّنَ السلطان الأمير آقْبَاي نائب الشام والأمير جَارْ قُطْلُو نائب حَمَاة ومعهما خمسمائة ماشٍ من التُّرْكمان الأوْشَرِية[١] والإينَالِيَّة وفرقةٌ من عَرَب آل مُوسى ليتوجَّه الجميعُ إلى جهة مَلَطْيَة لإخراج حسين بن كِبك منها، ثم إلى كَخْتَا[٢] وكَرْكَر. ثم قَدّم السلطانُ الجاليش بين يدَيْه، وفيه الأتَابك أَلْطُنْبُغا القَرْمَشي، ويَشْبُك اليُوسُفيّ المؤيدي نائب طَرَابُلُس، وخليلُ الدُّشَارِي التِّبريزيّ نائب صَفَد في عدة أُخر من أمراء مصر، فساروا إلى جهة العَمْق. ثم رَكِبَ السلطان ودخل مدينة حَلب وأقام بها إلى أن ركب منها في بُكْرَة يوم الاثنين ثاني شهر ربيع الآخر وسار إلى جهة العَمْق على درب الأتارب[٣]، فقَدِمَ عليه بالمنزلة المذكورة قاصد الأمير ناصر الدين بَك[٤] بن قَرَمَان بهديّة وكتاب يتضمن أنه ضرب

(١) ويقال لهم أفشار وأوشار. وهم من بطون التركمان أو الغز.

(٢) كختا وكركر: قلعتان متجاورتان على جانب الفرات الغربي في طرف حده الشمالي. (تقويم البلدان).

(٣) في السلوك للمقريزي: «الأثارب» بالثاء المثلثة. وفي الدرّ المنتخب لابن الشحنة وردت بالرسمين: الأتارب والأثارب. وهي قلعة بين حلب وأنطاكية، تبعد عن حلب نحو ثلاثة فراسخ. (معجم البلدان).

(٤) في السلوك: «ناصر الدين محمد بن قرمان».

السِّكَّة المؤيدية ودعا للسلطان في الخطبة بجميع معاملته، وبعث من جملة الهدية طبقاً فيه جملة دراهم بالسِّكة المؤيدية، فعنَّفَ السلطانُ رسوله ووبّخَهُ وعدّدَ له خطأ مُرْسله من تقصيره في الخِدْمَة، وذكر له ذنوباً كثيرة(١)، فاعتذرَ الرسولُ عن ذلك كلّه، وسأل السلطانَ الصفحَ عنه، فقال السلطان: «إني ما سرتُ وتكلفت هذه الكلفة العظيمة إلا لأجل طَرَسُوس لا غير»، ثم فرّق الدراهم على الحاضرين، وصَرف الرسولَ إلى جهة نَزَلَ فيها.

وعمل السلطان الخِدْمَة في يوم السبت سابِع شهر ربيع الآخر بالعَمْق، وحَلف التُّرْكُمَان على طاعته، وأنفق فيهم الأموال، وخلع عليهم نحو مائتي خِلعة، وألبس إبراهيم بن رَمَضَان الكَلَفْتَة(٢)، وخلع عليه.

ثم تقرّر الحال على أن قَجْقَار القَرْدَمِيّ نائب حَلَب يتوجّه بمن معه إلى مدينة طَرَسُوس، ويسير السلطان على مدينة مَرْعَش إلى أَبُلُسْتَيْن، ويتوجّه رسول ابن قَرَمَان بجوابه ويعود إلى السلطان في مستهّل جمادى الأولى بتسليم طَرَسُوس، فإن لم يحضر مشى السلطانُ على بلاده، فسار الرسول صحبة نائب حَلَب إلى طَرَسُوس. وسار السلطانُ إلى أَبُلُسْتَين، فنزل بالنهر الأبيض في حادي عشرة، فقدم عليه كتاب قَجْقَار القَرْدَمِيّ نائب حَلَب بأنه لما نزل بَغْراس قدم عليه خليفةُ الأَرْمَن وأكابر الأرمن وعلى يدهم مفاتيحُ قلعة سِيس(٣)، وأنه جهَّزَهم إلى السلطان. فلما مثلوا بين يدَي السلطان خلع عليهم وأعادهم إلى القلعة بعد أن وَلّى نيابة سِيس للشيخ أحمد أحد أمراء العشرات بحَلَب. ثم رَحَل السلطانُ حتى

---

(١) منها تقصيره في الخدمة لما وصل السلطان والعسكر إلى قيسارية، ومنها إهماله القبض على كزل ومن معه من المتسحّبين، ومنها عدم تجهيزه مفاتيح طرسوس لما استولى عليها. (السلوك: ٤/٤٠٣).

(٢) في السلوك «الكلوتة»، وهما واحد. وهي غطاء للرأس ـ انظر فهرس المصطلحات.

(٣) في السلوك: «قلعتي سيس وناورزا». وسيس: هي قاعدة بلاد الأرمن، ولها قلعة حصينة. (صبح الأعشى: ٤/١٣٤). وناورزا: هو الاسم المحرّف لقلعة عين زربة إلى الجنوب الغربي من سيس، بينهما ٢٤ ميلاً. (تقويم البلدان).

نَزَل بمنزلة كونيك(١)، فَقدِمَ عليه بها كتابُ آقْبَايْ نائب الشام بأن حُسَين بن كِبك أحْرَق مَلَطْية، وأخذ أهلها وفرَّ منها في سابع عشر شهر ربيع الأوّل، وأنه نزل بمَلَطْيَة وشاهدَ ما بها من الحريق، وأنّه لم يتأخّر بها إلا الضعيفُ العاجزُ، وأن فلاَّحِي بلادها نَزَحُوا بأجمعهم عنها، وأن ابن كِبك نَزَل عند مدينة دَوْرَكِي(٢)؛ فَنَدَبُه السلطانُ أن يسير خلفه حيث سار. ثم أمرَ السلطانُ وَلَدَه المقام الصّارِمِي إبراهيم ليتوجّه إلى أبُلُسْتَين ومعه الأمير جَقْمَق الأرْغُون شَاوي الدَّوَادَار، وجماعة من الأمراء لكبس الأمير ناصر الدين محمد بن دُلْغَادِر؛ فساروا مُجِدِّين، فصَابَحُوا أبُلُسْتَين وقد فرَّ منها ابنُ دُلْغَادِر، وأجلى البلاد من سكانها، فجدُّوا في السَّير خلفه ليلاً ونهاراً حتى نزلوا بمكان يقال له كل دلي(٣) في يوم خامس عشرة وأوقعوا بمن فيه من التُّرْكُمان، وأخذُوا بيوتهم وأحرقوها. ثم مضوا إلى خان السلطان(٤). فأوقعوا أيضاً بمن كان هناك وأحرقوا بيوتهم وأخذوا من مواشيهم شيئاً كثيراً. ثم ساروا إلى مكان يقال له صاروس(٥) ففعلوا بهم كذلك، وباتوا هناك. ثم توجهوا يوم سادس عشرة فأدركوا ناصر الدين بَك بن دُلْغَادِر وهو سائرٌ بأثقاله وحريمه، فتتبَّعُوه وأخذوا أثقاله وجميعَ ما كان معه، ونجا ابنُ دُلْغَادِر بنفسه على جَرَائِد الخيل، ووقع في قبضتهم عدة من أصحابه، ثم عادوا إلى السلطان بالغنائم، ومن جملتها مائة جمل

---

(١) كذا أيضاً في السلوك. والصواب: «كينوك». وهي الحدث الحمراء: قلعة حصينة ومدينة بين ملطية وسميساط ومرعش. وكانت تسمى أولاً بالمهدية والمحمدية لأنها بنيت أيام المهدي محمد بن جعفر المنصور، وسميت بالحدث لأن المسلمين لاقوا على دربها حدثاً من الروم في طائفة فقاتلوه على هذا الدرب فسمي درب الحدث. وسميت بالحمراء لحمرة أرضها. ثم بعد ذلك سمّاها الأرمن «كينوك» ومعناها: المحرَقة. (انظر صبح الأعشى: ١٤/ ١٦١ طبعة دار الكتب العلمية، والدرّ المنتخب: ١٩٣).

(٢) دوركي، ويقال دبركي: مدينة في جهة الشمال والغرب من حلب على نحو عشر مراحل منها. (صبح الأعشى: ٤/ ١٣٢).

(٣) في بعض النسخ: «كل ولي».

(٤) لعله تلّ السلطان. ــ راجع فهرس الأماكن.

(٥) في السلوك: «صاروش». وهي تبعد ٣٥ ميلاً شمالي غرب أبلستين. (طبعة كاليفورنيا من النجوم: ٦/ ٣٦٦، حاشية).

بُخْتيّ وخمسمائة جمل نفر، ومائة فَرَس(١)، هذا سوى ما نهب وأخذه العسكر من الأقمشة الحرير، والأواني الفضية ما بين بّلور وفضِّيَّات وبُسط وفُرُش، وأشياء كثيرة لا تدخل تحت حِصر، فسُرَّ السلطانُ بذلك. وصار السلطانُ يتنقَّلُ في مراعي أُبُلُسْتَين حتى قدم عليه آقْبَاس نائب الشام بعد أن سار في أثر حُسين بن كِبك إلى أن بلغه أنه دخل إلى بلاد الروم، وبعد أن قَرَّرَ أمرَ مَلَطْيَة بعَوْدِ أهلها إليها، وبعد أن جهَّز الأمير جَارْقُطْلو نائب حماة، ومعه نائب البِيرَة، ونائب قلعة الرّوم، ونائب عَيْنتَاب في عِدّة من الأمراء إلى كَخْتَا وكَرْكَر، فنازلوا القلعتين، وقد أحرق نائب كَخْتَا أسواقها وتحصّن بقلعتها، فبعث السلطانُ إليهم نَجْدَةً فيها ألفُ ومائتا ماشٍ. ثم قَدِمَ كتابُ ناصر الدين بَك بن دُلْغادِرٍ على السلطان يسأل العفوَ عنه على أن يُسَلِّمَ قلعة دَرَنْدَة(٢) فأجيبَ إلى ذلك.

وأما قَجْقَار القَرْدَميّ نائب حَلب فإنه لما توجَّه إلى طَرَسُوس قَدَّم بَيْنَ يَدَيْهِ إليها الأمير شاهين الايذُكاري متولِّيها من قبل السلطان، فوجد ابن قرمان قد بعث نجدة إلى نائبه بها، وهو الأمير مُقْبل. فلما بَلَـغ مقبلاً المذكور مجيء العساكر السلطانية إليه امتنـع بقلعتها، فنَزَل شاهينُ الأيذُكارِي وَقَجْقَارُ القَرْدَميّ عَليها.

وَكتب قَجقارُ إلى السلطان بذلك، فأجابهم السلطان بالاهتمام في حصارها، وحَرَّضهم عَلَى ذلك؛ فلا زالوا عَلَى حصارها حتى أَخذوها بالأمان في يوم الجمعة ثامن عشر شهر ربيـع الأوَّل، وسجنوا مُقبلاً وأصحابه.

ثم انتقل السلطان إلى منزلة سلطان قشّي(٣)، فقدِمَ عليه بها قاصدُ الأمير علي بك(٤) بن دُلْغادِر بهدِّية. ثم قَدِمَ ناصـر الدين بـك بنُ دُلْغادر مـع ولـده

(١) عبارة السلوك: «ــ ومن جملتها مائة بُسرك ــ يعني بختيّ ــ كالأفيلة، وخمسمائة جمل من اللوكات ــ جمال الأثقال ــ ومائتا فرس». ــ والبختيّ: هو الجمل ذو السنامين، يستعمل في أسفار الشتاء (محيط المحيط) ولعل المراد بالجمال النفر تلك التي ما تزال صغيرة السنّ.

(٢) درندة: مدينة في جهة الغرب من ملطية على نحو مرحلة منها. (صبح الأعشى: ٤/١٣٢).

(٣) في السلوك: «سلطان قرشي». وفي حاشية طبعة كاليفورنيا من النجوم: «يمكن أن تكون سلطان جاي».

(٤) في السلوك: «علي باك».

وصحبته كَوَاهِي(١) ومفاتيح قلعة دَرَنْدَة، فأضاف السلطان نيابة أَبُلُسْتَين إلى علي بَك بن دُلْغَادِر مع ما بيده من نيابة مَرْعَش.

ثم ركب السلطانُ ليرى دَرَنْدَة، وسار إليها على جرائد الخيل حتى نزل عليها وبات بظاهرها فامتنعت عليه. وأصبح فرتَّب الأميرَ آقْبَاي نائب الشام في إقامته عليها، وأَرْدَفَهُ بآلات الحصار والصُّنَّاع من الزَّرَدْخاناه السلطانية. وعادَ السلطانُ إلى مُخَيَّمِه، فوصل إليه في تلك الليلة مفاتيحُ قلعة خَنْدَروس من مضافات درَنْدَة. ثم ركب السلطان من الغد وبات على سطح العَقَبة المُطِلّة على دَرَنْدَة. فلما أصبحَ ركبَ بعساكره وعليهم السلاح، ونزل بمخيّمِه على قلعة دَرَنْدَة وهي في شِدّةٍ من قوة الحصار. فلما رأى من بها أن السلطانَ نزل عليهم طلبُوا الأمان، فأمَّنَهم، ونزلوا بُكْرَة يوم الجمعة، وفيهم داوُد ابن الأمير محمد بن قَرَمان، فألبسه السلطان تشريفاً، وأركبه فرساً بقماش ذهب، وخلع على جماعته. واستولى السلطانُ على القلعة، وخلع على الأمير أُلْطُنْبُغَا الجَكَميّ أحد رؤوس النُّوَب باستقراره في نيابة دَرَنْدَة، وأنعمَ عليه بأربعة آلاف دينار غير السلاح. وخلع على الأمير مَنْكُلِي بُغا الأرغون شاوي أحد أمراء الطَّبْلَخَانات بالديار المصرية بنيابة مَلَطْيَة ودَوْرَكِي، وأنعم عليه بخمسة الآف دينار. ثم طلع السلطانُ إلى قلعة دَرَنْدَة وأحاطَ بها عِلْماً. ثم ارتحلَ عنها بعد أن مَهَّدَ البلاد التي استولَى عليها، وعمل مصالحها، وسار حتى نزل على النَّهر من غربي أَبُلُسْتَين بنحو مرحلة، فأقام هناك أربعة أيام لِيُمَكِّنَ كلَّ مَنْ وَلِيَ نيابة على عَمَلِه ورجوع أهل بلده إليه. ثم رَحَلَ ونزل على أَبُلُسْتَين يريد التوجُّه إلى بَهَسْنا وكَخْتا وكَرْكَر، وأعاد من هناك حَمْزَة بن علي بك بن دُلْغَادِر إلى أبيه، وجهَّز له رايةً حمراء من الكمخا(٢) الإسكندراني، ونفقةً وطبلخاناه(٣).

وكان الأمير آقْبَاي سار إلى بَهَسْنَا، فقدمَ الخبرُ على السلطان من الأمير

---

(١) جمع كوهية، وهي من صقور الصيد.

(٢) الكمخا: قماش من الحرير قد يحلّى بالذهب أو الفضة. (معجم دوزي).

(٣) المراد هنا بالطبلخاناه فرقة الموسيقى. ــ راجع فهرس المصطلحات.

آقْبَايْ بأنه كتب إلى الأمير طُغْرُق بن داود بن إبراهيم بن دُلْغَادِر المقيم بقلعة بَهَسْنَا يُرَغِّبُهُ في الطاعة، ويدعوه إلى الحضور إلى الحضرة الشريفة، فاعتذر من حضوره بخَوْفِه على نفسه. فما زال به حتى سلّم القلعةَ وحَضَر إليه. فلما كان سادس عشر جمادى الآخرة قَدِمَ الأميرُ آقْبَاي ومعه الأمير طُغْرُق ومن كان معه بالقلعة، وقد قاربَ السلطانُ في مسيرهِ حصنَ مَنْصُور[١]، فخلع السلطانُ على طُغْرُق ومن معه، وأنعم عليهم، وأنزل طُغْرُق بخام ضُرِب له. ونزل السلطان بحصن مَنْصُور، فورد عليه الخبر بنزول قَجْقَار القَرْدَمِي على كَرْكَر وكَخْتَا، وقدم أيضاً قاصد قَرَايُلُك صاحب آمِد من ديار بَكر بهدية فقبلها السلطان، وخلع عليه.

ثم قَدِمَ أيضاً رسول الملك العادل [سليمان][٢] صاحب حصن كَيفا بهدية فقبلها السلطان أيضاً فلما كان الغد رحل السلطانُ ونزل شمالي حِصْن مَنْصُور قريباً من كَخْتا وكَرْكَر، وأردف نائب حَلب بالأمير جارْقُطْلُو نائب حَماة وبجماعة من أمراء مصر والشام.

وبعث الأميرَ يَشْبُك اليُوسُفي نائب طَرَابُلس لمنازلة كَخْتَا، وخلع على الأمير مَنْكُلِي خَجَا الأرْغُون شَاوي بنيابة قلعة الرّوم عوضاً عن الأمير أبي بكر بن بهادر البابيري الجعْبَري، وخلع على الأمير كَمَشْبُغا الرُّكْني بنيابة بَهَسْنَا عوضاً عن الأمير طُغْرُق بن دُلْغادِر. ثم قدم جوابُ الأمير قَرا يُوسُف، وقَرا محمد صحبة القاضي حميد الدين قاضي عسكره، وكتاب شاه أحمد بن قرايُوسف صاحب بغداد من قِبَل أبيه، وكتاب بِيرْ عُمر صاحب أرْزُنْكان[٣] بهدية جليلة من قرايُوسف، فأنزلَ حميدَ الدين المذكور بمخيّمه، وأجرى عليه ما يليق به.

---

(١) حصن منصور: بلدة وحصن شمالي سميساط في غربي الفرات. وهو منسوب إلى منصور بن جعونة بن الحارث العامري المتوفى سنة ١٤١هـ. ويقال لحصن منصور اليوم «أديمان»، وكان الروم يسمونه «برها». (معجم البلدان: ٢/٢٦٥، والمشترك: ١٣٧، ومراصد الاطلاع: ١/٤٠٧، وبلدان الخلافة الشرقية: ١٥٥).

(٢) زيادة عن السلوك. وهو سليمان بن غازي بن محمد بن شاذي، الملك العادل، فخر الدين الأيوبي المتوفى سنة ٨٢٧هـ. (السلوك: ٤/٦٧٦).

(٣) أرزنكان، وأرزنجان: مدينة من بلاد أرمينية بين خلاط وأرزن الروم. (معجم البلدان).

ثم رَحَلَ السلطانُ حتى نزل على كَخْتَا وحَصَر قلْعَتَها، وقد نزح أهلُ كَخْتَا ومُعامِلِيها عنها، فنصبَ المدافع للرَّمي على القلعة ورَمى عليها. وبينما هو في ذلك ورد الخبر على السلطان بقُرْب قَرَايُوسُف قاصداً قَرَايُلُك، فبادر قرايُلُك وجهَّز ابنه حمزة صحبة نائبه شمس الدين أمِيرْزَه بهدية من خيل وشعير وسأل الاعتناء به، فأكرم السلطانُ ولده ونائبه. وقدِمَ أيضاً قاصدُ طُرْعلي نائب الرُّها، وقاصد الأمير محمد بن دَوْلة[١] شاه صاحب أَكِل[٢] من دِيار بَكر ومعه مفاتيح قلعتها، فقبلها السلطانُ، ثم أعادها إليه ومعها تشريفٌ له بنيابتها.

ولما اشتد الحصار على قلعة كَخْتَا وفرَغ النقّابُون من النقب ولم يبق إلا إلقاء النار فيها، طَلَب قَرْقَماسُ نائبها شَمْسَ الدين أمِيرْزَه نائب قَرَايُلُك فبعثه السلطانُ إليه؛ وتردَّد المذكورُ بينه وبين السلطان غير مَرّة إلى أن بعث قَرْقَمَاسُ وَلَدَه رَهْناً على أنَّه بَعْد رحيل السلطان عنه يَنْزل ويسلِّمها لمن يأمره السلطان بتسليمها. ورحل السلطان إلى جهة كَرْكَر، وترك الأمير جَقْمَق الدوادار على كَخْتا، وسارت أثقالُ السلطان إلى عَيْنتاب، فنازل السلطانُ كَرْكَر، ونصب عليها مَنْجَنِيقاً يرمي بحجر زنته ما بين الستين والسبعين رطلاً بالدمشقي، وكان ذلك في يوم الجمعة تاسع عشرين من جمادى الآخرة.

فلما كان أوّل شهر رجب قدم الخبر على السلطان من الأمير جَقْمَق بنزول قَرْقَماس من قلعة كَخْتَا ومعه حريمُه وتسلّمَها نوَّابُ السلطان، وأنه توجّه معه قَرْقَماس المذكور إلى حَلَب. ثم قدم الخبر على السلطان من الأمير مَنْكْلِي بُغَا نائب مَلَطْيَة بأن طائفةً من عسكر قَرَايُوسف نزلُوا تحت قلعة مِنْشار[٣]، ونهبوا بيوت الأكراد، وعدّى الفُرَاتَ منهم نحو ثلاثمائة فارس، وأنه ركب عليهم وقاتلهم وقتَلَ منهم نحو العشرين وغرق في الفرات نحو ذلك، وأسر اثني عشر نفراً، فكتب له السلطانُ بالشكر والثناء. ثم خَلَع السلطانُ على الأمير شاهِين حاجب صَفَد

(١) في السلوك: «دولات شاه».
(٢) أَكِل: قرية وقلعة من ديار بكر. (الأعلاق الخطيرة: ٣/٢٤٦).
(٣) قلعة منشار: قرب الفرات (معجم البلدان).

باستقراره في نيابة كَرْكَر، وعلى الأمير كُزُل بُغا أحد أمراء حَماة بنيابة كَخْتا، فمضى كُزُل بُغا المذكور إليها من يومه.

ورَحَل السلطانُ من الغد وهو يوم الثلاثاء رابع شهر رجب، وقد عاوَدَهُ أَلَمُ رجله الذي يعتَرِيه في بعض الأحيان، فركب المَحَفَّة عجزاً عن ركوب الفرس، وعاد إلى جهة البلاد الحلبيّة، إلى أن وصل إلى بلد يقال له كِيلِك(١)، فنزل في الفرات في زوارق وصحبته جماعة، وسار إلى أن وصل قلعة الرُّوم في عَشِيَّة يوم الخميس سادسه، وباتَ بها. ونَزَلَ من الغد بعدما رتَّبَ أحوال القلعة، وأنعم على نائبها بخمسمائة دينار، فقدِمَ عليه في يوم الجمعة سابعه الخبرُ بأن الأمير قَجْقَار القَرْدَميّ نائب حَلَب يخبر بهزيمة قَرَايُلُك من قَرَايوسف وأن الذين معه من العسكر المقيم على كَرْكَر خافوا من قَرَايُوسف وعَزَمُوا على الرَّحِيل. وبينما كتاب قَجْقَار يُقْرَأ قَدِمَ كتابُ آقْبَاي نائب الشام بأن الأمير قَجْقَار نائب حلب رَحَلَ عن كَرْكَر بمن معه من غير أن يُعْلِمَه، وأنّه عزم على محاصرتها، فكتب إليه السلطانُ بأن يستمرّ على حصارها.

ثم في بكرة يوم السبت ثامن شهر رجب انحدَرَ السلطانُ من قلعة الرُّوم، ونزل على البِيرة، فطلعَ من المراكب إليها وقَرَّرَ أمورها. فقَدِمَ عليه الخبرُ من الغد بقرب قَرَايُوسف، وأن الأمير آقْبَاي نائب الشام صالَحَ الأمير خليلاً نائب كَرْكَر ورحل عنها بمن معه، فحنق السلطانُ من ذلك واشتدّ غَضَبُهُ على الأمير قجقار القَرْدَميّ. ثم رحل من البِيرَة يريد حَلَب حتى دخلها بُكْرَة يوم الخميس ثالث عشر شهر رجب بأبهة المُلْك، وقد تَلَقَّاهُ أهلُ حَلَب وفرحوا بقدومه، لكثرة إرْجافِهم بقدُومِ قَرا يوسف إليها، فاطمأنوا. وطلع السلطان إلى قلعة حلب، ونادى بالأمان، وفرّق على الفقراء والفقهاء مالاً جزيلاً، وأمر ببناء القصر الذي كان الأمير جَكَم شرع في عمارته.

ثم في سابع عشرة قَدِم الأمير آقباي والأمير قَجْقار القَرْدَميّ والأمير جارْقُطْلو،

---

(١) كيلك: تقع غربي سميساط. (هامش طبعة كاليفورنيا).

فأغلظ السلطان على الأمير قَجْقار القَرْدمي ووبّخَهُ، فأجابه قَجْقار بدالَّةٍ ولم يُراعِ الأدبَ معه، فأمرَ به فَقُبِض عليه، وحبسه بقلعة حَلَب، ثم أفْرَجَ عنه في يومه بشفاعة الأمراء، وبعثه إلى دِمَشْق بَطّالاً، وخلع على الأمير يَشْبُك المؤيدي اليُوسُفي نائب طَرَابُلُس باستقراره عوضه بنيابة حَلَب، وخلع على الأمير بُرْدُبك رأس نَوْبَة النّوب باستقراره في نيابة طَرَابُلُس عوضاً عن يَشْبُك المذكور.

ثم في يوم الخميس العشرين من شهر رجب خَلَع على الأمير طَطَر باستقراره رأس نوبة كبيراً عوضاً عن بُرْدُبك المذكور، وخلع على الأمير نُكْبَاي باستقراره في نيابة حَمَاة عوضاً عن جارْقُطْلو بحكم عزله، وخلع على جارْقُطْلو المذكور باستقراره نائب صَفَد عوضاً عن خليل التِّبْريزَي الدُّشاري، واستقرَّ خليلٌ المذكور حاجب الحجَّاب بطَرَابُلُس فاستعفى خليلٌ من حجوبية طَرَابُلُس فأعْفِيَ.

وخلع السلطانُ عَلَى الأمير سُودُون قَرَاسُقْل حاجب الحجاب بالديار المصرية باستقراره في حجوبيّة طَرَابُلُس. قلت: درجات إلى أسفل.

وخلع عَلَى الأمير شاهين الأرْغُون شاوي باستقراره في نيابة قلعة دِمَشْق عوضاً عن ألْطُنْبُغا المؤيدي المَرْقَبي، بحكم انتقال المَرْقبي إلى تقدمة ألف بالديار المصرية.

ثم في رابع عشرينه رَسمَ السلطانُ للنوَّاب بالتوجه إلى محَلِّ كفالتهم بعد أن خلع عليهم خِلَع السفر.

ثم في سادس عشرينه استدعى السلطانُ مُقْبِلاً القَرَماني ورفاقَه، فضربه ضَرْباً مُبَرِّحاً، ثم صلبه هو ومن معه.

ثم في يوم الاثنين أول شعبان قدِمَ قاصدُ كُرْدِي بَك ومعه الأمير سُودون اليُوسُفِي أحدُ الأمراء المتسحّبين من وقعة قَاني باي نائب الشام وقد قبض عليه، فسَمَّره الملك المؤيد من الغد تحت قلعة حَلَب، ثم وسَّطه، فَعِيبَ ذلك علَى السلطان كون سُودون المذكور كان من جُمْلة أمراء الألوف ثم من أعيان المماليك الظاهرية وَوُسِّطَ مثل قُطَّاع الطريق.

ثم خلعَ السلطانُ عَلَى تِمْراز باستقراره في حجوبية حَلب عوضاً عن آقْبلاط الدَّمُرْداشِيّ. وكان السلطان خلع عَلَى الأمير يَشْبُك الجَكَمي الدَّوَادار الثاني باستقراره أمير حاج المحمل، وسيَّره إلى القاهرة، فَوَصَلها في شعبان المذكور فوجد القاهرة مضطربة والناس في هرج كونهم أمْسَكُوا بالقاهرة نَصْرَانِياً وقد خلا بامرأة مُسْلمة فاعترفا بالزِّنا فرُجِما خارج باب الشعرية[١] ظاهر القاهرة عند قنطرة الحاجب[٢]، وأحرق العامة النَّصْرانيَّ، ودُفِنت المرأةُ، فكان يوماً عظيماً.

ثم عَزَل السلطانُ تِمراز المذكور عن حجوبيَّة حلب واستقر عوضه بالأمير عُمر سِبْطِ ابن شِهْري.

ثم خرج السلطان في ثامن عشر شعبان المذكور من حَلَب ونـزل بعَيْن مُباركة[٣]. واستقلَّ بالمسير منها في عشرينه يريد جهة دِمَشْق، ونزل قِنَّسرين وأعاد منها الأمير يَشْبُك نائب حلَب إليها. وسار عَشِيَّة يوم الجمعة سادس عشرينه حتى قدِمَ دِمَشْق في بُكرة يوم الخميس ثالث شهر رمضان ونَزَل بقَلْعَتِها، فكان قدومه دِمَشْق يوماً مشهوداً. وأخَذَ في إصلاح أمر البلادِ الشاميّة إلى يوم الاثنين سابع شهر رمضان فأَمْسَك الأميرَ آقْبَاي المؤيدي نائب الشام، وقيَّدَه وسجنه بقلعة دِمَشْق.

وسَبَبُ القبض على آقبَاي المذكور أنّ السلطان الملك المؤيّد كان اشتراهُ في أيام إمْرَتِهِ صغيراً بألفي درهم من دَراهم لَعبِ الكَنْجفَة[٤]؛ وهو أنّ الملك المؤيّد كان قاعِداً يُلاعب بعضَ أصحابه بالكَنْجِفَة، وقد قَمَرَ ذلك الرجلَ بدراهم كبيرة، فأدْخِل عليه آقْبَاي المذكور مع تاجره فأعَجَبَهُ واشتراه، وطَلَبَ خَازِنْدَارَه

---

(١) باب الشعريّة: كان في سور القاهرة البحري، وعرف بطائفة من البربر المغاربة يقال لهم بنو الشعرية. (خطط المقريزي: ١/٣٨٣).

(٢) قنطرة الحاجب: نسبة إلى الأمير سيف الدين بكتمر الحاجب، وقد أنشأها سنة ٧٢٥هـ.

(٣) عين مباركة: موضع به عين ماء قرب حلب ينزله القادمون إلى حلب أو الخارجون منها. ـــ انظر الدرّ المنتخب: ٢٥٨، وزبدة الحلب في تاريخ حلب: ١/١٩.

(٤) الكنجفة أو الكنجيفة، هي لعبة الورق Cards. (طبعة كاليفورنيا: ٦/٣٧٤، حاشية).

لِيُقْبِضَ التّاجرَ ثمنَ آقْبَاي المذكور فلم يجده، فوَزَنَ له المؤيد ثمنَه من تلك الدَّراهم التي قَمَرَها. ثم ربّاهُ وأعتقه وجعله خازنداره، ثم رقّاه أيام سلطنته إلى أن جعله من جُمْلة أمراء الألوف، ثم دَواداراً كبيراً بعد موت جانِي بَك المؤيدي، ثم ولّاه نيابة حَلَب.

وكان آقْباي شجاعاً مِقْداماً مَجْبُولاً على طبيعة الكِبْر، تُحَدِّثُه نفسُه كلَّما انتهى إلى منزلة عَلِيَّةٍ إلى أعلى منها. فلمَّا وَلِيَ نيابة حلب استخدام جماعةً من مماليك قَانِي باي المحمدي نائب الشّام بعد قتله، وأنعمَ عليهم بالعطايا هم وغيرهم. وبلغ ذلك المؤيد فلم يحرِّك ساكناً حتى أُشِيعَ عنه الخروجُ عن الطاعة، وتَواتَرَت على المؤيد الأخبار بذلك لا سِيمَّا الأمير أَلْطَنْبُغا المَرْقَبِيّ نائب قلعة حَلَب فإنه بالغ إلى الغاية. فلما تحقّق الملك المؤيد أمْرَه بادَرَ إلى السَّفَر إلى جهة بلاد الشام، واحتج بأَمْرٍ منَ الأمُور. وبلغ آقْبَاي أنّ السلطان بلغه أمْرُه وعَزَمَ على السَّفَر إلى البلاد الشَّامِيّة لأجله، ورأى أنّ أمره لم يَسْتَقِم إلى الآن مع معرفته بصَوْلَة أستاذه الملك المؤيد، فخاف أن يَقع له كما وقع لقانِي باي ونَوْرُوز وغيرهم، وهُم هُم، فَرَكِبَ من حَلَب على حين غَفْلَةٍ في ثماني هجن، كما تقدّم ذكرُه، وقدِمَ القاهرةَ بغتةً يُخَادِع بذلك السلطان. فانخدَعَ له الملكُ المؤيد في الظاهر، وفي الباطن غير ذلك، وقد تجهَّز للسفر، فلم يمكنه الرّجوع عن السّفر لما أشيع بسفره في الأقطار، ويُقَال في الأمثال: الشُّرُوع مُلْزِمٌ، فخلع عليه بنيابة الشّام عوضاً عن أَلْطُنْبُغَا العثماني وفي النفس ما فيها. ووقع ما حكيناه من أمر سفر السّلطان ورجوعه إلى دِمَشْق. فلما قدم إلى دمشق، وَشَى بآقْبَاي إلى السلطان دَوَادَارُه الأميرُ شاهين الأَرْغُون شاوِيّ في جماعة من أمراء دِمَشْق أن آقْبَاي المذكور يترقَّبُ مرضَ السلطان إذا عاوده أَلَمُ رِجْلِه، وأنه استخدم جماعةً من أعداء السلطان، وأنّ حركاته كلّها تدل على الوُثُوب. فعند ذلك تحرَّك ما عند السلطان من الكَوامن وقبض عليه، وولى مكانه نائب دمشق الأميرَ تَنِبَك العلائي ميق الأمير آخور الكبير بعد تمنُّع كبير من تَنِبَك إلى أن أذْعَنَ ولبس التَّشْريف، فطلبَ السلطانُ الأميرُ قَجْقَار القَرْدَمي نائب حَلَب ــ كان ــ وهو بطّال بدِمَشْق، وأنعم عليه

بإقطاع الأمير تَنِبَك ميق المذكور، ثم أَفْرَجَ السلطانُ عن الأمير أَلْطُنْبُغَا العثماني نائب الشّام ـ كان ـ ورَسَم له بالتوجه إلى القُدْس بطَّالاً. وأقام السلطانُ بدمشق إلى يوم الاثنين رابع عشر شهر رمضان من سنة عشرين وثمانمائة، فخَرَج من دِمَشْق يُرِيد الدِّيار المصرية، ونزلَ بقُبَّةِ[١] يَلْبُغَا. ثم سار من قُبَّة يَلْبُغا، وأعاد الأمير تَنِبَك ميق إلى محل كفالته بدمشق. وسار إلى أن قدم القدْس في بُكْرة يوم الجمعة خامس عشرينه، فَزَارَه، وفَرَّق به أموالاً جزيلة، وصلى الجمعة، وجلس بالمسجد الأقصى، وقُرِيء صحيحُ البخاري من رَبْعة[٢] فُرِّقَت بين يديه على الفقهاء القادمين إلى لقائه من القاهرة، ومن كان بالقُدْس من أهله. ثم قامَ المُدَّاح بعد فراغهم، وخَلَعَ السلطانُ عليهم، فكان يوماً مشهوداً.

ثم سار السلطان من الغد إلى الخليل ـ عليه السلام ـ فزاره وتصدق فيه أيضاً بجملة. وخرج منه وسار يريد غَزَّة، فلقيه أَسْتَادَارُه فخرُ الدين عبد الغني بن أبي الفرج في قرية السّكرية[٣]، وقبّل الأرض بين يديه، وناوَلَهُ قائمة فيها ما أعده له من الخيول والأموال وغيرها، فسُّر السلطانُ بذلك على ما سنذكره فيما بعد.

وسار [السلطان] حتى نزل مدينة غَزَّة في يوم الاثنين ثامن عشرين شهر رمضان، وأقام بها إلى أن خرج منها في آخر يوم السبت أول شوال بعدما صلى صلاة العيد على المصطبة المستجدة ظاهر غَزَّة، وصلى به وخطبَ شيخُ الإسلام قاضي القضاة جلال الدين عبد الرحمن البُلْقِيني.

وسار السلطان حتى نزل بخَانْقَاه سِرْياقوس في يوم الجمعة تاسع شوال، فأقام بالخَانقَاه المذكورة من يوم الجمعة إلى يوم الأربعاء رابع عشرة. وركَب منهَا بعد أن عمل بها أوقاتاً طّيبة ودخلَ حمَّامهَا غير مرة، وسَار حتى نزل خارج القاهرة

---

(١) قبة يلبغا خارج دمشق. والنزول فيها تأهباً لمغادرة دمشق كان يشبه نزول السلطان في محلة الريدانية خارج القاهرة إذا أراد مغادرة الديار المصرية نحو البلاد الشامية.

(٢) الرَّبْعة في الأصل هي صندوق أجزاء المصحف، أو المصحف مجزأ ثلاثين جزءاً. وهي هنا بمعنى أجزاء صحيح البخاري.

(٣) في السلوك: «فلقيه بين قرية السكرية والخليل».

عند مسجد التِّبْن، وبات هناك. ثم ركب من الغد في يوم الخميس خامس عشر شوال من الرِّيْدَانية بأبهة السلطنة وشعار الملك، وعسَاكره وأمراؤه بين يَدَيْه، ودخَلَ القَاهرة من بَاب النصر، وولدُه المقَام الصَارمي إبراهيم يحمل القُبة والطير على رأسه. وترجَّلَ المماليكُ من داخل باب النَّصْر ومشوا بين يَدَيْه، وسارت الأمراءُ على بعد رُكّاباً وعليهم وعلى القضاة والخليفة التشاريف، وكذلك سائر أرباب الدَّوْلَة. ومرَّ السلطانُ على ذلك إلى أن نزل بجامعه الذي أنشأه بالقرب من باب زُوَيْلَة، وقد زُيِّنَت القاهرةُ لقدومه، وأشْعَلَت حوانيتُها الشُّمُوعَ والقناديلَ، وقعدت المغاني صفوفاً على الدكاكين تدق بالدفوف. ولما نزل بالجامع المذكور مدّ له الأسْتَادار سِمَاطاً عظيماً به، فأكل السلطانُ هو وعساكرُه. ثم ركب من باب المؤيدية، وَخرج من باب زُوَيْلَة بتلك الهيئة المذكورة، وسار إلى أن طلع إلى قلعة الجبل من باب السِّرِّ راكباً بشعار الملك حتى دخل من باب السِّتارة وهو على فرسه إلى قاعة العواميد من الدور السّلطانية، فنزل عن فرسه على فِراشه بحافة الإيوان، وقد تلقاه حرمه بالتهاني والزَّعْفَران، فكان لقدومه يوماً مشهوداً لم يُسْمَع بمثله إلا نادراً.

ثم في يوم الاثنين تاسع عشر شوال خلعَ السلطانُ على الأمير قَجْقَار القَرْدَميّ المعزول عن نيابة حَلَب باستقراره أميرَ سلاح على عادته قبل نيابة حَلَب، وخلع على الأمير طُوغان أمير آخُور باستقراره أمير آخور كبيراً عوضاً عن تَنِبَك ميق بحكم تَوْليته نيابة دمشق، وخلعَ على الأمير أَلْطُنْبُغَا المَرْقبيّ المعزول عن نيابة قلعة حلَب باستقراره حاجب الحجَّاب بالديار المصرية عوضاً عن سُودون قَراسُقْل بحكم استقرار سودون المذكور في حجوبية طَرابُلُس، وخلعَ على فخر الدين بن أبي الفرج خلعةَ الاستمرار على وظيفة الأستادارِية.

ثم في يوم الثلاثاء عشرينه خرج مَحْمَل الحاج إلى الرَّيْدَانية خارج القاهرة، وأمير حاج المحمل الأمير يَشْبُك الجَكَمِيّ المقدّم ذكره.

ثم في يوم الخميس ثاني عشرينه ركب السلطانُ ونزلَ من القلعة بأمرائه

وخاصِّكِيَّته وسَرحَ إلى برِّ الجيزة لصيد الكراكي[١] وغيرها، وعاد في آخره من باب القنطرة[٢] ومَرّ من بين السُّورَيْن[٣]، ونزل في بيت فخر الدين بن أبي الفرج الأستادار فقدَّمَ له فخر الدين المذكور عشرةَ آلاف دينار. ثم ركب السلطانُ من بيت فخر الدين وسار حتى شاهد الميضأة التي بُنِيَتْ للجامع المؤيَّدي، ثم صعدَ إلى القلعة. ثم ركب من الغَدِ وسرح أيضاً وعاد في يوم الأحد خامس عشرينه.

وفي يوم الاثنين سادس عشرينه خلع على أرغون شاه النَّوْرُوزِيّ الأعور باستقراره وزيراً عوضاً عن فخر الدين بن أبي الفرج، وخلع على فخر الدين المكذور خلعة الاستمرار على وظيفة الأستادارية فقط، وأن يكون مُشِيرَ الدَّوْلة.

وأما تقدمة فخر الدين بن أبي الفرج المذكور التي وَعَدْنا بذكرها عندما قَدِمَ السلطانُ إلى الديار المصرية فبلغت أربعمائة ألف دينار عيْناً، وثمانية عشر ألف أردب غَلَّة، من ذلك ما وفّره من ديوان الوزارة مبلغ أربعين ألف دينار وثمانية عشر ألف أردب غلّة، وما وَفَّرَهُ من ديوان المفرد ثمانين ألف دينار، وما جباه من النواحي ــ قبلياً وبحرياً ــ مائتي ألف دينار، ومن إقطاعه ثلاثين ألف دينار، وذلك سوى مائتي ألف دينار حملها إلى السلطان وهو بالبلاد الشّاميَّة.

ولما كان يوم الأربعاء سادس ذي القعدة قدِمَ على السلطان الخبرُ من الأمير تَنِبَك العلائي ميق نائب الشام بأنه في ليلة السبت رابع عشرين شوّال خرج الأميرُ آقْبَاي نائب الشام ــ كان ــ من سجنه بقلعة دِمَشْق وأفرج عمن كان بها من المسجونين، وهجم بهم آقْبَاي على نائب قلعة دِمِشْق فهرب نائبُ القلعة، ونزل إلى المدينة، وخرج آقْبَاي في أثره إلى باب الجديد بمن معه، فسمع الأميرُ تَنبكَ

---

(١) الكراكي، جمع كركيّ، وهي طيور مائية طويلة الساقين والمنقار. وهي من الطيور الرحّالة، تزور مصر ربيعاً وخريفاً في جماعات كبيرة. (الموسوعة العربية الميسّرة: ١٤٥٢).

(٢) باب القنطرة: أحد أبواب القاهرة. سمي بذلك من أجل القنطرة التي بناها جوهر القائد على الخليج الكبير، يمر من فوقها القادم من القاهرة إلى المقس. (خطط علي مبارك: ٣/٦٥).

(٣) بين السورين: كان ابتداء هذا الشارع من آخر شارع الشعراني وينتهي بالتقاطع الفاصل بين الموسكي والسكة الجديدة. وسماه المقريزي خط بين السورين وقال: يبدأ من باب الكافوري وينتهي إلى باب سعادة. (خطط علي مبارك: ٣/٦٥).

الضَّجَّة فركب بمماليكه، وأدرك نائب القلعة، وركبت عساكرُ دِمَشْق في الحال، فأغْلَقَ آقْبَايُ باب قلعة دمَشْق، وامتنع بها بمن معه، وأن تَنِبَك مُقيمٌ على حصار القلعة. فَتَشوَّشَ السلطانُ لذلك، وكتبَ إلى تَنِبَك المذكور بالجِدِّ في أخذه. فقدم من الغد أيضاً كتابُ الأمير تَنِبَك ميق بأن آقْبَاي استمرّ بالقلعة إلى ليلة الاثنين سادس عشرين شوّال، ثم نزل منها بقرب باب الجديد ومشى في نهر بَرَدَى إلى طاحون بباب الفَرَج فاختفى به، فقبض عليه هناك وعلى طائفة معه، وتسحّبَ طائفةٌ. فكُتبَ جوابُ تَنِبَك بأنْ يُعاقب آقْبَاي حتى يُقِرَّ على الأموال ثم يُقْتَل. ورسمَ بأن يستقرّ الأمير شاهين مقدّم التركمان والحاجب الثاني بدمَشْق في نيابة قلعة دمشق، ويستقرَّ عوضه حاجباً ثانياً كَمَشْبُغا طُولُو، وفي تقدمة التركمان الأمير شَعْبان بن اليَغْمُورِي أستادار السلطان بدِمَشْق.

ثم في يوم الجمعة ثامن ذي القعدة خرجَ المقام الصارميُّ إبراهيم ابن السلطان في عدة من الأمراء إلى الوجه القبلي لأخذ تقادم العُرْبان وَوُلاة الأعمال.

وفي يوم الاثنين حادي عشر ذي القعدة عدَّى السلطانُ النيلَ إلى البَرِّ الغربي، وسرح إلى الطَّرَّانة بالبُحَيْرَة، وعاد في يوم الاثنين حادي عشر منه بعد أن وصل إلى الغطامي(١) ولم يعدِّ النيل بل نزل بالقصر الذي أنشأه القاضي ناصر الدين بن البارِزِي كاتب السرِّ ببرِّ مُنْبابَة تجاه بولاق، وكان قد شرع في أساسه قبل سرحة السلطان، ففرغ منه بعد أربعة أيام. واستمرَّ به السلطان ثلاثة أيام، ثم ركِب البحر وتصيّد بناحية سِرْياقُوس وركب وعاد إلى القلعة.

ثم في سادس عشر ذي الحجة ركب السلطانُ من القلعة ونزل بالجامع المؤيَّدي ومعه خواصُّه لا غير، ثم توجَّه منه إلى بيت ناصر الدين بن البارِزي كاتب السِّر بسويقة(٢) المسعودي، فقدَّم له كاتب السِّر تقدمة فأخذها، ثم ركب إلى القلعة.

---

(١) كذا في طبعة كاليفورنيا. وفي بعض الأصول: «الفطامي» بالفاء و«العطايا». وفي السلوك: العظامي، ويعرف برأس القصر».

(٢) سويقة المسعودي: من حقوق حارة زويلة، تنسب إلى الأمير صارم الدين قايماز المسعودي مملوك الملك المسعود أقسيس بن الكامل الأيوبي. (خطط المقريزي: ٢/١٠٥).

ثم في يوم السبت عشرين ذي الحجة قدِمَ الصارمي إبراهيم من سفره بعد أن وصل إلى جِرْجَا(١).

ثم في سادس عشر المحرم من سنة إحدى وعشرين وثمانمائة وردَ الخبرُ عَلَى السلطان من الحجاز بأن الأمير يَشْبُك الجَكَمي الدَّوَادَار الثاني أمير حاج المحمل لَمَّا قدِمَ المدينة النبوية بعد انقضاء الحج أظهر أنه يسيرُ إلى الركْب العراقي يَبْتَاع منه جمالاً، ومضى في نفرٍ يسير وتسحَّب صُحْبَة الركْب العراقي خَوْفاً أن يصيبَه من السلطان ما أصابَ الأمير آقْبَاي نائب الشام؛ وكان يَشْبُك المذكور صديقاً لآقْبايْ، وأشيع أنه كان اتَّفَق معه في الباطن في الوثوب على السلطان. وسار يَشْبُك المذكور حتى دخل العراق، وقدِمَ عَلَى الأمير قَرَايُوسف، فأكرمه قَرَايُوسف وأجْرَى عليه الرَّوَاتب، ودامَ عنده إلى أن ماتَ قَرَايوسف. ثم مات الملكُ المؤيد، وقدم [يَشْبُك] على الأمير طَطَر بدِمَشْق فَوَلَّاه الأمير آخُوريَّة الكُبْرَى حسبما يأتي ذكر ذلك كله في محله.

وفي ليلة الخميس رابع عشرين المحرم كان الوَقِيدُ(٢) بِبَرِّ مُنْبابة بين يدي السلطان بعد أن عاد السلطان من وَسِيم حيث مَرْبط خيوله على الربيع، ونزل بالقصر المذكور بحري مُنْبَابَة.

وألزمَ السلطانُ الأمراءَ بحمل الزَّيْت والنَّفْط، فجُمِعَ من ذلك شيء كثير، وأُخِذَ من قِشْر البَيْض وقِشْر النارنج ومن المسارج الفخار وجُعِلَ فيها الفتايل والزَّيْت، ثم أُرْسِلَت في النيل بعد غروب الشمس بنحو ساعة، وأُطْلِقت النُّفُوط، وقد امتلأ البَرَّانِ بالخلائق للفرجة على ذلك، فكان لهذا الوَقِيد منظرٌ بَهِجٌ، وانحدر في النيل إلى أن فرغ زيتُ بعضها وأطفأ الهواءُ(٣) البعضَ.

---

(١) جرجا: مدينة قديمة بالصعيد على الشاطىء الغربي للنيل قبلي أسيوط. (خطط علي مبارك: ٥٣/١٠).

(٢) يتضح مما سيأتي بعد هذا، وفي الصفحة ٩٣ من هذا الجزء، أن هذا «الوقيد» كان يجري كل سنة احتفالاً برجوع السلطان من مرابط خيله في وسيم التي كان يزورها عند تمام الربيع. وفي هذه المناسبة أيضاً من كل سنة كان يجري تفريق الخيل على الأمراء. (انظر خطط علي مبارك: ١٤٤/١) وصفة هذا الاحتفال واضحة مما سيأتي. ـــ قارن أيضاً بالسلوك: ٤٣٥/٤، ونزهة النفوس: ٤٣٩/٢.

(٣) في الأصل: «الهوى».

ثم في يوم السبت سادس عشرين المحرّم أمْسَكَ السلطانُ الأمير بَيْبُغَا المُظَفَّرِي الظاهري أمير مجلس، وحُمِل مُقَيَّداً إلى الإسكندرية(١). ثم نُودِيَ بالقاهرة وظواهرها أن كل غريب يخرج من القاهرة ويعودُ إلى وطنه(٢).

ثم في يوم السبت رابع صفر وَسَّطَ السلطانُ قَرْقماسَ الذي كان متولي كَخْتَا، ووَسّطَ معه أيضاً خمسة عشر رجلاً من أصحابه خارج باب النصر، وكانوا فيمن أحضرهم السلطانُ معه من البلاد الشامية ـ لما قدم من السَّفَر ـ في الحديد.

ثم في سادس صفر المذكور ركب السلطانُ مَتَخَفِّفاً(٣) ومعه ولدُه الصَّارمي إبراهيم في نفريسير ونزل بجامعه عند باب زُوَيلة، ثم توجّه منه إلى بيت فخر الدين بن أبي الفرج الأستادار فأكل عنده السِّمَاط، ثم قَدّم له فخر الدين خمسة آلاف دينار، ثم ركب من بيت فخر الدين المذكور وتوجه إلى بيت الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله ناظر الخاص ونزل عنده، فقدّم له ثلاثة آلاف دينار(٤)، وعرض عليه خزانة الخاصّ، فأنعم منها السلطان على ولده إبراهيم وعلى من معه من الأمراء بعدَّةِ ثياب حرير وفرو سَمُّور، ثم ركب السلطان وعاد إلى القلعة.

ثم في ثاني عشرينه ركب السلطانُ ونزل من القلعة لعيادة الأمير الكبير أَلْطُنْبُغَا القَرْمَشيّ من وعك كان حصل له، ثم ركب من عنده وتوجّه إلى بيت الأمير جَقْمَق الدَّوَادَار، فنزل عنده وأقام يومه كله، وعاد من آخر النهار إلى القلعة على هيئة غير مُرْضِيةٍ من شدَّة السُّكر.

(١) وسبب ذلك كما جاء في نزهة النفوس: ٢/٤٠٩ أنه «لما جاء بيبغا مع السلطان من الشام في آخر سفرته صدر منه كلام في الطريق بلغ السلطان، فتوهم منه ومسكه» والواضح أن السبب هو تشكك السلطان في كبار أمرائه وخشيته من انقلابهم عليه.

(٢) ذكر المقريزي أن هذا النداء في القاهرة حدث في الثامن والعشرين من المحرم. وذكر أن السبب في ذلك هو أنه «كان قد كثر بالقاهرة أصناف الطوائف من القلندرية وغيرهم من العجم، فاضطربت الأعاجم، ثم تركوا على حالهم» (سلوك: ٤/٤٣٩).

(٣) المراد أنه ركب بثياب جلوسه، كما جاء في السلوك.

(٤) هذا نوع من الرشوة أو البرطيل الذي ساد في ذلك الوقت، حتى إن السلطان لم يعد يتورّع عن ذلك. ـ راجع ما كتبناه في الحاشية (١) ص ١٥ من هذا الجزء.

ثم في ثامن عشرين شهر ربيع الأول قَدِمَ الأمير بُرْدبَك الخليلي نائب طرابلس إلى القاهرة بطلبٍ لشكوى أهل طرابلس عليه لسوء سيرته.

وعاود السلطان ألمُ رجله، وانقطع عن الخدمة ولزم الفراش. وقبض على الأمير الوزير أرغُون شاه النَّورُوزِيّ الأعور، وعلى الأمير آقْبَغَا شيطان والي القاهرة وسلمها إلى فخر الدين بن أبي الفرج ليُصادرهُما. ثم خلع السلطانُ على الأمير بُردبَك نائب طرابلس باستقراره في نيابة صفد، واستقر عوضه في نيابة طرابلس الأمير بَرْسباي الدُّقماقيّ أحدُ أمراء الألوف بالديار المصرية بعد أن طُلبَ من الغربية، وكان تَوَجَّه بِرْسبَاي لعمل جُسُورِها كاشف الوجه الغربي؛ وبرسباي هذا هو الملك الأشرف الآتي ذكره في محله. ثم خلع السلطان على الوزير أرغُون شاه باستقراره أمير التُّركمان بثلاثين ألف دينار، ونقل الأمير سُنقرَ نائبَ المَرقب إلى نيابة قلعة دمشق عوضاً عن شاهين، واستقر أَلْطُنْبُغَا الجامُوس في نيابة المرقب، واستقر سُودون الأَسَنْدَمُري الأمير آخُور الثاني ـ كان ـ في دولة الملك الناصر فرج في أتابَكِيّة طرابلس، وكان الملك المؤيد أفرج عنه من سجن الإسكندرية قبل ذلك بمدةٍ يسيرة، وأنعم السلطان بإقطاع الأمير بَرسبَاي الدُّقماقي المنتقل إلى نيابة طرابلس على الأمير فخر الدين بن أبي الفرج الأستادار، وبإقطاع فخر الدين على بدر الدين بن مُحبِّ الدين، وقد استقرّ وزيراً عوضاً عن أرغُون شاه.

ثم في أول جمادى الأولى تحرك عَزْمُ السلطان إلى سفر الحجاز، وكتب إلى أمراء الحجاز بذلك. وعرض السلطانُ المماليك وعيَّن عِدَّةً منهم للسفر معه إلى الحجاز وأخرج الهجن وجهز الغلال في البحر. ثم رسم السلطان باستقرار شاهين الزَّردكاش حاجب[1] حجّاب دمشق في نيابة حماة عوضاً عن الأمير نُكباي، وأن يستقرّ نُكباي في حُجُوبيّة دمشق.

---

(١) عطفاً على ما ذكرناه في التعريف بالحاجب وحاجب الحجاب (راجع فهرس المصطلحات) نضيف هنا ما جاء في خطط علي مبارك: ١٣٧/١ لفائدته. قال: «ـ فلما صار أغلب رجال الدولة من التتر، غلبت قوانين التتر على قوانين البلاد ـ وبعد أن كانت الأحكام تُبتّ على مقتضى الشريعة المطهّرة قسّمت إلى =

ثم في ثامن عشرين جمادى الأولى المذكور عزل السلطانُ جلال الدين البُلقيني عن القضاء، وخلع على شمس الدين محمد الهروي باستقراره قاضي قضاة الشافعيّة بالديار المصرية عوضاً عن البُلقيني.

ثم في ثامن عشر شهر رجب خلع السلطانُ على الأمير قَرَا مُراد خَجَا أحد مقدمي الآلاف بالديار المصرية باستقراره في نيابة صفد، وأنعم بإقطاعه على الأمير جُلُبّان رأسِ نوبة ابن السلطان.

ثم في يوم الاثنين خامس عشرين شهر رجب المذكور ركب السلطان من قلعة الجبل إلى ظاهر القاهرة، وعبر من باب النصر، ومرّ في شوارع المدينة إلى القلعة، وبين يديه الهجن التي عُيِّنت للسّفر معه إلى الحجاز، وعليها الأكوار الذهب والفضة والكَنَابيش الزَّرْكَش، فكان يوماً عظيماً، فتحقّق كلُّ أحد سفر السلطان إلى الحجاز. وسار السلطان حتى طلع إلى القلعة، فما هو أن استقرّ به الجلوس إلا ووصل الأميرُ بُردبَك الحمزاويّ أحد أمراء الألوف بحلب ومعه نائب كَخْتَا الأمير منكلي بُغا بكتاب نائب حلب وكتاب الأمير عثمان بن طُرْ علي المدعو قَرَايُلُك بأن قرايُلُك صاحب العراق قصده ليكبس عليه، وقبل أن يركب قَرايُلُك هجمت عليه فرقةٌ من عسكر قرا يُوسُف فركب وسار مُنهزماً إلى أن وصل إلى مرج دابق، ثم دخل حلب في نحو ألف فارس بإذن الأمير يَشبُك اليُوسُفيّ نائب حلب له، فجفل من كان خارج مدينة حلب بأجمعهم، واضطرب من بداخل سُور حلب وألقُوا أنفسهم من السُّور، ورحل أجنادُ الحلقة ومماليكُ النائب المستخدمين بحريمهم وأولادهم حتى ركب نائب حلب وسكن روع الناس، وعرّفهُم أن قرايُلُك لم يقدم إلى حلب إلا بإذنه، وأنه مُستجِيرٌ بالسلطان.

وبينما هو في ذلك رحل قَرايُلُك من ليلته وعاد إلى جهة الشرق خوفاً من يشبُك نائب حلب أن يقبض عليه.

= سياسية وشرعية؛ ففوّض لقاضي القضاة كل ما يتعلق بالأمور الدينية ـ وجعلوا لأنفسهم (أي المماليك) في أقضيتهم قوانين رجعوا فيها إلى أصول جنكزخان التي تسمى «الياسّة» واقتدوا بحكمها، فنصبوا الحاجب ليقضي بينهم فيما اختلفوا فيه، والأخذ على يد القويّ وإنصاف المظلوم على مقتضى ما في الياسة» ـ راجع أيضاً فهرس المصطلحات للوقوف على تعريف «الياسة».

فلما بلغ السلطان قربُ قرا يُوسف من بلاده انثنى عزمُه عن السفر للحجاز في هذه السنة، وكتب في الحال إلى العساكر الشاميّة بالمسير إلى حلب والأخذ في تهيئة الإقامات السلطانية.

وأصبح السلطان في يوم الثلاثاء سادس عشرين شعبان جمع القضاة والخليفة وطلب شيخ الإسلام جلال الدين البُلقيني، وقصّ عليهم خبر قرا يُوسف وما حصل لأهل حلب من الخوف والفزع وجفلتهم هُم وأهلُ حماة، وأن الحمار بلغ ثمنُه عندهم خمسمائة درهم فضَّة، والإكديش[1] إلى خمسين ديناراً، وأن قرا يُوسُف في عصمته أربعون امرأة، وأنه لا يدين بدين الإسلام، وكُتبت صورةُ فتوى في المجلس فيها كثيرٌ من قبائحه، وأنه قد هجم على ثُغُور المسلمين، ونحو هذا من الكلام. فكتب البُلقيني والقضاةُ بجواز قتله، وكتب الخليفة خطه بها أيضاً، وانصرفوا ومعهم الأمير مُقبل الدَّوادار؛ فنادوا في الناس بالقاهرة بين يدي الخليفة والقضاة بأن قَرَا يُوسف يستحلّ الدماء ويسبي الحريم، «فعليكم بجهاده كلكم بأموالكم وأنفسكم»، فذُهي الناسُ عند سماعهم ذلك واشتد قلقهم.

ثم كُتب إلى ممالك الشام أن يُنادى بمثل ذلك في كل مدينة، وأن السلطان واصل إليهم بنفسه.

ثم في يوم الأربعاء سابع عشرين شعبان المذكور نُودي بالقاهرة في أجناد الحلقة بتجهيز أمرهم بالسفر إلى الشام، ومن تأخّر منهم حلَّ به كذا وكذا من الوعيد.

ثم في أول شهر رمضان قَدِمَ الخبرُ من حلب برحيل قَرَايُلُك منها كما تقدّم ذكره، وأن يشبُك نائب حلب مقيمٌ بالميدان وعنده نحو مائة وأربعين فارساً، وقد خَلت حلبُ من أهلها إلا من التجأ لقلعتها، وأن يشبُك بينما هو في الميدان جاءه الخبرُ أن عسكر قرايُوسُف قد أدركه، فركب قُبيل الفجر من الميدان، وإذا

(١) الإكديش: نوع من الخيل غير العراب، أصله من بلاد الترك والروم. ويجمع على أكاديش. (صبح الأعشى: ٢/١٤). وهي في الفارسية: «أكدش» بفتح الهمزة وكسرها، وكسر الدال في الحالين، ومعناه الهجين. (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل: ٢٣).

بمقدّمتهم على وطاة بابلّة(١)، فواقعهم يشبُك بمن معه حتى هزمهم وقتل وأسر جماعةً، فأخبروه أنهم جاؤوا للكشف لخبر قَرَايُلُك، وأن قَرَا يُوسُف بعين تاب، فعاد يشبُك وتوجّه إلى سرمين. فلما بلغ قَرَايُوسُف هزيمةُ عسكره كتب إلى يشبُك نائب حلب يعتذر عن نُزوله بعين تاب، وأنه ما قصد إلا قرايُلُك، فبعث إليه يشبُك صارُوخان مِهْمِنْدار حلب، فلقيه على جانب الفرات وقد جازت عساكره الفرات، وهو على نيّة الجواز، فأكرمه قَرايُوسُف واعتذر إليه ثانياً عن وصوله إلى عين تاب، وحلف له أنه لم يقصد دخول الشام، وأعاده بهدية للنائب؛ فهدأ ما بالناس بحلب، وسُرّ السلطان أيضاً بهذا الخبر.

وكان سبب حركة قَرَا يُوسف أن قَرَايُلُك المذكور في أوائل شعبان هذا نزل على مدينة ماردين ـ وهي داخلةٌ في حكم قَرَا يُوسُف ـ فأوقع بأهلها وأسرف في قتلهم وسبى أولادهم ونسائهم، وباع الأولاد كلّ صغير بدرهمين، وحرق المدينة ونهبها، ثم رجع إلى آمد. فلما بلغ قَرَا يُوسُف الخبرُ غضب من ذلك وسار ومعه الأمراء الذين تسّحبُوا من واقعة قاني باي مثل الأمير سُودُون من عبد الرحمن، وطرباي، وتنبك البَجَاسيّ، ويشبُك الجَكَمي وغيرهم، يريدون أخذ الثار من قَرايُلُك حتى نزل آمد ثم رحل عنها يريد قَرَايُلُك. فسار قَرَايُلُك إلى جهة البلاد الحلبيَّة، فسار خلفه قَرَا يُوسُف حتى قطع الفرات ووقع ما حكيناه.

ثم في خامس شهر رمضان المذكور نُودي في أجناد الحلقة بالعرض على السلطان فَعُرِضُوا عليه في يوم الجمعة سادسه؛ وابتدأ بعرض من هو في خدمة الأمراء، فخيَّرهُم بين الاستمرار في جملة أجناد الحلقة وترك خدمة الأمراء أو الإقامة في خدمة الأمراء وترك أخباز الحلقة، فاختار بعضُهم خدمة الأمراء وترك خُبزه الذي بالحلقة، واختار بعضُهم ضدَّ ذلك، فأخرج السلطانُ إقطاع من اختار خدمة الأمراء، وصرف من خدمة الأمراء من أراد الإقامة على إقطاعه بالحلقة، وشكا إليه بعضُهم قلَّةَ مُتحصِّل إقطاعه فزاده، وعُدَّ هذا من جودة تدبير الملك

(١) بابلّة: قرية كبيرة بظاهر حلب. وذكرها ياقوت في معجم البلدان باسم «بابلّا». وجاءت في الدرّ المنتخب: «بابليّ». وفي بعض أصول الدرّ المنتخب: «باب الله».

المؤيّد وسيره على القاعدة القديمة؛ فإن العادة كانت في هذه الدَّولة التركيَّة أن يكون عسكر مصر على ثلاثة أقسام:

قسم يقال لهم أجناد الحلقة، وموضوعهم أن يكونوا في خدمة(١) السلطان،

(١) المراد أنهم كانوا يأتمرون بإمرة السلطان القائم دون أن يكونوا ملكاً له. وهذا الوضع يميزهم عن المماليك السلطانية (ومنهم الخاصّكية) الذين يشتريهم السلطان ويكونون ملكاً له، وعن مماليك الأمراء الذين كان ينشئهم الأمراء.

وفي الأصل كان أجناد الحلقة يمثلون عصب الجيش المملوكي ومادته الأساسية، أي الجيش المحترف الذي يتلقى عطاءه من ديوان الجيش وتسجّل أسماء أفراده في جرائد هذا الديون، ولذلك شبّههم المؤلف بأهل العطاء أو أهل الديوان أيام الخلفاء. وكان عدد أجناد الحلقة كبيراً جداً في عزّ أيام الدولة المملوكية ويصل إلى أربعة وعشرين ألف جنديّ، كل ألف منهم تحت إمرة أمير كبير من الأمراء المقدّمين أو أمراء الألوف ويسمى «أمير مائة مقدّم ألف»، ولذلك كان عدد كبار الأمراء المقدّمين في دولة الناصر محمد بن قلاوون ومن جاء بعده إلى آخر دولة الأشرف شعبان بن حسين أربعة وعشرين مقدماً، ثم تغيرّ العدد بعد ذلك.

وقد تألف أجناد الحلقة أساساً من المماليك الذين كان ينشئهم السلاطين دون فئات المماليك السلطانية أو مماليك الأمراء، وكانوا من العناصر الأجنبية المشتراة من أسواق النخاسة. ثم ازداد عدد أجناد الحلقة بمن انضم إلى الجيش المملوكي من التتار والوافدية. واعتبر أيضاً من أجناد الحلقة بعض أرباب الحرف والصنائع على أثر ضعف الجيش المملوكي، إذ كان يعمد أفراده إلى بيع إقطاعاتهم إلى أهالي البلاد. كما أضيف أحياناً إلى أجناد الحلقة مماليك الأمراء الذين انحلّت إقطاعات أساتذتهم. واعتبر أيضاً من أجناد الحلقة العربان والأكراد والتركمان. بحيث تركز عملهم في حماية أطراف الدولة والاشتراك بفرسانهم في الحرب عندما تدعو الحاجة إلى ذلك. كما ألحق أيضاً بأجناد الحلقة عدد من أولاد الناس (أبناء الأمراء السابقين)، وأولاد السلاطين، والقرانيص (مماليك السلاطين السابقين) والعرب والمتعممين وعدد من الزعر ممن يلحق بالحملات الحربية.

وقد نظم أجناد الحلقة في الحرب والسلم، إذ جعل على كل أربعين جندي منهم مقدَّم، وهذا المقدَّم لم يكن له أية سلطة عليهم إلا في أثناء الحرب. وعندما كان يدعى أجناد الحلقة إلى الحرب كان ينضوي كل ألف منهم تحت إمرة أمير مائة، وكان لكل مائة جندي منهم في أيام السلم نقيب أو «باش» يأتمرون بأمره. أما أعدادهم فلم تكن ثابتة وذلك تبعاً للظروف الاقتصادية والسياسية في الدولة.

وكان أجناد الحلقة يقسمون من حيث العمل الذي يؤدّونه إلى أربعة أقسام: البحرية: وهم حرس السلطان في القلعة وكانوا ينامون في الدهاليز المحيطة بها. والشريفية وهم الذين كان يرسلهم السلطان في سفاراته. ومماليك الغيبة وهم الذين كان يعينهم السلطان في مراكز محدّدة إبان غيابه. والباقي فرق كانت تخدم في بيوت الأمراء. ويمكننا إضافة قسم خامس وهم أولئك الذين كانوا يقومون بحماية الأطراف وكانوا بمثابة قوى محلّية. ومع ازدياد الصراع على السلطة في دولة المماليك أخذ وضع أجناد الحلقة يتدهور، وبالمقابل فقد زادت أهمية وفعالية المماليك السلطانية ومماليك الأمراء. ذلك أن السلاطين أخذوا =

ولكل منهم إقطاعٌ في أعمال مصر، وكل ألف منهم مضافةٌ إلى أمير مائة ومقدّم ألف، ولهذا المعنى سُمِّي الأميرُ بمصر أمير مائة، أعني صاحب مائة مملوك في خدمته ومقدم ألف من هؤلاء أجناد الحلقة. ويضاف أيضاً لكل مقدَّم ألف أميرُ طَبْلَخَانَاه[1] وأميرُ عشرين وأميرُ عشرة ومقدّمُ الحلقة. فإذا عيَّنَ السلطانُ أميراً إلى جهة من الجهات نزل ذلك الأميرُ في الوقت وتهيّأ بعد أن أعلم مُضافيه، فيخرج الجميعُ في الحال ــ انتهى.

وكان نظير هؤلاء أيام الخلفاء أهل العطاء وأهل الدِّيوان.

والقسمُ الثاني يقال لهم مماليكُ السلطان، ولهم جَوَامِكُ[2] ورواتب مُقَرَّرَةٌ على ديوان السلطان في كل شهر وكُسوةٌ في السنة.

والقسم الثالث يقال لهم مماليك الأمراء يخدمون الأمراء. وكل من هؤلاء لا يدخُل مع آخر فيما هو فيه، فلذلك كانت عدّة عساكر مصر أضعاف ما هي الآن، وهؤلاء غير الأمراء. ثم تغيَّر ذلك كلُّه في أيام الملك الظاهر برقُوق لمّا وثب على المُلك، فصارت الأمراءُ يشترون إقطاعات الحلقة أو يأخذونها من السلطان باسم مماليكهم أو طواشيتهم، ثم لا يكفيهم ذلك حتى يُنزلوهم أيضاً في بيت السلطان بجامَكِيّة، فيصيرُ الواحدُ من مماليك الأمراء جنديّ حلقة ومملوكَ

= يكثرون من شراء المماليك (الأجلاب) لتقوية أوضاعهم واحترازاً من المماليك والأمراء الذين يدينون بالولاء لسلاطين سابقين ولا يكفّون عن تدبير المؤامرات. وفي نفس الوقت قوي أمر مماليك الأمراء الذين كانوا يكثرون من الأتباع والمماليك الخاصة بهم، كل ذلك على حساب أجناد الحلقة، كما سيشير المؤلف بعد قليل.

أما سبب تسمية أجناد الحلقة بهذا الاسم فهناك اختلاف في ذلك. فكاترمير يقول إن الجيش المملوكي سمي بأجناد الحلقة لأنه كان يحيط بالسلطان. وبولياك يعتبر أن الاسم جاء من نظام الفروسية التركي بحيث أن الأجناد كانوا يحيطون بالأعداء. (انظر: الدولة المملوكية لأنطوان ضومط ٥٦ ــ ٥٨، وصبح الأعشى: ٤/ ١٦ طبعة دار الكتب العلمية، وخطط المقريزي: ٢/٢١٥ ــ ٢١٩، وزبدة كشف الممالك: ص ١١٦، و Demombynes ص ٢٠ في كتابة: La Syrie à L'époque des mamlouks).

(١) أي أمير أربعين. ــ راجع فهرس المصطلحات.

(٢) الجوامك هي المرتبات ــ راجع فهرس المصطلحات.

سلطان وفي خدمة أمير، فيصيرُ رزقُ ثلاثة أنفُسٍ إلى رجُلٍ واحد، فكثر مُتحصّل قوم وقلَّ مُتَحَصّل آخرين، فضعُف عسكرُ مصر لذلك. فعلى هذا الحساب يكونُ العسكرُ الآن بثُلُثِ ما كان أولاً، هذا غير ما خرج من الإقطاعات في وجه الرِّزق والأملاك وغير ذلك، وهو شيءٌ كثيرٌ جداً يخرج عن الحدّ. فمن تأمل ما ذكرناه علم ما كان عِدَّة عسكر مصر أولاً، وما عدته الآن. هذا مع ما خُرِّب من النواحي من كثرة المغارم والظُّلم المترادف، وقلَّةِ نظر الحكّام في أحوال البلاد، ولولا ذلك لكان عسكر مصر لا يقاومه عدوٌّ ولا يدانيه عسكر ــ انتهى.

ثم في سابع شهر رمضان هذا أفرج السلطان عن الأمير كَمَشْبُغَا الفيسيّ أمير آخور ــ كان ــ في الدولة الناصرية، وعن الأمير قصرُوه من تمراز، وكانا بسجن الإسكندرية، وعن الأمير كزل العجمي الأجرود حاجب الحجاب ــ كان ــ في الدولة الناصرية من حبس صفد، وعن الأمير شاهين نائب الكرك، وكان بقلعة دمشق.

ثم في تاسعه ورد الخبرُ من حلب بأن قرا يُوسف أحرق أسواق عين تاب ونهبها، فصالحه أهلُها على مائة ألف درهم وأربعين فرساً، فرحل عنها بعد أربعة أيام إلى جهة البيرة. وعدّى معظُم جيشه إلى البرِّ الشرقي في يوم الاثنين سابع عشر شعبان، وعدّى قرا يوسف من الغد ونزل ببساتين البيرة وحصرها، فقاتله أهلُها يومين وقتلوا منه جماعةً، فدخل البلد ونهبها وأحرق أسواقها، وقد امتنع الناسُ منها ومعهم حريمهم بالقلعة، ثم رحل في تاسع عشر شعبان إلى بلاده بعد ما أحرق ونهب نواحي البيرة ومُعاملتها.

ولما بلغ السلطان رجوع قرا يُوسف إلى بلاده فرح بذلك وسكت عن السّفر إلى البلاد الشاميّة. وبينما السلطان في ذلك قدم عليه الخبرُ أن ابن قَرَمان مشى على طَرَسُوس وحارب أهلها فقُتِلَ من الفريقين خلقٌ كثير، ودام القتال بينهم إلى أن رحل عنها في سابع شعبان من ألمٍ اشتدَّ بباطنه.

وجلس السلطان في ثالث عشر شهر رمضان لعرض أجناد الحلقة، فَعُرِض

عليه منهم زيادة على أربعمائة نفس ما بين كبير وصغير وسعيد وفقير، فمن كان إقطاعه قليل المتحصّل أشرك معه غيره. ومثال ذلك أن جُندياً يكون متحصل إقطاعه في السنة سبعة آلاف درهم فُلُوساً وآخر متحصله ثلاثة آلاف، فألزم الذي إقطاعه يعمل ثلاثة آلاف أن يُعطي الذي إقطاعُه يعملُ سبعة آلاف مبلغ ثلاثة آلاف ليسافر صاحبُ السبعة آلاف، ويقيم صاحب الثلاثة آلاف، فهذا نوع.

ثم أفرد السلطان جماعة ممَّن مُتحصلُ إقطاعاتهم قليلة، وجعل كل أربعة منهم مقام رجل واحد يختارون منهم واحداً يسافر ويقوم الثلاثة الأخر بكُلفه.

ورسم السلطان أن المال المجتمع من أجناد الحلقة يكون تحت يد قاضي القضاة شمس الدين الهرويّ الشافعي. واستمر العرض بعد ذلك في كل يوم سبت وثلاثاء إلى ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

وفي الغد وهو يوم رابع عشر شهر رمضان وردَ الخبر على السلطان من طرابلس بنزول التُركمان الإينالية والأوشرية على صافيتا من عمل طرابلس جافلين من قرا يُوسُف، وأنهم نهبوا بلادها وأحرقوا منها جانباً، وأن الأمير برسباي الدُّقماقي نائب طرابلس رجَّعهم عن ذلك فلم يرجعوا، وأمرهم بالعود إلى بلادهم بعد رجوع قرا يُوسف فأجابوا بالسَّمع والطاعة. وقبل رحيلهم ركب عليهم الأمير برسباي الدُّقماقي المذكور بعسكر طرابلس وقاتلهم في يوم الثلاثاء سادس عشرين شعبان، فقُتل بين الطائفتين خلقٌ كثيرٌ منهم الأمير سُودُون الأسندَمُريّ أتابك طرابلس وثلاثة عشرة نفساً من عسكر طرابلس، ثم انهزم الأميرُ برسباي المذكور بمن بقي معه من عسكر طرابلس عُراةً على أقبح وجه إلى طرابلس وحصل عليهم من الخوف ما لا مزيد عليه.

فلما بلغ الملك المؤيد هذا الخبرُ غضب غضباً شديداً ورسم في الحال بعزل برسباي المذكور عن نيابة طرابلس واعتقاله بقلعة المرقب، وكتب بإحضار الأمير سُودون القاضي نائب الوجه القبلي من أعمال مصر ليستقرّ في نيابة طرابلس عوضاً عن برسباي هذا، وبرسباي المذكور هو الملك الأشرف الآتي ذكره في

محله، وخلع على الملطيّ واستقرّ في نيابة الوجه القبلي عوضاً عن سُودُون القاضي. وقدم سُودون القاضي من الوجه القبلي في يوم الاثنين ثامن شوال وقبَّل الأرض بين يدي السلطان وهو بمخيّمه بسرحة سِرْيَاقوس. وبعد عوده من سرحة سرياقوس وغيرها خلع على سُودُون القاضي بنيابة طرابلس في خامس عشر شوال، وخلع على الأمير كَمَشْبُغَا الفيسي أحد الأمراء البطَّالين بالقاهرة باستقراره أتابك طرابلس بعد قتل سُودون الأسندمُريّ.

ثم ركب السلطان أيضاً إلى الصَّيد وعاد وقد عاوده ألمُ رجله ولزم الفراش.

وخلع في سادس عشره على سيف الدين أبي بكر بن قطلُوبك المعروف بابن المزوّق دوادار ابن أبي الفرج باستقراره أستاداراً عوضاً عن فخر الدين بن أبي الفرج بعد موته، ورسم السلطانُ بالحوطة على موجُود ابن أبي الفرج وضبطها، فاشتملت تركته على ثلاثمائة ألف دينار، وثلاثة مساطير[1] بسبعين ألف دينار، وغلال وفرو وقماش بنحو مائة ألف دينار، وأخذ السلطان جميع ذلك.

ثم في حادي عشرينه خرج محمل الحاج صحبة أمير الحاج الأمير جُلُبَّان أمير آخور ثان، وقد صار أمير مائة ومقدّم ألف، ورحل من البركة[2] في يوم رابع عشرينه.

ثم في يوم الخميس ثالث ذي القعدة أمسك السلطانُ الوزير بدر الدين بن مُحبّ الدين الطرابلسي وسلمه إلى الأمير أبي بكر الأستادار بعد إخراق السلطان به ومبالغته في سبِّه لسوء سيرته، وتُتُبِّعت حواشيه.

وخلع السلطان على بدر الدين حسن بن نصر الله الفُوِّي ناظر الخاص باستقراره وزيراً، مُضافاً إلى نظر الخاص، وأنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف. ثم كتب السلطانُ بالقبض على قرمش الأعور أتابك حلب وحبسه بقلعتها.

---

(١) المساطير: جمع مسطور، وهو الإيصال الذي يكتبه المدين على نفسه للدائن. (معجم دوزي).

(٢) أي بركة الحجاج، وتسمى أيضاً بركة الجبّ. وهي في الجهة البحرية من القاهرة على نحو بريد منها. وكان حجاج البرّ ينزلون بها عند مسيرهم من القاهرة وعند عودهم. (خطط المقريزي: ٢/١٦٣).

وفي خامس ذي القعدة ركب السلطانُ من قلعة الجبل في محفَّة من ألم رجله ونزل إلى السَّرحة وعاد في يومه. ثم في عاشره ركب السلطانُ أيضاً ونزل إلى بيت كاتب السرّ ناصر الدين بن البارِزِيّ ببولاق المطل على النيل، وعَدَّت العساكر إلى برّ الجيزة، وبات السلطان هناك ليلته. ثم ركب من الغد في يوم الجمعة إلى سرحة بركة الحاج، وعاد من يومه وغالب عساكره بالجيزة.

ثم ركب من الغد في النيل يريد سرحة البُحيرة، ونزل بالبر الغربي، ثم سار إلى أن انتهى إلى مريوط[١] فأقام بها أربعة أيام، ورسم بعمارة بستان السلطان بها، وكان تهدَّم. ثم استأجر السلطانُ مريوط من مباشري وقف الملك المُظفر بيبرس الجاشنكير على الجامع الحاكمي، ورسم بعمارة سواقيه، ومعاهد[٢] الملك الظاهر بيبرس البُندُقداري به، وعاد ولم يدخل إلى الإسكندرية إلى أن نزل وردان[٣] في يوم عيد الأضحى وصلّى به صلاة العيد، وخطب القاضي ناصر الدين بن البَارِزِيّ كاتب السرّ، ثم ركب من الغد وسار حتى قدم برّ مُنبابة وعدّى النيل، ونزل في بيت كاتب السرّ ببولاق، وأقام به إلى الغد وهو يوم الثلاثاء ثالث عشر ذي الحجة، وركب وطلع إلى القلعة، كل ذلك وألم رجله يلازمه. وبعد طلوعه إلى القلعة رسم للأمراء بالتجهيز إلى سفر الشام صُحبة ولده المقام الصّارمي إبراهيم، كل ذلك والعرضُ لأجناد الحلقة مستمرٌ، وعُيِّنَ منهم للسفر جماعةٌ كبيرة، وأُلزم من يُقيم منهم بالمال.

ثم قدمت إلى الديار المصرية الخاتُون أم إبراهيم بن رَمضان التُّركُماني من بلاد الشرق، وقبَّلت الأرض بين يدي السلطان فرسم بتعويقها فعُوِّقت.

ثم تكرر من الملك المؤيد التوجُّه إلى الصَّيد في هذا الشهر غير مرة.

وهذه السنة هُدمت المئذنة المؤيدية، وغُلق بابُ زُويلة ثلاثين يوماً، وعظُم

(١) مريوط: من قرى مصر قرب الإسكندرية.
(٢) أي منشآت الظاهر بيبرس.
(٣) وردان: من أعمال الجيزة على شاطىء النيل الغربي.

ذلك على السلطان إلى الغاية. وكانت المئذنة المذكورة عُمِّرت على أساس البُرج الذي كان على باب زُويلة، وعملت الشعراء في ذلك أبياتاً كثيرة. وكان القاضي بهاء الدين محمد بن البُرجي مُحتسب القاهرة متولي نظر عمارة الجامع المذكور، فقال بعض الشعراء في ذلك: [الطويل]

عَتَبْنَا عَلَى مَيْلِ المَنَارِ زُوَيْلَةً وقلنا تركتِ الناس بالمَيْل في هَرْجِ
فقالت قرِيني برْجُ نَحْسٍ أمالهَا فلا بَارَكَ الرحمنُ في ذلك البرجِ

قلت صح للشاعر ما قصده من التَّوْرِيَة في البرج الذي عُمِّرَت عليه، وفي بهاء الدين البرْجِي.

وقال الحافظ شهاب الدين بن حَجَر وقصدَ بالتَّوْرِيَة بدرَ الدين محمود العَيْني: [الطويل]

بجامع مولانا المؤيَّد رَوْنَقٌ منارتُه تَزْهو من الحُسْنِ والزَّيْنِ
تقول وقد مالت عن المَوْضعِ امهلوا فليس عَلَى حسني أضرُّ من العَيْنِ

فأجاب العَيْني: [البسيط]

منارةٌ كعروس الحسن إذْ جُلِيَت وهَدْمُها بقضاء الله والقَدَرِ
قالوا أُصِيبَت بعينٍ قلت ذا خطأٌ ما أوْجَب الهدمَ إلا خِسَّةُ الحجَرِ

قلت: ساعده قوله «خسَّةُ الحجر» ما كان وقع بسبب هدم المنارة المذكورة، فإنه كان بني أساسها بحجر صغير، ثم عَمَّرُوا أعلاها بالحجر الكبير فأوجب ذلك ميلها وهدمها بعد فراغها.

وقال الشيخ تقي الدين أبو بكر بن حِجَّة في المعنى: [الطويل]

عَلَى البرج من بابَيْ زويلة أُنْشئت منارةُ بيت الله والمنهلُ المُنْجي
فأَخْلَى بها البرج اللعين أمالها ألا صَرِّحُوا يا قَوْم باللعن للبُرْجي

وقيل إن ذلك كان في السنة الماضية ــ انتهى.

وأخذ السلطان في تجهيز ولده الصارمي إبراهيم إلى أن تهيّأ أمره، وأنفق على الأمراء المتوجّهين صحبته. فلما كان بكرة يوم الاثنين ثامن عشر المحرم من سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة ركب المقام الصارمي إبراهيم ابن السلطان من قلعة الجبل في أمراء الدولة، ومعه عدة من أمراء الألوف المعينة صحبته إلى السفر، ونزل بمخيّمه من الرَّيْدَانية خارج القاهرة. ثم خرجت أطلابُ الأمراء المتوجّهة صحبته وهم: الأمير قَجْقَار القَرْدَمِي أمير سلاح، والأمير طَطر أمير مجلس، وجُقْمَق الأرْغُونْ شَاوِي الدَّوادار الكبير، وإينال الأرغزي، وجُلُبَّان أمير آخور، وأركماس الجُلُبَّاني، وهؤلاء من أمراء الألوف، وثلاثة من أمراء الطبلخانات، وخمسة عشر أمير من العشرات، ومائتا مملوك من المماليك السلطانية. وأقام الصارمي إبراهيم بمخيّمه إلى أن ركب السلطان من قلعة الجبل ونَزَل إليه بالرَّيْدَانية في عشرينه وبات عنده بالرَّيْدَانية، ثم ودعه من الغد وركب إلى القلعة.

ثم رحل المقام الصارمي إبراهيم من الرَّيْدَانية بمن معه من العساكر في يوم الجمعة ثاني عشرينه وسار إلى البلاد الشامية.

ثمّ شرع السلطان في بناء القُبَّة بالحوش السلطانيّ من قلعة الجبل المعروفة الآن بالبحرة المُطِلَّة على القرافة، وجاءت في غاية الحسن.

وأما الصارميّ إبراهيم فإنه سار إلى أن وصل دمشق في يوم الاثنين سادس عشر صفر، بعد أن خرج إلى تلقّيه النوابُ والعساكر. وأقام بدمشق أيّاماً وخرج منها يريدُ البلاد الحَلَبِيّة إلى أن نزل على تلِّ السلطان في يوم الثلاثاء أول شهر ربيع الأول، فخرج إليه نائب حلب الأمير يشبُك اليُوسُفي المؤيّدي بعساكر حلب، وتلقّاهُ ونزل بظاهر حلب.

ثم بدأ الطاعون بالدّيار المصريّة. هذا والعرض لأجناد الحلقة مستمرٌّ، فتارة يعرضهم السلطانُ، وتارةً الأمير مُقبلُ الحسامي الدَّوادار الثاني، وناظر الجيش علم الدين دَاوُد بن الكُويز.

ثمّ في يوم الخميس سابع عشر ربيع الأول نزل السلطان من القلعة إلى جامعه بالقرب من باب زُوَيلة، واستدعى به قاضي القضاة جلال الدين

عبد الرحمن البُلقيني وخلع عليه خلعة القضاء بعد عزل القاضي شمس الدين الهروي. ونزل البلقيني بالخلعة من باب الجامع الذي من تحت الربع(١)، وشقّ القاهرة، وكان له مشهد عظيم. هذا والطاعون قد فشا بالديار وتزايد بها وبأعمالها.

فلما كان يوم الخميس ثامن شهر ربيع الآخر من سنة اثنتين وعشرين المذكورة نُودي في الناس من قبل المُحتسب الشيخ صدر الدين بن العجمي أن يصوموا ثلاثة أيام آخرها يوم الخميس خامس عشره ليخرجوا في ذلك اليوم مع السلطان الملك المؤيّد إلى الصحراء فيدعو الله في رفع الطاعون عنهم. ثم أُعيد النداءُ في ثاني عشره أن يصوموا من الغد، فتناقص عددُ الأموات فيه، فأصبح كثيرٌ من الناس صياماً، فصامُوا يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس. فلمَّا كان يوم الخميس المذكور نُودي في الناس بالخروج إلى الصحراء من الغد، وأن يخرُجَ العلماء والفقهاء ومشايخُ الخوانق وصُوفيَّتُها وعامةُ الناس. ونزل الوزيرُ بدر الدين حسن بن نصر الله، والتاج الشَّوبكي أستادار الصحبة إلى تربة الملك الظاهر برقُوق فنصبوا المطابخ بالحوش القبلي منها وأحضروا الأغنام والأبقار، وباتوا هناك في تهيئة الأطعمة والأخباز. ثم ركب السلطان بعد صلاة الصبح ونزل من قلعة الجبل بغير أبهَّة المُلك بل عليه ملّوطة(٢) صوف أبيض بغير شَدّ في وسطه، وعلى كتفيه مِئزَرٌ صوفٌ مُسْدَل كهيئة الصُّوفيّة، وعلى رأسه عمامة صغيرة ولها عذبة مُرْخاةٌ من بين لحيته وكتفه الأيسر، وهو بتخشُّعٍ وانكسار، ويكثر من التلاوة والتسبيح، وهو راكبٌ فرساً بقماش ساذج(٣) ليس فيه ذهب ولا فضة ولا حرير.

(١) شارع تحت الربع: يبتدىء من آخر شارع باب زويلة بجوار تكيّة الجلشني، وينتهي لأول شارع باب الخرق (باب الخلق) من عند درب المذبح. وقد عرف بهذا الاسم من أجل الربع الذي أنشأه الظاهر بيبرس ووقفه على مدرسته التي بخط بين القصرين تجاه المارستان المنصوري. (خطط علي مبارك: ٣/٢٠٤) واسمه الحالي شارع أحمد ماهر.

(٢) الملّوطة، وجمعها ملاليط؛ قباء واسع الكمين طويلها يلبس فوق الفرجية. وكان لباساً قومياً في عصر المماليك. (معجم دوزي).

(٣) الساذج: الذي على لون واحد لايخالطه غيره.

هذا وقد أقبل الناس إلى الصحراء أفواجاً، وسار شيخ الإسلام قاضي القضاة جلال الدين عبد الرحمن البُلقيني الشَّافعي من منزله بحارة بهاء الدين ماشياً إلى الصحراء في عالم كثير.

ثم سار غالب أعيان مصر إلى الصحراء ما بين راكب وماش حتى وافوا السلطان بالصحراء قريباً من قبة النصر، ومعهم الأعلام والمصاحف، ولهم بذكر الله تعالى أصواتٌ مرتفعة من التهليل والتكبير.

فلما وصل السلطان إلى مكان الجمع بالصحراء ونزل عن فرسه وقام على قدميه، وعن يمينه وشماله الخليفةُ والقضاةُ وأهلُ العلم، ومن بين يديه وخلفه طوائف من الصُّوفيّة ومشايخ الزَّوايا وغيرهم لا يحصيهم إلا الله تبارك تعالى، فبسط السلطان يديه ودعا الله سبحانه وتعالى وهو يبكي وينتحب، والجمُّ الغفير يراه ويؤمِّنُ على دعائه. وطال قيامُه في الدُّعاء، وكلُّ أحد يدعو الله تعالى ويتضرّع، إلى أن استتمّ الدّعاء، وركب يريد الحوش السلطاني الظاهري[1] حيث مُدَّ الطعام، والناس في ركابه وبين يديه من غير أن يمنعهم من ذلك مانع، وسار حتى نزل بالحوش المذكور من التربة الظاهريّة، وقدّم له الأسمطة فأكل منها وأكل الناسُ معه.

ثم ذبح [بيده] قُرباناً ـ قرَّبه إلى الله تعالى ـ نحو مائة وخمسين كبشاً سميناً من أثمان خمسة دنانير الواحدُ.

ثم ذبح عشر بقراتٍ سمان وجاموستين وجملين، كل ذلك وهو يبكي، ودُمُوعه تنحدر على لحيته بحضرة الملأ من الناس.

ثم ترك القرابين على مضاجعها كما هي للناس وركب إلى القلعة، فتولّى الوزير التاجُ تفرقتها صحاحاً على أهل الجوامع المشهورة والخوانق وقبّة الإمام الشافعي والإمام الليث بن سعد والمشهد النَّفيسي وعدة أُخر من الزَّوايا حُمِلت إليها صحاحاً. وقطع منها عِدَّة بالحوش فُرِّقَت لحماً على الفقراء. وفرّق من الخبز

(١) أي تربة الظاهر برقوق في الصحراء.

النقي في اليوم المذكور عِدّة ثمانية وعشرين ألف رغيف، وعِدّة قُدُور كبار مملوءة بالطعام الكثير، وأخذ الطعام الكثير. وأخذ الطاعون من يومئذ في النقص بالتدريج.

ثم قدم على السلطان الخبرُ في ثاني عشرين شهر ربيع الآخر برحيل المقام الصّارمي إبراهيم من مدينة حلب بعساكره والعساكر الشّاميّة، وأنه دخل إلى مدينة قيساريّة[1]، فحضر إليه أكابرُ البلد من القضاة والمشايخ والصُّوفيّة فتلقُّوه فألبسهم الخلع، وطلع قلعتها يوم الجمعة، وخطب في جوامعها للسلطان، وضُربت السّكة باسمه، وأن شيخ جلبي نائب قيسارية تسحب منها قبل وصول العساكر إليها، وأن ابن السلطان خلع على محمد بك بن قرمان وأقرّهُ في نيابة السلطنة بقيسارية. فدقت البشائر بقلعة الجبل لذلك، وفرح السلطان بأخذ قيسارية فرحاً عظيماً، فإن هذا شيءٌ لم يتَّفق لملكٍ من مُلُوك التُّرك بالديار المصرية سوى الملك الظاهر بِيبَرْس، ثم انتقضَ الصلحُ بينه وبين أهلها حسبما ذكرناهُ في ترجمته من هذا الكتاب ــ انتهى.

ولمّا استهل جمادى الأولى تناقص فيه الطَّاعُون حتى كان الذي ورد اسمُه في أوّله من الأموات سبعةً وسبعين نفراً.

قال الشيخ تقيّ الدين المقريزي[2]: وكان عدَّةُ من مات بالقاهرة وورد اسمُه الديوان ــ من العشرين من صفر وإلى سلخ شهر ربيع الآخر ــ سبعة آلاف وستمائة واثنتين وخمسين نفساً: الرجال ألفٌ وخمسةٌ وستون رجلاً، والنساء ستمائة وتسع وستون امرأة، والصغار ثلاثة آلاف وتسعمائة وتسعة وستون، والعبيدُ خمسمائة وأربعة وأربعون، والإماء ألف وثلاثمائة وتسع وستون، والنصارى تسعةٌ وستون، واليهود اثنان وثلاثون، وذلك سوى البِيمَارستان، وسوى ديوان مِصر، وسوى من لا يَرِدُ اسمُه الدَّوَاوِينَ، ولا يقصر ذلك عن تتمَّة عشرة آلاف. ومات

(١) هي قيسارية الروم. تقع في وسط تركيا اليوم. وكانت عاصمة بني سلجوق.

(٢) السلوك: ٤/٤٩٢.

بقُرَى الشرقية والغربية مثل ذلك [وأزيد][١].

قلت: وقولُ الشيخ تقي الدين «ولا يقصر ذلك عن تتِمّة عشرة الآف» فقد مات في طاعون سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة في يوم واحد بالقاهرة وظواهرها نحو عشرة آلاف إنسان، واستمرَّ ذلك أياماً ما بين ثمانية آلاف وتسعة آلاف وعشرة آلاف حسبما يأتي ذكره إن شاء الله في محله في ترجمة الملك الأشرف بَرْسباي الدُّقْمَاقي ــ انتهى.

وفي يوم الأحد ثاني جمادى الأولى المذكور وُلِدَ للسلطان الملك المؤيد ولدُه الملكُ المظفَّرُ أحمدُ من زوجته خَوَنْد سَعادات بنت الأمير صَرْغَتْمُش.

ثم في سابع جمادى الأولى استدعى السلطانُ بَطْرَك النصاري، وقد اجتمع القضاةُ ومشايخُ العِلم عند السلطان، فأوقِفَ البَطْرَكُ على قدميْه ووُبِّخ وقُرِّع، وأَنكَر عليه السلطانُ ما بالمسلمين من الذُّلِّ في بلاد الحبشة تحت حكم الحطِّي[٢] متملكها، وهُدِّد بالقتل، فانتدب لهُ الشيخُ صَدْرُ الدين أحمد بن العجمي مُحْتَسِبُ القاهرة فأسمعه المَكْرُوه من أجل تهاوُن النَّصارى فيما أمروا به في مَلْبَسهم وهيئاتهم، وطال كلامُ العلماء مع السلطان في ذلك إلى أن استقرّ الحالُ بأن لا يباشِر أحدٌ منهم في ديوان السلطان ولا عند أحد من الأمراء، ولا يخرج أحد منهم عما أُلْزِمُوا به مِن الصَّغَار. ثم طلب السلطان الأكرمَ فضائلَ النَّصْرانيّ كاتب الوزير ــ وكان قد سجن من أيام ــ فضربه السلطانُ بالمقارع[٣] وشهرّه بالقاهرة عُرْياناً بين يدَي المحتَسِب وهو ينادي عليه: «هذا جزاءُ من يباشر من النصارى في ديوان السلطان»، ثم سُجن أيضاً بعد إشهاره. وصَمَّمَ السلطانُ في ذلك حتى انكفَّ النصارى عن المُباشرة في سائر دَوَاوين الدِّيَار المصرية، ولزموا بيوتهم، وصَغَّرُوا عمائمهم وضَيَّقُوا أكْمامَهُم، والتَزَم اليهودُ مثل ذلك، وامتنعوا جميعهم من ركوب الحمير، بحيث إنَّ العامة صارت إذا رأوا نصرانياً على حمار ضربوه وأخذوا

(١) زيادة عن المقريزي.
(٢) الحطّيّ: هو لقب ملك الحبشة الأكبر ــ انظر صبح الأعشى: ٣٢٢/٥.
(٣) المقارع: السياط؛ وكل ما قرعتَ به.

حماره وما عليه، فصاروا لا يركبون الحمار إلا بخارج القاهرة. وبـذَل النصارى جُهْدَهم في السَّعْي إلى عَوْدِهم إلى المُبَاشرة وأوْعَدُوا بمالٍ كبير، وساعدتْهُم كتّابُ الأقباط، فلم يلتفت السلطانُ إلى قولهم، وأبى إلا ما رَسَم به من المَنْـع.

قلت: ولعلَّ الله أن يسامِح الملكَ المؤيَّد بهذه الفعلة عن جميـع ذنوبه، فإنها من أعظم الأمور في نُصْرَة الإسلام، ومباشرةُ هؤلاء النصارى في دواوين الديار المصرية من أعظم المَسَاوىء التي يؤول منها تعظيم دين النصرانية؛ لأن غالب الناس من المسلمين تحتاج إلى التَّرَدُّد إلى أبواب أرْباب الدَّوْلة لقضـاء حوائجهم، فمهما كان لهم من الحوائـج المتعلقة بديوان ذلك الرئيس فقد احتاجوا إلى التواضـع والترفّق إلى من بيده أمرُ الديوان المذكور، نَصرانياً كانَ أو يهودياً أو سامرياً؛ وقد قيل في الأمثال «صاحب الحاجة أعمى لا يريـد إلا قضاءهـا». فمنهم من يقوم بين يدي ذلك النَّصْرَاني على قدميه والنصراني جالس ساعاتٍ كثيرةً حتى يقضي حاجته، بعد أن يَدْعوَ له ويتأدبَ معه تأدباً لا يفعله مـع مشايـخ العلم، ومنهم من يُقَبِّل كتفه ويمشي في ركابه إلى بيته إلى أن تُقْضى حاجتُهُ. وأما فلاحو القُرى فإنه ربما النَّصرانيُّ المباشرُ يضربُ الرجلَ منهم ويهينُه ويجعله في الزَّنجير، ويزعم بذلك خلاص مال أستاذه، وليس الأمرُ كذلك، وإنما يقصدُ التحكُّمَ في المسلمين لا غير؛ فهذا هو الذي يقـع للأسير من المسلمين في بلاد الفرنـج بعينه لا زيادة على ذلك غير أنه يملك رِقَّه.

وقد حدثني بعض الثقات من أهل صعيد مصر قال: كان غالب مُزارعي بلدنا أشرافاً علويّةً، والعامل بالبلد نَصْرانياً، فإذا قدم العاملُ إلى البلد خرج الفلاحون لتلقيّه، فمنهم من يسِّلمُ عليه السّلام المعتاد، ومنهم من يُفشي السلامَ عليه ويُمْعِنُ في ذلك، ومنهم من يمشي في ركابه إلى حيث ينزل من البلد، ومنهم من يقبِّل يده ــ وهو الفقير المحتاج أو الخائف من صاحب البلد ــ ويسأله إصلاح شأنه فيما هو مقرَّرٌ عليه من وَزْن الخَرَاج حتى يسمـح له بذلك؛ فلما منـع الملك المؤيد هؤلاء النَّصَارى عن المُباشَرة بطل ذلك كلُّه؛ فيكون الملك المؤيـد على هذا الْحُكم فَتَـح مصر فَتْحاً ثانياً، وأعلى كلمة الإسلام وأخذل كلمة الكفر، ولا شيء عند الله أفضل من ذلك.

ولما لم يُجَبِ النصارى إلى عَوْدهم إلى ما كانوا عليه من المباشرات بالديار المصرية، وأعْيَاهم أمرُ السلطان وثَبَاتُه، وانقطع عنهم ما أَلِفُوه من التحكُّم في المسلمين ــ ويقال: إنَّ العادة طبعٌ خامس ــ شقَّ عليهم ذلك، فتتابع عِدَّةٌ منهم في إظهار دين الإسلام، وتلفظوا بالشهادتين في الظاهر، والله سبحانه وتعالى مُتَوَلي السرائر.

قال المقريزي ــ بعد أن ذكر نَوْعاً مما قلناه بغير هذه العبارة ــ قال: فصاروا من رُكُوب الحمير إلى ركوب الخَيْل والتعاظم على أعيان أهل الإسلام والانتقام منهم بإذلالهم وتعويق معاليمهم(١) ورواتبهم حتى يخضعوا لهم ويترددوا إلى دورهم ويلحّوا في السُّؤال ــ فلا قوة إلا بالله. انتهى كلام المقريزي باختصار.

قلت: ويمكنُ إصلاحُ هذا الشّأن الثاني أيضاً ــ إنْ صَلح الراعي ونظرَ في أحوال الرَّعيّة وانتصر لدينه ــ بسهولة، هو أنه يكفُّ مَن كان قَريبَ عهدٍ منهم من دِين النصْرَانيَّة عن المُبَاشَرة ــ انتهى.

ثم قدِمَ الخبرُ على السّلطان بتوجه ابن السلطان من مدينة قَيْسَارِيَّة إلى مدينة قُونية(٢) في خامس عشر شهر ربيع الآخر، بعد ما مَهَّدَ أُمور قَيْسَارِية ونَقَش اسْمَ السلطان على بابها، وأن الأمير تَنِبك مِيق نَائب الشَّام لَمَّا وصل إلى العَمْق حضَر إليه الأميرُ حَمْزة بن رمضَان بجماعة من التُّرْكمان وتَوجّه معه هو وابن أَوْزَر إلى قريب مَصِّيْصَة(٣) وأخذ أَذَنَةَ(٤) وطَرَسُوس فسُرّ السلطان بذلك سُروراً عظيماً.

ثم نَادى مُحْتَسِبُ القَاهرة على النَّصارَى واليهود بتشديد مَا أمرهم به من الملبس والعمائم وشدّد عليهم في ذلك؛ فلما اشتدَّ الأمر عليهم سعوا في إبطال

---

(١) المعاليم: جمع معلوم، وهو الراتب أو المقرّر الشهري.

(٢) قونية: مدينة مشهورة في بلاد الروم ــ تركيا اليوم.

(٣) المصِّيصَة: بكسر وتشديد الصاد الأولى، وضبطها الجوهري بتخفيف الصادين. وهي مدينة على شاطىء نهر جيحان من ثغور الشام بالقرب من طرسوس. (معجم البلدان).

(٤) ويقال: أدنة وأطنة. وقد سبق التعريف بها، فانظر فهرس الأماكن.

ذلك سعياً كبيراً فلم ينالوا غرضاً(١).

ثم قدم الخبرُ على السلطان بأن ابن السلطان وصل إلى نِكْدَة(٢) في ثامن عشر شهر ربيع الآخر فتلقَّاه أهلُها وقد عَصَت عليه قَلْعَتُها، فنزَلَ عليها وحاصرها وركّبَ عليها المَنْجَنِيق، وعمل النَّقَّابُون فيها، وأن محمد بن قَرَمَان تسحَّبَ من نِكْدَة في مائة وعشرين فارساً هو وولدُه مصطفى.

كلُّ ذلك والسلطان ملازمٌ الفراش من ألم رجله، والأسعار مرتفعة.

ثم في ثاني عشر جُمَادَى الآخرة ورَدَ الخبرُ بأن ابن السلطان حاصرَ قلعة نِكْدَة سبعةً وعشرين يوماً إلى أن أخذها عَنْوَة في رابع عشر جمادى الأولى، وقَبَضَ على من كان فيها وقيَّدهم، وهم مائة وثلاثة عشر رجلاً.

ثم توجَّه في سادس عشر جمادى الأولى إلى مدينة لارَنْدَة(٣).

ثم في سابع عشرين جمادى الأولى رَكِبَ السلطانُ من القلعة وأراد النُّزول بدار ابن البَارِزِيّ على النيل ببولاق فلم يُطِق ركوبَ الفرس وحركَته، لما به من ألم رجله، فركب في محفَّة إلى البحر، وحُمل منها إلى الدَّار المذكورة، وصارت الطبلخاناه تدقّ هناك، وتُمدّ الأسمطة وتعملُ الخدمة على ما جرت به العادة بقلعة الجبل. ونَزَل الأمراء في الدُّور التي حَوْلَ بيت ابن البَارِزِيّ وغيرها. واستمرّ السلطانُ في بُولَاق إلى أن استهلّ شهرُ رَجب الفرد في بيت ابن البَارِزِيّ وهو يَتَنَقَّلُ

(١) ومما ذكره المقريزي بهذا الشأن أن النصارى أُمروا ألا «يمرّوا في القاهرة إلا مشاة غير ركّاب، وإذا ركبوا خارج القاهرة فليركبوا الحمير عرضاً، ولا يلبسوا إلا عمائم صغيرة الحجم، وثياباً ضيّقة الأكمام، ومن دخل منهم الحمّام فليكن في عنقه جرس، وأن تلبس نساء النصارى الأُزر الزرق، ونساء اليهود الأزر الصفر ــ وكبست عليهم الحمامات وضرب جماعة منهم لمخالفته، فامتنع كثير منهم عن دخول الحمام وعن إظهار النساء في الأسواق». (السلوك: ٤/٤٩٥).

(٢) نكدة، ويقال أيضاً نكيدة ونكيدا: وهي مدينة على الحدود الجنوبية شرقي قونية، يشقها النهر الأسود. وبينها وبين قيسارية ثلاثة أيام. (بلدان الخلافة الشرقية، ومعجم البلدان).

(٣) لارندة: في آسيا الصغرى من بلاد الروم، وهي مركز قضاء قونية. ــ انظر صبح الأعشى: ٥/٣٣٦ طبعة دار الكتب العلمية.

منه ـ وهو محمول على الأعناق ـ تارةً إلى الحمَّام التي بالحِكْرِ وتارة يوضع في الحرَّاقة وتسيرُ به على ظهر النيل، فيسير فيها إلى رِبَاط الآثار(١)، ثم يُحمل من الحرَّاقة إلى رباط الآثار المذكور، ثم يعود إلى بيت ابن البَارِزِيّ، وتارة يسيرُ فيها إلى القصر ببرِّ الجيزة بحرِيّ مُنْبَابَة، وتارة يقيم بالحرَّاقة وهو بوسط النيل نهارَه كلَّه.

وقَدِمَ عليه الخبرُ في ثاني عشر شهر رجب المذكور أن ابن السلطان لما تسلَّم نَكْدَة استناب بها علي بَك بن قَرَمَان، ثم توجّه بالعساكر إلى مدينة أَرَكْلي(٢) فوصلها، ثم رحل منها إلى مدينة لارَنْدَة فقدمها في ثاني عشرين جمادى الآخرة، وبعث بالأمير يشبك اليوسفي نائب حلب فأوقع بطائفة من التركمان، وأخذ أغنامهم وجمالهم وخيولهم وموجودهم، وعاد فبعث الأميرَ طَطَر والأمير سُودُون القاضي نائب طَرَابُلُس، والأمير شاهين الزَّرَدْكَاش نائب حماة، والأمير مُرَادَ خَجَا نائب صفَدَ، والأمير إينَال الأرغزي، والأميرُ جُلبَّان رأس نوبة سيدي [المقام الصارمي إبراهيم](٣) وجماعته من التُّرْكُمَان، فكَبَسُوا على محمد بن قَرَمَان بجبال لارَنْدَة في ليلة الجمعة سادس جمادى الآخرة، ففَرَّ محمد بن قَرَمَان منهم فأخذ جميع ما كان في وطاقه(٤) من خيل وجمال وأغنام وأثقال وقماش وأواني فضة وبلّور، وعاد الأمراء بتلك الغنائم. فاقتضى عند ذلك رأيُ ابن السلطان ومن معه الرجوع إلى حَلَب، فعادوا في تاسع شهر رجب، فجهَّزَ السلطانُ إلى ولده بحَلَب ستة آلاف دينار ليفرقها على الأمراء، ورسَم له بأن يُقِيمَ بحلَب لِعِمَارَةِ سُورِها، وسار البريد بذلك.

ثم ركب السلطانُ في رابع عشر شهر رجب من بيت ابن البَارِزِيّ بُبولَاق

---

(١) رباط الآثار: بالقرب من بركة الحبش مطلّ على النيل. وقد سبق التعريف به، فانظر فهرس الأماكن.

(٢) أركلي: هي مدينة هرقلة ببلاد الروم. وهي في شرقي نهر ينزل من جبل العلايا إلى نحو سنوب، وهرقلة عليه في قرب البحر. (معجم البلدان، وبلدان الخلافة الشرقية، وصبح الأعشى: ٥/٣٣٣. ط. دار الكتب العلمية).

(٣) زيادة للتوضيح.

(٤) الوطاق: الخيمة الكبيرة، والمعسكر المكوّن من خيام. وهي في التركية: أوتاق وأوتاغ وأوطاق. (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل: ١٩٨).

بالحّراقة إلى بيت التاجر نور الدين الخّروبـي ببرِّ الجيزة تجاه المقياس، وكان في مُدَّةِ إقامته في بيت ابن البَارِزِيّ قد أحضر الحَرَارِيق من ساحل مصر إلى ساحل بُولَاق وزُيِّنَت بأفخر زينة وأحسنها، وصار السلطان يركب في الحرَّاقة الذّهبيّة وبقية الحَرَارِيق سائرة معه مقلعة ومنحدرة، وتلعب بين يديه، كما كانت العادة في تلك الأيام عند وفاء النيل ودَوَرَان المحمل في نصف شهر رجب.

ولما كان أيّام دَوَرَان المحمل على العادة في كل سنة رَسَمَ السلطانُ لمعلِّـم الرَّمْـح أن يُعْلِم الرَّمَّاحَة أن يسوقوا المحملَ بساحل بُولَاق ـ وكان ساحل بُولَاق يوم ذاك بَرّاً وَسِيعاً ينظرُ الجالسُ في بيت ابن البَارِزِيّ مَدَدَ عَيْنِهِ من جهة فَم الخُور(١) ـ فتوجّه المُعلِّمُ بالرَّمَّاحة هناك في يوم المحمل، وساقوا بين يَدَيْه كما يَسُوقُون في بِرْكَة الحَبَش أيّام أزمانهم وبالرُّمَيْلة في يوم المحمل، وتفرَّجَت الناسُ على المحمل في بُولاقُ، ولم يقـع مثلُ ذلك في سالف الأعْصار، فصار الشخصُ يَجْلِسُ بطاقته(٢) فيتفرَّجُ على المحمل وعلى البحر معاً. فلَمَّا كان قريب الوفاء ركب [السلطان] في الحَرّاقة الذهبيَّة، والحَرَارِيق بين يَدَيْه بعد أن أقاموا بالزِّينَة أيَّاماً والناس تتفرَّجُ عليهم، وسار حتى نزل بالخَرُّوبِيّة، فأرست الحَرَارِيق المزينّة على ساحل مصر بدار النُّحاس(٣)، كما هي عادتها في السنين الماضية، إلى أن كان يوم الوفاء وهويوم سادس عشر رَجَب فـرَكِبَ السلطانُ من الخَرُّوبِيّـة في الحرَّاقة، وسار إلى المقياس ومعه الأمراء وأرباب الدَّوْلة حتى خلَّقَ المقياس على العادة.

ثم سار في خليـج السَّدِّ حتى فتحه، وركب فرَسَه في عساكره وعاد إلى القلعة، فكانت غَيْبَتُه عن القلعة في نزهته ثلاثين يوماً بعدما انقضى للناس بساحل بولاق في تلك الأيّام من الاجتماعات والفرج أوقاتٌ طيّبة إلى الغاية لم يُسمـع

(١) فم الخور: هوخليـج يخرج من النيل ويصبّ في الخليج الناصري. وهويقـع بين بولاق ومنشاة المهراني. (خطط المقريزي: ٢/١٣٠، ١٤٣).

(٢) في هامش طبعة كاليفورنيا: «بطاقة بيته» وهي أوضـح.

(٣) دار النحاس: هي دير النحاس تجاه جزيرة الروضة.

بمثلها، ولم يكن فيها ــ بحمد الله ــ شيء مما يُنْكَرُ كالخمور وغيرها، وذلك لإعراض السلطان عنها منذ لازمه أَلَم رجله.

ثم قَدِمَ الخبر على السُّلطان بوصول ولده المقام الصارمي بعساكره إلى حَلَب في ثالث شهر رجب، وأن الأمير تَنِبَك العلائي ميق نائب الشام واقعَ مصطفى وأباه محمد بن قَرَمَان وإبراهيم بن رمضان على أَدَنَة فانهزموا منه أقبح هزيمة.

ثم في عشرين شعبان تَزَايَد ألمُ السلطان ولم يُحْمَل إلى القصر السلطاني، ولزم الفراش، واشتد به المرض. وخَلَعَ على التاج ابن سيفة باستقراره أمير حاج المحمل.

ثم نَصَلَ السلطانُ من مرضه قليلاً فركب في يوم سابع عشرين شعبان من القلعة ونزل للفرجة على سِبَاق الخَيْل. فسار بعساكره سَحَراً ووقف بهم تحت قُبَّةِ النَّصْر[١] وقد أَعَدَّ للسباق أربعين فَرَساً فأطلق أَعنتها من بركة الحاج فأجْرِيَت منها حتى أَتته ضُحَى النهار، فحصل له برؤيتها النَّشَاط. ورجع من موقفه إلى تُرْبَة الملك الظَّاهر بَرْقُوق، ووقف قريباً منها دون الساعة، ثم بعثَ المماليك والجنائب والشطفة[٢] إلى القلعة، وتوجّه إلى خليج الزَّعْفَرَان[٣]، فنزل بخاصته وأقام به إلى آخر النهار، ورَكِبَ إلى القلعة.

ثم في سلخ شعبان ركب السلطانُ أيضاً من قلعة الجبل إلى بركة الحَبَش وسابق بالهجن، ثم عاد إلى القلعة.

ثم في يوم الخميس أوّل شهر رمضان قَدمَ الخبرُ أن ابنَ السلطان رَحَل من حَلَب في رابع عَشَر شعبان، وأنّ محمد بن قَرَمَان وولَدَه مصطفى وإبراهيم بن

---

(١) قبة النصر: كانت زاوية يسكنها الفقراء العجم في الصحراء تحت الجبل الأحمر، جددها الناصر محمد بن قلاوون

(٢) الشطفة أو العصابة: من الشعائر السلطانية في عصر سلاطين المماليك؛ وهي أشبه بالراية أو العلم ترفع على رأس السلطان. (معجم دوزي).

(٣) خليج الزعفران: كان يقع بأطراف الريدانية ــ العباسية حالياً.

رمضان وصَلوا إلى قَيْسارِيَّة في سادس عشر شعبان وحصروا بها الأمير ناصر الدين محمد بن دُلْغَادِر نائبها فقاتلهم حتى كسرهم ونهب ما كان معهم، وقتل مصطفى وحُمِلَت رأسُه، وقبض على أبيه محمد بن قَرَمَان ــ فسجن بها. ثم قَدِمَ رأسُ مصطفى بن محمد بن علي بَك بن قَرَمَان إلى القاهرة في يوم الجمعة سادس عشر شهر رمضان، فطيف به بشوارع القاهرة على رُمْح ثم عُلِّقَ على باب النَّصْر أحد أبواب القاهرة. وقدم الخبرُ أيضاً بمسير ابن السلطان من حَلب وقدومه إلى دِمَشْق في خامس شهر رمضان، فأرسلَ السلطانُ الإقامات إلى ولده، إلى أن كان يوم سابع عشرين شهر رمضان المذكور من سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة فركب السلطانُ من قلعة الجَبَل ونزل إلى لقاء ولده المقام الصّارِمي إبراهيم، وقد وصل إلى قَطْيَا، فسار السلطانُ إلى بِرْكة الحاج، واصطاد بها. ثم ركب ومضى إلى جهة بُلْبَيْس، فقدم عليه الخبرُ بنزول ابن السلطان الصالحيّة، فتقدّم الأمراء عند ذلك وأربابُ الدَّولة حتى وافوه بمنزلة الخطّارة[1]. فلما عاينته الأمراء ترجَّلُوا عن خيولهم، وسلَّمُوا عليه واحِداً بعد واحد، حتى قَدِمَ عليه القاضي ناصر الدين بن البَارِزِيّ كَاتب السِّرِّ فنزل له المقام الصَّارِمِيّ عن فرسه ــ ولم ينزل لأحد قبله، لِمَا يعلمُه من تمكُّنِهِ وخصوصيته عند أبيه الملك المؤيّد ــ وركب الجميعُ في خدمته، وعادوا بين يديه إلى العِكْرِشَة، والسلطان واقف بها على فرسه. فنزل الأمراء المسافرون وقبَّلُوا الأرضَ بين يدي السلطان، ثم قبَّلوا يده واحداً بعد واحد إلى أن انتهى سلامُهُم، فنزل المقام الصارمي عن فرسه وقبَّلَ الأرض، ثم قام ومشى حتى قَبَّل الرِّكَاب السُّلطاني، فبكى السلطان من فرحه بسلامة ولده، وبكى الناسُ لبكائه، فكانت ساعة عظيمة.

ثم سارَا بموكبيهما الشامي والمصري إلى سِرْيَاقُوس وباتا بها ليلة الخميس تاسع عشرين شهر رمضان المذكور. وتقدَّمَت الأثقالُ والأطلابُ ودخلوا القاهرة. وركب السلطانُ آخر الليل ورمى الطَّيْرَ بالبِرْكة. ثم قَدِم[2] عليه الخبرُ بكرة يوم

(١) الخطّارة: قرية بين السعيدية والصالحية من بلاد محافظة الشرقية ــ انظر صبح الأعشى: ١٤/٣٧٧.
(٢) في الأصل: «فقدم».

الخميس بوصول الأمير تَنِبَك ميق نائب الشام، وكان قد طُلِب، فوافى ضُحىً، وركب في الموكب السلطاني. ودخل السلطان من باب النصر، فشقّ القاهرة ـ وقد زينت لقدوم ولده ـ والأمراء عليها التشاريف، وعلى المقام الصارمي أيضاً تشريفٌ عظيم إلى الغاية، وخلفه الأسراء الذين أخِذُوا من قلعة نِكْدَة وغيرها في الأغلال والقُيُود، وهم نحو المائتين كلهم مشاة إلا أربعة فإنهم على خيول، منهم نائب نِكْدَة وثلاثة من أمراء ابن قَرَمان، وكلهم في الحديد. فسار الموكبُ إلى أن وصل السلطانُ وولدُه إلى القلعة، فكان يوماً مشهوداً إلى الغاية لم ينله أحدٌ من ملوك مصر، فلهجت الناسُ بأن الملك المؤيّد قد تمَّ سَعْدُه. كل ذلك والسلطانُ لا يستطيع المشيَ من ألم رجله.

وأصبح يومُ السبت أوّل شوال فصلّى صلاة العيد بالقصر لعجزه عن المُضيّ إلى الجامع، لشدة ألم رجله وامتناعه من النهوض على قدميه.

ثم في ثالث شوال خلع على الأمير جَقْمَق الأرْغُون شاويّ الدَّوَادَار الكبير باستقراره في نيابة الشام عوضاً عن تَنِبَك العلائي ميق بحكم عزله، وخلع على الأمير مُقْبِل الحُساميّ الدَّوَادار الثاني باستقراره دَوَاداراً كبيراً على إمْرَة طَبْلَخاناه، وأنعم السلطانُ بإقطاع جَقْمَق الدَّوَادار على الأمير تَنِبَك ميق.

ثم في رابع شوال المذكور خَلَع السلطانُ أيضاً على الأمير قُطْلُوبُغَا التَّنمِيّ أحد مقدّمي الألوف بالديار المصرية واستقرّ في نيابة صفَدَ عوضاً عن الأمير قَرَامُرَادْ خَجَا، ورَسَمَ بتوجُّه قَرَامُرَاد خجا إلى القُدْس بطَّالاً، وأنعم بإقطاع قُطْلوبُغَا التَّنميّ على الأمير جُلُبَّان الأمير آخور الثاني، وأنعم بإقطاع جُلُبَّان ووظيفته على الأمير آقْبُغَا التِّمرازيّ، فَتَجَهَّز جَقْمَق بسرعة وخرج في يوم سابع عشرة من القاهرة متوجِّهاً إلى محلّ كفالته بدِمَشْق.

ثم في يوم الجمعة حادي عشرينه نزل السلطانُ إلى جامعه بالقُرْب من باب زُوَيْلَة، وقد هُيِّئت به المطاعمُ والمشارب، فَمُدّ بين يديه سماطٌ عظيم، فأكلَ السلطانُ منه والأمراءُ والقضاةُ والعسكرُ، ومُلِئت الفَسْقِيَّة التي بصحن الجامع سكَّراً مُذاباً، فشرب الناسُ منه، ثم أحضرت الحَلاوَات؛ كل ذلك لفراغِ الجامع المذكور

ولإجْلاَس قاضي القضاة شمس الدين محمد بن الدّيري الحنفي في مشيخة الصُّوفيّة وتدريس الحنفية، وفُرِشَت السّجادة لابن الدّيري في المحراب، وقرّر خطابة الجامع المذكور للقاضي ناصر الدين محمد بن البَارِزِيّ كاتب السرّ. ثم عرض السلطان الفقهاءَ وقرّرَ منهم من اختاره في الوظائف والتصوُّف. ثم استدعى قاضي القضاة شمس الدين بن الديري وألبسه خلعةً باستقراره في المشيخة، وجلس بالمحراب والسُّلطان وولّدُه الصّارمي إبراهيم عن يساره، والقضاة عن يمينه، ويليهم مشايخ العلم وأمراء الدولة، فألقى ابنُ الديري درساً عظيماً وقع فيه أبحاثٌ ومناظرات بين الفقهاء، والملكُ المؤيدُ يُصْغي لهم ويعجبُه الصواب من قولهم، ويسأل عما لا يفهمه حتى يفهمه.

قلت: هذا هو المطلوب من الملوك؛ الفهم والذَّوْق، لينال كلُّ ذي رتبة رتبتَه، وينصف أرباب الكمالات ــ بين يديه ــ من كلّ فن؛ فوا أسفاه على ذلك الزمان وأهله!

واستمرّ البحث بين الفقهاء إلى أن قَرُب وقتُ الصلاة ثم انفضُّوا. واستمر السلطان جالساً بمكانه إلى أن حَان وقت الصلاة. وتهيأ السلطانُ وكلُّ أحد للصلاة، فخرج القاضي ناصرُ الدين بنُ البارِزِيّ من بيت الخطابة وصعدَ المنبر، وخطب خطبةً بليغةً فصيحةً من إنشائه، ثم نزل وصلَّى بالناس صلاة الجمعة. فلما انقضت الصلاةُ خلع السلطانُ عليه باستقراره في خطابة الجامع المذكور ووظيفة خازِن الكُتُب.

ثم ركب السلطانُ من الجامع المذكور وعدَّى النيلَ إلى برِّ الجيزة فأقام به إلى يوم الأحد ثالث عشرينه، وعاد إلى القلعة. ثم ركب من القلعة في يوم الأحد أول ذي القعدة للصيد وعاد من يومه.

وفي يوم ثالثه سار الأميرُ الكبيرُ أَلْطُنْبُغَا القَرْمَشِي والأمير طُوغان الأمير آخور الكبير للحج عَلَى الرَّوَاحل من غير ثقل.

ثم في يوم الجمعة سادس ذي القعدة خلع السلطان عَلَى القاضي

زين الدين عبد الرحمن بن علي بن عبد الرحمن التَّفَهْنِي الحنفي باستقراره قاضي قضاة الحنفيّة عوضاً عن قاضي القضاة شمس الدين محمد بن الديري المستقرّ في مشيخة الجامع المؤيدي برغبة ابن الديري؛ فإنه كان من حادي عشرين شوال قد انْجَمَع عن الحُكم بين الناس ونُوّابُه تقضي.

وفيه أيضاً عدى السلطانُ النيلَ يريد سَرْحَة البحيرة، وجعل نائب الغيبة الأمير إينال الأرغزي، وسار السلطان حتى وصلَ مَرْيوط. وعاد، فأدركه عيدُ الأضحى بمنزلة الطَّرّانة، فصلى بها العيد، وخطب كاتب سرّه القاضي ناصر الدين ابن البَارِزِي.

قلت: هكذا يكون كُتَّاب سرّ الملوك أصحاب عِلْم وفَضْلٍ ونَظْم ونَثْرٍ وخطَبٍ وإنشاء، لا مثل جمال الدين الكَرَكي وشهاب الدين بن السفَّاح.

ثم ارتحل السلطان من الغد وسارَ حتى نزل ببرّ مُنْبَابَة بكرة يوم الأحد ثالث عشر ذي الحجة. وعدَّى النيلَ من الغد ونزل ببيت كاتب السرّ ابن البَارِزِيّ، وبات به، ودخل الحمام التي أنشأها كاتبُ السرّ بجانب داره. ثم عاد السلطانُ في يوم الاثنين رابع عشر ذي الحجة إلى القلعة، وخلع عَلَى الأمراء والمباشرين على العادة. ثم نزل السلطان في يوم الجمعة ثامن عشره إلى الجامع المؤيدي، وصلى به الجمعة، وخطب به كاتب السرّ ابنُ البَارزي. ثم حضر من الغد الأمير محمد بك بن علي بك بن قَرَمان صاحب قَيْساريّة وقُونية ونِكْدَة ولارَنْدَة وغيرها من البلاد وهو مُقيد مُحْتَفَظٌ به، فأُنْزِلَ في دار الأمير مُقْبِل الدَّوادار ووُكِّل به إلى مَا سيأتي ذكره.

ثم في يوم الجمعة ثالث المحرم وصل الأميرُ الكبيرُ أَلْطُنْبُغَا القَرْمَشي والأميرُ طُوغان أمير آخور من الحجاز، فكانت غيبتهما عن مصر تسعة وخمسين يوماً. وفيه استقرّ الأميرُ شاهين الزَّرَدْكَاش نائب حماة في نيابة طَرَابُلُس عوضاً عن سُودُون القاضي، واستقرّ في نيابة حماة عوضاً عن شاهين المذكور الأمير إينَال الأرغزي النَّوْرُوزي نائب غزّة، واستقر عوضه في نيابة غَزَّة الأميرُ أرْكَماس الجُلُبَّاني أحد

مقدمي الألوف بالديار المصرية. ثم أفرج السلطان عن الأمير نُكْبَاي حاجب دِمَشق من سجنه بقلعة دِمَشق واستقر في نيابة طَرَسُوس، وأحضر نائبها الأمير تَنِبَك أميراً إلى حَلب. واستقر الأميرُ خليل الدُّشَاري أحد أمراء الألوف بدمَشق في حجوبية الحجاب بدَمشق، وكانت شاغرةً منذ أمْسِك نُكْبَاي. واستقر الأمير سُنْقر نائبَ قلعةِ دمشق. واستقر الأمير آقُبغا الأَسَنْدَمُري الذي كان وَلِيَ نيابة سِيس ثم حِمْص حاجباً بحماة عوضاً عن الأمير سُودُون السَّيفي عَلَّان بحُكم عَزْلِه واعتقاله، وكان بطالاً بالقُدْس.

ثم في سادس عشر المحرم نُقِلَ الشيخ عز الدين عبد العزيز البَغْدَادي من تدريس الحنابلة بالجامع المؤيدي إلى قضاء الحنابلة بدمَشْق، واستقر عوضه في التدريس بالجامع المذكور العلامة محب الدين أحمد بن نصر الله البَغْدَادي.

ثم في يوم الاثنين خامس صفر ركب السلطانُ من القلعة وعدّى النيل ونزل بناحية وَسِيم على العادة في كل سنة، وأقام بها إلى عشرين صفر، فركب وعاد من وَسِيم إلى أن عدى النيلَ ونزل ببيت كاتب السر وبات به. وعُمِلَ الوَقيدُ في ثاني عشرينه، ثم ركب من الغَدِ إلى القلعة.

ثم في سادس عشرينه نزلَ السلطانُ من القلعة إلى بيت الأمير أبي بكر الأَسْتَادار وعادَه في مرضه، فقدَّم له أبو بكر تقدمةً هائلة. واستمرّ أبو بكر مريضاً إلى أن مات؛ وتولّى الأَسْتادَارية بعده الأميرُ يَشْبُك المؤيدي المعروف بأَنَالِي ــ أي له أمّ ــ في يوم الخميس ثالث عشر شهر ربيع الأوّل.

ثم في هذا الشهر تحرّك عزمُ السلطان على السّفر إلى بلاد الشَّرْق لقتال قَرَايُوسف، وأخذ في الأهبة لذلك وأَمَرَ الأمراء بعمل مصالح السّفر، فشرعوا في ذلك. هذا وهو لا يستطيع الرُّكُوب ولا النُّهُوض من شِدّة ما به من الألم الذي تمَادى برِجلْه وكَسّحه، ولا ينتقلُ من مكان إلى آخر إلا على أعناق المماليك، وهو مع ذلك له حُرْمة ومَهابة في القلوب لا يستطيع أخِصّاؤه النظر إلى وجهه إلا بعد أن يتلطّف بهم ويباسِطهم حتى يَسْكُن رَوْعهم منه.

ثم في أوّل شهر ربيع الآخر وقعَ الشروع في بناء مَنْظَرَة [على](١) الخمس وجوه(٢) بجوار التّاج(٣) الخَراب خارج القاهرة بالقرب من كوم الرِّيش(٤) لِيُنشِئ السلطانُ حَوْله بُسْتاناً جَليلاً ودُوراً، ويجعل ذلك عوضاً عن قُصُور سِرْياقُوس، ويسرح إليها كما كانت الملوك تسرح إلى سرياقوس منذ أنشأها الملك الناصر محمد بن قَلاوُون.

ثم في ثالث عشر شهر ربيع الآخر المذكور ابتدأ بالسّلطان ألمٌ تجدَّد عليه من حَبْسَة الإراقة(٥)، مع ما يعتريه من ألم رجله، واشتدَّ به وتَزايَدَ ألمُ رجله.

فلما كان يوم الأربعاء رابع عشرين الشّهْر المذكور نادى السلطانُ بإبطال مَكْس الفاكهة البلدية والمجلوبة، وهو في كل سنةٍ نحو ستة الآف دينار سِوَى ما يأخذه الكتبة والأعوان، فبطل ونُقِشَ ذلك على باب الجامع المؤيدي.

ثم في يوم الخميس ثاني جمادى الأولى ابتدأ بالمقام الصارمي إبراهيم ابن السلطان الملك المؤيد مرضُ موته، ولَزِم الفراش بالقلعة إلى يوم الثلاثاء رابع عشره، فركبَ من القلعة في مَحَفَّةٍ لعجزه عن ركوب الفَرَس ونزَل إلى بيت القاضي زين الدين عبد الباسط بن خليل ناظر الخزانة ببولاق، وأقام به، ثم ركب من الغَدِ في النِّيل وعدَّى إلى الخَرُّوبيّة بِبَرِّ الجيزة، وأقام بها وقد تزايد مرضُه.

(١) زيادة عن السلوك للمقريزي. وفي خطط المقريزي أن المؤيد شيخ جدّد بناء منظرة «فوق الخمس وجوه» أي على انقاض البناء القديم. والزيادة التي أثبتناها ضرورية لأن منظرة الخمس وجوه هي من بناء الفاطميين ــ انظر الحاشية التالية.

(٢ ــ٣) منظرة الخمس وجوه ــ ومنظرة التاج: هما من مناظر القاهرة التي كان يتنزه فيها الخلفاء الفاطميون، وقد أنشأها الأفضل بن أمير الجيوش. وكانت العامة تسميها «التاج والسبع وجوه». أما منظرة التاج فقد خربت وبقي منها في أيام المؤرخ ابن عبد الظاهر أثر كوم تحته حجارة كبيرة، وما حول هذا الكوم صار مزارع من جملة أراضي منية الشيرج. وأما منظرة الخمس وجوه فكانت ما تزال إلى أيام المقريزي «آثار بناء على بئر متسعة». على أنها تلاشت بعد ذلك إلى أن جدّد السلطان المؤيد شيخ عمارة منظرة فوق الخمس وجوه القديمة وفق ما هو مذكور في المتن أعلاه. ــ انظر خطط المقريزي: ١/٤٨١.

(٤) كوم الريش: بلدة فيما بين أرض البعل ومنية السيرج (الشيرج)، كانت على النيل يمر بها من غربيها بعد مروره بغربي أرض البعل. وفي سنة ٨٠٦هـ دثرت عمارته وصارت بلاقع. (خطط علي مبارك: ١٥/١٣).

(٥) المراد احتباس البول.

وأما السلطان فإنه رَكِب من القلعة في يوم ثاني عشر جمادى الأولى المذكور وتوجّه إلى منظرة الخمس وجوه وشاهدَ ما عُمِل هناك، ورتب ما اقتضاهُ نظرُهُ من ترتيب البناء، وعاد إلى بيت صلاح الدين خليل بن الكُوَيْز ناظرِ الدِّيوان المُفْرَد المُطِلّ على بِرْكة الرَّطْلي، فأقام فيه نهاره وعادَ من آخره إلى القلعة.

ثم في يوم السبت خامس عشرينه خَلَعَ السلطانُ على الشيخ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان البساطي المالكي شيخ الخانقاه الناصرية فرج باستقرارِهِ قاضي قُضَاة المالكية بعد وفاة القاضي جمال الدين عبد الله بن مِقْدَاد الأَقْفَهْسي.

ثم في يوم الأربعاء تاسع عشرينه نزَلَ السلطانُ من القلعة وتوجّه إلى الميدان الكبير الناصري بموردة الجِبْس، وكان قد خَرِبَ وأُهْمِل أمرُه منذ أبطل الملكُ الظاهرُ بَرْقُوق الرّكُوبَ إليه ولَعِب الكُرَة فيه، وتشعثت قصورُه وجُدْرَانه، وصار مَنْزِلاً لِرَكْب الحاج من المغاربة. فرسم السلطانُ في أوّل هذا الشهر للصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله بعمارته، فلما انتهى نزلَ السلطانُ إليه في هذا اليوم وشاهَدَ ما عمّر به فأعجبه، ومضى إلى بيت ابن البَارِزِيّ ببُولاق وقد تحوّل المقامُ الصارمي إبراهيم من الخَرُّوبية إلى قاعة الحِجَازية[1]، فزَارَه السلطانُ غيرَ مَرّة بالحِجَازية، وأُنزل بالحريم السلطانيّ إلى بيت ابن البارزِيّ فأقاموا عنده.

فلما كان يوم الجمعة أوّل جمادى الآخرة صَلّى السلطانُ صلاة الجمعة بالجامع الذي جَدَّده ابنُ البارزِي تجاه بيته، وكان هذا الجامع يعرف قديماً بجامع الأسْيُوطي[2]، وخَطَب به وصلى قاضي القضاة جَلَالُ الدين البُلْقِينيّ.

---

(١) في السلوك: «منظرة الحجازية». ولم نجد في خطط المقريزي أو خطط علي مبارك شيئاً عن منظرة الحجازية. ونستبعد أن يكون المراد بذلك «قصر الحجازية» المنسوب إلى خوند تتر الحجازية ابنة الناصر محمد بن قلاوون لأن هذا القصر كان قد تحوّل في هذه الأيام (أيام المؤيد شيخ) إلى سجن لأرباب الجرائم ثم خرب وقلعت شبابيكه، كما ذكر المقريزي في خططه: ١/٤٠٥. ولعل المراد بذلك المدرسة الحجازية التي كانت بجوار قصر الحجازية والتي كانت ما تزال عامرة في تلك الأيام (انظر خطط المقريزي: ٢/٣٨٢).

(٢) جامع الأسيوطي: نسبة إلى منشئه القاضي شمس الدين محمد بن إبراهيم بن عمر الأسيوطي ناظر بيت =

ثم ركب السلطانُ من الغد في يوم السبت ثاني جمادى الآخرة إلى الميدان المقدم ذكرُه وعمل به الخدمةَ السلطانية، ثم توجه إلى القلعة وأقام بها إلى يوم الأربعاء سادسه فركب منها ونَزَل إلى بَيْتِ ابن البارِزي وأقام به أياماً، ثم عاد إلى القلعة.

ثم في يوم الأربعاء ثالث عشره حُمِل المقامُ الصارمي إبراهيم من الحجازية إلى القلعة على الأكتاف لعجزه عن ركوب المحفَّة، فمات ليلة الجمعة خامس عشره فارتجَّت القاهرةُ لموته. فجُهِّزَ من الغدِ وصُلِّي عليه ودُفِن بالجامع المؤيّدي، وشهد السلطانُ الصلاةَ عليه ودفنه، مع عدم نهضتِهِ للقيام من شِدَّة مرضه وللوجد الذي حصل له على ولدِهِ. وأقام السلطانُ بالجامع المؤيَّدي إلى أن صلى به الجمعة. وخطب القاضي ناصر الدين بن البارزي على العادة، وخطب خطبةً بليغةً من إنشائه، وشبك في الخطبة الحديث الذي ذكره النبيُّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند موت ولده إبراهيم «إنَّ العين لتدمَعُ وإن القلب ليخشَعُ وإنَّا لمحزُنون على فراقك يا إبراهيم. . إلخ». فلما ذكر ذلك ابنُ البارِزي على المنبر بَكى السلطانُ وبَكى الناسُ لبكائه فكانت ساعة عظيمة. ثم ركب السلطانُ بعد الصلاة من الجامع المؤيّدي وعاد إلى القلعة، وأقام القرّاء يقرؤون القرآن على قبره سبعَ ليالٍ[1].

= المال المتوفى سنة ٧٤٩هـ. وكان هذا الجامع بطرف جزيرة الفيل مما يلي ناحية بولاق. (خطط المقريزي: ٣١٥/٢).

(١) ذكر ابن حجر في إنباء الغمر: ٣٨٠/٧ أنه في هذه المدّة بلغ القاضي ناصر الدين ابن البارزي أن ابن السلطان يتوعّده بالقتل إذا ظفر به، فحقد عليه ابن البارزي ودسّ على السلطان من أعلمه أن ابنه يتمنى موته لكونه يعشق بعض خطاياه ولا يتمكن منها بسببه إلا خفية، ورتّب له على ذلك إمارات وعلامات إلى أن أبغض السلطان ولده وصمم على قتله بالسمّ أو بغيره إن لم يمت عاجلاً من المرض. ثم أذن لبعض خواصه أن يعطيه ما يكون سبباً لقتله فدسّوا عليه من سقاه من الماء الذي يُطفأ فيه الحديد (الزرنيخ) فلما شربه أحسّ بالمغص في جوفه، فعالجه الأطباء مدة إلى أن كاد يتعافى ـ ثم دسوا إليه من سقاه ثانياً بغير علم أبيه فانتكس واستمر إلى أن مات. ـ وقد شاع بين الناس أن أباه سمّه ـ وذكر ابن حجر أن أكثر ما رمي به ابن السلطان من فسق ومفاسد كان بريئاً منه. قارن أيضاً بنزهة النفوس والأبدان: ٤٧٤/٢.

وفي هذه الأيام توقَّفَ النيلُ عن الزِّيادة، وغلا سعرُ الغلال، ونودي بالقاهرة بالصّيام ثلاثة أيام، ثم بالخروج إلى الصحراء للاستسقاء، فصام أكثرُ الناس وصام السلطانُ، فَنُودِيَ بزيادة إصبع عمَّا نقصه. ثم نُودي في يوم الأحد رابع عشرينه بالخروج من الغد للصحراء خارج القاهرة. فلما كان الغَدُ يوم الاثنين خرج شيخُ الإسلام قاضي القضاة جلالُ الدين البُلقيني وسار حتى جلس في فم الوادي قريباً من قُبَّة النَّصر ــ وقد نصب هناك منبرٌ ــ فقرأ سورة الأنعام، وأقبل الناس أفواجاً من كل جهة حتى كثر الجمعُ ومضى من شروق الشمس نحو الساعتين أقبل السلطانُ بمفرده على فرسٍ وقد تزيّا بزيّ أهل الصوفية، واعتمّ على رأسه بمِئزَرٍ صوفٍ لطيف، ولبس على بدنه ثوب صوفٍ أبيض، وعلى عنقه مئزَر صوف بعذبةٍ مرخاة على بعض ظهره، وليس في سرجه ولا شيء من قماش فرسه ذهبٌ ولا حريرٌ، فأنزل عن الفرس وجلس على الأرض من غير بُساطٍ ولا سجّادة مما يلي يسار المنبر، فصلّى قاضي القضاة ركعتين كهيئة صلاة العيد والناسُ وراءه يصلُّون بصلاته، ثم رقى المنبر فخطب خُطبتين حثّ الناس فيهما على التَّوبة والاستغفار وأعمال البرّ وحذَّرهم ونهاهم، وتحوَّل فوق المنبر واستقبل القبلة ودعا فأطال الدعاء، والسلطان في ذلك كلِّه يبكي وينتحبُ وقد باشر في سجوده التُّراب بجبهته. فلما انقضت الخطبةُ ركب السلطان فرسه مع عدم قُدرته على القيام، وإنما يُحمل على الأكتاف حتى يركب، ثم يُحمل حتى ينزل، وسار إلى جهة القلعة والعامة محيطةٌ به يدعون له، فكان هذا اليوم من الأيام المشهودة. ومن أحسن ما نقل عنه في هذه الرَّكبة أن بعض العامة دعا له حالة الاستسقاء أن الله ينصره، فقال لهم الملك المؤيد: «اسألوا الله فيما نحن بصدده، وإنما أنا واحدٌ منكم» ــ فللّه دَرّه فيما قال.

ثم في غده نُودي على النيل بزيادة اثني عشر إصبعاً بعدما رَدّ النقص، وهو قريب سبعة وعشرين إصبعاً، فتباشر الناسُ باستجابة دعائهم.

ثم قدم الخبرُ على السلطان بنزول قرا يُوسف على بغداد وقد عصاهُ ولدُه شاه محمد بها، فحاصره ثلاثة أيام حتى خرج إليه، فأمسكه أبوه قرا يُوسف واستصفى

أمواله، وولّى عوضه على بغداد ابنه أميرزه أصبهان، ثم عاد قرا يُوسف إلى مدينة تبريز لحركة شاه رُخّ بن تيمُورلنك عليه.

ثم في يوم الاثنين سابع عشر شهر رجب ركب السلطانُ من قلعة الجبل ونزل إلى بيت كاتب السرّ ابن البارِزِيّ على عادته ليقيم به ونزل الأمراءُ بالدُّور من حوله، وصارت الخدمة تُعمل هناك، وكان السلطانُ قد انقطع عن النزول إليه من يوم مات ابنُه.

ثم في يوم الأربعاء تاسع عشره جمع السلطانُ خاصّته ونزل إلى البحر وسبح فيه، وعام من بيت كاتب السرّ إلى منية الشُّيرج ثم عاد في الحرّاقة، وكثر تعجّب الناس من قوّة سبحه مع زمانة رجله وعجزه عن الحركة والقيام. ولمّا أراد أن ينزل للسّباحة أُقعدَ في تختٍ من خشب كهيئة مقعد المحفّة، وأُرخي من أعلى الدار بحبال وبكرٍ إلى الماء، فلمّا عاد في الحرّاقة رُفع في التخت المذكور من الحرّاقة إلى أعلى الدّار حتى جلس على مرتبته. فنُودي من الغد على النِّيل بزيادة ثلاثين إصبعاً، ولم يزد في هذه السنة مثلها، فتيامن الناس بعوم السلطان في النيل، وعدّوا ذلك من جملة سعادته، وقالت العامة: الزيادة ببركته.

ثم في يوم الجمعة حادي عشرين شهر رجب المذكور ركب السلطان من بيت ابن البارِزِيّ في الحرّاقة وتَنَزّه على ظهر النيل، وتوجّه إلى [رباط] الآثار النبوية فزاره، وبرَّ من هناك من الفقراء والخدام وغيرهم، ثم عاد إلى المقياس بجزيرة الرّوضة فصلّى الجمعة بجامع المقياس، ورسم بهدمه وبنائه ثانياً وتوسعته، ففُعل ذلك. ورسم أيضاً بترميم بلاط [رباط] الآثار النبوية، ثم عاد إلى الجزيرة الوُسطى وركب منها إلى الميدان الناصري وبات به، وركب من الغد في يوم السبت إلى القلعة.

ثم في سابع عشرين شهر رجب المذكور من سنة ثلاث وعشرين قَدِمَ الخبرُ على السلطان من الأمير عثمان بن طُرْعَلي المدعو قرايُلُك صاحب آمد أنه كبس على بير عمر حاكم أرْزَنْكان من قبل قرا يوسف وأمسكه وقيّده هو وأربعة وعشرين نفساً من أهله وأولاده، وأنه قتل من أعوانه ستين رجلاً وغنم شيئاً كثيراً، فسُرّ

السلطانُ بذلك، ثم إنه قتل بير عمر المذكور، وأرسل برأسه إلى السلطان، فوصل الرأس إلى القاهرة في يوم الاثنين أول شعبان. وكان السلطانُ قد كتب محاضر بكُفْر قرا يُوسُف وولده حاكم بغداد، فأفتى مشايخ العلم بجواز(١) قتاله. ورسم السلطانُ للأمراء بالتَّجهيز للسفر، وحُملت إليهم النّفقات، فوقع التَّجهيز في أمور السفر.

ونُودي في رابع شعبان المذكور بالقاهرة بين يدي الخليفة والقضاة الأربعة بجميع نُوّابهم وبين يديهم القاضي بدر الدين حسن البُرْديني أحد نوّاب الحكم الشافعية، وهو راكب على بغلته وبيده ورقةٌ يقرأ منها استنفار الناس لقتال قرا يُوسُف وتِعداد قبائحه ومساوئه.

قلت: هو كما قالوه وزيادة، عليه وعلى ذُرّيته اللعنة؛ فإنهم كانوا سبباً لخراب بغداد وأعمالها. وكانت بغدادُ منبع العلم ومأوى الصالحين حتى ملكها هؤلاء التُّركمان رُعاة الأغنام فساؤوا السّيرة، وسلَبُوا الناس أموالهم، وأخربوا البلاد، وأبادوا العباد من الظلم والجور والعسف ــ ألا لعنة الله على الظالمين.

ثم في يوم الاثنين ثامن شعبان ــ ويوافقه خامس عشرين مسرى أحد شهور القبط ــ أوفى النيل، فركب السلطانُ إلى المقياس حتى خلَّقه على العادة، ثم ركب الحرّاقة حتى فتح خليج السّدّ على العادة.

ثم في يوم الجمعة عقد السلطانُ عقد الأمير الكبير أُلْطُنْبُغا القَرْمَشِي على ابنته بصداقٍ جُملته خمسة عشر ألف دينار هرجه(٢) بالجامع المؤيّدي بحضرة القُضاة والأمراء والأعيان. هذا وقد تهيّأ القَرْمَشِيّ للسّفر إلى البلاد الشّامية مقدّم

(١) في بعض الأصول: «بوجوب قتاله» وهي أنسب في المقام بسبب أنهم حكموا عليه بالكفر.
(٢) الدينار الهرجة: أي الدينار المصنوع من الذهب المرجة أي الذهب الخالص. قال المقريزي: «وهذا الصنف هو الذهب الإسلامي الخالص من الغشّ. وهو دينار مستدير الشكل على أحد وجهيه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وعلى الوجه الآخر اسم السلطان وتاريخ ضربه، واسم المدينة التي ضرب بها، وهي إما القاهرة أو دمشق أو الإسكندرية، وكل سبعة مثاقيل (أي دنانير) زنتها عشرة دراهم». (انظر السلوك: ٤/٣٠٤ ــ ٣٠٥).

العساكر، وأصبح من الغد في يوم السبت ثالث عشر شعبان المذكور بَرَّزَ الأميرُ الكبيرُ أَلْطُنْبُغَا القَرْمَشِي طُلبه من القاهرة إلى الرَّيدانيّة خارج القاهرة، ومعه من الأمراء مقدّمي الألوف جماعةٌ: الأميرُ أَلْطُنْبُغَا من عبد الواحد المعروف بالصَّغير رأس نوبة النُّوب، والأمير طُوغان الأمير آخور الكبير، والأميرُ أَلْطُنْبُغَا المرقبيّ حاجب الحجّاب، والأمير جُلُبَّان أمير آخور ــ كان ــ والأمير جرباش الكريميّ قاشق، والأمير آقبلاط السَّيفي دمُرداش، والأمير أزدمُر الناصري، وندبهُم السلطانُ للتوجّه إلى حلب خشيةً من حركة قرا يُوسُف.

وفيه نزل السلطانُ من القلعة إلى بيت ابن البارِزيّ وأقام به إلى يوم الثلاثاء سادس عشر شعبان، فتوجّه إلى الميدان لعرض المماليك الرّمّاحة، فتوجّه إليه وجلس به، ولعبت مماليك السلطان بالرُّمح بين يديه مُخاصمة، ولعَّب حتى المعلمين؛ جعل لكُلِّ مُعلّم خصماً مثله ولعَّبهما بين يديه، فوقع بين الرَّمَّاحة أمُورٌ ومخاصمات، وأبدوا غرائب في فنونهم، كل ذلك لمعرفة الملك بهذا الشَّأن ومحبَّته لأرباب الكمالات من كُلِّ فنّ. فلمَّا انتهى لعبُهم والإنعامُ عليهم ــ كل واحد بحسب ما يليق به ــ وركب آخر النهار من الميدان المذكور على ظهر النيل في الحرّاقة إلى بيت ابن البارِزيّ ببُولاق، وأقام به وعمل الخدمة به إلى أن ركب منه إلى الميدان ثانياً في نهار السبت العشرين من شعبان، ولعبت الرَّمَّاحة بين يديه، وهم غير من تقدم ذكرهم؛ فإنه رسم أنّ في كل يوم من يومي السبت والثلاثاء يلعبُ مُعلِّمان هما وصبيانُهما ــ لا غير ــ مخاصمة.

قلت: وهذه عادة الملوك، لمَّا تُعرض المماليك بين أيديهم، لا يُخاصم في كل يوم غير صبيان مُعلِّمٍ مع صبيان مُعلِّم آخر؛ لكن زاد الملك المؤيّد بأن لعَّب المعلمين أيضاً، فصار المعلِّمُ يقف يميناً وصبيانُه صفٌ واحدٌ تحته، ويقف تجاهه معلِّمٌ آخر وصبيانُه تحته، فيخرج المعلّم للمعلّم ويتخاصمان إلى أن يُنْجِزَا أمرهما، ثم يخرج النائب للنائب الذي يقابله من ذلك المعلّم، ثم يخرُج كلُّ واحد لمن هو مقابله إلى أن يستتمَّ العرض بين الظّهر والعصر أو قبل الظهر أو بعده بحسب قلّة الصِّبيان وكثرتهم.

ولمَّا تمّ العرض في نهار السبت المذكور بالميدان لم يتحركْ السلطانُ من الميدان وبات به. وأصبح يوم الأحد ركب الحرّاقة وتوجّه في النيل إلى رباط الآثار النبويّة وزاره وتصدق به، ثم عاد إلى المقياس بالرّوضة وكشف عمارة جامعه، ثم عاد في الحرّاقة إلى الميدان، فبات به. وعرض في يوم الاثنين أيضاً؛ أراد بذلك إنجاز أمرهم في العرض. ولما انتهى العرض في ذلك اليوم ركب الحرّاقة وتوجّه إلى [رباط] الآثار ثانياً وزاره، ثم عاد إلى جزيرة أروى المعروفة بالجزيرة الوسطانية، ونزل بها في مخيمه، فأقام بها يومه وعاد إلى الميدان وبات به ليلتين. ثم رجع في النيل إلى بيت كاتب السرّ ببُولاق في يوم الخميس، فبات به، وصلّى الجمعة بجامع كاتب السِّرِّ، وخطب وصلّى به قاضي القضاة جلالُ الدين البُلقينيّ. ثم ركب الحرّاقة بعد الصّلاة وتوجّه إلى الميدان وبات به. وركب إلى القلعة بُكرة يوم السبت سابع عشرين شعبان. كل ذلك والسلطان صائمٌ في شهر رجب وشعبان لم يُفطر فيهما إلا نحو عشرة أيام عندما يتناول الأدوية بسبب ألم رجله، هذا مع شدَّة الحرِّ، فإنّ الوقت كان في فصل الصَّيف وزيادة النيل.

ولما استهلَّ شهر رمضان بيوم الثلاثاء انتقض على السلطان ألمُ رجله ولزم الفراش. وصارت الخدمةُ السلطانية تُعملُ بالدُّور السلطانية من قلعة الجبل لقلّة حركة السلطان مما به من الألم، وهو مع ذلك صائم لا يفطر إلا يوم يتناول فيه الدّواء.

ثم في رابع عشر شهر رمضان المذكور خلع السلطان على الصاحب تاج الدين عبد الرَّزّاق بن الهيصم باستقراره ناظر ديوان المُفرد بعد موت صلاح الدين خليل بن الكُويز.

ثم في هذا الشهر أيضاً ابتدأ مرضُ القاضي ناصر الدين بن البارزي كاتب السّر الذي مات به. واستمرّ السلطان ضعيفاً شهر رمضان كله. فلما كان يوم الأربعاء أول شوال صلى السلطان صلاة العيد بالقصر الكبير من قلعة الجبل عجزاً عن المضي إلى الجامع.

ثم في رابعه ركب السلطانُ المحفّة من قلعة الجبل ونزل إلى جهة «منظرة الخمس وجوه» التي استجدها بالقُرب من التّاج وقد كملت، والعامة تسميها «التاج والسبع وجوه» وليس هو كذلك، وإنما هي ذات «خمس وجوه»؛ وأما التاج فإنه خراب، وقد أنشأ به عظيمُ الدّولة الصاحب جمال الدين بن يُوسف ناظر الجيش والخاص عمائر هائلة وسبيلاً ومكتباً وبستاناً وغير ذلك ــ انتهى.

ولمّا توجّه السلطانُ إلى «الخمس وجوه» أقام به نهاره ثم عاد إلى القلعة، وأقام بها إلى يوم الأربعاء خامس عشر شوال فغضب على الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله ناظر الخواص وضربه بين يديه ضرباً مبرّحاً، ثم أمر به فنزل إلى داره على وظائفه من غير عزل. كل ذلك والسلطان مريضٌ ملازمٌ للفراش، غير أنه يتنقَّلُ من مكان إلى مكان محمولاً على الأكتاف.

فلما كان يوم الاثنين عشرين شوال أُشيع بالقاهرة موتُ السلطان، فاضطرب الناسُ. ثم أفاق السلطانُ فسكنوا؛ فطلع أميرُ حاج المحمل الأمير تَمُرْباي المُشِدّ وقبَّل الأرض وخرج بالمحمل إلى بركة الحاج من يومه. وسافر الحاجُ وهو على تَخَوُّفٍ من النّهْب بسبب الاشاعات بموت السلطان.

ثم في يوم الاثنين المذكور طلب السلطانُ الخليفة والقضاة الأربعة والأمراء والأعيان وعهد إلى ولده الأمير أحمد بالسلطنة من بعده، وعُمْرُه سنةٌ واحدة ونحو خمسة أشهر وخمسة عشر يوماً، فإن مولده في جمادى الأولى من السنة الخالية، وجعل الأمير الكبير أَلْطُنْبُغَا القرمشي القائم بتدبير مُلكه إلى أن يبلُـغ الحُلُم، وأن يقوم بتدبير الدّولة مُدَّة غيبة الأتابك أَلْطُنْبُغَا القَرْمَشي إلى أن يحضر الأمراءُ الثلاثة وهم: قجقار القردميّ أمير سلاح، وتنبك العلائي ميق المعزول عن نيابة الشام، والأمير ططر أميـر مجلس. وحلّف السلطانُ الأمراء على العـادة، وأخذ عليهم الأيمان والعهود بالقيام في طاعة ولده وطاعة مدبِّر مملكته، ثم حلّف المماليك من الغد. ثم أفاق السلطان وحضرت الأمراءُ الخدمة على العادة.

وخلـع في يوم السبت خامس عشرينه على القاضي كمال الدين محمد بن البارزي باستقراره كاتب السِّر الشريف بالديار المصرية بعد وفاة والده القاضي

ناصر الدين محمد بن البارزي، ونزل إلى بيته في موكب جليل. وبعد يومين خلع السلطانُ على القاضي بدر الدين محمد بن محمد بن أحمد الدِّمشقي المعروف بابن مُزهر ناظر الإسطبل باستقراره في نيابة كتابة السر عوضاً عن كمال الدين بن البارزي المذكور.

ثم في تاسع عشرين شوّال المذكور نصل السلطانُ من مرضه، ونقص ما كان به من الألم، ودخل الحمَّام، وتخلّق الناسُ بالزَّعفران وتداولت التهاني بالقلعة وغيرها، ونُودي بزينة القاهرة ومصر، وفرّق السلطانُ مالاً كثيراً في الفقراء والفقهاء والناس، وخلع على الأطبَّاء وأصحاب الوظائف.

وكان السلطان لمَّا مات القاضي ناصر الدين بن البارزي طلب الذي خلَّفه من المال فلم يجد ولدُه شيئاً، فظنّ السلطان أنه أخفى ذلك، فحلَّفه ثم خلع عليه، ونزل على أن يقوم للسلطان من ماله بأربعين ألف دينار. فلما كان يوم الخميس سلخ شوال حضر إلى القاضي كمال الدين المذكور شخصٌ من الموقّعين يُعرفُ بشهاب الدين أبي دُرّابة وقال له: «أنا أعرف لوالدك ذخيرةً في المكان الفلاني»، فلما سمع القاضي كمال الدين كلامه أخذه في الحال وطلع به إلى السلطان وعرفه مقالة شهاب الدين المذكور، فأرسل السلطان في الحال الطواشي مرجان الهندي الخازندار وصحبته جماعة، ومعهم شهاب الدين المذكور إلى بيت القاضي كمال الدين المذكور، فدخلوا إلى المكان وفتحُوه فوجدوا فيه سبعين ألف دينار، فأخذوها وطلعوا إلى السلطان. وقد سألت أنا القاضي كمال الدين المذكور عن هذه الذخيرة، وقلت له: «كان لك بها علمٌ؟» فقال: «لا والله، ولا أعرف مكانها؛ فإني لم أحضرها حين جعلها الوالدُ بهذا المكان، ولا عند أخذها أيضاً، ولا عرّفني بها قبل موته. غير أنه أوصى شهاب الدين المذكور وشخصاً آخر سمّاه أنه إذا مات يعرفاني بها. فلما عرّفني شهابُ الدين بها لم أجد بُدّاً من إعلام السلطان بها للأيمان التي كان حلَّفني أنني مهما وجدته من مال الوالد أُعرِّفه به».

قلت: لله درّه من كمال الدين! ما كان أعلى همته وأحشمه وأسمحه!.

ثم في يوم الاثنين رابع ذي القعدة ركب السلطانُ من قلعة الجبل وشقّ

القاهرة من باب زُويلة وخرج من باب القنطرة، وتوجه إلى «الخمس وجوه» وأقام بها إلى يوم الأربعاء سابع ذي القعدة، فركب منها وشقّ القاهرة من باب القنطرة إلى أن خرج من باب زُويلة وطلع إلى القلعة بعدما أنقضى له بـ «الخمس وجوه» أوقات طيبة، وعمل بها الخدمة، وترددت الناسُ إليه بها لقضاء حوائجهم وللفرجة أيضاً.

ولما طلع السلطان إلى القلعة أقام بها يوم الأربعاء والخميس والجمعة، ثم نزل إليها ثانياً في يوم السبت تاسع ذي القعدة بخواصّه وبات بها.

ثم ركب من الغد في يوم الأحد، وتصيّد ببرِّ الجيزة وأقام هناك. وأمر بأخذ خزانة الخاص من عند ناظر الخاص الصَّاحب بدر الدين بن نصر الله، فنزل إليه زينُ الدين عبد الباسط بن خليل الدِّمشقي ناظرُ الخزانة والطواشي مرجان الهندي الخازندار، وأخذا منه خزانة الخاص وهو ملازم للفراش من يوم ضُرب، وسُلِّمت للطواشي مرجان المذكور، فتحدث مرجانُ في وظيفة نظر الخاص عن السلطان من غير أن يُخلع عليه، وأنفق كسوة المماليك السلطانية نحو ثمانية آلاف دينار.

وأقام السلطان بمنظرة «الخمس وجوه» إلى يوم الثلاثاء ثاني عشر ذي القعدة، فعاد إلى القلعة في محفَّة، فأقام بالقلعة إلى يوم الجمعة خامس عشره فركب أيضاً وتوجَّه إلى منظرة «الخمس وجوه» وأقام بها إلى سابع عشره، وعاد إلى القلعة بعد أن ألزم أعيان الدّولة أن يعمِّروا لهم بيُوتاً بالقُرب من «الخمس وجوه» المذكورة لينزلوا فيها إذا توجَّهُوا في ركاب السلطان، فشرع بعضُهُم في رمي الأساس، واختط بعضهم أرضاً. ثم ركب السلطانُ من القلعة بثياب جلوسه وشقَّ القاهرة، وعبر من باب زُويلة، وخرج من باب القنطرة، وتوجَّه إلى منظرة «الخمس وجوه» وأقام بها بخواصِّه إلى يوم الجمعة ثاني عشرين ذي القعدة فركب منها وعدى النيل إلى الجيزة، يُريد سرحة البُحيرة على العادة في كل سنة، وقد تهيأ الناس لذلك وخرجوا على عادتهم.

وقبل أن يعدّي السلطان النيل نزل بدارٍ على شاطىء نيل مصر، ودخل الحمام التي بجوار الجامع الجديد، واغتسل ظُهر الجمعة، ثم خرج إلى الجامع الجديد

وصلى به الجمعة، ثم عدَّى النيل، وهو في كل ذلك يُحمل على الأكتاف، والذي يتولى حمله من خاصِّكيته جماعةٌ منهم: خجا سُودُون السّيفي بلاط الأعرج، وتنبك من سيدي بك الناصري البجمقدار المصارع، ثم جاني بك من سيدي بك المؤيّدي.

وأقام السلطانُ يومه بالجيزة، ثم ركب المحفة وسار بأمرائه وعساكره إلى أن وصل إلى الطَّرانة[1] فاشتدَّ به المرضُ، فتجلَّد اليومَ الأوَّل والثاني، فأفرط به الإسهالُ حتى أُرجف بموته، وكادت تكون فتنة من كثرة كلام الناس واختلاف أقوالهم، إلى أن ركب السلطانُ من الطَّرّانة في النيل عجزاً عن المحفَّة، وعاد إلى جهة القاهرة حتى نزل بَرَّ مُنبابة، فأقام بها حتى نحر قليلاً من ضحاياه. ثم ركب النيل في الحرّاقة وعدّى إلى بولاق في آخر نهار العيد، ونزل في بيت كاتب السرّ ابن البارِزيّ على عادته، وبات به تلك الليلة. وأصبح من الغد ركب في المحفة وطلع إلى قلعة الجبل في يوم الثلاثاء حادي عشر ذي الحجة، وهو شديد المرض من الإسهال والزحير[2] والحصاة والحمّى والصُداع والمفاصل. وهذه آخر ركبةٍ ركبها الملكُ المؤيد، ثم لزم الفراش إلى أن مات حسبما نذكره.

ولما كان ثامن عشر ذي الحجة قدِمَ كتابُ الملك العادل سليمان الأيُّوبي صاحب حصن كيفا من ديار بكر على السلطان يتضمّن موت الأمير قرا يُوسف بن قرا محمد صاحب تبريز والعراق في رابع عشر ذي القعدة مسمُوماً فيما بين السُّلطانيَّة وتبريز، وهو متوجّه لقتال القان مُعين الدين شاه رُخّ بن تيمُورلنك، فلم يتمّ سُرور السلطان بموته لشغله بنفسه.

ثم في ثامن عشرين ذي الحجة وصل مُبشِّرُ الحاج، فطلبه السلطانُ وسأله عن أمور الحجاز. كل ذلك والسلطان صحيح العقل، بل ربما دبَّر أمور مملكته في بعض الأحيان.

---

(١) الطرّانة: بلدة مصرية قديمة، واسمها المصري القديم Per Rannout والقبطي Ternout ومنه اشتق اسمها العربي. وكانت بها وقعة بين عمرو بن العاص والبيزنطيين أيام الفتح العربي لمصر. وتقع اليوم بمركز كوم حمادة قرب الإسكندرية. (القاموس الجغرافي: ٢/٢/٣٣١).

(٢) الزحير والزُّحار: مرضٌ يتميّز بتبرّز متقطّع معظمه دم ومخاط، ويصحبه ألم وتعنٌ. (المعجم الوسيط).

ثم في يوم السبت تاسع عشرينه أُرجف في باكر النهار بموت السلطان، وكان أُغمِي عليه، فلما أفاق قيل له إن بعض الناس يقول: «سيدي أحمد ولد السلطان صغيرٌ صغراً لا تصح سلطنته. وشاوروه في إثبات عهده فرسم لهم بذلك، فأُثبت عهدُه على قاضي القضاة زين الدين عبد الرحمن التَّفهني الحنفي بالسلطنة، ثم نُفِّذَ العهدُ على بقيّة القضاة. فكثُر عند ذلك اضطراب الناس بالقاهرة واختلفت الأقوال في ضعف السلطان وأمره، وتوقَّعُوا فتنة، واشتد خوفُ خواصّ السلطان، ونقلوا ما في دورهم من القماش المثمّن وغير ذلك.

واستهلّ المحرَّم من سنة أربع وعشرين وثمانمائة والسلطانُ ملازمٌ للفراش، وقد أفرط به الإسهال الدَّمَويّ مع تنوّع الأسقام وتزايد الآلام، بحيث إنه لم يبق مرضٌ من الأمراض حتى اعتراه في هذه الضَّعفة، غير أنه صحيح العقل والفهم طلقُ اللسان.

فلما كان يوم الخميس خامس المحرّم سنة أربع وعشرين المذكورة طلع الأمراءُ والأعيان إلى قلعة الجبل وجلسوا على باب السّتارة، فخرج إليهم بعض الخُدَّام واعتذر لهم عن دخولهم بشدة ضعف السلطان، فانصرفوا، وكانوا على هذا مُدّة أيام، يطلعون في كل يوم موكب، ويجلسون بباب الدور، ثم ينزلون من غير أن يجتمعوا بالسلطان.

هذا وقد افترقت الأمراءُ والعساكر فرقاً: فرقة من أعيان المؤيديّة وكبيرهم الأمير ططر وقد خدعهم بتنميق كلامه وكثرة دهائه من أنه يقوم بنُصرة ابن أستاذهم، ويكون مدبّر مُلكه، وهو كواحد منهم والأمر كُله إليهم، وهو معهم كيف ما شاؤوا، ثم خوَّفهم من وثُوب قجقار القردمي وركوبه لما في نفسه من الملك، فمالوا إليه وانخدعوا له، وصاروا من حزبه لا يخفون عنه أمراً من الأمور، هذا مع ما استمال ططرُ أيضاً جماعة كبيرة من خُشداشِيَّته الظاهريّة في الباطن.

وفرقة من أعيان الأمراء والمماليك السلطانية من جنس التَّتر والسَّيفيَّة وكبيرهم قجقار القَردمي، وهو ظنين بنفسه مع ما اشتمل عليه من سلامة الباطن ــ كما هي عادة جنس التّتر ــ والجهل المُفرط، مع انهماكه في اللذات ليلاً ونهاراً.

وفرقة صارت بمعزل عن الفريقين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وهم الظاهرية مماليك برقُوق وكبيرهم الأمير تنبك ميق، على أن ميلهم في الباطن مع خُشداشهم ططر، غير أنهم يخافون عواقب الأمور ـ لعدم أهلية ططر لذلك ـ لكونه خلقُهُ مثلُ الأتابك أُلْطُنْبُغا القرمشي مع من معه من الأمراء وعظمته في النفوس، ومثلُ جقمق الأرغُون شاويّ الدوادار نائب الشام، ومثل يشبُك اليُوسُفي المؤيدي نائب حلب، وأيضاً مثل قُجقار القردمي أمير سلاح. هذا مع كثرة المماليك المؤيدية وشدّة بأسهم، حتى لو أن ططر كُفي همّ الجميع من الأمراء لا يستطيع الوثوب على الأمر من هؤلاء المؤيدية، فلذلك كفَّ عن موافقته كثيرٌ من خُشداشيَّته في مبادىء الأمر، فلم يلتفت ططر إلى كلام متكلم، وأخذ فيما هو فيه من إبرام أمره، ولسان حاله يقول: «إما إكديش أو نُشابة للريش» فإنه كان في بحبوحة من الفقر والإفلاس والخوف من الملك المؤيد، فلما وجد المقال قال، وانتهز الفرصة إمّا بها أو عليها.

ولما عظُم اضطرابُ الناس بالقاهرة أجمع الأمراء على تولية التّاج بن سيفة الشَّوبكي أستادار الصحبة ولاية القاهرة على عادته أولاً، فخُلع عليه بحضرة الأمراء في بعض دور القلعة باستقراره في ولاية القاهرة بعد عزل ابن فرّي، فنزل التاج إلى القاهرة بخلعته، وشق الشوارع وأبرق وأرعد، وأكثر من الوعيد لأرباب الفساد، فلم يلتفت أحد إلى كلامه، ومضى إلى بيته.

هذا وقد اشتدّ الأمر بالسلطان الملك المؤيّد من الآلام والأرجاف تتواتر بموته، والناس في هرج إلى أن تُوُفِّي قُبيل الظّهر من يوم الاثنين تاسع المحرّم من سنة أربع المقدم ذكرها، فارتجّ الناسُ لموته ساعةً ثم سكنوا. وطلع الأمراءُ القلعة وطلبُوا الخليفة المعتضد بالله داود والقضاة والأعيان لإقامة الأمير أحمد بن السلطان في السلطنة، فخُلِع عليه فتسلطن، وتمَّ أمره حسبما سنذكره في محلِّه من هذا الكتاب في حينه إن شاء الله تعالى.

ثم أخذُوا في تجهيز السّلطان الملك المؤيّد وتغسيله وتكفينه.

قال الشيخ تقيّ الدين المقريزي: «وأخذ في جهاز المؤيّد وصُلّي عليه

خارج باب القلعة، وحمل إلى الجامع المؤيّدي فدُفن بالقبة قُبيل العصر، ولم يشهد دفنه كثير أحد من الأمراء والمماليك لتأخُّرهم بالقلعة. واتفق في أمر المؤيّد موعظة فيها أعظم عبرة؛ وهو أنه لما غسّل لم تُوجد له منشفةٌ يُنشَّف فيها، فنشِّف بمنديل بعض من حضر غسله، ولا وُجد له مئزرٌ تُستَرُ به عورته حتى أُخذ له مئزرٌ صوف صعيديٌّ من فوق رأس بعض جواريه فستر به، ولا وُجد له طاسة يُصبُّ بها عليه الماء وهو يُغسَّل مع كثرة ما خلَّفه من الأموال، ومات وقد أناف على الخمسين. وكانت مُدَّة ملكه ثماني سنين وخمسة أشهر وثمانية أيام. وكان شجاعاً مقداماً، يُحب أهل العلم ويجالسهم، ويُجلُّ الشَّرع النبوي ويُذعن له، ولا يُنكر على طلب من إذا تحاكم إليه أن يمضي من بين يديه إلى قُضاة الشَّرع، بل يعجبُه ذلك، وينكر على أمرائه معارضة القضاة في أحكامهم. وكان غير مائلٍ إلى شيء من البدع. وله قيامٌ في الليل إلى التجهد أحياناً. إلا أنه كان بخيلاً مسّيكاً يشحّ حتى بالأكل، لجوجاً غضوباً نكداً حسوداً معياناً[١]، يتظاهر بأنواع المُنكرات، فحّاشاً سبّاباً، شديد المهابة، حافظاً لأصحابه غير مُفرِّطٍ فيهم ولا مُطيعٍ لهم. وهو أكبر أسباب خراب مصر والشّام؛ لكثرة ما كان يُثيرُه من الشُّرُور والفتن أيّام نيابته بطرابلس ودمشق، ثم ما أفسده في أيّام مُلكه من كثرة المظالم ونهب البلاد وتسليط أتباعه على الناس يسومونهم الذِّلَّة، ويأخذون ما قدروا عليه بغير وازع من عقل ولا ناهٍ من دين» ــ انتهى كلام المقريزي برمته بعد تخبيطٍ عظيم.

قلت: وكان يمكنني الرّدّ عليه في جميع ما قاله بحق، غير أنني لست مندوباً إلى ذلك، فلهذا أضربتُ عن تسويد الورق وتضييع الزمان. والذي أعرفه أنا من حاله أنه كان سلطاناً جليلاً مُهاباً شجاعاً مقداماً عاقلاً نقّاداً. حدثني الأمير أرنْبغا اليوسفيّ الناصري ــ رحمه الله ــ قال: «كان المؤيد ينظر إلى الرجل وينقده بعينيه فيعرف من حاله ما يكتفي به عن السؤال عنه، ثم يعطيه من الرِّزق والاقطاعات ما يليق بشأنه كما يصفُ الطبيبُ الحاذقُ إلى المريض من الدواء، فإن كان الرجل أعجبه

(١) رجلٌ عَيونٌ ومعيان: شديد الإصابة بالعين.

رقَّاه في أقل مُدَّة إلى أعلى المراتب، وإن كان غير ذلك شحّ عليه حتى بالاقطاع الذي يعمل عشرة آلاف درهم في السنة» ــ انتهى كلام أرنبُغا.

قلت: هذا هو المطلوب من الملوك وإلّا يضيعُ الصَّالحُ بالطَّالح.

وكان المؤيّد عالي الهمة، كثير الحركات والأسفار، جيّد التدبير، حسن السياسة، يباشر الأحكام بنفسه، مع معرفة تامة وحذق وفطنة وجودة حدس في أموره، عظيم السّطوة على مماليكه وأمرائه، هيِّناً مع جلسائه ونُدمائه، طرُوباً يميل إلى سماع الشعر والأصوات الطيّبة، على أنه كان يُحسن أيضاً أداء الموسيقى ويقوله في مجالس أُنسه. وكان يميل إلى الدّقَّة الأدبيَّة ويفهمها بسرعة: قيل إنه نظر مرّةً إلى اسمه وهو مكتوبٌ على بعض الحيطان، وقد كتب الدَّهانُ الشّين من اسم شيخ بجرَّةٍ واحدة؛ فلما نظر المؤيّد قال: «مسكينٌ شيخٌ بلا سُنينات»، وله أشياء كثيرةٌ من ذلك.

وكان يشارك الفقهاء في أبحاثهم ويتصوَّر أقوالهم ويطرح عليهم المسائل المُشكلة، هذا مع ميله لأرباب الكمالات من كل علم وفنٍّ، وتعجبه المُداعبةُ اللطيفة.

حدثني القاضي كمال الدين بن البارِزيّ كاتب السرّ الشريف بالديار المصرية ــ رحمه الله ــ قال: «كان المؤيّد جالساً بالبارزيَّة[1] على المقعد المُطلّ على النيل، ومحمود بن الأمير قلمطاي الدُّوادار واقفاً بجانبه، ووالدي من جهة أُخرى وهو يقرأُ القصص على السُّلطان، وكان في جملة القصص قصة الشيخ عاشق محمود العجمي أحد نُدماء السلطان، فلما قرأ الوالدُ قصة عاشق محمود قال: «المملوك» وأشار بيده إلى نفسه ثم قال: «عاشق محمود» وأشار بإصبعه إلى محمود بن قلمطاي ــ وكان من أجمل الناس صورة ــ فلم يفطن لذلك أحدٌ غير السلطان، فضحك وقال: «تموت بهذه الحسرة».

وحدَّثني بعض أعيان المؤيدية قال: «كان الأميرُ طُوغان الأميرُ آخُور أرسل

---

(١) هو قصر كاتب السرّ ناصر الدين ابن البارزي الذي أنشأه على شاطىء النيل من البرّ الغربي تجاه داره المطلّة على النيل. (السلوك: ٤/٤٢٦).

إلى جاني بك الساقي أحد خواصّ الملك المؤيد ألف دينار ليزُوره، فعرَّف جاني بك المذكور السلطان بذلك، فاشتدّ غضبُ السلطان وأرسل في الحال خلف طُوغان المذكور. فلما تمثل بين يديه سأله السلطان بذلك، فقال طوغان: نعم أرسلت إليه ألف دينار ووالله العظيم لو لم يكن مملوكك لكنت تُرسلُ أنت إليه عشرة آلاف دينار، فتلومني أن أرسلت إليه ألف دينار؟! ـ يقول ذلك وهو في غاية الحنق ـ فزال غضبُ الملك المؤيّد وضحك حتى استلقى على قفاه».

كل ذلك وهو محتفظ على ناموس الملك والسّير على ترتيب من تقدَّمه من الملوك في سائر أموره وحركاته. وقد تسلطن وأحوالُ المملكة غير مستقيمة مما جدّده الملكُ الناصر فرج من الوظائف والاستكثار من الخاصّكيّة، حتى إن خاصّكيّته زادت عدّتُهُم على ألف نفر، فلا زال المؤيّد بهم حتى جعلهم ثمانين خاصّكيّا كما كانت أيام أُستاذه الملك الظاهر برقُوق، وكانت الدّوادارية نحو ثمانين دواداراً، فلا زال حتى جعلهم ستَّة، وكذلك الخازندارية والبجمقدارية والحجّاب. وكان يتأمر الشخصُ في أيامه ويقيمُ سنين ولم يسمح له بلبس تخفيفة[١] على رأسه، كل ذلك مُراعاة لأفعال السلف. وكان عارفاً بأنواع الملاعيب، رأساً في لعب الرُّمح وسوق البُرجاس[٢]، قوياً في ضرب السيْف والرّمي بالنُّشّاب، ماهراً في فنون كثيرة جدٍّ وهزل، لا يعجبه إلا الكامل في فنه.

دخلت إليه مرّةً وأنا في الخامسة، فعلّمني ـ قبل دخولي إليه ـ بعضُ من كان معي أن أطلب منه خُبزاً. فلما جلستُ عنده وكلّمني سألتُه في ذلك، فغمز من كان واقفاً بين يديه وأنا لا أدري، فأتاهُ برغيفٍ كبير من الخبز السلطاني، فأخذه بيده وناولنيه وقال: «خذ هذا خبزٌ كبيرٌ مليح»، فأخذتـه من يده وألقيتُـه إلى الأرض، وقلت: «أعط هذا للفقراء، أنا ما أريد إلا خبزاً بفلّاحين يأتونني بالغنم

(١) التخفيفة: هي العمامة. فإذا أطلقت فهي العمامة الصغيرة، وإذا قيل تخفيفة كبيرة فإنها تكون بقرون مثل التاج، وتسميها العامة الناعورة.

(٢) البُرجاس: لفظ أصله يوناني، ومعناه هدف ينصب على رمح أو سارية. ولعبة البرجاس هي أن يوضع هدف (كرة من ذهب أو فضّة) على أعلا رمح أوسارية ويرميه اللاعبون وهم على الجياد. (المعجم الوسيط).

والأوز والدّجاج»، فضحك حتى كاد أن يُغشى عليه، وأعجبه مني ذلك إلى الغاية، وأمر لي بثلاثمائة دينار، ووعدني بما طلبته وزيادة ــ انتهى.

وكان يُحسن تربية مماليكه إلى الغاية، ولا يُرقِّيهم إلا بعد مُدَّة طويلةٍ، ولذلك لم يخمُل منهم أحدٌ بعد موته ــ فيما أعلم.

وكان يميل إلى جنس التُّرك ويقدِّمُهم، حتى إن غالب أمرائه كانوا أتراكاً. وكان يُكثِرُ من استخدام السَّيفيّة[1] ويقول: «هؤلاء قاسُوا خُطُوب الدّهر، وتأدبوا، ومارسوا الأمور والوقائع». وكان عارفاً بتعبئة العساكر في القتال، ثباتاً في الحروب، محِجاجاً في الأجوبة. قيل له: إن الناس تقول عنك إنك قتلت من أعيان الملوك نحو ثمانين نفساً، فقال: «ما قتلتُ واحداً منهم إلا وقد استحقَّ القتل قبل ذلك، والسلطان له أن يقتل من اختار قتله»، وشنّع عنه هذه المقالة من لا يعرفُ معناها من الأتراك الذين يقصُرُ فهمُهُم عن إدراك المعاني.

وأما فعله من وجوه البرِّ فكثيرٌ، وله مآثر مشهورة به، وعمائر كثيرة، أعظمها: الجامع المؤيّدي الذي لم يُبن في الإسلام أكثر زخرفة منه بعد الجامع الأموي بدمشق، ثم تجديده لجامع المقياس، ثم لمدرسة الخرُّوبية بالجيزة، وأشياء غير ذلك كثيرة.

وأما ما خلَّفه من الأموال والخيول والجمال والسلاح فكثيرٌ جداً لم أقف على تحرير قدره.

وخلَّف من الأولاد ستةً ــ فيما أعلم ــ ذكرين أحدهما الملكُ المظفرُ أحمد، وأربع بنات، الجميع دون البلوغ ــ انتهى والله سبحانه أعلم.

---

(١) السيفيّة: هم مماليك الأمراء ــ مقدمي الألوف الذين أسقطت عنهم الإمارة بسبب الوفاة أو القتل أو السجن. لذلك فقد ضمّ هؤلاء المماليك إلى الديوان السلطاني وأصبحوا من المماليك السلطانية. (الدولة المملوكية: ٣٣).

السنة الأولى من سلطنة الملك المؤيد شيخ على مصر

وهي سنة خمس عشرة وثمانمائة. على أن السلطان الملك الناصر فرجاً حكَمَ منها إلى يوم السبت خامس عشرين المحرّم، ثم حكم من يومئذٍ الخليفة المستعين العباس إلى أن خُلع من السّلطنة بالملك المؤيّد هذا في يوم الإثنين مُستهلّ شعبان، فحكم المؤيّدُ من مُستهلّ شعبان إلى آخرها، فهي على هذا التقدير أول سنة حكمها من سلطنته.

فيها ـ أعني سنة خمس عشرة وثمانمائة ـ تُوُفِّي قاضي قضاة دمشق شهاب الدين أبو العبّاس أحمد بن إسماعيل بن خليفة الدمشقي الشافعي، المعروف بابن الحسباني، في يوم الأربعاء عاشر شهر ربيع الأوّل بها، عن خمس وسبعين سنة وأشهر. وكان معدوداً من فقهاء الشّافعيّة. أفتى ودرّس سنين، وتولى قضاء دمشق، وقَدِم القاهرة غير مرّة.

وتُوُفِّي قاضي القضاة محبُّ الدين محمد بن محمد بن محمد الحلبي الحنفي، المعروف بابن الشِّحنة، في يوم الجمعة ثاني عشر شهر ربيع الآخر بحلب عن ست وستين سنة. وكان إماماً عالماً بارعاً، أفتى ودرّس بحلب ودمشق والقاهرة، وَوَلِيَ القضاء بحلب ثم بدمشق، ثم ولاّه الملكُ الناصر [فرج] قضاء الديار المصرية لمّا حوصر بدمشق، في يوم الخميس ثالث عشرين المحرّم من هذه السنة، عوضاً عن ناصر الدين بن العديم، بحكم توجّهه إلى شيخ ونورُوز، فلم تُطل مُدّته وعُزل من قِبَلِ المُستعين، وأعِيدَ ابنُ العديم.

وتُوُفِّي الوالدُ ـ وهو على نيابة دمشق بها ـ في يوم الخميس سادس عشر المحرم. ونذكر التعريف به:

فهو تغري بَرْدي بن عبد الله من خواجا بشبُغَا. كان روميّ الجنس. اشتراه الملك الظّاهرُ برقُوق في أوائل سلطنته، وأعتقه، وجعله في يوم عتقه خاصِّكيّاً، ثم

جعله ساقياً، وأنعم عليه بحصَّةٍ من شبين القصر[١]، ثم جعله رأس نوبة الجمداريَّة إلى أن نُكب الملك الظاهر [برقوق] وخُلع وحُبس بسجن الكرك، فحُبس الوالد بدمشق؛ فإنه كان قد توجّه مع من توجّه من عسكر السلطان لقتال الناصريّ[٢] ومنطاش، فقُبض عليه هناك، وسُجن. ودام في سجن دمشق إلى أن أخرجه الأمير بُزلار العمري نائب دمشق، وجعله بخدمته هوودمُرداش المحمدي ودُقماق المحمدي.

واستمر الوالد بدمشق إلى أن خرج الملكُ الظَّاهر برقُوق من سجن الكرك، فبادر الوالدُ بالتَّوجُّه إليه قبل أن يستفحل[٣] أمرُه، وحضر معه الوقعة المشهورة التي كانت بينه وبين منطاش. وحمل الوالدُ في الوقعة المذكورة على شخصٍ من أُمراء منطاش يُسمّى آقْبُغَا اليلبغَاويّ، فقنطره عن فرسه، فسأل برقُوق عنه، فقيل له تَغْرِي بَرْدي، فتفاءل برقُوق باسمه، لأنّ معناه: الله أعطى، وأنعم عليه بإقطاع إمرة طبلخاناه دفعة واحدة، مع أنه كان أنعم عليه قبل خروجه للسفر بإمرة عشرة، غير أنه لم يباشر ذلك.

ثم أرسله الملك الظاهر [برقوق] إلى مصر يُبشِّر من بها بسلطنته ونصرته على منطاش، ودخل الظّاهر في أثره إلى مصر. وبعد قليل أنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف بالدّيار المصرية، ثم جعله رأس نوبة النُّوب، ثم ولّاه نيابة حلب بعد جُلُبَّان قراسُقل. ثم عزله، وأنعم عليه بتقدمة ألف بمصر على خُبز شيخ الصَّفويّ الخاصّكيِّ أمير مجلس. وقبل أن يخلع عليه بإمرة مجلس نقله إلى إمرة سلاح عوضاً عن بكلمُش العلائي بحكم مسكه. واستمر على ذلك إلى أن كانت وقعة الأتابك أيتمُش مع الملك الناصر [فرج] في سنة اثنتين وثمانمائة.

---

(١) شبين القصر: هي شبين القناطر، أحد مراكز محافظة القليوبية الآن. ـ انظر القاموس الجغرافي: ٣٥/٢/١.

(٢) هو سيف الدين يلبغا الناصري الظاهري. ومنطاش هو تمربغا بن عبد الله الأفضلي المعروف بمنطاش. وقد مرّ ذكر قصتها مع الظاهر برقوق في الجزء الحادي عشر من هذا الكتاب فلتنظر هناك (ترجمة الظاهر برقوق).

(٣) كذا في طبعة دار الكتب عن بعض الأصول. وهي أوضح في المقام. وفي طبعة كاليفورنيا: «يستعجل».

وكان الوالد قد انضم على أيتمُش هو وجماعةٌ من الأمراء ـ حسبما ذكرناه في ترجمة الملك الناصر فرج ـ وانهزم الجميع بعد الوقعة، وخرجوا من مصر إلى الأمير تنم نائب الشّام، وعادوا صحبته، فانكسر تنم أيضاً، وقُبض على الجميع، وقُتلُوا بقلعة دمشق إلاّ الوالد لشفاعة أم(١) الملك الناصر فيه وآقبُغا الأطرُوش، وقُتل من عداهما. ودام الوالدُ بسجن قلعة دمشق إلى أن أُطلق، وتوجّه إلى القدس بطَّالاً بسفارة أم الملك النّاصر أيضاً، فدام بالقُدس إلى أن طلبه الملكُ الناصر بغزَّة وخلع عليه بنيابة دمشق، عوضاً عن سُودُون قريب الملك الظَّاهر برقوق، بحكم أسره مع تيمُور. فحكم الوالدُ دمشق مُدَّة، ثم انهزم مع الملك الناصر [فرج] إلى الديار المصرية، واستولى تيمُور على دمشق. وأنعم [الملك الناصر فرج] على الوالد بتقدمة ألف بالقاهرة، فدام مدَّة يسيرة، وخلع عليه أيضاً بإعادته لنيابة دمشق، بعد خروج تيمُور منها، كل ذلك في سنة ثلاث وثمانمائة. فتوجّه [الوالد] إليها، وأقام بها إلى أن بلغه [نيَّةُ الملك (٢) الناصر بـ] القبض عليه، ففرّ منها وتوجَّه إلى دمُرداش نائب حلب، وعصيا معا، ووقع لهما أمور وحروب إلى أن انهزما.

وتوجّه الوالدُ إلى بلاد التُّركُمان، فأقام بها مُدّة إلى أن طُلب إلى الدّيار المصريّة، وأُنعم عليه بتقدمة ألف، وأُجلس رأس الميسرة أتابكاً. واستمرّ على ذلك إلى أن اختفى الملكُ الناصر [فرج] وخُلع بأخيه المنصور(٣) عبد العزيز، فخرج الوالد من الديار المصريّة على البريّة بجماعة من مماليكه إلى أن توجّه إلى القُدس، فدام في بريّة القُدس إلى أن عاد الملك الناصر [فرج] إلى السّلطنة ودخل على الأخت(٤)؛ وكان الناصر عقد عقده عليها قبل خلعه بحضرة الوالد،

---

(١) هي خوند شيرين أخت والد المؤلف وزوجة الظاهر برقوق.

(٢) زيادة للتوضيح.

(٣) حكم المنصور عبد العزيز بن برقوق مدة شهرين وعشرة أيام ابتداء من ٢٦ ربيع الأول سنة ٨٠٨هـ. ثم خلعه أخوه الناصر فرج بن برقوق ونفاه مع أخيه إبراهيم إلى الإسكندرية وسجنهما بها حتى ماتا في السجن في سابع ربيع الآخر سنة ٨٠٩هـ. وأتهم الناصر فرج باغتيالهما بالسمّ.

(٤) هي خوند فاطمة بنت الأمير تغري بردي والد المؤلف.

فلما تسلطن ثانياً دخل بها في غيبة الوالد. ثم أرسل [الناصر فرج] بطلب الوالد فحضر الوالدُ على حالِهِ أولاً إلى أن خلع عليه الملك الناصر باستقراره أتابك العساكر بالديار المصرية عوضاً عن يشبُك الشَّعباني في سنة عشر وثمانمائة، فدام على ذلك إلى أن نُقِل إلى نيابة دمشق في أواخر سنة ثلاث عشرة وثمانمائة، على كُرهٍ منه بعد واقعة الكرك ــ وقد ذكرنا سبب ولايته في ترجمة الملك الناصر، لما كان على حصار الكرك ــ فدام على نيابة دمشق إلى أن مات في ولايته هذه، وهي الثالثة لنيابة دمشق، ودُفن بتربة الأمير تنم(١) معه في فسقية واحدة. ولا أعلم من أخباره شيئاً لصغر سنيٍّ في حياته؛ فإن كان مشكور السِّيرة فالله تعالى ينفعه بفعله، وإن كان غير ذلك فالله تعالى يرحمه بفضله.

وخلّف الوالدُ عشرة أولاد، ستة ذكور وأربع إناث، أسنّ الجميع خَوَنْد فاطمة تُوُفِّيت سنة ستٍّ وأربعين، ثم الزَّيني قاسم في قيد الحياة، ومولده قبل القرن، ثم الشَّرفيّ حمزة تُوُفِّي سنة تسع وأربعين بالطاعون، ثم بيرم ماتت في سنة ستّ وعشرين، ثم هاجز تُوُفِّيت سنة خمس وأربعين، ثم إبراهيم تُوُفِّي سنة ست وعشرين، ثم محمد مات سنة تسع عشرة وثمانمائة، ثم إسماعيل مات سنة ثلاث وثلاثين بالطاعون، ثم شقراء في قيد الحياة، ثم كاتبه عفا الله تعالى عنه، وأنا أصغر الجميع ومولدي بعد سنة إحدى عشرة وثمانمائة تخميناً.

وخلف الوالد من الأموال والسلاح والخُيُول والجِمَال شيئاً كثيراً إلى الغاية، استولى على ذلك كلّه الملك النّاصر فرج لما عاد إلى دمشق منهزماً من الأمير شيخ ونَورُوز، ثم قُتل الملك النّاصر بعد أيّام، وتركنا فقراء من فقراء المسلمين، فلم يُضيّعنا الله سبحانه وتعالى، وأنشأنا على أجمل وجه من غير مال ولا عقار(٢)، ولله الحمد.

---

(١) هو الأمير سيف الدين تنبك الحسني الظاهري المعروف بتنم الحسني. مات خنقاً سنة ٨٠٢هـ. وتربته بالقبيبات بظاهر دمشق.

(٢) لا عبرة في ما يذكره المؤرخ أبو المحاسن عن نفسه هنا من أنه عاش فقيراً بعد وفاة أبيه لأن السلطان الناصر فرج استولى على جميع ما خلفه أبوه من مال ومتاع، إذ يبدو أن هذه العبارة إنما ذكرها أبو المحاسن ليدفع عن نفسه حسد الحاسدين وليظهر أمام الناس في صورة الزاهد الفقير إلى الله الذي =

وتُوُفِّي الأميرُ سيف الدين بَكْتَمُر بن عبد الله الظّاهريّ المعروف بجلّق بالقاهرة في ثامن جمادى الآخرة من مرض تمادى به نحو الشهرين. وأصل ضعفه أن عقرباً لسعته بطريق دمشق في عوده إلى القاهرة صحبة الخليفة المستعين بالله. وبموته خلا الجو للملك المؤيد [شيخ] حتى تسلطن، فإنه كان أمرَّ عليه من نوروز الحافظيّ. وكان بَكْتَمُر أميراً جليلاً شجاعاً مُهاباً كريماً مُتجمِّلاً في مماليكه ومركبه ومأكله، وقد ولي نيابة صفد ثم نيابة طرابلس ثم نيابة دمشق غير مرّة، ووقع له حروب مع الملك المؤيّد شيخ أيّام إمرته حسبما ذكرنا ذلك كله مفصلاً في ترجمة الملك الناصر فرج ـ رحمه الله.

وقتل في هذه السنة جماعة كبيرة في واقعة الملك الناصر مع الأمراء في اللَّجُّون[١] وغيره. وممنّ قُتل في هذه الوقعة الأمير سيف الدين مُقبل بن عبد الله الرُّومي الظاهريّ أحد مقدمي الألوف بالدِّيار المصرية ـ وهو الذي كان زوّجه السلطان الملك الناصر بأخته خوند سارة زوجة[٢] الأمير نورُوز الحافظيّ ـ والأمير سيف الدين ألْطُنْبُغا بن عبد الله المعروف بسقل، والأمير سيف الدين بلاط بن عبد الله الناصري الأعرج شاد الشراب خاناه ـ وكان ممن قبض عليه في وقعة اللَّجُّون ـ ووسّطه الأمير شيخ المحمودي بعد أيام؛ وكان بلاط المذكور من مساوىء الدَّهر، فاسقاً مُتهتّكاً زنديقاً يُرمى بعظائم في دينه. قيل إنّه كان يقول للملك الناصر فرج: «أنت أُستاذي وأبي وربيّ ونبيّ، أنا لا أعرف أحداً غيرك»، وكان يسخر ممن يُصلّي، ويضحك عليه، وعُدَّ قتلهُ من حسنات الملك المؤيّد [شيخ] ـ انتهى.

= لا يبغي شيئاً إلا حسن ثواب الآخرة، خاصة في عصر اعتبر فيه الفقر شعار الصالحين. وإن في سيرة أبي المحاسن ما يشير صراحة إلى أنه شبَّ وعاش في سعة من العيش يحسده عليها كثير من علماء عصره، وخاصة أنه يوجد ما يثبت أنه استردّ خبز أبيه (إقطاعه) وأنه كان يحصل من الدولة على رواتب عينية ومالية ضخمة ـ انظر: المؤرخ ابن تغري بردي (مجموعة أبحاث): ص ٩٥ ـ ٩٦، ١٨٩ ـ ٢٠١. وانظر كتاب «أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي: مؤرخ مصر في العصر المملوكي» للمحقق، الفصل الثاني.

(١) انظر هذه الواقعة وما جرى فيها ص ٩٧ ـ ٩٩ من هذا الجزء.

(٢) انظر قصة طلاق خوند سارة من الأمير نوروز على كره منها وزواجها بالأمير مقبل الرومي في الجزء ١٣ من هذا الكتاب، ص ١٣٢.

و[قتل] الأمير بلاط الظاهريّ أمير علم[١]؛ وكان أيضاً ممن يُباشر قتل خُشداشيَّته المماليك الظاهريّة، فوسّطه أيضاً المؤيد، كل ذلك قبل سلطنته والملك الناصر محصورٌ بدمشق.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين سُودون بن عبد الله الظاهريّ المعروف بسُودون الجلب، بعد أن ولي نيابة طرابلس ولم يدخلها، ثم ولي نيابة حلب، فتوجّه إليها وهو مريض من جُرح أصابه في حصار الملك الناصر فرج، فمات منه في شهر ربيع الآخر. وكان من الشُّجعان، يُحكى عنه أعاجيب من خفّته وشجاعته وسرعة حركته، وقد تقدّم ذكره في عدة مواطن، وهو أستاذ الأمير الكبير يشبُك السُّودوني المُشدّ أتابك العساكر بديار مصر في دولة الملك الظاهر جقمق.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين يشبُك بن عبد الله العثماني الظاهري، أحد مقدّمي الألوف بالديار المصرية في يوم الجمعة أول صفر، من جُرح أصابه في رأسه عند حصار دمشق. وكان من أعيان المماليك الظاهرية، وممّن انضمّ مع الملك المؤيد شيخ أيَّام تلك الفتن.

وتُوُفِّي السلطان ملك الهند صاحب بنجالة[٢]، غياث الدين أبو المظفر ابن السلطان إسكندر شاه. وكان من أجلِّ ملوك الهند، وممالكه متسعة جداً.

وتُوُفِّي الأمير سيفُ الدين قُطْلوبُغَا بن عبد الله الخليلي، نائب إسكندرية بها في هذه السنة.

وتُوُفِّي الشيخُ جمالُ الدين عبد الله بن محمد بن طيمان، المعروف بالطِّيماني الشافعي. قُتل بدمشق في الفتنة ليلة الجمعة ثامن صفر، وكان من الفضلاء. انتقل من القاهرة إلى دمشق وسكنها.

---

(١) أمير علم: هو المتولي لأعلام السلطان والطبلخاناه وما يجري مجرى ذلك. (صبح الأعشى: ٥/٤٥٦).

(٢) هي بنغالة أو البنغال (البنكال): أكبر ولايات الهند وأكثرها سكاناً. وهي تشمل المجرى الأدنى لكل من نهر الجانج (الغانج) ونهر براهمابترا. وقد قسمت البنغال سنة ١٩٤٧م إلى قسمين بين الهند وباكستان: مقاطعة البنغال الشرقية اتحدت مع باكستان الشرقية وعاصمتها دكّا، ومقاطعة البنغال الغربية التي ضمت إلى الهند وعاصمتها كلكتا. ــ انظر دائرة المعارف الإسلامية: ٨/١٨٢ ــ ١٨٤، والموسوعة العربية الميسرة: ٤١٢.

وتُوُفِّي الشيخُ شهابُ الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن عماد بن علي بن الهائم المصريّ الشافعيّ بالقُدس. وكان فقيهاً بارعاً في الحساب والفرائض، وله مشاركة في فنون.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ثلاثة أذرع سواء. مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعاً وثمانية عشر إصبعاً.

السنة الثانية من سلطنة الملك المؤيد شيخ على مصر

وهي سنة ست عشرة وثمانمائة.

فيها تُوُفِّي الشيخُ الإمام فخر الدين عثمان بن إبراهيم بن أحمد البرماوي الشافعيّ، شيخ القراء بمدرسة الملك الظاهر برقوق، في يوم الاثنين تاسع عشر شعبان فجأة بعد خروجه من الحمّام. وكان بارعاً في الفقه والحديث والقراءات والعربية وغير ذلك، وتصدَّى للإقراء سنين.

وتُوُفِّي قاضي القضاة صدر الدين علي بن أمين الدين محمد بن محمد الدمشقي الحنفي المعروف بابن الأدميّ، قاضي قضاة دمشق، وكاتب سرِّها، ثم قاضي القضاة بالديار المصرية، في يوم السبت ثامن شهر رمضان بالقاهرة وهو قاض. ومولدُه بدمشق في سنة سبع وستين وسبعمائة. وكان إماماً بارعاً أديباً فصيحاً ذكياً. وَلِيَ نظر جيش دمشق، ثم كتابة سرِّها، ثم قضاءها، ثم نقله الملكُ المؤيد إلى الديار المصرية، وولّاه قضاءها بعد عزل قاضي القضاة ناصر الدين بن العديم، ثم جمع له بين القضاء وحسبة القاهرة، إلى أن مات. ولما ولي كتابة السرّ بدمشق بعد عزل الشريف علاء الدين قال فيه العلامة شهاب الدين أحمد بن حجي: [الطويل]

تَهنَّ بِصَدْرِ الدِّين يا مَنْصِباً سَمَا ... وَقُلْ لِعَلَاءِ الدِّين أن يتأدبا
لَهُ شَرَفٌ عَالٍ وَبَيْتٌ وَمَنْصِبٌ ... ولَكِنْ رَأَيْنَا السِّرَّ لِلصَّدْرِ أنْسَبَا

وفيه يقول الشيخ شمس الدين محمد بن إبراهيم المُزيِّن الدمشقي: [الطويل]

وِلايَةُ صَدْرِ الدِّينِ لِلسرِّ كاتِباً لها في النُّفوسِ المُطْمَئنَّةِ مَوْقِعُ
فإنْ يَضَعوا الأشْيَا إذاً في مَحَلِّها فَلمْ يَكُ غَيْرَ السِّر لِلصَّدْرِ مَوْضِعُ

قلت: وهجاه أيضاً بعضهم فقال: [الرجز]

كِتابَةُ السِّرِّ غَدَتْ وجُودُهَا كالْعَدَمِ
وأصْبَحَتْ بَيْنَ الوَرى مَصْفُوعَةً بالأَدَمِ

ومن شعر قاضي القضاة صدر الدين المذكور: أنشدني الشيخ شمس الدين محمد النَّفيسي قال: أنشدني قاضي القضاة صدر الدين بن الأدمي من لفظه لنفسه، وهو مما يُقرأ على قافيتين: [السريع]

يا مُتْهمِي بالسُّقْمِ كُنْ مُسْعِفِي وَلا تُطِلْ رَفْضِي فإنِّي عَلي لْ
أنْتَ خَلِيلي فَبِحَقِّ الهَوَى كُنْ لِشُجُوني رَاحِماً يا خَلي لْ

وله: [السريع]

قَدْ نَمَّقَ الْعَاذِلُ يا مُنْيَتي كَلامَهُ بالزُّورِ عِنْدَ الْمَلاَم
وَمَا دَرَى جَهْلاً بأنِّي فَتىً لَمْ يَرْعَ سَمْعي عَاذلاً فيكَ لام

وله القصيدة الطّنانة التي أولها: [الطويل]

عَدِمْتُ غَدَاةَ الْبَيْنِ قَلْبي وَناظِري فَيَا مُقْلَتِي حَاكِي السَّحَابَ وَناظِرِي

ــ انتهى.

وتُوفِّي الشيخُ الإمام العالم شهاب الدين أحمد بن علاء الدين حِجِّي بن موسى السَّعدي، الحِسْبَاني(١) الأصل، الدِّمشقي الشافعي بدمشق. وكان فقيهاً بارعاً. أفتى ودرس سنين، وخطب بجامع دمشق، وقدم القاهرة في دولة الملك

(١) نسبة إلى الصحابيّ عطية بن عروة السعدي الحسابي. (الضوء اللامع).

الناصر [فرج] في الرَّسلية عن الأمير شيخ، أعني الملك المؤيد. وكان معدوداً من فقهاء دمشق وأعيانها.

وتُوُفِّي قاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن ناصر بن خليفة الباعوني، الشافعي الدمشقي، بدمشق في رابع المحرم. ومولده بقرية باعُونة من قُرى عَجْلُون في سنة إحدى وخمسين وسبعمائة تخميناً. ونشأ بدمشق وطلب العلم، وتولى قضاء دمشق وخطابة بيت المقدس، ودرَّس وأفتى، وقال الشِّعر. ولما ولي قضاء دمشق هجاهُ بعضهم بقوله: [مجزوء الوافر]

قَضَاءُ الشّامِ أنْشَدَنا بِدِيني(١) لا تَبِيعُوني
صُفِعْتُ بِكُلِّ مَصْفَعَةٍ وَبعْد الْكُلّ بَاعُوني

وهجاه آخر عند توليته خطابة القدس بكلام مُزعج، الإضرابُ عنه أليق.

وتُوُفِّي قاضي القضاة شهاب الدين أحمد الحِمصِي الشَّافعي، المعروف بابن الشُّنْبُلِيّ(٢)، في هذه السنة. وكان فقيهاً بارعاً عالماً. إلاّ أنه لما ولي قضاء دمشق لم تُحمد سيرته.

وتُوُفِّي قاضي القضاة شمس الدين محمد بن محمد بن عثمان الدِّمَشْقي، الشافعي المعروف بابن الإخنائي(٣)، بدمشق في نصف شهر رجب عن نحو ستين

---

(١) رواية طبعة كاليفورنيا:

قضاء الشام شكى وأنشد بدوني لا تبيعوني

ورواية الأصل الذي أخذت عنه طبعة الهيئة المصرية:

قضاء الشام قد أبكى وأنشد بدوني لا تبيعوني

وما أثبتناه بتصرّف يستقيم معه الوزن والمعنى.

(٢) في إنباء الغمر، وعنه في الضوء اللامع، أن هذه النسبة إلى الشُّنْبُل وهو لقب جدّه. والشنبل هو مكيال القمح بحمص (الضوء اللامع). وفي معجم متن اللغة أنه مكيال يكال به الطعام لأهل حلب وما إليها، وهو في حمص ٢٢٠ كيلاً، ونصف ذلك في حلب ونواحي الحماد.

(٣) نسبة إلى إخنا، بلدة قرب الإسكندرية. وترجم له السخاوي في الضوء اللامع والذيل على رفع الإصر.

سنة، بعد أن أفتى ودرّس، وولي قضاء غزَّة وحلب ودمشق وديار مصر عدّة سنين. وكان معدوداً من رؤساء دمشق وأعيانها، وله مكارم وأفضال ـ رحمه الله.

وتُوُفِّي الأمير الوزير سيف الدين مُبارك شاه بن عبد الله المُظفَّريّ الظّاهريّ، في شهر رمضان. كان يخدم الملك الظاهر [برقُوق] أيام جنديته تبعاً، فلما تسلطن رقّاه وأمَّره، ثم جعله من جُملة الحجّاب، ثم ولي الوزارة، ثم الأستادارية، وأقام بعد عزله سنين إلى أن مات.

وتُوُفِّي قاضي المدينة النبويّة زين الدين أبو بكر بن حسين بن عمر بن عبد الرحمن العثماني المراغي الشافعي المعروف بابن الحسين في سادس عشر ذي الحجة. وكان من الفُقهاء الفضلاء.

وتُوُفِّي الشيخُ الإمام المُفَنِّن العلّامة، بُرهان الدين إبراهيم بن محمد بن بَهادرُ بن أحمد القُرشيّ الغَزّي(١) النَّوفَلِيّ الشّافعي، المعروف بابن زُقّاعة، في ثاني عشر ذي الحجّة بالقاهرة، عن اثنتين وتسعين سنة. وزُقَّاعه: بضم الزاي المعجمة وفتح القاف وتشديدها وبعد الألف عين مهملة مفتوحة وهاء ساكنة. وكان إماماً عارفاً بفنون كثيرة، لا سيمّا علم النجوم، والأعشاب، وله نظم كثير. وكانت له وَجَاهة عند الملوك، بحيث إنه كان يجلس فوق القضاة. ومن شعره: أنشدنا قاضي القضاة جمالُ الدين محمد أبو السعادات بن ظهيرة قاضي مكَّة من لفظه قال: أنشدني الإمام العلامة بُرْهَان الدين إبراهيم بن زُقَّاعة من لفظه لنفسه: [الوافر]

رَأى عَـقْـلي وَلُبِّي فيـه حـارا فَـأضـرَمَ في صميمِ القلبِ نَـارَا
وَخَـلَّانـي أبيتُ الـلَّيـلَ مُـلقـى على الأعتـابِ أحسبُـهُ نـهـارَا
إذا لاَمَ الْـعَـوَاذِلُ فيـه جـهـلًا أصفـهُ لهُـم فـينقـلبُـوا حيـارى
وإن ذكـروُا السُّلوَّ يقُـولُ قلبي تصـامْمْ عن أبَـاطِيـلِ النَّصارى
ومـا عَلِمَ العَـوَاذِلُ أنَّ صبـري وسُـلواني قـد ارتحـلا وسَـارَا

(١) في الأصل: «المغربي». وما أثبتناه عن حسن المحاضرة للسيوطي والضوء اللامع للسخاوي.

فَـيَـا للهِ مِـن وَجـدٍ تـولّـى على قلبي فـأعْـدَمَـهُ الـقـرارَا
ومن حُبٍّ تقـادم فيـه عـهـدي فـأورثـنـي عـنـاءً وانـكـسـارَا
قضيتُ هَـوَاكُمُـو عشرين عـامـاً وعشـريـنـاً تُـرادفـهـا استـتـارَا
فنمّ الـدَّمـعُ من عيني فـأبـدى سـرائـر سـرٍّ ما أُخفي جهـارَا
إذا مـا نسمةُ البـانـات مـرَّت على نجـدٍ وصـافحت الـعـرارَا
وصـافحتِ الخُزامَ وعُنـظُوانـاً[(١)] وشيـحـاً ثُـمَّ قـبَّلتِ الـجـدارَا
جـدار ديـارِ من أهْـوَى قَـدِيمـاً رَعَى الـرَّحمنُ هـاتيـك الـدِّيـارَا
ألَا يـا لائـمي دعـني فـإنّـي رأيتُ المـوتَ حجّـاً واعتـمـارَا
فَـأهـلُ الحُبِّ قـد سكـرُوا ولكن صحـا[(٢)] كُـلٌّ وفـرقَتُنَـا سُكـارَى

ومن شعره أيضاً في فنّ التصوّف: [الوافر]

سألتُكَ بـالحَواميمِ[(٣)] العـظِيمه وبـالسَّبـع المطوَّلـة[(٤)] القديمـهْ
وَبـالـلامين والفـرض المُبدَّا بـه قبـل الحُرُوف المُستقيمـه
وبـالقـطب الكبيـر وصـاحبيـه وبـالأرض المُقدّسـة الكـريمـه
وبـالغُصن الذي عكفت عليـه طُيُـور قُلوب أصحاب العـزيمه
وبـالمسطور في رقّ المعـاني وبالمنشور[(٥)] في يـوم الوليمـه
وبـالكهف الذي قـد حل فيـه أبُـو فتيـانِهَـا وَرأى رقيـمـهْ
وبـالمعمور من زمن النصـارى بـأحجـار بحُجْـرتهـا مُقِيمـهْ

(١) في الأصل: «وعنفواناً». وما أثبتناه عن هامش طبعة كاليفورنيا. والعنظوان: نبت حمضي إذا أكثر منه الحيوان وجع بطنه.

(٢) في الأصل: «صحت». وما أثبتناه رواية الضوء اللامع.

(٣) الحواميم هي سبع سور في القرآن تبدأ كل واحدة منها بـ«حم»، وهي: غافر والشورى والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف. «وفصّلت ــ وفي الأصل: «الخواتيم» ولا نرى لها وجهاً هنا.

(٤) السبع المطوّلة هي السور السبع الطوال، وهي: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأعراف والأنفال والتوبة. ويقال: السبع المثاني. وسميت مثاني لأنها تثنى وتكرر فيها المواعظ والقصص والأمثال والأحكام والوعد والوعيد. وقيل في السبع المثاني أنها فاتحة الكتاب وآياتها سبع، وسميت المثاني لأنها تثنى في كل صلاة بقراءتها. والمنحى الأول في التفسير هو المراد في الشعر كما هو ظاهر.

(٥) في الأصل: «المنثور» وهي غير مناسبة في المقام.

ففجِّـر في فُؤادي عين حُـبٍّ تُـروِّي من مشاربهـا صميمهْ

قلتُ: وبعض تلامذته من الصُّوفية يزعمون أن هذه الأبيات فيها الاسم الأعظم. أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمسة أذرع سواء. مبلـغ الزيادة تسعة عشر ذراعاً وعشرون إصبعاً.

السنة الثالثة من سلطنة الملك المؤيد شيـخ على مصر

وهي سنة سبـع عشرة وثمانمائة.

في محرمها تجرد الملك المؤيد [شيـخ] إلى البلاد الشامية، لقتال الأمير نَوْرُوز الحافظي ومن معه من الأمراء وظفر به، وقتله حسبما نذكره.

وفيها قُتل الأمير سيف الدين نورُوز بنُ عبد الله الحافظي بدمشق، في ليلة ثامن عشرين شهر ربيـع الآخر، وحُملت رأسُه إلى الديار المصريـة، وطيف بها، ثم عُلِّقت على باب زُويلة. وكان أصل نَورُوز المذكور من مماليك الملك الظاهر برقوق، ومن أعيان خاصّكيتـه، ثم رقّاه إلى أن جعله أميـر مائـة ومقدّم ألف بالقاهرة، ثم ولّاه رأس نوبة النُّوب بعد الوالد لما ولي نيابة حلب، ثم جعله أمير آخور كبيراً بعد الأمير تنبك اليحياوي في سنة ثمانمائة، ثم أمسكه بعد فتنة علي باي لأمر حكيناه في وقته في ترجمة الملك الظاهر برقُوق، وحبسه بالإسكندرية، إلى أن أطلقه الملك الناصـر [فرج] وولاه رأس نـوبة الأمـراء. وصار نَـوْرُوز هو المشارُ إليه في المملكة، وذلك بعد خروج أيتمُش والأمراء من مصر. ثم وقـع له أمور إلى أن ولي نيابة الشام، ومن حينئذ ظهر أمرُ نَوْرُوز وانضمّ عليه شيـخ، فصار تارةً يقاتل شيخاً، وتارةً يصطلحان ــ وقد تقدّم ذكر ذلك كله في ترجمة الملك الناصر [فرج] ــ إلى أن واقعا الملك الناصر بمن معهما في أوائل المحرَّم سنة خمس[١] عشرة، وانكسر الناصر، وحُوصِر بدمشق إلى أن أُخِذَ وقُتِلَ. وتقاسم

(١) في الأصل: «أربع عشرة» والتصحيح عما سبق في ترجمة الناصر فرج.

شيخ ونَوْرُوز الممالك، والخليفةُ المُستعين هُو السّلطان. فأخذ شيخ الديار المصرية وصار أتابكاً بها، وأخذ نَوْرُوز البلاد الشاميّة، وصار نائب الشام. فلما تسلطن الملكُ المؤيد [شيخ] خرج نَوْروز عن طاعته، ووقعت أمور حُكيت في أول ترجمة الملك المؤيد، إلى أن خرج الملكُ المُؤيد لقتاله، فظفر به وقتله.

وكان نَوْرُوز ملكاً جليلاً، كريماً شُجاعاً، مقداماً عارفاً عاقلاً مُدبِّراً، وجيهاً في الدُّول، وهو أحدُ أعيان مماليك الظَّاهر برقُوق، معدوداً من الملوك. طالت أيَّامه في الرياسة، وعظمت شهرته، وبعُد صيتُه في الأقطار. وكان متجمّلاً في مماليكه وحشمه. بلغت عدّةُ مماليكه زيادة على ألف مملوك، وكانت جامكيّة مماليكه بالشَّام من مائة دينار إلى عشرة دنانير. ومات عن مماليك كثيرة، وترقّوا بعده إلى المراتب السَّنيَّة، حتى إنّ كلَّ من ذكرناه من بعده ونسبناه بالنَّورُزيّ فهو مملُوكه وعتيقه، وفي هذا كفاية. وقُتل معه جماعةٌ من أعيان الأمراء حسبما نذكرهم أوّلاً بأول.

وفيها قُتل من أصحاب نَوْرُوز الأمير سيف الدين يشبُك بن أزدمُر الظاهري، رأس نوبة النُّوب، ثم نائب حلب، وكان ممَّن انضم مع نَوْرُوز بعد وفاة الوالد، فإنَّ الوالد كان أخذه عنده بدمشق لمَّا ولي نيابتها، وجعله الملكُ النَّاصرُ أتابكاً بها، وعقد الوالدُ عقده على ابنته، وسنُّها نحو أربع سنين لئلا يصل إليه من الملك الناصر سوء. ودام [يشبُك] مع نَوْرُوز إلى أن قُبض عليه وقُتل بدمشق حسبما تقدّم ذكرُه. وكان رأساً في الشجاعة والإقدام، شديد القوّة في الرمي بالنُّشَّاب، إليه المنتهى فيه.

وفيها قُتِل الأمير سيفُ الدين طُوخ بن عبد الله الظّاهري المعروف بطوخ بَطِّيخ نائب حماة، وهو أحد أصحاب نَوْرُوز. ذُبحَ بدمشق مع نَوْرُوز وغيره.

وفيها قُتل الأميرُ سيف الدين قمش بن عبد الله الظّاهريّ نائب طرابلس، وهو أيضاً من أصحاب نَوْرُوز. والجميع قُتلوا في ليلة ثاني عشرين شهر ربيع الآخر، حسبما تقدم ذكره.

وفيها تُوُفِّي الأميرُ الكبير سيف الدين يلبُغا النَّاصري الظاهري أتابك العساكر بالدِّيار المصريّة، في ليلة الجمعة ثاني شهر رمضان بالقاهرة، بعد عوده من الشام صحبة السلطان. وهو أيضاً من أصحاب نَوْرُوز، ومن أعيان خاصِّكيّة الملك الظاهر برقُوق، وأحد مماليكه، وترقَّى في الدولة الناصرية إلى أن صار أمير مائة ومقدّم ألف بالديار المصريّة، وقد مرَّ من ذكره نبذة كبيرة في دولة الناصر، ثم المؤيّد وهو ثالث من ولي الأتابكيّة بديار مصر، و[ثالث من] نُعتَ بيلبُغا الناصري في الدّولة التركيّة؛ فالأوّل منهم يلبُغَا العمري الناصري صاحب الكبش[1]، وأستاذ برقُوق. والثاني الأتابك يلبُغَا النّاصري اليلبُغاويّ صاحب الوقعة مع الملك الظاهر برقُوق، ونسبته بالناصري إلى تاجره خواجا ناصر الدين، وهو مملوك يلبُغَا السابق ذكره ـــ انتهى. والثالث يلبُغَا الناصري هذا، وهو من مماليك برقُوق، ونسبتُه بالناصري إلى تاجره خواجا ناصر الدين. وقد ذكرنا هؤلاء الثلاثة في تاريخنا المنهل الصافي، في محل واحد في حرف الياء؛ كون الاسم والشهرة واحدة.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين شاهين بن عبد الله الظاهري الأفرم أمير سلاح، برملة لُدّ، وهو عائد إلى مصر صُحبة السلطان إلى حلب من جرح أصابه. وكان أميراً شهماً شجاعاً، رأساً في ركوب الخيل وفنّ الفُرُوسيّة. وقد تقدّم أن الفُرُوسيّة نوع آخر غير الشجاعة والإقدام؛ فالشّجاع هو الذي يلقي غريمه بقوة جنان، وفارس الخيل هو الرجل الذي يُحسن تسريح الفرس في كرِّه وفرِّه، ويدري ما يلزمه من أمور فرسه وسلاحه، وتدبير ذلك كُلِّه، بحيث إنه يسير في ذلك على القوانين المقررة المعروفة بين أرباب هذا الشأن.

قلت: نادرة أخرى؛ وشاهين هذا هو أيضاً ثالث أفرم من أعيان الملوك في دولة التركيّة.

فالأول منهم: الأفرمُ الكبير، صاحب الرّباط[2] في بركة الحبش والأملاك

(١) سمي بصاحب الكبش لأنه كان من كبار الأمراء الذين سكنوا بالكبش، وكان له به دار عظيمة.

(٢) هو رباط الأفرم بسفح الجرف الذي عليه الرصد، وهو يشرف على بركة الحبش. وكان هذا الرباط من أحسن منتزهات أهل مصر. (خطط المقريزي: ٢/٤٣٠).

الكثيرة، وهو الأمير عز الدين أيبك أمير جاندار الظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون. والثاني آقُوش الدَّواداريّ المنصوري الأمير جمال الدين نائب الشام. والثالث شاهين هذا. فهؤلاء من الملوك[١]، وأما غير الملوك فكثير لا يعتدّ بذكرهم.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين جاني بك بن عبد الله المؤيدي الدَّوادار بمدينة حمص، وهو متوجّه صُحبة السلطان إلى حلب من جُرح أصابه في محاربة نَوْرُوز. وكان من أعيان مماليك المؤيد أيّام إمرته، فلما تسلطن رقّاه وأنعم عليه بإمرة طبلخاناه، وجعله دواداراً ثانياً، ثم ولّاه الدَّواداريّة الكبرى بعد مسك طُوغان الحسني، فلم تطُل مُدَّته، وخرج إلى التجريدة وجُرح ومات. وكان عنده شجاعة وإقدام مع تيهٍ وشمم وتكبر. وتولّى خُشداشُه الأمير آقباي المؤيدي الخازندار عوضه الدَّواداريّة الكبرى.

وتُوُفِّي قاضي مكّة، ومُفتيها، وخطيبُها، جمالُ الدين أبو حامد محمد بن عفيف الدين عبد الله بن ظهيرة القُرشيّ المخزومي المكيّ الشافعيّ بمكة في ليلة سابع عشرين شهر رمضان عن نحو سبع وستين سنة. ومات ولم يخلف بعده بالحجاز مثله.

وتُوُفِّي قاضي الحنفيّة بالمدينة النّبويّة الشيخُ زينُ الدين عبد الرحمن بن نور الدين علي المدنيّ الحنفي بها، وقد أناف على سبعين سنة، بعد أن ولي قضاء المدينة ثلاثاً وثلاثين سنة مع حسبتها، وشُكرت سيرتُه.

وتُوُفِّي بالقاهرة الشريف سليمان بن هبة الله بن جمَّاز بن منصور الحُسيني المدني، أمير المدينة النبويّة، وهو معزول بسجن قلعة الجبل، وقد ناهز الأربعين سنة من العمر.

وتُوُفِّي العلامةُ فريد عصره قاضي قضاة زبيد[٢]، مجد الدين أبو طاهر

(١) يستعمل المؤلف هذا اللقب للدلالة في بعض الأحيان على كبار الأمراء ممن يكون لهم هيبة وسطوة وجاه تضاهي ما للملوك والسلاطين.

(٢) زبيد: مدينة باليمن.

محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر الفيرُوزابادي الشيرازي الشافعيّ، اللُّغويّ النَّحوي، صاحب كتاب «القامُوس» في اللغة، في ليلة العشرين من شوال عن ثمانٍ وثمانين سنة وأشهر، وهو مُتمتِّعٌ بحواسِّه. وكان إماماً بارعاً نحويّاً لغويّاً مُصنِّفاً. طاف البلاد، ورأى المشايخ، وأخذ عن العلماء، وقَدِمَ مصر وأقرأ بها، ثم توجّه إلى اليمن، وولي قضاء زبيد نحو عشرين سنة حتى مات. أنشدنا الشيخ أبو الخير المكيُّ من لفظه قال: أنشدني الأديب الفاضل علي بن محمد بن حسين بن عُلّيف المكي العكّي العدناني من لفظه لنفسه في كتاب الشيخ مجد الدين المسمى بالقاموس: [الكامل]

لَوْ مَدَّ[1] مجدُ الدِّينِ في أيّامِهِ ... من بعض أبحُرِ علمه القامُوسا
ذهبتْ صحاحُ الجوهريِّ كأنها ... سحرُ المدائن يوم ألقى مُوسى

وقد استوعبنا مصنَّفاته في تاريخنا المنهل الصافي والمُستوفى بعد الوافي، إذ هو محل الإطناب في التراجم.

وأما ما أثبت له من الشعر: أنشدنا الحافظ شهاب الدين أحمد بن حجر إجازة، قال: أنشدنا العلاّمة مجد الدين الفيرُوزابادي لنفسه إجازة إن لم يكن سماعاً: [الوافر]

أحبَّتنا الأماجِدَ إن رحلتُم ... ولم ترعوْا لنا عهداً وإلّا
نُودِّعكُم ونُودِعُكُم قُلوباً ... لعلَّ الله يجمعُنا وإلّا

أعتُرِض عليه في «وإلا» الثانية فإنها من غير توطئة ــ انتهى.

أخبرني الشيخ تقيّ الدين المقريزي رحمه الله قال: أخبرني الشيخ الإمام مجد الدين محمد بن يعقوب الشِّيرازيّ الفيرُوزاباديّ من لفظه بمكة في ذي الحجّة سنة تسعين وسبعمائة أنّه حضر بستاناً بدمشق، وقد جُمع فيه الإمام العلاّمة جمالُ الدين أحمد بن محمد الشّريشيّ الشّافعي وجماعةٌ من أعيان دمشق لمأدُبةٍ في يوم الثلاثاء العشرين من شعبان سنة ثلاث وستين وسبعمائة، وكان ممن حضر

(١) في بعض الأصول: «مُذْ مدَّ» وهي أنسب في المقام.

المجلس العلاَّمة بدرُ الدين محمد ابن الشيخ جمال الدين الشَّريشي المذكور، ومعه ما ينيف على أربعين سفراً من كُتُب اللغة منها صحاحُ الجوهري، فأخذ كلٌّ من الحاضرين ــ وهم: الشيخ عماد الدين بن كثير، والشيخ صلاح الدين الصَّفدي، وشمس الدين الموصليّ، وصدر الدين بن العِزّ، وجماعة أُخر ــ في يده سفراً من تلك الأسفار، وامتحن البدر بن الشَّريشي في السؤال عن الأبيات المُستشهد بها، فأنشد كلَّ ما وقع في تلك الكتب، وتكلَّم على الموادِّ اللغوية من غير أن يشذّ عنهُ شيءٌ منها، وتكلم عليها بكلام مُفيد مُتقن، فجزم الحاضرون أنه يحفظ جميع شواهد اللغة، وكتبوا له أجائز بذلك، ومن جملة من كتب له الشيخُ مجدُ الدين هذا ــ انتهى.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم سبعة أذرع سواء. مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعاً وخمسة أصابع.

السنة الرابعة من سلطنة الملك المؤيد شيخ على مصر

وهي سنة ثماني عشرة وثمانمائة.

فيها في شهر رجب تجرَّد السلطانُ الملك المؤيد [شيخ] إلى البلاد الشامية لقتال الأمير قاني باي نائب الشام ومن معه حسبما تقدَّم ذكره من قتاله لهم، وقتله إياهم ــ يأتي ذكر الجميع في هذه السنة. وأول من قتله منهم الأمير قاني باي المحمديّ الظاهريّ نائب الشام في العشر الأوسط من شعبان بحلب، وحُملت رأسُه إلى القاهرة، وطيف بها ثم عُلِّقت أياماً. وكان أصلُ قاني باي هذا من مماليك الملك الظاهر برقُوق وأعيان خاصكيته، ثم تأمَّر في الدولة الناصرية [فرج] إمرة مائة وتقدمة ألف، ثم صار في دولة الملك المؤيد شيخ رأس نوبة النُّوب، ثم أمير آخور كبيراً، وسكن باب السلسلة على العادة، وعمَّر مدرسته برأس سويقة منعم من الصَّليبة بالشارع الأعظم. ثم وَلِيَ نيابة دمشق بعد الأمير نَوْرُوز الحافظيّ بعد خروجه عن الطاعة، فباشر نيابة دمشق إلى أن أُشيع عنه الخُروجُ عن الطاعة. وطلبه الملك المؤيد شيخ إلى القاهرة ليستقرَّ أتابكاً بها،

وولّى عوضه نيابة دمشق الأتابك ألْطُنْبُغَا العُثماني، فلما بلـغ قاني باي ذلك خرج عن الطاعة بعد أيام، وقاتل أمـراء دمشق، وملك دمشق، ووافقه الأميـر إينال الصَّصلانيّ نائب حلب، والأمير سُودُون من عبد الرحمن نائب طرابلس، والأمير تنبك البجاسي نائب حماة، والأمير طرباي نائب غزَّة. وخرج إليه الملك المؤيد مُخفاً، وقاتله بظواهر حلب، حسبما ذكرنا ذلك كلّه في أصل ترجمة الملك المؤيد من هذا الكتاب، فظفر به بعد أيام وقتله. وكان [قاني باي] من أجلِّ خاصّكيَّة الملك الظاهر برقُوق، وعنده رياسة وحشمة وتجمُّل، ومات وسنُّه دون الأربعين.

وفيها قُتِلَ الأميرُ سيفُ الدين إينال بن عبد الله الصَّصلاني الظاهريّ، نائب حلب وأحد أصحاب قاني باي المقدّم ذكرُه، في العشر الأوسط من شعبان. وكان اصله أيضاً من أعيان خاصّكيّة الملك الظاهر برقُوق ومماليكه. وتأمر أيضاً في دولة الملك الناصر فرج إلى أن صار أمير مائة ومقدّم ألف، وحاجب الحجّاب، ثم صار في دولة المؤيد أمير مجلس، ثم نُقل إلى نيابـة حلب بعد قتـل نَورُوز الحافظيّ، إلى أن خرج قاني باي نائب الشام عن الطاعة، ووافقه إينال هذا إلى أن كان من أمرهم ما كان. وقُتِلَ وحُملت رأسُه أيضاً إلى القاهرة مـع رأس قاني باي. وكان إينال المذكور أميراً شُجاعاً، مقداماً كريماً، عاقلاً سيُوساً، معدوداً من الفرسان ــ رحمه الله تعالى.

وفيها قُتِلَ الأمير سيف الدين تمان تمرُ اليُوسُفيّ الظاهريّ، أتابـك حلب ــ المعروف بأرق ــ معهما في التاريـخ المقدّم ذكره، وحُملت رأسه أيضاً إلى مصر. وكان تمان تمرُ أيضاً من أعيان المماليك الظاهرية، وترقّى بعد موت الملك الظاهر حتى ولي إمرة مائة وتقدمة ألف بديار مصر، ثم صار أمير جاندار، إلى أن قبض عليه الملكُ المؤيّد شيـخ وحبسه مُدَّة، ثم أطلقه وولاّه أتابكيَّة حلب؛ فلما خرج قاني باي وإينال نائب حلب وافقهُما مـع من وافقهما من الأمراء والنوّاب، حتى قُبِضَ عليهم، ووقـع من أمرهم ما وقـع. وكان أيضاً من الشجعان، وكان تركيّ الجنس.

وفيها قُتِلَ أيضاً الأمير سيفُ الدين جرباش بن عبد الله الظاهريّ المعروف بكَبَّاشة، حاجب حُجَّاب حلب، وحُملت رأسُه إلى القاهـرة. وكان أيضـاً من

المماليك الظاهرية [برقوق]، وتأمّر في الدولة الناصرية [فرج]، والمؤيّدية [شيخ] إلى أن أخرجه الملك المؤيد منفيّاً إلى القُدس، ثم استقرَّ به في حجُوبيّة حلب، إلى أن كان من أمر قاني باي وإينال ما كان، فقُتِلَ معهما، وقُتل غير هؤلاء أيضاً خلائقُ في الوقعة وغيرها.

وفيها تُوُفِّي قاضي القضاة شمس الدين محمد ابن العلّامة جلال الدين رسولا بن يُوسف التُّركُماني الحنفي، المعروف بابن التُّبانيّ، قاضي قُضاة دمشق بها، في يوم الأحد ثامن عشرين شهر رمضان. وكان إماماً عالماً فاضلاً، معدوداً من فقهاء الحنفية.

وتُوُفِّي الوزير الصَّاحب سعد الدين إبراهيم بن بركة المعروف بابن البشيريّ بالقاهرة في يومٍ الأربعاء رابع عشر صفر. ومولدُه في ليلة السبت سابع ذي القعدة سنة ستٍّ وستين وسبعمائة بالقاهرة. وكان معدوداً من رؤساء الأقباط. تنقَّل في عدّة وظائف إلى أن ولي الوزر غير مرة، ونظر الخاص.

وتُوُفِّي الشيخُ زين الدين حاجي [بن عبد الله][1] الرُّومي الحنفي شيخ التُّربة الناصرية التي أنشأها الملك الناصر [فرج] على قبر أبيه الملك الظَّاهر برقُوق بالصحراء، في ليلة الخميس رابع شوال، واستقر عوضه في مشيختها الشيخ شمس الدين محمد بن أحمد البُساطي المالكي، بعناية الأمير ططر نائب الغيبة.

وتُوُفِّي الشيخُ المعتقد الصالح محمد الدَّيلميّ في رابع ذي الحجة، ودفن بالقرافة. وكان للناس فيه اعتقاد، ويُقصد للزيارة للتبرك به.

وتُوُفِّيَ الملكُ أميرزه[2] إسكندر بن أميرزه عُمر شيخ بن تَيْمُورلَنْك، صاحب

(١) زيادة عن الضوء اللامع.

(٢) الشائع هو «ميرزا». ويقال أيضاً «بير إسكندر». ولفظ «بير» يعني الشيخ أو المرشد في نظام الصوفية. (انظر دائرة المعارف الإسلامية: ٨/٥٤٤). وقد حكم ميرزا اسكندر بلاد فارس وسجستان من سنة ٨١٢ إلى سنة ٨١٧هـ. (معجم زامباور: ٤٠٢).

بلاد فارس. وكان ملكها بعد قتل أخيه أميرزه محمد، ودام إسكندر على ملك فارس سنين إلى أن بدا له مُخالفة عمّه شاه رُخّ بن تيمُورلنك، فسار إليه شاه رُخّ المذكور، وقاتله وأسره وسمل عينيه بعد أمور وحروب، وأقام شاه رُخّ عوضه أخاه رُستُم بن أميرزه عمر شيخ، فجمع إسكندر المذكور جمعاً ليس بذلك، وقدَّم عليهم ابنه، وجهّزهم إلى أخيه رُستُم، فخرج إليهم رُستُم المذكور وقاتلهم وهزمهم، وأخذ إسكندر هذا أسيراً، ثم قتله بأمر عمِّه شاه رُخّ. وكان إسكندر المذكور ملكاً فاضلاً ذكياً فطناً يكتب المنسوب(١) إلى الغاية في الحسن، وبخطه رَبْعَةٌ(٢) عظيمة بمكة المشرفة. وكان حافظاً للشعر، ويقوله باللغة العجمية والتركية، وكانت لديه فضيلة ومشاركة في فنون.

وفيها قُتِلَ الأميرُ الكبيرُ سيفُ الدين دمُرداش بن عبد الله المُحمدِّيّ الظاهريّ بسجن الإسكندرية في يوم السبت ثامن عشر المحرّم. وكان دمُرداش هذا من أعيان مماليك الظاهر برقُوق، وترقّى في أيّام أستاذه إلى أن ولي أتابكيَّة دمشق، ثم نيابة حماة، ثم نيابة طرابلس. ثم أمسكه [برقوق] وحبسه ساعةً، وأطلقه بسفارة الوالد لمَّا ولي نيابة حلب، فجعله الظاهر أتابك العساكر بحلب، ثم نقله ثانياً إلى نيابة حماة، ثم نقله إلى نيابة حلب بعد واقعة تنم الحسني نائب الشّام. وقَدِمَ تيمُورلنك البلاد الشاميّة في نيابته، ثم خرج عن الطاعة مع الوالد، ووقع له بعد ذلك أمورٌ وحروب وخطوب ــ تقدّم ذكرُها في ترجمة الملك الناصر فرج، ثم في ترجمة الملك المؤيّد شيخ. ومحصول هذا كله، أنه ولي أتابكيّة العساكر بالديار المصرية بعد الوالد، ثم ولي نيابة الشّام بعده أيضاً بحُكم وفاته. ثم فرَّ من الملك الناصر [فرج] لمّا حُوصر بدمشق إلى البلاد الحلبيّة، ودام بها، إلى أن كانت فتنةُ نورُوز، وتولّى ابنُ أخيه قرقماس سيدي الكبير نيابة الشّام عوضاً عن نورُوز، وطلبه الملك المؤيّد فقدِمَ عليه من البحر، وقد عاد قرقماس إلى مصر، فقبض الملك المؤيّد عليهما، وأرسل قبض على ابن أخيه تَغري بَرْدي سيدي الصغير من

(١) المنسوب في اللغة هو ذو الحسب والنسب. والمراد هنا الخط المنسوب، وهو الخط الذي يجري على قاعدة من قواعد الخطوط أو الذي ينتمي إلى مدرسة من مدارسها أو إمام من أئمتها.
(٢) الرَّبْعة هي أجزاء المصحف.

صالحية بُلبيس، وقال: هؤلاء أهمُّ من الأمير نَورُوز، وقتل تغري بردي سيدي الصغير في يوم عيد الفطر سنة ستٍّ عشرة، ثمّ قتل أخاه قرقماس سيدي الكبير بسجن الإسكندرية، وأبقى عمَّهُما دمُرداش هذا إلى هذا اليوم فقتله. وقد تقدم من ذكر دمُرداش ما فيه غُنيةٌ عن ذكره هنا ثانياً.

وفيها قُتلَ الأمير سيف الدين سُودُون بن عبد الله المحمديّ الظاهريّ المعروف بسودون تلِّي ــ أي مجنون ــ في يوم السبت ثامن عشر المحرّم بسجن الإسكندرية، مع الأمير دمُرداش المقدّم ذكره. وكان سُودُون أيضاً من أعيان المماليك الظاهريَّة [برقوق] وترقَّى في دولة الملك الناصر فرج إلى أن صار أمير آخُور كبيراً. ثم خرج عن طاعة الملك الناصر، ووقع له أمور، وانضم على الأميرين شيخ ونَوْرُوز، ودام معهما سنين إلى أن انكسر الملكُ الناصر وقُتِل، فقدم القاهرة ــ صُحبة الأمير الكبير شيخ في خدمة الخليفة ــ على أعظم إقطاعات مصر. وكان [سودون] يميل إلى نَوْرُوز أكثر من شيخ، غير أن نَوْرُوز أرسله مع الأمير شيخ هو والأمير بكتمر جِلِّق صفة التَّرسيم ليمنعاه من الوُثوب على السَّلطنة، فمات بكتمر بعد أشهر، فتلاشى أمرُ سُودُون المذكور، فأخذ الملكُ المؤيد يخادعه إلى أن استفحل أمرُه، فقبض عليه وحبسه بالإسكندرية إلى أن قتله في التاريخ المذكور.

وفيها أيضاً قُتل الأميرُ سيفُ الدين أسنبُغَا الزَّردكاش أحد المماليك الظاهريّة [برقوق] أيضاً، بسجن الإسكندرية مع دمُرداش وسُودُون المحمدي. وكان [أسنبُغَا] ممَّن صار أمير مائة ومقدّم ألف بالديار المصرية في دولة الملك الناصر فرج، وجعله بديار مصر في سفرته التي قُتِلَ فيها، ودام بمصر إلى أن قبض عليه الملك المؤيد وحبسه بالإسكندرية ثمّ قتله في التاريخ المقدم ذكره.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستة أذرع ونصف. ومبلغ الزيادة عشرون ذراعاً سواء.

السنة الخامسة من سلطنة الملك المؤيد على مصر

وهي سنة تسع عشرة وثمانمائة.

فيها تُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين تَنِبَك بن عبد الله المؤيِّدِي، شاد الشراب خاناه، وأحد أمراء الطّبلخانات، في سادس عشرين صفر، وحَضَرَ السلطانُ الصلاةَ عليه بمصلاّة المؤمني. وكان من أكابر المماليك المؤيَّدِية، خصيصاً عند السلطان، مشكور السّيرة.

وتُوُفِّي أستادار الوالد الأمير الوزير شهاب الدين أحمد ابن الحاج عمر بن قُطَيْنة، في يوم الأحد ثاني عشرين المحرّم. وكان يباشر في بيوت الأمراء، واتصَل بخدمة الوالد سنين، ثم وَلِي الوزارة في الدّوْلة الناصرية دون الأسبوع في سنة اثنتين وثمانمائة، وَعُزل وعاد إلى أستادارية الوالد، وتصرَّف مع ذلك في عدة أعمال، وكان معدوداً من أَعيان المصريين.

وتُـوُفِّيَ الشيخُ الإمام نجم الـدين بن فتـح الـدين، أبـو الفتـح محمـد بن محمد بن [محمد](١) بن عبد الدايم الحنبلي، في هذه السنة. وكان من أعيان فقهاء الحنابلة.

وتُوُفِّيَ الشيـخُ الإمام العلاَّمة هُمامُ الدين محمد(٢) بن محمد الخَوَارَزْميّ، الشَّافعي، شيـخ المدرسة الناصرية المعروفة بالجمالية، برحبة باب العيد بالقاهرة. وكان عالماً في عدة فنون.

وَتُـوُفِّيَ القاضي شهـاب الدين أحمـد [بن أبـي أحمد](٣) الصَّفـدي ناظـر البيمارَسْتان المنْصُوري بالقاهرة وناظر الأحْباس، في ثاني عشر شهر ربيـع الأوَّل.

(١) زيادة عن الضوء اللامع وشذرات الذهب ونزهة النفوس.

(٢) في الضوء اللامع أنه «عبد الواحد بن عبد الحميد بن مسعـود السيواسي، واسمـه محمد بن أحمد الخوارزمي». وفي شذرات أنه «همام الدين همام بن أحمد الخوارزمي». وفي نزهة النفوس والأبدان أنه «علم الدين محمد بن أحمد الخوارزمي».

(٣) زيادة عن الضوء اللامع.

وكان أولاً يباشر التّوْقيع بخدمة الملك المؤيّد شيخ في أيام إمرته، فلما رُشح للسلطنة خَلع عليه بنظر البيمارَسْتان، وَاستقرّ القاضي ناصر الدين بن البارِزِيّ عِوَضه في توقيع الأمير شيخ، فوصل بذلك إلى وَظيفة كتابة السِّرّ.

وَتُوُفِّيَ قاضي القضاة أمين الدين عبد الوهاب ابن قاضي القضاة شمس الدين محمد بن أبي بكر الطَّرَابلسِيّ الحنفي، قاضي قضاة الدِّيار المصرية، في ليلة السبت سادس عشرين شهر ربيع الأول، وقد تجاوز أربعين سنة. وكان مشكور السِّيرة قليل البضاعة.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين قُمارِي بن عبد الله، شادّ السلاح خاناه، وأمير الرّكب الأوّل من الحاج، في رابع عشرين شوّال، في وادي القباب[1]، وهو متوجِّهٌ إلى الحج.

وتُوُفِّيَ الشيخ الإمام المحدِّث تقيُّ الدين أبو بكر بن عثمان بن محمد الجيتي[2]، الحنَفي، قاضي العسكر بالدِّيار المصرية بها. وكَان من الفضلاء، معدوداً من فقهاء الحنفية ونحاتهم، وكان وجيهاً في الدّولة المؤيدية [شيخ] إلى الغاية.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين أَرْغون بن عبد الله من بشْبُغا الظاهري، الأمير آخور ـ كان ـ في الدولة الناصرية فرج، بالقُدْس بطالاً في يوم الجمعة ثالث ذي القعدة. وكان ديِّناً خيراً، عفيفاً عن المنكرات والفروج. وهو أحد أعيان المماليك الظاهريَّة وخُشْدَاش الوالد، كلاهما جلَبهُ خَواجا بشبغا. وقد تقدَّم من ذكره نبذة كبيرة في ترجمة الملك الناصر فرج.

وتُوُفِّيَ الطواشي زين الدين مُقبل بن عبد الله الأشِقْتَمُريّ رأس نوبة الجمدارية، في ليلة الاثنين رابع عشر شهر ربيع الآخر، ودفن بمدرسته التي بخط التّبانة. وكان رومي الجنس، ولديه فضيلة.

(١) وادي القباب: منزلة من منازل الحاج بين المنصرف وتيه بني إسرائيل. (صبح الأعشى: ١٤/٣٨٦).

(٢) في الأصل: «الحبتي» وهو تصحيف. والتصحيح عن الضوء اللامع ونزهة النفوس وإنباء الغمر، وقد ضبط فيها جميعاً بالعبارة.

وتُوُفِّيَ قاضي القضاة ناصر الدين محمد ابن قاضي القضاة كمال الدين عمر بن إبراهيم بن محمد المعروف بابن أبي جَرَادة، وابن العَدِيم الحلبي الحنفي قاضي قضاة الدِّيار المصرية بها، بعد مرض طويل، في ليلة السبت تاسع شهر ربيع الآخر، عن سبع وعشرين سنة، بعد ما وَلِيَ القضاء نحو ثماني سنين، على أنه صُرِفَ منها مُدَّة. وكان عالماً ذكياً فطناً، مع طيش وخِفَّةٍ، ومهابة وحُرمْة، وثَرْوَة وحَشَم. وقد ثَلَمَهُ الشيخُ تقي الدين المقريزي(١) بقوادح ليست فيه، والإنصاف في ترجمته ما ذكرناه، وأنا أَعْرَفُ بحاله من الشيخ تقي الدين وغيره؛ لكونه كان زَوْجَ كَريمتي(١)، ومات عنها. وتَوَلى القضاء بعده الشيخُ شمسُ الدين محمد الدّيريّ الحنفي القُدْسي بعد أشهر.

وتُوُفِّيَ الشيخُ الإمامُ العالم العلامة عِزّ الدين محمد بن شرف الدين أبي بكر ابن قاضي القضاة عز الدين عبد العزيز ابن قاضي القضاة بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جَمَاعة، مَطْعُوناً(٢)، في يوم الأربعاء العشرين من شهر ربيع الأول. ومولِدُه بمدينة اليَنْبُع بأرض الحجاز سنة تسع وخمسين وسبعمائة. وكان بارعاً، مُفَنِّناً، إماماً في العلوم العقليَّة، مُشاركاً في عِدَّة فنون، وبه تخرج غالب علماء عصرنا. وكان احترز على نفسه من الطاعون، واحتمى عن المُغَلَّظات، وسلك طريق الحُكَماء، واستعمل الأشياء الدافعة للطاعون والخمّ، وأكثر من ذلك إلى أن طعن وهو أعظم ما يكون من الاحتراز، فما شاء الله كان.

وتُوُفِّيَ الصاحبُ الوزير تقي الدين عبدُ الوهاب ابن الوزير الصاحب

---

(١) قال المقريزي: «وكان سيء السيرة، رديء الطريقة، كثير الهوج، أحمق، مائقاً، جرَّ هو وأبوه على الإسلام عاراً كبيراً» ـ السلوك: ٣٧٧/٤. وقد أيّد ابن حجر قول المقريزي في ذمّه، ورماه بالتظاهر بالمعاصي وأخذ الربا وبذل الرشاوى في سبيل منصب القضاء. ـ إنباء الغمر: ٢٤٥/٧ ويبدو أن أبا المحاسن دافع عن ابن العديم هذا بحكم الصلة التي كانت تربطه به، فقد كان ناصر الدين ابن العديم زوج أخته بيرم بنت تغري بردي. وقد عاش أبو المحاسن بعد وفاة والده سنة ٨١٥هـ في بيت أخته بيرم في كنف القاضي ابن العديم ومن بعده القاضي جلال الدين البلقيني زوجها الثاني بعد ابن العديم والذي توفي سنة ٨٢٤هـ.

(٢) أي مات بالطاعون.

فخر الدين عبد الله ابن الوزير الصاحب تاج الدين موسى بن علم الدين أبي شاكر ابن تاج الدين أحمد بن شرف الدولة إبراهيم ابن الشيخ سعيد الدَّولة بالقاهرة في يوم الخميس حادي عشر ذي القعدة. وكان مشكور السيرة، يتنصَّل من صحبة الأقْبَاط أبناء جنسه، ويتديَّن، ويصحب الصُّلَحاء من المسلمين، ولا يُدْخِل في بيته أحداً من نسوة النصارى البتَّة ــ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيت خَوَنْد [عائشة][١] أخْتُ الملك الظاهر بَرْقُوق، بنت الأمير آنص الجاركسية، أم الأتَابَك بيبَرْس، في ليلة الأحد رابع عشر ذي القعدة، بعد سن عال[١]، وهي الصُّغرى من أخوة بَرْقُوق.

وتُوُفِّيَ الشيخُ زين الدين أبو هُرَيْرَة عبد الرحمن ابن الشيخ شمس الدين أبي أمامة محمد بن علي بن عبد الواحد بن يوسف بن عبد الرحيم الدُّكَالِيّ الشَّافعيّ، المعروف بابن النقّاش، خطيب جامع أحمد بن طولون، في يوم عيد النحر. وكان يعظ، ولكلامه مَوْقِعٌ في القلوب، مع فضيلة تامَّة، ودين متين، وقيام في ذات الله تعالى.

وتُوُفِّيَ قاضي القضاة شمسُ الدِّين محمد بن علي بن مَعْبَد المَقْدِسِيّ، المعروف بالمَدَني المالكي، في يوم الجمعة عاشر شهر ربيع الأوّل عن سبعين سنة. وكان مشكورَ السِّيرة في ولايته بالعفة، على أن بضاعته من العلم كانت مُزْجاَة.

وتُوُفِّيَتْ خَوَنْد [ستيتة][٢] بنت الملك الناصر فَرَج، زوجة المقام الصّارمي إبراهيم ابن الملك المؤيَّد شيخ، في شهر ربيع الأوّل. وهي أكبر أولاد الناصر، وهي التي كان تَزَوّجَهَا بَكْتَمُر جِلّق في حياة والدها، وسنها دون عشر سنين.

(١) زيادة عن إنباء الغمر. قال: «وكانت في السنّ قريباً من أخيها الظاهر برقوق».
(٢) زيادة عن السلوك.

وفيها كان الطاعون والغلاء بالديار المصرية حسبما تقدم ذكره.

أمرُ النيل في هذه السنة:

الماءُ القديم سبعة أذرع ونصف. مبلغ الزيادة عشرون ذراعاً سواء كالعام الماضي.

السنة السادسة من سلطنة الملك المؤيد شيخ على مصر

وهي سنة عشرين وثمانمائة.

فيها تجرَّد السلطان الملك المؤيد المذكور إلى البلاد الشامية، وفتح عدَّة قلاع ببلاد الروم مثل كَخْتَا وكَرْكَر وبَهَسْنا وغيرها؛ وهي تجريدته الثالثة، وأيضاً آخرُ سفراته إلى الشام.

وفيها تُوُفِّيَ الأميرُ زين الدين فرج ابن السلطان الملك الناصر فرج ابن السلطان الملك الظاهر بَرْقُوق ابن الأمير آنص الجاركسيّ بسجن الإسكندرية في ليلة الجمعة سادس عشرين شهر ربيع الأوّل، ودُفِن بالإسكندرية، ثم نقلت جثته إلى القاهرة، ودفنت بتربة والده التي بناها الملك الناصر على قبر أبيه الملك الظاهر بَرْقُوق بالصحراء خارج القاهرة. ومات ولم يَبْلُغ الحُلُم. وهو أكبر أولاد الملك الناصر فَرَج من الذكور، وبموته خمدت نفوس الظاهرية.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيف الدين آقْبَرْدي بن عبد الله المؤيدي المِنْقَار، أحد أمراء الألوف بالديار المصرية، في ليلة الخميس سابع عشرين صفر بدمشق. وكان توجه إليها صُحْبَة أستاذه الملك المؤيد. وهو أحد أعيان مماليك الملك المؤيد شيخ: اشتراه أيام إمرته وقاسَى معه تلك الحروب والفتن والتشتت في البلاد؛ فلما تسلطن أمَّره عشرة، ثم نقله إلى إمْرَة طَبْلَخاناه، وجعله رأس نوبة ثانياً ــ وهو أول من حَكَم مِمَّن وَلِيَ هذه الوظيفة ــ وقعدت النُّقَباءُ على بابه، ثم أنعم عليه بإمْرَة مائة وتقدمة ألف بديار مصر، ثم وَلِيَ نيابة إسكندرية مُدَّة، ثم عزله وأقرّه على إقطاعه، وأخذه بصحبته إلى التجريدة وهو مريض في محفَّة فمات بالبلاد الشاميَّة. وكان شجاعاً مِقْداماً كريماً، مع جهل وظُلْم وجبرُوت، وخُلُق سيء،

وبطش وحِدَّةِ مِزَاج، وقُبْح مَنْظَر. قلت: وعلى كل حال مساوئه أكثر من محاسنه.

وتُوُفِّيَ القاضي تاج الدين عبد الوهاب بن نصر الله بن حسن الفُوِّي الحنفي، أخو الصاحب بدر الدين بن نصر الله ـ كان وكيل بيت المال، وناظر الكُسْوَة، وأحد نواب الحكم الحنفيّة، وهو والد صاحبنا القاضي تقي الدين بن نصر الله ـ في ليلة السبت ثالث عشر جمادى الآخرة بالقاهرة. وكان مَوْلِدُه في سنة ستين وسبعمائة، ومات في حياة والده، وكان من أعيان الديار المصرية ورؤسائها.

وتُوُفِّيَ الشيخ الإمام العالم الزاهد الورع شرف الدين موسى بن علي المُناويّ المالكي، الفقيه العابد، بمكة المشرفة في ثاني شهر رمضان؛ وكان من الأبدال[1]. جاور بمكة والمدينة سنين، وكان أوّلاً بالقاهرة في طلب العلم، وحفظ الموطّأ حفظاً جيّداً، وبَرَع في الفقه والعربيّة، وشارك في فنون، ثم تَزَهّدَ في الدنيا، وتَرَك ما كان بيده من الوظائف من غير عِوَض يُعَوِّضه في ذلك، وانفرَدَ بالصحراء مُدَّة، ثم خَرَج إلى مكّة في سنة تسع وتسعين وسبعمائة، وأَقْبَل على العِبَادة مُتَخَلِّياً مِن كُلِّ شيء مِن أمُور الدّنيا، مُعْرِضاً عن جميع الناس، حتى صار أكثرُ إقامته بمكّة في الجبال، لا يدخلها إلاّ في يَوْم الجمعة، أَوْ في النَّادِر، وكان يُقْصَدُ للزّيارة والتَّبَرُّك به، وكان مِمَّن لا يريد الشُّهْرة.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيف الدين آقباي بن عبد الله المؤيَّدي، نائب الشّام بها في قلعة دمشق في ذي القعدة؛ وقد مرّ مِنْ ذِكْرِه ما فيه كفاية عن ذكره ثانياً عند خروجه من قَلْعَة دِمَشْق والقبض عليه، كلُّ ذلك في ترجمة أستاذه الملك المؤيد شيخ. وهو أحد أعيان مماليك المؤيد، وأحد الأربعة المعدودة بالشَّهَامة والشجاعة، وهم: الأمير جاني بَك المؤيدي الدَّوادار، والأمير آقْبَاي الخازندار ثم الدَّوَادَار هذا، والأمير يَشْبُك اليُوسُفيّ المُشِدّ ثم نائب حَلَب الآتي ذِكْرُه، والأمير آقْبَرْدِي المؤيَّدِي المِنْقَار المقدم ذكره في هذه السنة؛ فهؤلاء الأربعة كانوا من

(١) الأبدال: الزهّاد. وعند الصوفية لقب يطلقونه على رجال الطبقة من مراتب السلوك عندهم. (المعجم الوسيط). وقيل هم قوم من الصالحين، بهم يقيم الله الأرض: أربعون في الشام وثلاثون في سائر البلاد، لا يموت منهم أحد إلا قام مكانه آخر، فلذلك سمّوا أبدالاً. (لسان العرب: بدل).

الشجعان ضاهوا أَعْيَان مماليك الملك الظاهر بَرْقُوق، بل بالـغ بعض خُشْدَاشِيَّتِهم بأَنَّهُم أعظم وأَشهَم، وفي ذلك نظر.

وتُوُفِّيَ الشيـخُ شمسُ الدين محمد بن علي بن جعفر البِلَالِي الشافعي، شيـخ خانقاه سعيد السعداء بها، في يوم الجمعة رابـع عشر شهر رمضان. وكان فقيهاً فاضلاً مُعْتَقداً، وَلَهُ شُهْرَةٌ كبيرة. وكان الوالد يحِبُّه، ويَبَرُّه بالأَمْوَال والغِلَال، وغير ذلك.

وَتُوُفِّيَ الأميرُ ناصر الدين محمد السَّلَاخُورِيّ[1]، نائب دِمْيَاط، قتيـلاً في رابـع عشر ذي الحجَّة، بعد ما وَلِيَ عِدَّة وظائف بالبَذْل والسَّعي.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستة أذرع سواء، مبلـغ الـزِّيادة تسعـة عشر ذراعـاً وثمانيـة أصابـع.

السنة السابعة من سلطنة الملك المؤيد شيـخ على مصر

وهي سنة إحدى وعشرين وثمانمائة.

فيها كان الطاعون بالديار المصرية، ومات جماعة من الأعيـان وغيرهم؛ ووقـع الطاعون بها أيضاً في التي تليها حسبما يأتي ذكره.

وفيها تُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين مُشْتَرَك[2] بن عبد الله القاسمي الظاهري نائب غَزَّة ـــ كان ـــ ثم أحد مقدّمي الألوف بدمَشْق بهـا، في سادس عشـر جمادى الأولى. وهو أحد المماليك الظاهرية بَرْقُوق، وتأمَّرَ في دولة الملك الناصر فَرَج، ثم ولَّاه الملكُ المؤيد نيابة غَزَّة، ثم نقله إلى إِمْرَة مائة وتقدمة ألف بدِمَشْق، إلى أن مات.

(١) نسبة إلى سلاخور. والسلاخور أو السراخور هو المتولي أمر المعلف السلطاني. راجـع أيضاً فهرس المصطلحات.

(٢) اشتهر بهذا الاسم، وصوابه: «أجترك». (إنباء الغمر: ٧/٣٢٩، ٣٤٢).

وتُوُفِّيَ الشريف النقيب شرف الدين أبو الحسن علي بن الشريف النقيب فخر الدين أحمد ابن الشريف النقيب شرف الدين محمد بن علي بن الحسين بن محمد بن الحسين بن محمد بن الحسين بن محمد بن زَيْد بن الحسين بن مُظَفَّر بن علي بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ــ رضي الله عنه ــ الأرمويّ الحُسَيْنيّ، نقيب[١] الأشراف بالديار المصرية، في يوم الاثنين تاسع عشر شهر ربيع الأوّل. وكان رئيساً نبيلاً، عارياً عن العُلُوم والفضائل[٢]، مُنْهَمِكاً في اللّذات، وله مكارِمُ وأفضال ــ عفا الله تعالى عنه.

وتُوُفِّيَ الأمير سيف الدين حُسْين بن كِبِك التُّرْكُماني أحد أمراء التُّرْكُمَان قتيلاً في ثالث جمادى الأولى[٣].

وتُوُفِّيَ القاضي شهاب الدين أحمد بن عبد الله القَلْقَشَنْدِيّ[٤] الشَّافعي في ليلة السَّبْت عاشر جمادى الآخرة عن خمس وستين سنة، بعد أن كَتَب في الإنشاء[٥] سنين، وبَرَع في العربيّة، وشارك في الفقه، وناب في الحكم بالقاهرة، وعرف الفرائض، ونَظَمَ ونَثَر، وصنَّف كتاب «صُبح الأعْشَى في صناعة الإنشا»، جمع فيه جَمْعاً كبيراً مفيداً، وكتب في الفقه وغيره.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين بَيْسَق بن عبد الله الشَّيْخِيّ الظاهريّ، أحد أمراء الطَّبْلَخانات، وأمير آخور ثاني، في جمادى الآخرة بالقُدْس بَطّالاً، بعد أن وَلِيَ إمْرَة

(١) أي نقيب الأشراف العلويين أو الطالبيين. وقد سبق التعريف به فانظر فهرس المصطلحات.

(٢) نفي هذه الصفة عنه لا ينسجم مع سياق الوصف الذي يقدّمه المؤلف. وكثيراً ما نقع على مثل هذا التناقض في التراجم التي يوردها أبو المحاسن. ولعلّ عبارة المقريزي في هذا المجال أكثر دقّة واتزاناً، قال: «وكان يعدّ من رؤساء البلد كرماً وأفضالاً، من غير شهرة بعلم ولا نسك». (السلوك: ٤/٤٧٢). وقريب من هذا قول السخاوي فيه (الضوء اللامع: ٥/١٧٢) بالرغم من معرفتنا بتشدد السخاوي في التنقيب عن مثالب مترجميه.

(٣) توسّع المقريزي في ترجمته وظروف مقتله. انظر السلوك: ٤/٤٧٢ ــ ٤٧٣.

(٤) ويقال أيضاً: «القرقشندي»، نسبة إلى قرقشندة أو قلقشندة من قرى القليوبية قرب طوخ.

(٥) أي في ديوان الإنشاء. ــ انظر مقدمتنا لكتاب «صبح الأعشى»، طبعة دار الكتب العلمية.

الحاجّ في أيّام أستاذه الملك الظاهر بَرْقُوق، وأيّام ابن أستاذه الملك الناصر فَرَج غير مَرّة، وَوَلِيَ عِمَارَة المَسْجِد الحَرَام بمكّة لَمَّا احْتَرَق في سنة ثلاث وثمانمائة. ثم تَنَكّر عليه الملك الناصر، وأخرجه مَنْفِيّاً إلى صِهْرِهِ الأمير إسْفِنْدِيار ملك الرُّوم، فأقام بها حتى تسلطن الملك المؤيد شَيخ، فقدم عليه، فلم يُقْبِل عليه الملكُ المؤيّد شيخ لأنَّه كان من حَوَاشِي الأمير نَوْرُوز الحافظي. وأقام بدَارِه مُدّةً، ثم أخرجه المؤيد إلى القُدْس بَطَّالاً، فمات به. وكان أميراً عاقلاً، عارفاً بالأمور، متعصباً للفقهاء الحنفيّة، وفيه بِرٌّ وصدقة، مع شراسة خُلُق وحِدَّة مِزَاج. وقد ترجمه الشيخ تقيُّ الدين الفاسي(١) قاضي مَكَّة ومُؤرِّخُها، ونعته بالأمير الكبير. على أنّ بَيْسَق لم يُعْطَ إمْرَة مائة ولا تقدمة ألف البتَّة، وإنما أعظم ما وصل إليه الأمير آخورية الثانية، وإمْرَة طَبْلَخَانَاه لا غير، فَبَيْنَه وبَين المقدّم درجات، وبين المقدم والأمير الكبير درجات، فترجمه الفاسي بالأمير الكبير دفعة واحدة، وكذا وقع له في جماعة كبيرة من أعيان المصريين، فكلّ ذلك لعدم ممارسته لهذا الشأن، وإن كان الرجل حافظاً ثقة، عارفاً بفن الحديث ورجاله، إمَاماً في معرفة أهل بلده، وأحوال المسجد الحرام. وقد أجاد فيما صَنَّفَه من تاريخ(٢) مكة المُشَرَّفة إلى الغاية بخلاف تأريخه التَّرَاجِم، فإنه قصَّرَ فيه إلى الغاية، وأَقْلَبَ ملوكَ الأقطار وأعيانَها ــ ما عدا أهل مكة ــ ظهراً لبطن. وأعظم من رَأَيْنَاه في هذا الشأن الشيخ تقي الدين المقريزي وقاضي القضاة بدر الدين العيني وما عداهما فمن مقولة الشيخ تقي الدين الفاسي. ولم أُرِدْ بذلك الحَطّ على أحد، وإنما الحقُّ يُقال على أي وجه كان، وها [هي] مصنّفات الجميع باقية، فمن لم يَرْضَ بحُكْمِي فلْيَتَأَمّلها، ويقتدي بنفسه. انتهى.

وتُوُفِّيَ الأميرُ علم الدين آقْبُغَا بن عبد الله المعروف بالشَّيْطَان ــ مقتولاً ــ في

---

(١) هو تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الفاسي المكي الحسني المتوفى سنة ٨٣٢هـ. ــ انظر الأعلام: ٥/٣٣١.

(٢) صنّف الفاسي في تاريخ مكة كتاب «العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين» و«شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام» منتخبات منه، ومختصره «تحفة الكرام بأخبار البلد الحرام» وسماه أيضاً «عجالة القرى للراغب في تاريخ أم القرى». (المرجع السابق).

ليلة الخميس سادس شعبان. وأصله من صِغَار مماليك الملك الظاهر بَرْقُوق، وعظم في الدَّوْلة المؤيَّدية، حتى إنه جمع بين ولاية القاهرة وحِسْبَتِها وشَدِّ الدّواوين بها في وقت واحد. وكان عارفاً حاذقاً فطِناً، عفيفاً عن المُنكَرات، مع معرفة بالمباشرة، غير أنه كان فيه ظُلْم وعَسْف.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيف الدين بُرْدبَك بن عبد الله الخليلي الظاهريّ، المعروف بقَصْقَا، نائب صفَدَ بها، في ليلة الخميس نصف شهر رَجَب. وكان أصله من خاصِّكِيَّة الملك الظاهر بَرْقُوق ومماليكه، وتَرَقَّى بعد موته إلى أن صار أمير مائة ومقدّم ألف، ثم رأس نوبة النُّوَب في دولة الملك المؤيّد شيخ، ثم نُقِلَ إلى نيابة طَرَابُلُس، فساءت سيرتُه بها، فَعُزِلَ عنها ونُقِلَ إلى نيابة صَفَد فدام بها إلى أن توفي. وكان غير مشكور السِّيرة.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيف الدين سُودُون بن عبد الله الأسَنْدَمُري الظاهريّ، أتابَك طَرَابُلُس قتيلاً ــ في الوقعة التي كانت بين الأمير بَرْسِبَاي الدقماقي نائب طَرَابُلُس وبين التُّركمان خارج طرابلس ــ في يوم الأربعاء سابع عشرين شعبان. وكان وَلِيَ الأمير آخوريّة الثانية في الدولة الناصرية، ثم أمسكه الملك الناصر وحبسه بسجن الإسكندرية، إلى أن أطلقه الملك المؤيَد، وأنعم عليه بعد مُدّة بأتابَكِيَّة طرابلس، فدام بها إلى أن قُتِلَ.

وتُوُفِّيَ الأستاذ إبراهيم بن بَاباي الرُّومي العَوَّاد، أحد نُدمَاء الملك الناصر فَرَج، ثم الملك المؤيد شيخ، ببستانه بجزيرة الفيل المعروف ببستان الحلِّي في ليلة الجمعة مستهلّ شهر ربيع الأوّل. وقد انتهت إليه الرياسة في الضَّرْب بالعود، وخلّف مالاً جزيلاً، وكان فيه تكبُّر وشَمَم، وكان حَظِيّاً عند الملوك، نالته السعادة بسبب آلته وغنائه، ومات وهو في عشر السبعين، ولم يخلف بعده مثله إلى يومنا هذا. ومع قوته في العود ومعرفته بالموسيقى لم يُصَنِّف شيئاً في الموسيقى، كما كانت عادة مَنْ قَبْلَه من الأستاذين ــ انتهى.

وتُوُفِّي الأميرُ الوزيرُ فخرُ الدين عبد الغني ابن الوزير تاج الدين عبد الرزّاق بن

أبي الفَرَج بن نقولا الأرْمَنيّ المالكيّ، أستادار العالية(١)، في يوم الاثنين النِّصف من شوال، بداره بين السورين من القاهرة، ودُفِنَ بجامعه(٢) الذي أنشأه تجاه داره المذكورة، وتولى الأستادارية من بعده الزَّيْني أبو بكر بن قُطْلُو بَك، المعروف بابن المُزَوِّق. وكان مولدُ فخر الدين المذكور في شوال سنة أربع وثمانين وسبعمائة، ونشأ في كنف والده. ولما وَلِيَ أبوه الوزارة من ولاية قَطيًا في الأيام الظاهرية بَرْقُوق، وَلّاه موضِعه بقَطْيا، ثم وَلِيَ كَشْفَ الوجه الشَّرْقِيِّ في سنة ثلاث عشرة وثمانمائة، ووضع السيفَ في العرب الصالح والطالح، وأسْرَف في سَفْكِ الدِّماء وأخذ الأموال، حتى تَجَاوَزَ عن الحد في الظّلْم والعَسْف. ثم طلبَ الزيادة في الظلم والفساد، وبَذَلَ للملك الناصر أربعين ألف دينار، وَوَلي الأستادارِية عوضاً عن تاج الدين عبد الرزّاق بن الهيصم في سنة أربع عشرة المذكورة.

قال المقريزي: «فَوَضَع يَدَه في الناس يأْخُذُ أموالهم بغير شُبْهَة من شُبَه الظلْمَة، حتى دَاخَل الرُّعبُ كلَّ بريء، وكثرت الشناعةُ عليه، وساءت القَالَةُ فيه، فَصُرِف في ذي الحجة من السّنة، وَسُرَّ الناس بعزله سروراً كبيراً، وعُوقِبَ عقوبة لم يُعْهَدْ مثلُها في الكثرة، حتى أيسَ منه كلُّ أحد، ورَقَّ له أعداؤه، وهو في ذلك يُظْهِر قوَّة النفس، وشِدَّة الجَلَد، ما لا يُوصَف. ثم خُلِّيَ عنه، وعاد إلى ولاية قَطْيَا، ثم صُرِفَ عنها، وخرَج مع الناصر إلى دِمَشق من غير وظيفة. فلما قُتِلَ الناصر تعلّق بحواشي الأمير شيخ، وأُعِيدَ إلى كَشْفِ الوَجه البحري» ــ انتهى كلام المقريزي باختصار.

---

(١) استادار العالية: هو استادار السلطان، وهو من الموظفين العسكريين، يتولى الإشراف على بيوت السلطان وإليه الأمر في تقدير احتياجاتها ومصروفها. وتقول العامة: «استادار العالية» بمعنى «أستاذ الدار العالية» ظناً منها أن لفظ «دار» عربي بمعنى الدار المعروفة، في حين أن «دار» لفظ فارسي بمعنى الممسك أو المتولي للشيء. ــ انظر صبح الأعشى: ٢١/٤ و ٤٢٩/٥، طبعة دار الكتب العلمية. وفي تأصيل هذا اللقب راجع فهرس المصطلحات.

(٢) هو جامع الفخري بجوار دار الذهب التي عرفت بدار بهادر الأعسر بخط بين السورين. (خطط المقريزي: ٣٢٨/٢) وهو الجامع المعروف بجامع البنات بشارع الأزهر حالياً. (خطط علي مبارك: ٦٦/٦).

قلتُ: ثم ولي الأستادارية ثانياً بعد ابن مُحب الدين في سنة تسع عشرة وثمانمائة، وسلِّم إليه ابن مُحبِّ الدين، فعاقبه وأخذ منه أموالاً كثيرة. ثم أُضيفَ إليه الوزر، وتقدَّم عند الملك المؤيّد. ثم تغيَّر عليه المؤيّد، ففرَّ منه فخرُ الدين المذكور من على حماة إلى بغداد، وغاب هناك إلى أن قَدِمَ بأمانٍ من الملك المؤيد وعاد إلى وظيفة الأستادارية، واستمرَّ على وظيفته إلى أن مات في التاريخ المقدم ذكره.

قال المقريزي رحمه الله: «وكان جبَّاراً قاسياً شديداً، جلداً عبُوساً بعيداً عن الترف. قتل من عباد الله ما لا يُحصى، وخرّب إقليم مصر بكماله، وأفقر أهله ظلماً وعُتوّاً وفساداً في الأرض، ليُرضي سلطانه، فأخذه الله أخذاً وبيلاً» ــ انتهى كلام المقريزي باختصار.

قلت: لا يُنكر عليه ما كان يفعله من الظُّلم والجور، فإنه كان من بيت ظُلم وعسف؛ كان عنده جبرُوت الأرمن، ودهاءُ النَّصارى، وشيطنةُ الأقباط، وظُلمُ المكسة؛ فإن أصله من الأرمن، ورُبِّي مع النصارى، وتدرَّب بالأقباط، ونشأ مع المكسة بقطيا، فاجتمع فيه من قلَّة الدين وخصائل السُّوء ما لم يجتمع في غيره. ولعمري لهو أحقُّ بقول القائل: [الوافر]

مساوٍ لو قُسِمْنَ على الغَواني لما أُمْهِرْنَ إلّا بالطَّلَاقِ

قيل إنه لما دُفن بقبره بالقُبَّة من مدرسته سمعه جماعةٌ من الصُّوفيّة وغيرهم وهو يصيح في قبره، وتداول هذا الخبر على أفواه الناس. قلت: وما خفاهم[1] أعظم. غير أني أحمدُ الله تعالى على هلاك هذا الظَّالم في عُنفُوان شبيبته، ولو طال عُمرُه لملأ ظلمهُ وجورُه الأرض. وقد استوعبنا ترجمته في تاريخنا «المنهل الصَّافي» بأطول من هذا، وذكرنا من أقاربه في الظُّلم والجور وسوء السِّيرة، ألا لعنةُ الله على الظَّالمين.

قُلتُ: وأعجب من ظلمهم إنشاؤهم المدارس والرُّبُط، من هذا المال

(١) كذا في الأصل. ولعلّ المراد: «وما خفي عنهم فهو أعظم».

القبيح، الذي هو من دماء المسلمين وأموالهم. وأما مدرسة فخر الدين هذا، ومدرسة جمال الدين البيريّ الأستادار، ومدرسة أخرى بالقرب من باب سعادة، فهذه المدارس الثلاث في غاية ما يكون من الحُسن، والعمل المُتقَن من الزّخرفة، والرُّخام الهائل. ومع هذا أرى أن القلوب ترتاح إلى بلاط دهليز خانقاه سعيد السُّعداء وبياضها الشَّعث أكثر من زخرفة هؤلاء ورُخامهم؛ وليس يخفى هذا على أرباب القُلوب النيِّرة، والأفكار الجليلة ـ انتهى.

وتُوُفِّي الأميرُ الطَّواشي بدر الدين لُؤلُؤ العزّي الرُّوميّ، كاشف الوجه القبلي، في يوم الأربعاء رابع عشرين شوّال. وكان يلي الأعمال، فصُودِرَ وعُوقِبَ غير مرَّة وكان من الظَّلمة الفتّاكين، وكانت أعيانُ الخُدّام تكره منه دخوله في هذا الباب، وتلومُه على ذلك.

وتُوُفِّي الأميرُ الكبير علاءُ الدين أَلْطُنْبُغَا بن عبد الله العثماني الظاهري، أتابك العساكر بالدّيار المصرية، ثم نائب الشام، بطالاً بالقُدس، في يوم الاثنينْ ثاني عشرين شوَّال. وكان أعظم مماليك الملك الظاهر برقوق في زمانه، وأجلَّهم قدراً، وأرفعهم منزلة؛ فإنه ولي نيابة صفد في دولة أستاذه الملك الظاهر برقوق، والملك المؤيد يوم ذاك من جُملة أُمراء العشرات. ثم لا زال ينتقل في الأعمال والوظائف إلى أن ولّاه الملكُ المؤيد شيخ أتابك العساكر بالديار المصرية، بعد وفاة الأتابك يلبُغا الناصري، ثم نقله إلى نيابة دمشق بعد خروج قاني باي المحمدي، ثمّ أمسكه وسجنه بقلعة دمشق مُدّة أيام ثم أطلقه ورسم له بالتوجُّه إلى القُدس بطالاً، فتوجّه إليه ودام به إلى أن مات. وكان أميراً جليلاً عاقلاً ساكناً مُتواضعاً وقُوراً وجيهاً في الدّولة، طالت أيامه في السعادة ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّي الأمير علاء الدين قُطلوبُغَا نائب الإسكندرية بها في يوم الخميس خامس عشر ذي الحجة. وكان ولي الحُجُوبيَّة في دولة الملك المنصور حاجي[1]

(١) هو الملك المنصور حاجي بن الناصر محمد بن قلاوون. تولى السلطنة من أول جمادى الآخرة سنة ٧٤٧هـ إلى ١٢ رمضان سنة ٧٤٨هـ.

بتقدمة ألف بالقاهرة، فلمّا عاد الظاهرُ برقوق إلى المُلك أخرج عنه إقطاعه. وطال خمولهُ، وحطَّهُ الدّهرُ وافتقر، إلى أن طلبه المؤيد وولّاه نيابة الإسكندرية، وهو لا يملكُ القُوت اليوميّ. وقد تقدّم ذكرُ ذلك في أصل ترجمة الملك المؤيد من هذا الكتاب.

وتُوُفِّي المُسندُ المُعمِّرُ المُحدِّثُ شرف الدين محمد بن عز الدين أبي اليمن محمد بن عبد اللطيف بن أحمد بن محمود بن أبي الفتح، الشهير بابن الكُويك الرّبعي الإسكندري الشافعي، في يوم السبت سادس عشرين ذي القعدة. ومولدُه في ذي القعدة سنة سبع وثلاثين وسبعمائة بالقاهرة. وكان تفرَّد بأشياء عالية، وتصدّى للإسماع عدّة سنين، وأُخِّر[1] قبل موته. وكان خيِّراً ساكناً، كافّاً عن الشّرّ، من بيت رياسة وفضل. وأول سماعه ـ حضوراً ـ سنة إحدى وأربعين وسبعمائة. ولم يشتهر بعلم.

وتُوُفِّي الأميرُ أبو الفتح موسى ابن السلطان الملك المؤيد شيخ، في يوم الأحد تاسع عشرين شهر رمضان، وهو في الشهر الخامس من العُمر. ودفن بالجامع المؤيدي. وأمّه أمّ ولد جاركسيّة تُسمَّى قُطلُباي، تزوّجها الأميرُ إينال الجكميّ بعد موت الملك المؤيد.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربعة أذرع وثمانية أصابع. مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعاً وعشرة أصابع.

السنة الثامنة من سلطنة الملك المؤيد شيخ على مصر

وهي سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة.

فيها توجّه المقامُ الصارمي إبراهيم ابن السلطان الملك المؤيد شيخ إلى البلاد الشاميّة، وسار إلى الرُّوم ومعه عدّةٌ من أعيان الأمراء والعساكر، وسلك بلاد ابن

(١) كذا! ولم ندرك المراد بذلك. وفي السلوك: «وأضرّ».

قرمان وأباده؛ وقد تقدّم ذكرُ ذلك كلّه في أصل ترجمة الملك المؤيد من هذا الكتاب.

وفيها كان الطاعون أيضاً بالديار المصرية، ولكنه كان أخف من السنة الخالية.

وفيها تُوُفّي الأمير شرف الدين يحيى بن بركة بن محمد بن لاقي، أحد ندماء السلطان الملك المؤيد، في يوم الأربعاء حادي عشر صفر، قريباً من غزّة، فحُمل ودفن بغزّة في يوم الجمعة. وكان أولاً من أمراء دمشق، ثم قَدِم مع المؤيد شيخ إلى مصر، وصار من أعيان الدُّولة، واستقرّ مِهْمَنْداراً وأستادار الجلال(١)، ثم انحطّ قدرُه، ونُفي إلى البلاد الشاميّة، فمات في الطريق. وكان سبب نفيه تنكُّر الأمير جقمق الأرغُون شاويّ الدُّوادار عليه، بسبب كلام نقله عنه للسلطان، فتبيّن الأمر بخلاف ما نقله، فرسم السُّلطانُ بنفيه من القاهرة على حمار.

وتُوُفّي الأميرُ سيف الدين كُزُل بن عبد الله الأرغُون شاويّ، أحد أمراء الطّبلخانات بديار مصر، ثمّ نائب الكرك، بعد عزله عن نيابة الكرك، وتوجهه إلى الشّام على إمرة طبلخاناه، بحُكم طُول مرضه، فمات بعد أيّام في خامس عشرين المحرّم. وكان أصلُه من مماليك الأمير أرغُون شاه، أمير مجلس أيّام الملك الظاهر برقُوق، وترقّى إلى أن كان من أمره ما ذكرناه. وكان عاقلاً ساكناً.

وتُوُفّي الأديبُ الفاضل مجدُ الدين فضلُ الله ابن الوزير الأديب فخر الدين عبد الرحمن بن عبد الرزاق بن إبراهيم بن مُكانس المصري القبطي الحنفي، الشّاعر المشهور، في يوم الأحد خامس عشرين شهر ربيع الآخر. ومولدُه في شعبان سنة تسع وستين وسبعمائة. ونشأ تحت كنفِ والده، وعنه أخذ الأدب، وتفقّه على مذهب أبي حنيفة ــ رضي الله عنه ــ وقرأ النحو واللّغة، وبرع في

(١) كذا في الأصل: بالجيم المعجمة. وفي السلوك وإنباء الغمر: «أستادار الحلال» بالحاء المهملة. ولعلّ عبارة المقريزي توضح المراد بذلك، قال: «ــ واستقرّ مهمنداراً وأستادار النواحي التي أفردها السلطان لعمل غذائه وعشائه، فعرف بأستادار الحلال ــ الخ».

الأدب، وكتب في الإنشاء مُدَّة، وكانت له ترسُّلات بديعة ونظم رائق. وفيه يقول أبوه فخر الدين رحمه الله تعالى: [الطويل]

أَرى ولـدي قـد زادهُ اللهُ بهجـةً وكمَّله في الخلقِ والخُلق مُذ نَشَا
سـأشكـرُ ربِّي حيثُ أُوتيتُ مثله وذلـك فضـلُ اللهِ يؤتيـه من يشـا

ومن شعر مجد الدين صاحب الترجمة قوله: [الوافر]

بـحـقِّ اللهِ دع ظـلم الـمُـعَـنَّـى ومتِّعـهُ كمـا يهـوى بـأُنسِـك
وكيف الصَّـدُّ يـا مـولاي عمَّن بيـومـك رحتَ تهجـرُهُ وأمسِك

وله أيضاً: [الطويل]

جـزى الله شيبـي كلَّ خيـرٍ فإنـه دعـاني لما يُـرضي الإله وحـرَّضا
فأقلعتُ عن ذنبـي وأخلصتُ تائباً وأمسكتُ لمَّا لاحَ لي الخيطُ أبيضا

وله أيضاً: [الوافر]

تُسـاومنـا شـذا أزهـار روضٍ تحيَّـر نـاظـري فيـه وفكـري
فـقلتُ نـبـيـعُـك الأرواح حقـاً بـعـرفٍ طـيِّـبٍ مـنـه ونـشـري

وتُوُفِّي الأميرُ سيف الـدين سُودُون بن عبـد الله القاضي الـظاهري، نـائب طرابلس بها، في رابـع عشر ذي القعدة. وكان أصلُه من مماليك الملك الظاهر برقُوق، وترقَّى بعد موته إلى أن ولي في الدّولة المؤيَّديّة حجُوبيَّة الحُجَّاب، ثم رأس نوبة النُّوب، ثم قُبض عليه، وحُبس مُدَّة، ثم أطلقه الملكُ المؤيّد، وولّاه كشف الـوجه القبلي، ثم نقله إلى نيـابة طـرابلس بعد مَسـكِ الأمير بـرْسبَاي الدُّقماقيّ، أعني الأشرف، فدام على نيابة طرابلس إلى أن مات. وكان سبب تسميته بالقاضي لأنّه كان إنياً(١) للأمير تنبك القاضي، فسُمِّي على اسم أغاته. والعجبُ أنه صار رأس نوبة النُّوب، وأغاتُه تنبك المذكور من جملة رؤوس النُّوب العشرات يمشي في خدمة إنيه.

(١) انظر في التعريف بهذا المصطلح الجزء الثاني عشر، ص ٢٦٤، حاشية (١).

وتُوُفِّي القاضي عزّ الدين عبد العزيز بن أبي بكر بن مُظفر بن نصير البُلقينيّ الشافعي، أحد فقهاء الشافعيّة وخلفاء(١) الحُكم بالديار المصريّة، في يوم الجمعة ثالث عشر جُمادى الأولى. وكان فقيهاً شافعيّاً، عارفاً بالفقه والأصول والعربية، رضيّ الخُلقُ. ناب في الحُكم من سنة إحدى وتسعين وسبعمائة.

وتُوُفِّي الأميرُ شهابُ الدين أحمد ابن القاضي ناصر الدين محمد بن البارزيّ الجُهنيّ الحموي ــ في حياة والده ــ بداره على النِّيل بساحل بُولاق، في يوم الاثنين تاسع عشر شهر ربيع الآخر. وحضر السلطانُ الملكُ المؤيد الصلاة، ووجد عليه أبوُهُ كثيراً.

وتُوُفِّي الأميرُ أبو المعالي محمد ابن السلطان الملك المؤيد شيخ في عاشر ذي الحجّة، ودُفن بالجامع المؤيدي وعمرُه أيضاً دون السنة.

وتُوُفِّي الشيخ بُرهان الدين إبراهيم بن غرس الدين خليل بن علوة الإسكندري، رئيس الأطباء، وابن رئيسها، في يوم الاثنين آخر صفر، وكان حاذقاً في صناعته، عارفاً بالطب والعلاج.

أمرُ النيل في هذه السنة:

الماء القديم ثلاثة أذرع وستة وعشرون إصبعاً. مبلغُ الزيادة ثمانية عشر ذراعاً وأربعة عشر إصبعاً.

السنة التاسعة من سلطنة الملك المؤيد شيخ على مصر

وهي سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة.

فيها جرّد السلطانُ الملك المؤيد الأتابك أَلْطُنْبُغَا القرمشي إلى البلاد الشامية، وصحبته عدة من أمراء الألوف قد ذكرنا أسماءهم في أصل الترجمة عند خُرُوجهم من القاهرة.

وفيها تُوُفِّي قاضي القضاة جمالُ الدين عبد الله بن مقداد بن إسماعيل

(١) خليفة الحكم هو قاضي القضاة.

الأقفهسيّ المالكي، قاضي قضاة الدِّيار المصرية، في رابع عشر جمادى الأولى عن نحو ثمانين سنة، وهو قاضٍ في ولايته الثانية. وكان إماماً بارعاً مفتناً مدرساً. ومات والمعوَّلُ على فتواه بمصر.

وتُوُفِّي القاضي شمسُ الدين محمد بن محمد بن حسين البرقي الحنفي، أحد نُوَّاب الحكم الحنفيَّة في سابع جمادى الآخرة.

وتُوُفِّي الشيخُ علي كهنبُوش[1]، صاحب الزَّاوية التي عمَّرها له سُودُون الفخري الشَّيخُوني النَّائب، خارج قُبة النّصر، بالقرب من الجبل الأحمر، والزاوية معروفة به إلى يومنا هذا. وكان مشكور السِّيرة، محمود الطريقة، يشهر بصلاح ودين. وقيل إنه جاركسي الجنس، هكذا ذكر لي بعضُ المماليك الجاركسية، والمشهور أنه كان من فقراء الرُّوم ـــ انتهى.

وتُوُفِّي الرئيس صلاحُ الدين خليل بن زين الدين عبد الرّحمن بن الكُويز ناظر ديوان المفرد، في عاشر شهر رمضان. وكان ممّن قَدِم إلى مصر صحبة الأمير شيخ، وتولى نظر ديوان المفرد، وعظم في الدولة. وأظنه كان أسنّ من أخيه علم الدين داود ناظر الجيش، والله أعلم.

وتُوُفِّي العلامة القاضي ناصر الدين أبو المعالي محمد ابن القاضي كمال الدين محمد بن عز الدين بن عثمان بن كمال الدين محمد بن عبد الرحيم بن هبة الله الجهني الحموي الشافعي، المعروف بابن البارزي، كاتب السِّرِّ الشريف بالديار المصرية، وعظيمُ الدولة المؤيدية، في يوم الأربعاء ثامن شوال، دفن على ولده الشهابي أحمد، المقدم ذكره في السنة الخالية، تجاه شُباك الإمام الشافعي، رضي الله عنه. ومولدُه بحماة في يوم الاثنين رابع شوَّال سنة تسع وستين وسبعمائة. ومات أبوه في سنة ست وسبعين، ونشأ تحت كنف أخواله، وحفظ القرآن الكريم، وكتاب الحاوي في الفقه، وطلب العلم، وتفقَّه بجماعة، وبرع في الفقه والعربية والأدب والإنشاء، وتولى قضاء حماة، ثم ولي كتابة سرِّها، ثم

(١) في السلوك: «كهنفوش». وفي إنباء الغمر: «علي القلندري».

صحب الملك المؤيَّد في أيام نيابته بدمشق، ولازم خدمته، وتولّى قضاء حلب في نيابة المؤيد عليها. ثم قبض عليه الملك الناصر، وحبسه ببرج الخَيالة بقلعة دمشق. ونظم وهو في السجن المذكور قصيدته المشهورة التي أولها: [البسيط]

هُـو الزمـانُ فـلا تلقـاه بـالـرهبِ ... سـلامةُ المـرء فيه غـايـةُ العجبِ

أنشدني القصيدة المذكورة ولدُه العلّامة كمالُ الدين بن البارزي من لفظه، وقد سمعها من لفظ أبيه غير مرَّة، وأثبتّ القصيدة بتمامها في ترجمته في تاريخنا «المنهل الصافي» إذ هو محلّ التطويل في التراجم. ومن شعره أيضاً ــ وهو مما أنشدني ولدُه القاضي كمال الدين المقدَّمُ ذكره عن أبيه: [الكامل]

طَابَ افتِضَاحي في هَوَاهُ مُحاربـاً ... فلهـوتُ عن عِلمي وعـن آدابـي
وبـذكـره عنـد الصّـلاة وبـاسمـه ... أشـدُو فـواطـربـاهُ في المحـرابِ

ولا زال بالحبس بقلعة دمشق إلى أن قدمها الملكُ الناصر فرج، وأراد قتله، فشفـع فيه الوالدُ وأطلقه والسلطان عنده على باب دار السعادة بدمشق. وتوجّه إلى حماة، ثم عاد إلى الملك المؤيد ثانياً. ولا زال معه حتى قُتل الملك الناصر، وقَـدِمَ صُحبته إلى مصـر، وتولّى تـوقيعه عـوضـاً عن شهـاب الـدين الصفـدي وهو أتابك. فلما تسلطن [المؤيد] خلـع عليه في شوّال من سنة خمس عشرة وثمانمائة باستقراره كاتب السِّر الشريف بالديار المصرية، عِوَضاً عن فتـح الدين فتـح الله بعد عزله ومُصادرته، فباشر الوظيفة بحرُمة وافرة، ومهابة زائدة، وعظم وضخم، ونالته السعادةُ، وصار هو صاحب الحل والعقد في المملكة. وكان يبيتُ عند الملك المؤيد في ليالي البطالة، وينادمه ويجاريـه في كل فنّ من الجـدِّ والهزل، لا يدانيه أحدٌ من جلساء الملك المؤيد في ذلك. هذا مـع الفضـل العزيز، وطلاقة اللسان، وحفظ الشِّعر، وحُسن المحاضرة، والإقدام والتجرِّي(١) على الملوك، والمراجعة لهم فيما لا يعجبه، وهو مـع ذلك قريبٌ من خواطرهم لحسن تأدِّيه ما يختاره. وبالجملة فهو أعظم من رأيناه ممَّن ولي هذه الوظيفة، ثم

(١) المراد التجرّوء.

بعده ابنه القاضي كمال الدين الآتي ذكره في محلّه، بل كان ولده المذكور أرجح في أمور يأتي بيانها في محلِّها.

وتُوُفِّي الصاحبُ كريم الدين عبد الكريم بن أبي شاكر بن عبد الله بن الغنام في سابع عشرين شوال، وقد أناف على المائة سنة وحواسُّه سليمةٌ، بعد أن وزر مرّتين، وأنشأ مدرسة[١] بالقرب من الجامع الأزهر معروفة به. وكان من بيت رياسة وكتابة.

وتُوُفِّي ملكُ الغرب وصاحب فاس ــ قتيلاً ــ السلطانُ أبو سعيد عثمان بن السلطان أبي العبّاس أحمد ابن السلطان أبي سالم إبراهيم ابن السلطان أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحقّ المريني الفاسي، في ليلة ثالث عشر شوال. قتله وزيرُه عبد العزيز اللباني[٢]، وأقام عوضه ابنه أبا عبد الله محمداً، وكانت مُدَّتُه ثلاثاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر ــ رحمه الله.

وتُوُفِّي مُتمَلِّكُ بغداد وتبريز والعراق الأمير قرا يُوسُف ابن الأمير قرا محمد بن بيرم خجا التُّركُماني، في رابع عشر ذي القعدة، وملك بعده ابنُه شاه محمد بن قرا يُوسُف. وأوّل من ظهر من آبائه بيرم خجا بعد سنة ستِّين وسبعمائة؛ وتغلَّب بيرم خجا على الموصل حتى أخذها، ثم أخذها منه أُويس ثانياً، وصار بيرم خجا له كالعامل إلى أن مات، فملك بعده ابنُه محمد، حتى مات في سنة إحدى وتسعين وسبعمائة فملك بعده ابنه قرا يوسف فحاربه القآن غياثُ الدين أحمد بن أُويس صاحب بغداد على الموصل، ووقع لهما بسبب ذلك حروبٌ إلى أن اصطلحا، وانتمى قرا يُوسُف إلى السلطان أحمد، وصار يُنجِدُهُ في حُروبه ــ وقد مرَّ دخول قرا يُوسُف إلى الشام وقُدُومه صحبة الأمير شيخ المحمودي إلى جهة القاهرة في وقعة السَّعيدية مع الملك الناصر وعوده إلى بلاده، وفي عدّة

(١) مدرسة ابن غنام بحارة كتامة. وتعرف بزاوية الغنامية. ولا تزال موجودة إلى اليوم، ويسلك إليها من حارة الدويداري. ــ انظر خطط علي مبارك: ٢/٢٦٢، طبعة الهيئة المصرية.

(٢) كذا أيضاً في السلوك: وفي الأعلام (عن جذوة الاقتباس والاستقصا) والضوء اللامع: «اللبابي» بالباء الموحدة قبل الحرف الأخير.

مواضع أُخر. وآخرُ الحال أنه وقع بين قرا يُوسُف وبين السلطان أحمد وتحاربا، وغلبَ قرا يُوسُف السلطان أحمد وأخذ بغداد منه، ودام بها إلى أن أخرجه منها حفيد تيمُورلنك أميرزه أبو بكر بن ميران شاه بن تيمُور، وفرَّ قرا يُوسُف إلى دمشق، وقَدِمَها في شهر ربيع الآخر سنة ستٍّ وثمانمائة، فقبض عليه الأميرُ شيخٌ المحموديّ نائب دمشق ــ أعني المؤيَّد ــ وأمسك معه أيضاً السلطان أحمد، وحبسهُما بقلعة دمشق؛ وهذه أول عداوةٍ بين المؤيّد وقرا يُوسُف. وداما في السجن إلى أن أفرج عنهما في سابع شهر رجب سنة سبع وثمانمائة، وخلع على قرا يُوسُف هذا، وأنعم عليه، وأخذه معه إلى جهة مصر، وحضر وقعة السَّعيديّة المقدم ذكرها. ووصل قرا يُوسف في هذه الحركة إلى دار الضِّيافة بالقرب من قلعة الجبل، ولم يدخُل القاهرة، ثم عاد إلى بلاده. ثم وقع بينه وبين السلطان أحمد أيضاً حروب إلى أن ظفر قرا يوسف بالسلطان أحمد المذكور وقتله في سنة ثلاث عشرة وثمانمائة واستولى من حينئذ على العراقين، وبعث ابنه شاه محمد إلى بغداد، فحصل بين شاه محمد المذكور وبين أهل بغداد حرُوب، ووقع لهم معه أمورٌ يطولُ شرحُها. ومن يوم قدِمَها هذا الكعبُ الشؤمُ نمت الحروب ببغداد إلى أن خربت بغدادُ والعراقُ بأجمعه من كثرة الفتن التي كانت في أيّام قرا يُوسُف هذا، ثم في أيّام أولاده من بعده. واستمرّ قرا يُوسُف بتلك الممالك إلى أن مات في التاريخ المقدم ذكره. وملك بعده بغداد ابنُه شاه محمد، وتنصر، ودعا الناس إلى دين النَّصرانيَّة، وأباد العلماء والمسلمين، ثم ملك بعده إسكندر، وكان على ما كان عليه شاه محمد وزيادة، ثم أخوهما أصبهان، فكان زنديقاً لا يتدين بدين؛ فقرا يُوسف وذريتُه هم كانوا سبباً لخراب بغداد التي كانت كُرسيَّ الإسلام، ومنبع العلوم، ومدفن الأئمة الأعلام. وقد بقي الآن من أولاده لصُلبه جهان شاه[1] متملِّك العراقين وأذربيجان وإلى أطراف العجم، والناسُ منه على وجل، لعلمهم أنه من هذه السُّلالة الخبيثة النجسة. فالله تعالى يُلحقُه بمن سلف من آبائه وإخوته الكفرة الزنادقة ــ فإنهم شرُّ عصابةٍ وأقبح سيرةٍ ــ قريباً غير بعيد.

(١) مظفر الدين جهان شاه بن قرا يوسف. حكم من سنة ٨٤١هـ إلى سنة ٨٧٢هـ. وقد فتح إيران كلها سنة ٨٦٢هـ، وقتله أوزون حسن في ١٢ ربيع الثاني سنة ٨٧٢هـ. (معجم زامباور: ٣٨٣).

وتُوُفِّي شرفُ الدين محمد بن علي بن الحيريّ، مُحتسب القاهرة، في ثاني عشر شهر ربيع الأول. قال المقريزي: وقد ولي حسبة القاهرة ومصر غير مرّة، بعدما كان من شرار العامَّة؛ ويُشهر بقبائح من السُّخفِ والمجون وسوء السِّيرة.

وتُوُفِّي الأميرُ ناصر الدين محمد ابن الأمير مُبارك شاه الطَّازيّ، أخو الخليفة المُستعين بالله، في هذه السنة ــ وقد تقدَّم من ذكره نبذة يُعرف منها حالُه عند خلع الملك الناصر فرج من المُلك، وتولية الخليفة المُستعين بالله السَّلطنة. ولما تولّى أخوه المُستعين بالله العباس السلطنة أنعم على ابن الطَّازيّ هذا بإمرة طبلخاناه وصار دوادار المُستعين، إلى أن خُلعَ من السَّلطنة، ثم من الخلافة، فأخرج الملكُ المؤيد إقطاع ابن الطَّازيّ هذا، وأبعده ومقته إلى أن مات.

وكان ابنُ الطازيّ هذا رأساً في لعب الرُّمح، أستاذاً في فَنِّ الفُرُوسيَّة. أخذ عنه فنّ الرمح وغيره الأميرُ آقبُغا التِّمرازي، والأمير كُزُل السُّودُوني المُعلِّم، وبه تخرَّج كُزُل المذكور، والأمير قُجق المُعَلِّم رأس نوبة، وغيرهم. وكان من عجائب الله تعالى في فنِّه. نظرتُه، غير أنّي لم آخُذ عنه شيئاً لصغر سنِّي يوم ذاك. وأنا أتعجَّب من أمرِ ابن الطازيّ هذا مع الملك المؤيد؛ فإن المؤيد كان صاحب فُنُون ويُقرِّب أرباب الكمالات من كل فنّ ويُجلُّ مقدارهم، كيف حطَّ قدر ابن الطازي هذا؟! ولعل ابن الطازي أطلق لسانه في حقِّ الملك المؤيد لمَّا أراد خلع الخليفة من السلطنة، فأثر ذلك عند المؤيد، وكان ذلك سبباً لإبعاده، والله تعالى أعلم.

وتُوُفِّي المقامُ الصارميّ إبراهيم ابن السلطان الملك المؤيد شيخ في ليلة الجمعة خامس عشر جمادى الآخرة بقلعة الجبل، وحضر الصلاة عليه السلطان، ودفنه بالجامع المؤيدي في صبيحة يوم الجمعة. وكثُرَ أسف الناس عليه، وكان لموته يومٌ عظيم بالقاهرة، ومات وسنُّه زيادة على عشرين سنة، وأمّه أم ولد، وكان مولدُه بالبلاد الشاميَّة في أوائل القرن تخميناً، فإنه لما تسلطن والدُه كان سنُّه يوم ذاك دون البلوغ. وكان نبيلاً حاذقاً، فأنعم عليه أبوه بإمرة مائة وتقدمة ألف. وتجرَّد صُحبة والده إلى البلاد الشامية، ثم عاد معه. ثم لمَّا كبر وترعرع سفَّره أبوه إلى البلاد الشمالية مُقدّم العساكر، فسار إلى بلاد ابن قرمان وغيره، وأظهر في هذه

السَّفرة من الشجاعة والإقدام والكرم والحشمة ما أذهل الناس، هذا مع حُسن الشِّكالة، وطلاقة المُحيَّا، والإحسان الزائد لمن يقصدهُ ويتردَّدُ إليه؛ ولعمري إنه كان خليقاً للسلطنة، لائقاً للملك ــ فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قُوَّة إلا بالله العليّ العظيم.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ثلاثة أذرع سواء. مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعاً وثلاثة أصابع. انتهى.

المصـادر والمراجـع

الجزء الثالث عشر

١ ـ ابن تغري بردي: مؤرخ مصر في العصر المملوكي. تأليف محمد حسين شمس الدين. دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٢.

٢ ـ الأعلاق الخطيرة في أمراء الشام والجزيرة، لابن شداد. الجزء الثالث. دمشق ١٩٧٨.

٣ ـ الأعلام، لخير الدين الزركلي ـ دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٦.

٤ ـ إغاثة الأمة بكشف الغمة، المقريزي ـ مؤسسة ناصر الثقافية، بيروت ١٩٨٠.

٥ ـ الألقاب الإسلامية، لحسن الباشا ـ مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٧.

٦ ـ إنباء الغمر بأبناء العمر، لابن حجر العسقلاني ـ دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٦.

٧ ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور، لابن إياس ـ طبعة كتاب الشعب، القاهرة ١٩٦٠.

٨ ـ بلدان الخلافة الشرقية ـ تأليف لسترانج ـ ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، بغداد ١٩٥٤.

٩ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ دار الثقافة، بيروت.

١٠ ـ تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، لأحمد السعيد سليمان ـ دار المعارف، القاهرة ١٩٨٤.

١١ ـ التعريف بالمصطلح الشريف، لابن فضل الله العمري ـ تحقيق محمد حسين شمس الدين ـ دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٨.

١٢ ـ التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، لمحمد قنديل البقلي ـ الهيئة المصرية العامة، القاهرة ١٩٨٤.

١٣ ـ تقويم البلدان، لأبي الفداء ـ باريس ١٨٤٠.

١٤ ـ الخطط التوفيقيّة الجديدة، لعلي مبارك ـ الهيئة المصرية العامة، القاهرة ١٩٨٠ ـ ١٩٨٦.

١٥ ـ خطط الشام، لمحمد كرد علي ـ مطبعة الترقي، دمشق ١٩٢٧.

١٦ ـ الخطط المقريزية (المواعظ والاعتبار) ـ دار صادر، بيروت.

١٧ ـ الدارس في تاريخ المدارس، للنعيمي ـ دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٠.

١٨ ـ دائرة المعارف الإسلامية (النسخة العربية) ـ إصدار كتاب الشعب، القاهرة.

١٩ ــ الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، لابن الشحنة ــ دار الكتاب العربي، دمشق ١٩٨٤.
٢٠ ــ الدولة المملوكية، لأنطوان ضومط ــ دار الحداثة، بيروت ١٩٨٠.
٢١ ــ زبدة الحلب من تاريخ حلب، لابن العديم. تحقيق سامي الدهان ــ دمشق ١٩٥٤.
٢٢ ــ زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، لخليل بن شاهين الظاهري، باريس ١٨٩٤.
٢٣ ــ السلوك لمعرفة دول الملوك، للمقريزي ــ (ج ١ ـ ٢) تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٣٤ ــ ١٩٥٨ ــ (ج ٣ ـ ٤) تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ١٩٧٠ ــ ١٩٧٢.
٢٤ ــ شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي ــ دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٥ ــ صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي ــ طبعة المؤسسة العامة للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٣ ــ وطبعة دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٧.
٢٦ ــ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، للسخاوي ــ دار مكتبة الحياة، بيروت.
٢٧ ــ في التراث الغربي، لمصطفى جواد ــ بغداد ١٩٧٥.
٢٨ ــ القاموس الجغرافي للبلاد المصرية، لمحمد رمزي ــ دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٥٣ ــ ١٩٥٤.
٢٩ ــ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة ــ دار الفكر، بيروت ١٩٨٢.
٣٠ ــ لسان العرب، لابن منظور ــ دار صادر، بيروت.
٣١ ــ المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك.
٣٢ ــ محيط المحيط، لبطرس البستاني ــ مكتبة لبنان، بيروت ١٩٧٧.
٣٣ ــ مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، للبغدادي، ــ تحقيق علي محمد البجاوي ــ دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٤.
٣٤ ــ المشترك وضعاً والمفترق صقعاً، لياقوت الحموي ــ تحقيق وستنفيلد، جوتنجن ١٨٤٦.
٣٥ ــ معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، للمستشرق زامباور ــ مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة ١٩٥١.
٣٦ ــ معجم البلدان، لياقوت الحموي ــ دار صادر، بيروت ١٩٨٤.
٣٧ ــ معجم متن اللغة، للشيخ أحمد رضا ــ دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٥٨.
٣٨ ــ المعجم الوسيط ــ إعداد مجمع اللغة العربية ــ القاهرة.
٣٩ ــ المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، لابن تغري بردي ــ الهيئة المصرية العامة، القاهرة.
٤٠ ــ الموسوعة العربية الميسرة ــ إشراف محمد شفيق غربال، دار الشعب ومؤسسة فرنكلين، القاهرة ١٩٦٥.
٤١ ــ الموسوعة الفلسطينية ــ إعداد أحمد المرعشلي وعبد الهادي هاشم وأنيس صايغ ــ دمشق ١٩٨٤.
٤٢ ــ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لابن تغري بردي ــ طبعة كاليفورنيا للمستشرق وليم بوبر ــ وطبعة دار الكتب المصرية.

٤٣ ــ نزهة النفوس والأبدان، للخطيب الجوهري ــ تحقيق حسن حبشي، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٧٠.
٤٤ ــ نظم دولة سلاطين المماليك ــ للدكتور عبد المنعم ماجد.
٤٥ ــ G. Demombynes: La Syrie à L'époque des Mamlouks. P.xxx. Paris 1922.
٤٦ ــ Dozy: Supplement aux dictionnaires arabes.

فهرس المحتويات

الموضوع — الصفحة

سلطنة الملك المنصور عبد العزيز(حوادث عامة ووفيات) ٣
سلطنة الناصر فرج بن برقوق الثانية (حوادث عامة ووفيات) ١١

السنة الأولى من سلطنة الناصر فرج بن برقوق الثانية، وهي سنة ٨٠٨ .... ١١٠
السنة الثانية من سلطنة الناصر فرج بن برقوق الثانية، وهي سنة ٨٠٩ .... ١١٩
السنة الثالثة من سلطنة الناصر فرج بن برقوق الثانية، وهي سنة ٨١٠ .... ١٢١
السنة الرابعة من سلطنة الناصر فرج بن برقوق الثانية، وهي سنة ٨١١ .... ١٢٤
السنة الخامسة من سلطنة الناصر فرج بن برقوق الثانية، وهي سنة ٨١٢ .... ١٢٧
السنة السادسة من سلطنة الناصر فرج بن برقوق الثانية، وهي سنة ٨١٣ .... ١٢٩
السنة السابعة من سلطنة الناصر فرج بن برقوق الثانية، وهي سنة ٨١٤ .... ١٣٣

سلطنة الخليفة المستعين بالله (حوادث عامة ووفيات) ١٣٨
سلطنة الملك المؤيد شيخ المحمودي (حوادث عامة ووفيات) ١٥٧

السنة الأولى من سلطنة الملك المؤيد شيخ، وهي سنة ٨١٥ .... ٢٦٠
السنة الثانية من سلطنة الملك المؤيد شيخ، وهي سنة ٨١٦ .... ٢٦٦
السنة الثالثة من سلطنة الملك المؤيد شيخ، وهي سنة ٨١٧ .... ٢٧١
السنة الرابعة من سلطنة الملك المؤيد شيخ، وهي سنة ٨١٨ .... ٢٧٦
السنة الخامسة من سلطنة الملك المؤيد شيخ، وهي سنة ٨١٩ .... ٢٨١
السنة السادسة من سلطنة الملك المؤيد شيخ، وهي سنة ٨٢٠ .... ٢٨٥
السنة السابعة من سلطنة الملك المؤيد شيخ، وهي سنة ٨٢١ .... ٢٨٧
السنة الثامنة من سلطنة الملك المؤيد شيخ، وهي سنة ٨٢٢ .... ٢٩٤
السنة التاسعة من سلطنة الملك المؤيد شيخ، وهي سنة ٨٢٣ .... ٢٩٧

المصادر والمراجع ٣٠٥